مشاهد الناس عند الموت

عبد الرحمن خليف

مشاهد الناس عند الموت

تأليف

الشيخ عبد الرحمن خليف

عينت بطباعته :**مكتبة مدبولى الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد ـ العزيز
تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع ٨٩٠٨/٩٧
الترقيم الدولى 7 - 028 - 286 - 977
الطبعة الأولى : ١٩٩٧م

طبع على نفقة أحد المحسنين

تصميم الغلاف
والأشراف الفنى
عاطف منصور

السندباد للكمبيوتر

مشاهد الناس عند الموت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلوات الله المباركات على سيّدنا
محمد خاتم النبيين المرسلين ، وعلى آله وصحابته أجمعين

أمّا بعد فإنّه مـا من إنسان إلا له ميل إلى المعرفة ، والمعرفة المتاحـة فى الحياة متكاثرة الأنواع ، ولا يمكن للإنسـان أن يستوعـبها كلّهـا ، لأن قدرته المحـدودة ، لا تتّسع إلى الإحاطة بها جميعاً ، فكان لزاما عليه أن يقتصر على بعضها .

وليس من العيب ولا من ضآلة المعرفة ألا يُحيط الطبيب بعلم الفلك ، ولا المهندس بعلم الأدب ، ولا الطيّار بعلم الفـلاحة ، إلى آخر مجالات الاختـصاص فى ما لا يكاد يُحصى من أنواع المعارف المتوفّرة فى الحياة ، فكان كلّ امرئ يختار ما يرتضى من دائرة المعارف الإنسانية وإنّها لدائرة فسيحة الأبعاد ، متفتّحة الأبواب أمام كلّ راغب.

غيـر أن باباً واحداً منها لا يكتـرث به ولا بمعرفـته كثيـر من النّاس ، مع أنّه لا بدّ أن يدخله كلّ إنسان جبرا وقسرا ، سـواء أراد معرفة ما وراءه أم لم يردها، إنّه باب الرحلة إلى العالم الآخر .

لقد أسـدل كثير من النّاس عـلى هذا الباب ستاراً سـميكاً يُعلن عن عدم اكـترائهم بمعرفـة ما وراءه ، فكان الواحـد منهم لا يلحظه بأدنى التـفاتة إلى أن يدخله علـى حين غفلة منه .

وإذ كانت الرحلة إلى العالم الآخر قضاء لازماً وقـدراً محتوماً ، فإنّ الحكمة تدعو إلى معرفة ما يتّـصل بهذه الحقيقة الأزلية الأبدية، حتى لا يكون الإنسان مـخادعاً لنفسه إذا كان يعلم - علم اليقـين - أنّه سيفاجأ حتمـا بإدْرَاجِهِ فى رحلة لا علم له بما سيلقى فى بدايتها ولا فى أثنائها .

إنّها رحلة مليئة بالمفـاجآت ، وليست كأىِّ رحلة عرفها الإنسان ولا تشـبهها من أىّ وجه، وحسـب المرء أن يستحضـر فى ذهنه ما تمتاز به عن رحلات الدنيـا من فوارق لا يجهلها أحد من النّاس.

أفلا يعرف النّاس :

- أنّ رحلات الدنيا يتحدّد العلم بوقتها، أما هى فلا أعظم مباغتة للمرء منها.
- أنّ رحلات الدنيا يمكن للإنسان أن يُلغيـها متى أراد ، أمّا هى فلا تلغى بحال من الأحوال .

- أنّ كلّ رحلة لا يرى الإنسان فيها إلا وجوها آدميّة أينما توجّه ، أمّا هى فسيرى فيها من لم يشهد لهم مثيلاً طيلة ما عاش فى الدنيا .

- أنّ كلّ رحلة يمكن للإنسان أن يرجع منها إلى موطنه ، أمّا هى فلا عودة منها ، ولا رجوع .

- أنّ كلّ رحلة يستطيع المرء فيها أن يخاطب من فارقهم بأىّ وسيلة ممكنة ، أمّا هى فلا تتوفر فيها وسائل الاتّصال بمن يريد .

- أنّ كلّ رحلة تحتاج إلى زاد يناسبها ، أمّا هى فتقتضى زاداً أعظم من كلّ زاد.

- أنّ كلّ رحلة تكون فيها مغانم الإنسان وخسائره محدودتين ، أمّا هى فمغانمها وخسائرها لا حدود لهما ، ولا يُحيط بهما الوصف والبيان.

- أنّ رحلات الحياة قد تقصر وقد تطول ، ولا بدّ لطول كلّ رحلة من نهاية ، أمّا هى فطولها لا نهاية له أبدا.

وليست الفوارق منحصرة فى تلك الثمانية ، ولكن التقصى يكشف عن فوارق أخرى أعجب وأكثر .

أفلا تكون تلك الرحلة الحتميّة العجيبة جديرة بأن يعرف المرء ما يتعلّق بها ، ولو بقدر محدود من المعرفة المتاحة للإنسان ؟

إنّ اكتساب الإنسان للمعرفة قد يكون نظريًا ، وقد يكون عمليًا ، وأوفى المعرفة بالاطمئنان والارتياح ما كان منها عمليًا ، ولمّا كان مآل جميع النفوس إلى الموت لقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (١)

فإنّ المعرفة الحاصلَة بالموت بعدَ مذاقه لا يتمكن صاحبها من تدارك ما فاته بما استفاد من الموت كمدخل لبداية الرحلة إلى العالم الآخر.

أمّا نحن معاشر الأحياء فلا أقلّ من أن نطّلع على أحوال من سبقونا إلى مصارعة الموت لهم .

وما أعظم ما نستفيد من معرفة (مشاهد النّاس عند الموت) ما دام كلّ حىّ منّا مستهدفا للممات .

إنّ (مشاهد النّاس عند الموت) لمن أعجب العبر ، وما أنفعها من عبر يشاهدها المرء فى اللحظات التى يطوى فيها الموت حياة النّاس ، وفى صُوَرٍ لا تكاد تُحدّ أشكالها وألوانها ، ولعمر الله إنّ السعيد لمن اتّعظ بغيره .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

إنّ مئات المشـاهد المجموعة فى هذا الكتاب قد انتـقيتها من أجزاء عـديدة لعشرات الكتب ممّا كان قد أُلِّفَ فى مختلف الأعصار والأمصار .

وسأمهد لتلك الشاهد بشيء من البيان المناسب ، وكثيرا ما أعرض - فى هذا البيان - طائفة من النصوص الواردة عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وسأُتبِعُ المشـاهد بما يتيسر لى من (أضواء) البـيان محـاولا - بتلك الأضواء - أن أكشف الصلة بين المشاهد وبين تعاليم الإسلام ، إلا فيما يكون غنيا عن ذلك البيان .

وسأضمّ - إلى كلّ ذلـك - ما ينبغى أن يقـوم به الأحيـاء من شئون إخـوانهم عند الاحتضار وبعده .

ويتضّح من كلّ ما تقدّم أنّ ما جمعه هذا الكتاب يمكن أن يساعد الناشئ فى مجال الدعوة ، وأن يستمـدّ منه الواعظ ما يشاء ،وقد لا يستغنى عنه أحـد ممّن سيدركه الموت لا محالة .

والله أسأل أن يجعل هـذا العمل خالصاً لوجهـه الكريم وأن ينفع به من يقرؤه وأن يُثيب من يُنبّـه إلى قراءته إخوانه ، إنّه سـبحانه سمـيع قريب مجيب ، والحـمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القيروان فى : ٢٤ جمادى الأولى ١٤١٥ هـ

٢٨ أكتوبر ١٩٩٤م

الموت نهاية حياتنا الأولى

الحياةُ هبةٌ من صنع الله ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ منْ طِين. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ منْ سُلالَة مِّن مَّاء مَّهِين . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيه مِن رُّوحِه وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ - السجدة - ٧ - ٨ - ٩ .

وانقضاء الحياة الأولى بالموت لا يكون إلا بإذنه سبحانه ، ﴿ ومَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ - آل عمران - ١٤٥ .

فإذا تعطَّلت - بإرادة الله - بنية الحياة الجسدية وانقطع ما كان بين الروح والجسد من صلات ، فإنّ الوفاة تحدُث وتُنقل الروح بالموت إلى مقرّ الأرواح ، ثمّ تتلاشى أجزاء الجسد فى الأرض إلى أن ينشئها الله النشأة الأخرى، فيخرجها من الأرض بالبعث للحساب ، تبعا للمراحل المقرّرة فى سابق علمه ، والمحدّدة فى قوله: ﴿ منْها خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ طه- ٥٥ .

ولما كان الموت قضاء حتميا ، ومرحلة من مراحل الوجود الإنسانى، حَسُن أن يهتم المرء بمعرفة هذه السبيل التى لا بد أن يعبرها، وحَسُن أن يطلع على ما لاقى بعض الناس من الموت ، ليعتبر بأحوالهم ويستعد لملاقاة ما لاقى كل البشر من قبله ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الذى تَفِرُّونَ منه فَإِنَّه مُلاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ - الجمعة ٨ .

ولقيمة الموت عند الله ذكرت فى القرآن العظيم كلمة الموت وما اشتق منها أكثر من مائة وسبعين مرة .

أما الأحاديث النبوية فقد استوعبت بالبيان كل ما ينبغى أن يعلمه الإنسان عن الموت وعما بعد الموت ، وسترى الكثير مفصلا أثناء فصول الكتاب إن شاء الله .

الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالإكثار من ذكر الموت

روى ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
« أَكثِروا ذِكْر هَاذِمِ اللَّذات الـمَوْتَ»

وروى ابن ماجه وابن أبى الدنيا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: أتيت رسول

الله صلى الله عليه وسلم عَاشرَ عَشْرَة، فقال رَجُل منَ الأنصَار: مَنْ أكْيَسُ النَّاس وأكْرَمُ النَّاس يا رسولَ الله؟ فقَال صلىَ الله عليه وسلم:

«أكْثَرهُمْ للمَوت ذكْراً، وَأشَدُّهُمْ استعْدَاداً لَهُ »

وروى الإمام أحمَد فى الزهد، وابنَ أبى شَيْبَة في المُصَنَّف عن ابن سابط أنه قال: ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل، فأثنى عليه، فقال صلى الله عليه وسلم: « كيف ذكْرُهُ للْمَوْتِ؟ » فلم يُذكر ذلك منه، فقال صلى الله عليه وسلم: «مَا هُوَ كَمَا تَذْكرُونَ».

وكان ثابت البنانى يقول: ما أكثر أحد ذكر الموت إلا رؤى ذلك فى عمله.

من (الحلية ج٢ ص٣٢٥)

الاستعداد للموت

روى الطبرانى عن طارق المحاربى رضى الله عنه أنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إسْتَعدَّ للمَوْتِ قَبْلَ نزُوُل المْوَتْ».

قال عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: ما أحد يُنزل الموتَ حق منزلته إلا عدّ غداً ليس من أجله، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم راج غدا لا يبلغه، لو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره، وقال إن من كانوا قبلنا كانوا يجعلون للدنيا ما فضل عن آخرتهم، وإنكم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم.

وقيل لأبى الفضل يوسف بن مسرور: فلان يتكلم فيك.

فقال: إنما مَثلى ومَثلُه كمَثَل رجلٍ حُمل لضرب عُنقه، فقذفه رجل فى الطريق، فقال لنفسه: أنت تحُمل للقتل، تسألُ عمنَ يقذفك؟

وأنا سائر إلى الموت لا أدرى متى يأتينى، أسأل عمن يتكلم فىّ؟ فى الموت ما يشغلنى عن ذلك.

من(ترتيب المدارك ج٥ص١٤٥)

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته: أما بعد فإنك إن استشعرت ذكر الموت بغَّض إليك كل فان، و حبّبَ إليك كل باق.

لما توفى أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الجبنيانى وجدت رقعة - بعد موته - تحت حصير مكتوبة بخطه: (رجل وقف به هاتف، فقال له: حَسِّن عملك فقد دنا أجلُك).

قال ولده عبدالرحمن: أنه كان إذا قصر فى العمل أخرج الرقعة فنظر فيها ورجع إلى جده.

توفى - رحمه الله - يوم الأحد السابع من محرم سنة تسع وستين وثلاثمائة.

من (ترتيب المدارك ج ٦ ص ٢٤٦)

ودخل بهاء الدين السبكى على الشيخ برهان الدين الإبناسى يعوده، وكان تجاهههما نعش، فنظر السبكى إلى النعش ثم قال للإبناسى: يا شيخ برهان الدين، أتدرى ما يقول هذا النعش؟

فقال إنه يقول:

أُنْظُرْ إِلَيَّ بِعَقْلِكْ ... أَنَا المُعَــدُّ لِحَمْلِكْ
أَنَا سَـرِيرُ المَنَايَا ... كَمْ سَارَ مِثْلِي بِمِثْلِكْ

من (كتاب المَنهل الصَافى ج١ ص ٤١٣)

وكان من دعاء يزيد بن ميسرة قوله: اللهم اجعل مخافتك فى قلوبنا، وأدم على قلوبنا ذكر الموت.

ما يعين على ذكر الموت

لما كان ذكر الموت مأموراً به شرعاً، فإن مما يساعد على ذلك هو الاطلاع على أخبار الموتى وأحوالهم بعد الموت، والتدبر فيما آل إليه أمرهم، وفيما يتوقع لهم بعد الموت.

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «زوروا القبور، فإنها تذكر الموت».

وروى أبو عبدالله الحاكم عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «زر القبور تَذْكُرْ بها الآخرة، واغسل الموتى، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك، فإن الحزين فى ظل الله يتعرضَ لكل خير» .

من مشاهد الذاكرين لحتمية الموت

الإمام البخارى:

كان رحمه الله ينشد:

اغْتَنِمْ فى الفَرَاغِ فَضْلَ رُكُــوعٍ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَهْ
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهْ

محمد بن دمام :

قال السيوطى: محمد بن عبدالله بن دمام المالقى الأندلسى كان شيخاً جليلاً شاعراً أديباً من أهل الفضل والدين، ومن شعره:

كَيْفَ أَرْجُو مِنَ المَنَايَا خَلَاصاً ... وَأَرَى كُلَّ مَنْ صَحِبْتُ دَفِينَا

فَأَرَى النَّـــاس يُنْقَلُون سِرَاعاً كُلَّ يَـــوْمٍ إِلَيْهِـــمُو مُرْدَفِينَا
قَدْ أَصَـــابَتْهمو سِهَامُ الْمَنَـــايَا وَسَتُـــرْمَى السِّهَامُ لَا بُدَّ فِينَا

من(بغية الوعاة فى طبقات النحاة ص ٥٢)

أبو الوليد الباجى:

كان رحمه الله ينشد:

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ علماً يقيناً بِأَنَّ جَـــمِيعَ حَيَاتِى كَسَـاعَةْ
فَلِمَ لا أَكُـــونُ ضَنِيناً بِهَا وأَجْعَلُهَا فِى صَلَاحٍ وطَاعَةْ؟

الموت مخوف ومكروه

أكثـر الناس يكرهون الموت ويخافـونه، وما كـرهه الناس إلا لعدّة أسـباب، و تلك الأسباب تختلف من شخص إلى آخر، ومن بينها الثمانية التالية:

السبب الأول: الحياء من الله حياءً كحياء أم هارون.

قال أحمد أبى الحوارى: قلت لأم هارون العابدة الدمشقية:

أتحبين الموت؟

قالت: لا.

قلت: ولـم؟

قالت: لو عصيت آدمياً ما أحببت لقاءه فكيف أحب لقاء الله وقد عصيته؟

من (صفة الصفوة ج٤ ص ٣٠٤)

السبب الثانى: الخشية الحادة من أن ينزل المرء منزلة تضره ولا تسره.

قال بعض أصحاب هذه الخشية:

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تدرِ فى أى المحلين تنزل؟

قال سعيد بن أبى عطية:

لما حضر أبا عطية الموت جزع منه، فقالوا له:

أتجزع من الموت؟

فقال: مالى لا أجزع، وإنما هى ساعة، ثم لا أدرى أين يسلك بى؟

من (الحلية ج٥ ص ١٥٤)

لما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة، سئل عن مسألة فدمعت عيناه ، وقال:

يا بنى باب كنت أدقه خمسا وتسعـين سنة ، هو ذا يفتح الساعة لى، لا أدرى أيفتح بالسعادة، أو الشقاوة ، فأنى لى أوان الجواب؟

من (رسالة الثبات عند الممات ص٦٢)

السبب الثالث: ضعف التزود من العمل الصالح، حتى فات زمن التدارك، وقامت العوائق، والله سبحانه قد قال فيمن هذا شأنهم: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾- المنافقون - ١٠ -١١ .

وتحسر بعض الناس عند الموت، فقيل له: ما بك؟

فقال: ما ظنكم بمن يقطع سفراً طويلاً بلا زاد، ويسكن قبرا موحشاً بلا مؤنس، ويقدم على حكم عدل بلا حجة.

من (الكشكول للعاملى ج١ ص٢٩٠)

السبب الرابع: الإسراف على النفس والغفلة عن محاسبتها، لأن الغفلة عن المحاسبة، والتسويف بالمتاب يفضيان إلى تراكم السيئات، حتى يذهل من تراكمها من ينتبه إليها.

كان الشيخ توبة بن الصِّمَّة من الطيبين، وكان محاسبا لنفسه فى أكثر أوقات ليله ونهاره، فحسب يوما ما مضى من عمره، فإذا هو ستون سنة، فحسب أيامها، فكانت إحدى وعشرين ألف يوم، وخمسمائة يوم فقال:

يا ويلتا، ألقى مالكى بإحدى وعشرين ألف ذنب ثم صعق صعقة كانت فيها وفاته. (وهذا بحساب ذنب واحد فقط فى اليوم الواحد) .

من (الكشكول للعاملى ج٢ ص ٣٣٧)

السبب الخامس: تعلق المرء بالدنيا أو بشىء معين منها تعلقاً شديداً مع تيقنه أن الموت سيحول - حتماً - بينه وبين التمتع بما تعلق به شديد التعلق.

روى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء القارئ النحوى أنه قال:

بينما أنا ذات يوم - أحسبه قال فى ضيعتى - سمعت قائلاً يقول:

وَإِنَّ امْرَءاً دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ   لَمُسْتَمسك مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورِ

فكتبت هذا البيت على فص خاتمى فكان نقشه هذا.

من (كتاب طبقات النحويين واللغويين)

السبب السادس: الشك فى إحياء الموتى وبعث الخلق للحساب والجزاء.

فمن الناس من يكون أحدهم شاكاً فى البعث، فيرى أن الموت ربما يكون عدما محضاً، وربما يكون البعث بعد الموت حقيقة، ومن هنا يكون كارهاً للموت على كل حال.

إن هذا المتردد فى الإيمان باليـوم الآخر لا يكون من المؤمنين، إذ أنه ليس على يقين من لقاء ربه، وفى هذا الصنف من الناس يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ - الجاثية - ٣٢ - ٣٣ .

ومن الناس من يكون ضعيف الإيمان جداً، فيتصرف تصرف الشاك المستبعد للقاء ربه، فإذا قام بعمل صالح يقوم به على ما تقـتضيه العادة، أو على وجه المفاخرة أو حب الثناء عليه مـن الناس، أو نحو هذه المقاصـد ولا يريد وجه الله بما يصـدر عنه من عمل صالح، فإذا حل به الموت واجه الحقيقة وأغتمّ لتفريطه.

السبب السابع:

يقين بعض الناس يقيناً جازمـاً بأن الموت عدم تام، فلا بعث للخلق بعد الموت، وأن كل المتع ستـفوته بالموت، فيحـرم منها نهائياً، فـهذا لا يحيا إلا على كـره دائم للموت، ويعيش مذعـوراً من كل سبب يفضى إلى الموت، خـصوصاً إذا كانْ من المنغـمسين فى إحدى ملذات الحياة،أو فى العديد منها.

السـبب الثـامن: رؤية بعض الناس لمن حـضرهم الموت وهم فى حـال نزع شديد، فـيشـاهدونهم يعـالجون سكـرات الموت معـالجـة أعظم من أن توصف، فيـشـتد فـزع المشاهدين للمحتضرين، ويتمكن منهم الخوف والكره لمصير محتوم، ويا ليتهم يأخذون منه العبرة، فيستعدون له بالعمل الصالح أحسن استعداد.

تلك هى أكـثر الأسـباب التى من أجلهـا يكره الناس الموت، غيـر أن من الناس من ينظرون إلى الموت نظرة لا تتسم بالكره، فقد قال بعض السلف:

ما من مؤمن إلا والموت خـير له من الحياة، لأنه إن كان محـسناً فالله يقول: ﴿ وَمَـا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْـقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ - الشـورى - ٣٦ . وان كان مسيئا فالموت يحجزه عن الاسـترسال فى المعاصى، والله سبحانه يقول : ﴿ هَذَا كِتَـابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الجاثية - ٢٩ .

روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« اثْنَان يَكْرَهُهُـمَا ابْن آدَمَ : يَكْرَه الْمَـوْت ، والموت خَـيْـر له مِنَ الْفِتْـنَة، وَيَكْرَه قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّة الْمَالِ أَقَلّ لِلْحِسَاب » .

وقال بعض الشعراء :

جَزَى اللـه عنَّا المَوْتَ خَيْرَ جزَائه أَبـــرَّ بنَا مـــنْ كل بَرٍّ وَأَرأف

يعَجّـل تَخْليصَ النّفوسِ منَ الأذَى ويُدْنِى مِنَ الدَّار التى هِيَ أَشْرَف

وقيل لبعضهم :

أطال الله بقاءك . فقال :

بل عَجّل الله بى إلى رحمته .

ولعل من الناس من يظن أن كـره الموت هو كره للقـاء الله، فرفع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ذلك الظّن من أذهان أمـته حـين قال : (مَنْ أَحَبَّ لِقَـاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لقَاءَه، ومَنْ كَرِهَ لقَاءَ اللَّه كره الله لقَاءه - قالت عائشة أو بعض أزواجه :

إنا نَكْرَهُ المَـوْتَ يا رسـولَ الـله - قـال صلّى الله عليـه وسلم : لَـيْسَ ذَلك، ولَكنَّ المؤْمنَ إذَا حَـضرَه المَـوْت بُشّـرَ برضْوَان اللّه وكَـرامَتـه، فَلَيْسَ شَـىء أَحَبَّ إلَيْه مـمَّا أمَـامَه، فَـأَحَبَّ لقَـاءَ اللّه، وأَحَبَّ اللّه لقَـاءَه، وإنَّ الكَافـرَ إذَا حُـضر بُشّـرَ بعَـذَاب اللَّهِ وَعقوبَته، فَلَيْسَ شَـىء أَكْرَهَ إلَيْه ممَّا أمَامَه، فكَرِهَ لقَاءَ اللَّه وكَرِهَ اللَّهُ لقَاءَه).

رواه البخارى عن عبادة بن الصامت وغيره

ما أعجب عشق الروح للجسد

صفات التنافر بين الروح والجسد أكثر من صفات التوافق بينهما، ولذلك لا تدخل الروح فى الجسد إلا بعسر وضغط عليها، ولكن استقرارها فى الجسد مدة العمر جعلها تأنس به، وتود ألا تفارقه، ولقد قيل : لولا الألفة العارضة بين الروح والجسد لم تستقر فيه طرفة عين لأن بينهما بونا بعيدا .

قال أحمد بن محمد الطوسى أخو الإمام أبى حامد الغزالى :

(ذكـرت - فى يوم من الأيام - آدم عليـه السـلام وأنه وهب لابنه داود عـمـرا ثمّ جحده حين جاء ملَك الموت آدم فتَـمنّع، وكأنَّ لسان الحال خاطب الروح قائلاً :

أنت نُحْت على نفسك لما أمـرت بالدخـول فى هذا السجد وقـلـت : بيت مظلِم، مسْتَقْذَر، فما الذى يَصْعب عليكَ من الخروج منه. فكأنها أجابت بلسان الحال :

نَزَلْنَا كَارهينَ لَهَا فَلَــمَّا أَلفْـنَاهَا خَرَجنَا مُكْرَهينَا

وَمَا حبَّ الديَارِ بِنَا ولَكنْ أَمَرّ العَيْشِ فُرْقَةُ مَنْ هَوِينَا

من (الوافى بالوفيات ج ٨ ص ١١٥)

إن هبة آدم لابنه داود سنين من عمره، وجحـوده لتلك الهبة وردت فى مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما، أنه قال :

لَمَّا نزلتْ آية الدَّيْنِ قال رسول الله صـلّى الله عليه وسلم : (إنَّ أوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ عَلَيْه السلام، قالها ثلاثَ مرّات، ثمّ قال إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عليه الصلاة والسلام مَسَحَ ظَهْرَهُ فَأخْرَجَ منه مَا هوَ ذَارِئٌ إلى يومِ القيامة، فَـجعَل يَعْرضهمْ عليه، فرأى فيهِمْ رَجلا يزْهر، فقال أىْ رَب أىُّ بَنِىَّ هَذَا ؟ قال : هذا ابنكَ دَاود، قال أى رَبٍّ كَمْ عُمره ؟ قال : ستـونَ سَنَةً قال : أىْ رَبٍّ زدْ فى عمـره، قال : لاَ، إلا أنْ تَزيدَه أنتَ منْ عـمركَ، فَكَانَ عمـر آدَمَ ألفَ عَام، فوَهَبَ لَه منْ عمـره أربْعينَ عَامًـا، فكَتَبَ اللَّه عزَّ وَجلَ عَلَيْه كـتابًا وَأشْهَدَ عَلَيْه الملائكَةَ، فَلَمَّا حُضرَ آدَم عليـه السلام أتَتْه المَلائكَة لتَقْبضَ روحَه، فقَالَ : إنَّه لَمْ يَحْضرْ أجَـلى، قَدْ بَقِىَ مِنْ عمرى أربَعـونَ سَنَةً، فقالوا إنَّكَ وَهَبْتَها لابنكَ دَاودَ، قال مَا فَعلْت، ولا وهبت لَه شيْئًا . و أبْرزَ اللَّه عزَّ وَجلَّ عليه الكتَابَ، فأقام عليه المَلائكَةَ)

زاد فى رواية أخرى عن ابن عباس أيضا :

(فأتَمَّهَا لدَاودَ مائَةَ سَنَة، وأتَمَّ لآدمَ عمرَه ألفَ سَنَةً)

وكلّ ذلكَ من فضل اللَّه وكَرَمه .

مشهد عنف النزع للأرواح

روى البخارى فى باب سكرات الموت من كتاب الـرقاق عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول :

إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان بين يديه (أى فى مرض مـوته) رَكْوَة أوْ علْبَة فيها مَاء (الشك من ذَكـوَانَ الذى روى عن عائشة) فَجعَلَ صلى الله عليه وسلم يدْخِل يَدَيْه فى المَاء، فَيَمْسَح بهمَا وَجْـهَه ويَقول لاَ إلَهَ إلا اللَّه،إنَّ للموْت سكَرَات).

وفى روايَة للبـخـارى عن عـائشـة رضى الله عنهـا أنه صلى الله عليـه وسلم كَـان يمسح وجهه بالماء ويقول : اللَّهمَّ هوِّنْ عَلَىَّ سكرات المَوْت .

ثم نصب يده فجـعل يقول : فِى الرَّفِيقِ الأعلى حَتَّى قُـبضَ، وَمَالَتْ يَده صلى الله عليه وسلم .

وقوله فى الرفـيق الأعلى سأل أن يدخله الله فـى المَلأ الأعلى من الملائكة والنبـيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وروى البخارى أن فاطمة رضى الله عنها كانت تقول :

وَاكَرْبَاه لكَرْبِكَ يَا أَبَتَاه، فقال صلى الله عليه وسلم :

(لاَ كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ) .

قال الإمام القسطلاني :

الموت هو الخَطْب الأَفْظَع، والأمر الأَشْنَع، والكَأْس التي طعمها أَكْرَه وَأَشْنَع.

من (إرشاد الساري ج ٩ ص ٢٩٧)

وقال القرطبي :

في تشديد الموت على الأنبياء فائدتان :

إحداهما : تكميل فضائلهم، ورفع درجاتهم، وليس ذلك نقصا ولا عذابا بل هو كما جاء في الحديث (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلاء الأَنْبِيَاء ثمَّ الأَمْثَل فَالأَمْثَل ....) .

والثانية : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت، وأنه باطن وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركةً ولا قلقا ويرى سهولة خروج روحه، فيظن سهولة أمر الموت، ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذكر الأنبياء الصادقون شدة ألمه مع كرامتهم على الله قطع الخلق بشدة الموت الذي يقاسيه الميت مطلقا، لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما ثبت في الحديث .

وروى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(إِنَّ الْمؤْمِنَ لَيؤْجَر فِي كلِّ شَيْء، حَتَّى فِي الكَظِّ[1] عِنْدَ الْمَوْتِ)

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول :

(لا أَكْرَه شِدَّةَ الْمَوْتِ لأَحَد أَبَداً بَعْدَ النَّبِي صلى الله عليه وسلم)

تعني بعد الذي رأت من موت الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الله قد خص رسوله بأكمل الحالات، وأكرمها عنده، مع أنها روت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في موت الفجاءة : (هوَ رَاحَةٌ لِلْمؤْمِنِ، وَأَسَفٌ عَلَى الْفَاجِرِ) .

رواه الإمام أحمد عنها

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَتَعَوَّذ مِنْ مَوتِ الْفجَاءَة، وكان يعجبه أَنْ يَمْرَضَ قَبْلَ أَنْ يموتَ.

وروى ابن سعد عن عوانة بن الحكم أنه قال :

---

(١) الكظّ : الغمّ الشديد .

كان عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول :

عَجبًا لِمَنْ نزل به الموت وعقله معه كيف لا يَصفه، فلمّا نزل به قال له ابنه عبد الله :

يا أَبَتِ إنّك كنت تقول : عجبا لمن نزل به الموت وعقله معه كيف لا يصفه؟ فصف لنا الموت، فقال :

يا بُنَىَّ، إنّ الموتَ أَجَلُّ مِنْ أن يوصَفَ، ولكنْ سأصف لك منه شيئا، أَجدنى كأنَّ على عنقى جبالَ رَضْوَى، وأجدنى كأنَّ فى جوفى شَوْكَ السّلا، وأجدنى كأنَّ نَفَسِى يخرج من ثَقْبِ إبْرَة.

قال أبو حامد الغزالى :

إنّما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوَّته فى قَلْبه وفى لِسَانه، وإنّمَا انقطع صَوت الميتِ وصياحه مع شدّة أَلَمه، لأن الكَرْبَ قد بالغ فيه، وتصاعدَ على قلبه، وبلغ كلّ موضع منه، فَهَدَّ كلّ قوَّة، وضَعَّفَ كلَّ جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة .

أما العقل فقد غَشيَهُ وَشَوَّشَه، وأما اللسان فقد أبْكمه، وأما الأطراف فقد ضَعَّفَهَا، وَيَودّ لو قَدَرَ على الاستراحة بالأنينِ والصيَاحِ والاستغاثة، ولكنّه لا يقدر على ذلك، فإن بقيتْ فيه قوَّةَ سُمِعتْ له عند نزع الروح وَجَذبِهَا خوارا، وَغَرْغَرَةٌ مِن حَلْقِه وصدره.

من (الإحياء ج ٤ ص ٣٩٢)

روى أبو نعيم فى الحلية أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال :

مَا أحبّ أَنْ يُهَوَّن عَلَىَّ سَكَرَات المَوْت، لأنَّه آخر ما يؤْجَر به المسلم .

كما روى عن واثلة بن الأسقع أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كلّ عرق منه على حياله) .

قال الحسن البصرى :

لو علم ابن آدَمَ أن له فى الموت راحةً وَفَرَجًا لَشَقَّ عليه أن يأتيه الموت لِمَا يعلم من فظاعته وشدّته وَهَوْله .

وقال ابراهيم النخعى :

كانوا يَسْتَحِبّوَن شِدَّةَ النَّزْعِ .

مشهد من شدة نزع الروح

قال أبو داود الطيالـسى شهدت جنازة داود الطائى، وحضرته عـند الموت فما رأيت أشد نزعا منه .

أتيناه من العـشى ونحن نسمع نزعه قـبل أن ندخل، ثم غدونا عليـه وهو فى النزع، فلم نبرح حتى مات .

وفى رواية أخرى عن الطيالسى أنه قال :

حَضَـرْت بالكوفة مـوت داودَ الطَّائىِّ فمـا رأيت أحداً أشـدَّ موتا منه، كنـت أسمع خُوَارَهُ كأنه خُوَارُ ثَوْر، توفى رحمه الله سنة خمس وستين ومائة .

من (الحلية ج ٧ ص ٣٤١ وصفة الصفوة ج٣ ص ١٤٣)

إن داود هذا الذى اشـتد نزع روحه كـان رحمـه الله من الأخيـار، قال إسـحاق بن منصور:

لَمَّا مات داود الطَّائىّ شَيَّع الناس جَنازته، فلمّا دُفِنَ قام ابن السَّمَّاك على قبره فقال: يا داود، كنتَ تَسْهَـر لَيْلَكَ إذ النَّاس نَائمون، فـقال القوم جـميعـا: صَدَقْتَ، وكنت تَسْلَم إذ الناس يَـخوضـون، فـقـال الناس جـمـيعـا: صدقت، وكـنتَ تَرْبَح إذ النَّاس يَخْسرون، فقال الناس جميعا: صدقت، حتى عدّد فضائلَه كلّها .

فلمّا فرغ قام أبو بكر النهشلى فحمد الله، ثم قال :

يَا رَبِّ إنَّ النَّاس قد قالوا ما عندهم، وَمَبْلَغَ مَا عَلِموا، اللهم اغْفرْ له، برحمتك، ولا تَكِلْه إلَى عَمَلِه.

من (صفة الصفوة ج٣ ص ١٤٦)

مَنْ الذى يتوفى الأنفسَ؟

لما ذكر الله وفاة الأنفس فى القرآن الكريم قال : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ - الزمر ٤٢ . كما بين أن ملك الموت يتوفاها فقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ السجدة ١١ . وبين أيضاً أن الملائكة يَتَوَفَّوْنَ الانسانَ فقال : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ الأنعام ٦١ .

أما الآية التى تضمنت أن الله يتوفى الأنفس، فلأنه تعالى هو الذى يأذن بذلك، فقد قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾ آل عمران ١٤٥ . فكانت

نسبة الوفاة إليه سبحانه بهذا الاعتبار، وأما نسبتها إلى ملك الموت، فلأنه هو الذى يتولى قبض الروح من الجسد، وأما نسبتها إلى الملائكة فلأنهم أعوان ملك الموت يأخذونها من يده عندما يقبضها، ثم يصعدون بها، على ما ورد فى الحديث التالى :

روى أبو داود، وأحمد، وابن أبى شيبة، والحاكم، وابن جرير، وغيرهم من طرق صحيحة عن البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال :

(اسْتَعيذوا باللَّه منْ عَذَابِ القَبْر) مرتين أو ثلاثا ثم قال :

(إنّ العَبد المؤْمنَ إذَا كَانَ فى انقطَاعٍ منَ الدنيَا وَإقْبَال منَ الآخرَة، نَزَلَ إلَيْه مَلائكة منَ السَّمَاء بيض الوجوه، كَأَنَّ وجوهَهم الشَّمْس، مَعَهمْ أَكْفَان منَ الْجَنَّة، وَحَنوط[1] من حَنوط الْجَنَّة، حَتَّى يَجْلسوا منه مَدَّ الْبَصَر ثمَّ يَجيء مَلَك المَوْت، حَتَّى يَجْلسَ عنْدَ رَأْسه، فيقول : أَيَّتهَا النَّفْس المطْمَئنَّة اخْرجى إلَى مَغْفرَة منَ اللَّه ورَضوان.

قال فَتَخْرج تَسيل كَمَا تَسيل القَطْرَة منَ فى السِّقَاء، وإنْ كنْتمْ تروْنَ غَيْرَ ذَلكَ، فَيَأخذهَا، فَإذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعوهَا فى يَدَه طَرْفَةَ عَيْن حَتَّى يَأخذوهَا فَيَجْعَلوهَا فى ذَلك الكَفَنِ، وَفى ذَلك الحَنوط، فَيَخْرجَ منْهَا كَأَطيَبِ نَفْحَة مسْك وجدَتْ عَلَى وَجْه الأرضِ فَيَصْعَدونَ بهَا، فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلاَّ قَالوا مَا هذا الروح الطيب؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله تعالى : (اكتبوا كتَابَ عَبْدى فى عليينَ، أعيدوه إلَى الأرضِ، فَإنّى منْهَا خَلَقْتهمْ، وَفيهَا أعيدهمْ، وَمنْهَا أخْرجهمْ تَارَةً أخْرَى، قال : فَتعَاد روحه فى جَسَده، فَيَأْتيه مَلَكَان ... وذكر كيفية سؤال الملكين له، وجوابه لهما ثم قال :

وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت حتى

---

(١) الحنوط : هو ما يخلط من الطيب لأجسام الموتى وأكفانهم خاصة .

يجلس عند رأسه، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له ، ثم قرأ رسل الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا تُفَتَّح لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء﴾ فيقول الله عز وجل:(اكْتبوا كتَابَه فِى سجِّين السّفْلَى﴾ فتطرَح روحه طَرْحًا ثمّ قَرَأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّه فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أَوْ تَهْوِى به الرِّيحُ فِى مكَان سَحِيق﴾.- الحج ٣١ .

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان .. الى آخر الحديث [١]

مشاهد الناس قبل نزول الموت

أكثر الناس لا يعز عليهم شيء مثل ما تعز عليهم حياتهم ولا يجزعون أشد الجزع مثل ما يجزعون من شعورهم بدنو آجالهم واقتراب خروجهم من الدنيا.

ومع إدراك الناس لعزة الحياة فإن منهم من يعمر حياته بالعمل الصالح، ومنهم من تستحوذ عليه الغفلات، فيطوى عمره على فراغ، أو يعمره بالموبقات حتى إذا فاجأه الموت ذعر من المفاجأة، وغمرته حسرة يتضاءل دونها الوصف والبيان. وبقدر ما امتدت به أيام العمر بقدر ما يتعاظم به ألم الحسرة والندامة .

روى أحمد والترمذى وأبو عبد الله الحاكم عن أبى بكرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(خَيْرِ النَّاسِ مَنْ طَالَ عمره، وَحَسُنَ عَمَله، وشَرّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عمره وَسَاءَ عَمَله).

قال ابن خلكان :

ذكر أبو البركات ابن المستن فى تاريخ (إربل) أنه وجد فى كتاب ذكره الإمام أبو حامد الغزالى فى مخاطبة السلطان محمد بن ملكشاه ما نصه :

(اعلم يا سلطان العالم أن بنى آدم طائفتان : - طائفة غفلاء، نظروا إلى مشاهد

---

(١) انظر سؤال الملكين للميت وجوابه لهما بصفحة ٣١٩

حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل، ولم يتفكروا فى النفس الأخير .

- وطائفة عقلاء، جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم، لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم ، وما الذى ينزل من الدنيا فى قبورهم، وما الذى يتركون لأعاديهم من بعدهم، ويبقى عليهم وباله ونكاله[1] .

والناس يتفاوتون فى تقديرهم لقيمة العمر تفاوتا عجيبا، فمنهم من ينظر إلى عمره ببصيرة، فيستثمره بحكمة، ومنهم من يبعثره بين استفاقة وغفلة، ومنهم من يبدده كله بدون اكتراث، وباستهانة مذهلة .

وبين كل أولئك عرفتنا الحياة أن من الناس من يدأب على أداء كل واجباته حتى إذا بلغ من العمر سنا معينة تخلى عن أكثر مشاغل الحياة، فاعتزل الخلق، وتفرغ فيما بقى من أيام عمره إلى سرد أنواع خاصة من الطاعات كالصلاة والصيام، والتلاوة للقرآن، والذكر بأنواعه، حتى يأتيه أجله، وهو على صلة دائمة بربه.

لقد كان المغتنمون لأواخر أعمارهم على هذا النحو رجالاً كثيرين، من بينهم إياس بن قتادة المجاشعى التميمى.

رأى - رحمه الله شيبة - فى لحيته فقال : أرى الموت يطلبنى وأرانى لا أفوته، يارب أعوذ بك من فُجَاءَات الأمور.

ثم قال : يا بنى سعد إنِى قد وهبت لكم شبابى فَهَبوا لِى شبيبتى ولزم بيته. فقال له أهله : تموت هزلا.

فقال : لأن أموت مؤمنا هازلا أحب إلى من أن أموت منافقا سمينا .

وروى أنه قال : لا أرانى حُميراً لحاجات بنى تميم، والموت يطلبنى.

فنزل الشبيكة (من منازل البصرة) فاتخذها مسجدا، فلم يزل يعبد الله حتى مات رحمه الله [2].

ومن الشيوخ المغتنمين لما بقى من أعمارهم القاضى أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخى .

لما تقدمت السن بأبى جعفر صرف عن القضاء ثم أريد للعمل فأبى، وأحب أن يتأهب للموت فقال :

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص٧٢ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشرى ج٢ ص ٤٤٠ .

أحب أن يكون بين الصرف عن القضاء والقبر فرجة، ولا أنزل عن القلنسوة إلى الحفرة وقال :

تركت القضاء لأهل القضَا ء، وأقبلت أسمو إلى الآخرهْ
فإن يـك فَخْراً جَليلَ الثّنَا ء، فقد نلت منه يَدًا فاخرهْ
وإن كـان وزْراً فَأَبْعدْ به فَلَا خَيْرَ فى إمْرَةَ وازرهْ (١)

وممن استنكر على نفسه طول الأَمل مع قصر العمر أبو الحَكم إبراهيم بن على بن هرودس الأنصارى الاندلسى فقد قال:

أَإبراهيم إنّ المـوتَ آت وأنتَ من الغواية فى سبَات
رجاؤك مثل ظلّ الرّمْح طولاً وَعُمْرُكَ مثْل إبْهَام القَطَاةَ

ودخل سليمان بن عبد الملك مسجد دمشق، فرأى شيخا يزحف فقال له : يا شيخ أيسرك أن تموت ؟

قال : لا

قال : ولِمَ وقد بلغت من السن ما أرى ؟

قال : ذهب الشباب وشره، وبقى الكبر وخيره، إذا أنا قعدت ذكرت الله، وإذا قمت حمدت الله، فأحب أن تدوم لى هاتان الخصلتان (٢).

ومن الناس من يتبرمون بطول أعمارهم، إما خوفا من تفاقم ضعفهم بمرور الزمان، وإما إشفاقا من استفحال أمراضهم، وإما إحساسا بالوحشة من افتقادهم لمن عرفوا فى مراحل الحياة.

تلك هى أسباب التبرم بالحياة بصفة عامة، وقد يحدث ذلك لسبب خاص، كما روى مالك فى الموطأ أن عمر رضى الله عنه كان يدعو فيقول : اللَّهمَّ كَبرَتْ سنّي، وَضَعَفُتْ قوّتى، وانتشرت رَعيتّى، فأقبضْنى إلَيكَ غَيْرَ مُفَرّط ولَا مضيّع. (٣)

إن طول العمر هبة عظيمة من الله، ومظهر من إسعاد الله لعبده إذا رزقه فيه الإنابة فاغتنم لحظاته الثمينة الغالية .

روى أبو عبد الله الحاكم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إنّ منْ سَعَادَةِ الْمَرْء أَنْ يَطولَ عمرهُ، وَيَرْزقه اللّه الإنَابَةَ)

---

(١) الوافى بالوفيات ج٦ ص٢٣٦ .
(٢) ربيع الأبرار ج٢ ص ٤٤٠ .
(٣) فتاوى عمر وأقضيته ص ٧٨ .

وإن من المعمرين من كانوا قد أشرفوا على المائة عام، فسئموا الحياة لمّا جرّعتْهم من آلامها فى تلك المسيرة الطويلة كأبى مسلم الهراء، فإنّه مات له أولاد، وأولاد أولاد، وهو حيّ باق، حتى قال :

ما يَرْتَجِي فِي العيشِ مَنْ قَدْ طَوَى   من عُمره الذّاهب تسعينا
أَفْنَى بَنِيهِ وَبَنِيهِم فَقَدْ   جَرَّعَهُ الدَّهْرُ الأَمرّينا
لا بدّ أَنْ يَشْرَبَ مِنْ حَوضِهِمْ   وَإِنْ تَرَاخَى عُمْرُه حِينا

قال ابن خلكان :

كان أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء النحوى الكوفى مشهوراً بالعمر الطويل :

وحكى بعض كتاب أبى مسلم أنه قال : صحبت معاذ بن مسلم زمنا، فسأله رجل ذات يوم : كم سنّكَ؟ فقال : ثلاث وستون، قال : ثم مكث بعد ذلك سنين وسأله: كم سِنّك؟ فقال : ثلاث وستون .

فقلت : أنا معك منذ إحدى وعشرين سنة، وكلّما سألك أحد: كم سِنّكَ تقول ثلاث وستون.

فقال : لو كنت معى إحدى وعشرين سنة أخرى ما قلت إلا هذا .

قال ابن خلكان :

وقال فيه سهل بن أبى غالب الخزرجي :

إِنّ مَعَاذَ بْنَ مُسلمٍ رَجلٌ   لَيْسَ لميقات عُمْرِه أَمَد
قَدْ شَابَ رأس الزمانِ واكْتَهَلَ الدَّهْر وأَثْوَابُ عُمْرِه جُدُد
قل لمعاذ إنْ مَرَرْتَ بِه   قَدْ ضَجَّ مِنْ طول عمْرِكَ الأَبَد
يَا بكْرَ حوّاءَ كَمْ تعيش وكَمْ   تَسْحَبُ ذَيْلَ الحَيَاة يَا لُبَد (١)
قَدْ أَصْبَحَتْ دَار آدم خَرِبَةً   وأنتَ فِيهَا كأَنَّكَ الوَتَد
تَسْأَل غربانَهَا إِذَا نَعَبَتْ   كيفَ يَكون الصّدَاع والرمَد
مصَحّحاً كالظَّليم تَرْفل فى   بُرْدَيْكَ مِثْلَ السَّعير تَتَّقد
صَاحَبْتَ نوحاً ورُضْتَ بَغْلَةَ ذى القَرْنَيْنِ شَيْخاً لولَدِكَ الوَلَد
فَارْحَلْ وَدَعْنَا لأَنَّ غَايَتَكَ المَوْ   تُ وإِنْ شَدَّ رُكْنَكَ الجَلَد

توفى رحمه الله سنة سبع وثمانين ومائة عن سِنٍّ تفوق المائة عام.(٢)

---

(١) من أساطير الجاهلية أن لبدا آخر نسور لقمان بن عاد. وهو النسر السابع، والستة التى قبله عاش كل منها ٨٠ سنة، فلما مات لبد مات لقمان .

(٢) وفيات الأعيان ج٥ ص ٢١٨ .

ومن عمروا فأعرب عن توديع الحياة عند بلوغه سن الثمانين بلبل الصفار حيث قال:

إذَا مَا أَتَتْ للمَرْءِ سَبْعونَ وَالْتَقتْ ... عليه مع السبعين عَشْر كَوَامل
فلم يبق إلاّ أَنْ يُودِّعَ مَا مَضَى ... وَيَعْتَدَّ للأمْر الذي هَو نَازل
وما صاحب السبعين والعَشْر بَعْدَهَا ... بأقْرَبَ مِمَّنْ حَنَّكَتْه الْقَوابلُ
وَلَكنَّ آمَالاَ يؤمِّلُهَا الفتىَ ... وَفيهنَّ للرَّاجين حَقٌّ وَبَاطِلُ

وقال أبو على بشر بن موسى الأسدى البغدادى وقد جاوز الثمانين :

ضَعُفْتُ وَمَنْ جازَ الثمانين يَضْعُفُ ... ويُنْكِرُ منْه كلّ مَا كَانَ يُعْرَف
وَيَمْشِى رويْداً كَالأسِير مقيَّداً ... تَدَانَى خُطَاه في الْحَدِيد ويَرْسُفُ (١)

ولما سئل القاضى أبو المكارم شرف الدين الصفراوى الإسكندرى الشافعى عن سنه أجاب ارتجالا :

يا سائلى عن قُوَى جسْمى وَمَا فَعَلَتْ ... فيه السّنونُ ألا فاعلمه تَبْيِينَا
ثَاء الثلاثينَ أَحْسَسْتُ الْفتورَ بهَا ... فَكَيْفَ حَالِى عَنْ ثَاء الثَّمَانِينَا (٢)

ومن الناس من كان فى شبيبته يتمنى أن يطول عمره، فلما تحققت أمنيته فى الحياة، ساءه ما جلبت إليه من معاناة، كأبى اليمن زيد بن الحسن الكندى فقد قال :

أرى الْمَرْءَ يَهْوَى أَنْ تَطولَ حَيَاتهُ ... وفى طُولهَا إرْهَاقُ ذُلٍّ وَإزْهَاقُ
تَمَنَّيْتُ فى عَصرِ الشبيبة أنّنى ... أُعَمَّرُ والأعْمَارُ - لا شك - أرْزاقُ
فَلَمَّا أتانى مَا تمَنَّيْت سَاءَنى ... من العمرِ مَا قَدْ كُنْتُ أهْوَى وأشْتَاقُ

إلى أن قال :

وها أنَا فى إحْدَى وتسعين حجَّةً ... لَهَا فىَّ إرْعَادٌ مَخوفٌ وَإبْرَاقُ
يقولون تِرْيَاق لمثلك نَافع ... وَمَالىَ إلاّ رَحمَة اللّه ترْيَاق

ومن المتبرمين من طول الحياة محمد بن محمد بن طرخان الفارابى فقد قال :

مَلَّتْ - وأَيْم اللّه - نَفسى نَفسى ... يَا حبَّذَا يَوْم حلولى رَمْسى (٣)
أَوَّلُ سَعْدِى وَزَوَال نَحْسى ... إذْ كلّ جِنْسٍ لاحق بِالْجنس

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص١٢٢ .
(٢) الوافى بالوفيات ج٣ ص ٣٥٢ .
(٣) الرمس هو القبر .

ومن الناس من يرتاع مما أسلف فى عمره الطويل كأبى بكر أحمد بن أبى عقيل الحريرى فقد قال :

إنّ الثمانين وأعْوامهَا ... مَراحل تُدْنى إلَى الآخرَهْ
أراعُ إنْ عَددْت أيَّامهَا ... مِنْ زلَّة أو قَدَم عَاثرَهْ

ومن الناس من يحس بأن أكثر عمره انقضى، فيفزع من تضاؤل باقيه، بالقياس على ما تصرم منه، ومن أن القليل الباقى سيكون مليئا بالمنغصات .....

ومن هؤلاء الشيخ إسماعيل بن على الأزجى الفقيه الحنبلى شيخ ابن تيمية رحمهما الله، فقد قال لما بلغ الستين من عمره :

عَدَدْت ستِّينَ عَاماً لَوْ أكونُ عَلى ... تَيَقُّن أنَّهَا الثلثَان منْ عُمرى
لَسَاءَنى أنَّ بَاقى العُمرِ أيْسَره ... وآخرُ الكأسِ لا يَخْلو منَ الكَدَر

وقد يفزع بعض الناس من انصرام أيام العمر، حتى إذا كان يتوقع أن يعيش أمثالها، فقد قال أحد هؤلاء :

لَهفى عَلَى خَمْسينَ عَامًا مَضَتْ ... كَانَتْ أمَامى ثمَّ خَلَّفتُهَا
لَوْ أنَّ عُمرى مائَة هَدّنى ... تَذكُّرى أنِّي نَاصَفْتُهَا

الحقيقة المنسية :

إن المتأمل فى حياة الناس يتبين أن كل إنسان يعلم أن لحياته نهاية ،كما يتبين أن أكثرالناس لا يشعرون باقتراب تلك النهاية، ولو فى بداية الاحتضار ...

غير أن ذوى القلوب النيرة يدركون اقترابها حق الإدراك، إما مما يحيط بحياتهم الخاصة، وإما بإلهام إلهى فى اليقظة [١] أو المنام .

فمن الفريق الأول من قال :

إذا الرجال ولَدتْ أولادُهَا ... وبَلِيَتْ منْ كبَر أجْسَادُهَا
وأصبَحتْ أمْرَاضُهَا تعْتَادهَا ... تلْك زروع قَدْ دنَا حَصَادُها

ومن قال :

وإذاَ رأيْتَ بَنيكَ فَاعلَمْ أنَّهمْ ... قَطَعوا إلَيْكَ مَسَافَةَ الآجَال
وَصلَ البَنونَ إلَى مَحَلِّ أبِيهمو ... وتَجهَّزَ الآبَاءُ للتّرْحَال

(١) انظر مشاهد من ألهمهم الله بأحوال مماتهم فى ص ٤٣

ومن قال :

لَقَدْ نَشَا ابْنى فكَانَ مثْلى ... يَلْبَس مَا قَدْ نَزعْت عَنّي
فَسَرّنى مَا رأَيْتُ منْه ... وَسَاءَنى مَا رأَيْت منى

ومن الفريق الثانى أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن القيسى الوادى آشى، فقد نقل السيوطى عن ابن الزبير أن أبا إسحاق كان من أهل الفقه والأدب، وله تآليف حسان ، وقال فى تاريخ غرناطة أنه مات فى حدود السبعمائة والخمسين ،ورأى قبل موته هاتفا ينشده فى النوم :

يَالَهْفَ قَلْبى عَلَى شبَابى ... كنتَ أَليفًا فَصرْتُ لامًا (١)

فذيل رحمه الله هذا البيت بقوله :

قَدْ ذَهَبَ الأطْيَبَان منى ... وانْصَرَمَتْ لَذَّتى انْصرامَا
ورَقَّ جلْدى ودَقَّ عَظْمى ... وأَشْبَهَتْ لمَّتى الثغَامَا
وقَلَّ نَوْمى فَلَيْتَ أَنّى ... بُدّلتُ منْ عَيْشى الحمامَا
فليس لى فى الحياة خَيْرٌ ... ولست أرجو له دوَامَا
فكيف أَلهو بهَا وسُقمى ... قد خالط الجسمَ والعظاما
ونَاظرى مَا يُحَقّ مَرأىً ... ومَسْمَعى مَا يَعى كَلامَاً
وقُوَّتى قَدْ وهَتْ فَمَا إنْ ... أطيقُ مَشْيًا ولا قيَامَا
يُبدَل مَنْ عَاشَ منْ قيَام ... حَنًى، ومنْ صحَّة سَقامَا
ولَيْسَ ذَا مُنكراً عَلَى مَنْ ... مَرَّت عَلَيْه سبْعُونَ عَامَا
وعَنْ قَريب أحلّ قَبْراً ... أطيل فى قَعْره الْمقَامَا
فَبلّغوا مَنْ لَقيتموه ... بَعْدى يَا إخْوَتى السَّلاَمَا (٢)

مشاهد أحوال المرضى

المرض حالة عارضة يكرهها الناس، لأنه يغير الطبيعة، ويشل النشاط ويفسد أخلاق كثير من الناس، ولأنه قد تعقبه مفارقة الحياة، فيبدو للمريض كأنه إنذار باقترابه من أمر محتوم وخطير .

(١) يعنى كان مستقيم القامة كالألف، فصار مائلا كاللام .
(٢) بغية الوعاة ص ١٨٢ .

إن الله سبحانه لو شاء لجعل الناس لا يمرضون أبدا كما سيكونون فى الجنة، ولكنه لم يشأ ذلك لنا فى هذه الدنيا، كما أنه سبحانه لم يجعل كل مرض يفضى إلى الموت، فكانت أكثر الأمراض تعقبها المعافاة، وكانت المعافاة هى الأمد الطويل فى حياة الإنسان.

ولقد أشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيمة المعافاة حين قال فيما رواه الترمذى عن عبد الله بن محصن :

(مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِى سِرْبِهِ [(١)] مُعَافًى فِى جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قوت يَومِهِ، فَكَأَنَّمَا حيزَتْ لَه الدُّنْيَا بِحَذَافيرِهَا).

والمرض عرض لازم لكل حى ،وهو مما يبتلى الله بشدته أماثل خلقه وفضلاءهم، فيضاعف لهم الجزاء عليه.

روى ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَكُ، فوضعت يدى عليه، فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف، فقلت يا رسول الله ما أشدها عليك، فقال : (إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّف لَنَا البلاء، ويَضعَّف لَنَا الأجْرُ) قلت : يا رسول الله أى الناس أشدُّ بلاء ؟

قال: (الأنبياء). قلت: يا رسول الله ثم من ؟

قال : (ثمّ الصَّالحون، إنْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بالفَقْر حَتَّى مَا يَجد أَحَدُهُم إلا العَبَاءَة يُحَوِّيهَا [(٢)] وانْ كانَ أحدُهُمْ لَيَفرَح بِالبَلاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكمْ بالرَّخَاء) .

ومع كراهة أكثر الناس للمرض فإن عواقب المسلمين المبتلين به جد حميدة .

منها تكفير ذنوب المريض المسلم، فقد روى أبو داود عن أم العلاء رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(يَا أُمَّ العَلاء أَبْشِرِى، فَإِنَّ مَرَضَ المسلمِ يُذْهِب الله بِهِ خَطَايَاه، كَمَا تُذْهِبُ النَّار خَبَثَ الذَّهَب وَالفضَّةَ)

وروى البيهقى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(سَاعَاتُ الأَمْرَاضِ، يُذْهِبْنَ سَاعَاتِ الخَطَايَا)

---

(١) فى نفسه .

(٢) يثقبها ليدخل رأسه فيها فيلبسها.

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عَبدَه المؤْمنَ بِالسَّقَمِ حَتَّى يُكَفِّرَ عَنه كلَّ ذَنْب).

وروى البخارى عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (مَا يُصيب المسْلمَ منْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلاحَزَنٍ وَلا أَذَىً وَلا غَمٍّ حَتَّى الشَّوكَةُ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا منْ خَطَايَاه) .

وروى الطبرانى عن أسد بن كرز رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
(المريض تَحَاتُّ خَطَايَاه كَمَا يَتَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ)

ومنها نجاته مما قد يعاقب به فى الآخرة ، روى الترمذى وأبو عبد الله الحاكم عن عبد الله بن مُغَفَّل رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(إِذَا أَرَادَ اللهُ بعَبْده الخَيْرَ عَجَّلَ لَه العقوبَةَ فِي الدّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْده الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْه بِذَنْبِه حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَة).

ومنها تهيئته لبلوغ منزلة عالية فى الآخرة، فقد روى البخارى فى التاريخ عن ابن داسة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْد منَ اللَّه مَنْزِلة لَمْ يَنَلْهَا بعَمَله ابْتَلاه اللَّهُ فى جَسَده وَأَهْله وَمَاله، ثم صَبَّرهَ عَلَى ذَلكَ حَتَّى يَنَالَ المَنْزِلَةَ التَّى سَبَقَتْ لَه منَ الله عَزَّ وَجَلّ) .

ومنها أن الله يتفضل على الرجل الصالح فى مرضه فيثيبه على أعمال لم يقم بها عند مرضه، روى البخارى فى الأدب المفرد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(مَا منْ أَحَد يَمْرَضُ إِلا كَتبَ اللَّهُ لَهُ مثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ صَحيحٌ) .

ومنها أن الله يكرم أصحاب الأسقام والأوجاع والبلوى إكراما يتميزون به عمن سواهم من أهل الجنة، روى تاج الدين عبد الوهاب السبكى بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(إِنَّ فِي الْجَنَّة لَغُرَفاً لَيْسَ لَهَا مَعَاليق منْ فَوْقِهَا، وَلاعمادُ منْ تَحْتِهَا).
قيل : يا رسول الله وكيف يدخلها أهلُها ؟
قال صلى الله عليه وسلم :
(يَدْخلونَهَا أَشْبَاهَ الطَّيْرِ)
قيل : يا رسول الله لمن هى ؟

قال : (لأَهْلِ الأَسْقَامِ وَالأوجاعِ وَالْبَلْوَى)(١)

وروى الترمذى عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(يَوَدّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَو أَن جلودَهمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِى الدّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ)

لكن من الناس من يخطئ فى تعريض نفسه للبلاء أو أن يطلب من الله أن يبتليه ببلاء يؤجره عليه ، وهذا التصرف لم يستحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخارى فى الأدب المفرد عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : قال رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم : اللَّهمَّ لَمْ تُعْطِنِى مَالاً فَأتصدَّقَ بِهِ فَابْتَلِنِى بِبَلاءٍ يكون فِيهِ أَجْرٌ، فقال صلى الله عليه وسلم :

(سُبْحَانَ اللَّه لا تُطِيقه، ألا قلت : اللَّهمَّ آتِنَا فى الدّنْيَا حَسَنَةً، وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

ومن الناس من يغلب على ظنه اليأس من المعافاة، وأنْ لا شفاء له ممّا أصابه، فيعلن عن ذلك الإحساس فى حزن ومرارة لا يليقان بمؤمن يرجو الله ويتوكل عليه، روى البخارى فى الجامع والأدب المفرد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على مريض يعوده، وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض يعوده قال :

(لا بَأْسَ طَهورٌ إنْ شَاءَ اللَّه) .

فقال الرجل : طهور ؟ كلا بل هى حُمَّى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال النبى صلى الله عليه وسلم :

(فَنَعَمْ إِذاً)

الإنسان مطالب بأن لا يتوقع لنفسه المكاره، بل يتشبث بفضل الله ومعافاته ويحذر سوء الظن، ولا يقول الا التى هى أحسن، فقد روى أبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إنّ اللَّهَ تعالى عِنْدَ لِسَانِ كلِ قَائِلٍ، فَلْيَتّقِ اللَّهَ عَبْد وَلْيَنْظرْ مَا يَقول)

ومن الناس من يتحمل ألم المرض ويتجمل له بالصبر أعظم التجمل، فقد روى محمد بن طفيل عن أبيه أنه قال : دخلنا على طلحة بن مصرف نعوده، فقال له أبو

---

(١) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٨٠ .

كعب شفاك الله، فقال طلحة : أستخير الله، وعن ليث أنه قال : حدثت طلحة فى مرضه الذى مات فيه أن طاووسا كان يكره الأنين، فما سُمع طلحة يئن فى مرضه حتى مات . توفى رحمه الله سنة اثنتى عشرة ومائة (١)

ومن الناس من يستغرق فى محبة الله، فيحمده ونفسه تُنزع من بين جنبيه، كما قال سبحانه فى الحديث القدسى "إنَّ عَبْدِى المؤْمنَ عِندى بِمَنْزِلَةِ كلِّ خَيْرٍ، يحْمَدنِى وأَنَا أَنْزَع نَفْسَه مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْه" وهكذا يستسلم لما يختار له مولاه، كما قال القائل لمن يحبه:

وَيَقْبحُ مِنْ سِوَاكَ الفعْل عِنْدِى وَتفْعَله فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

فالأمر الكريه لا يستسيغه من غير محبوبه، لكنه يستعذبه إذا صدر من المحبوب، إذ كل ما يفعل المحبوب محبوب .

ومن المرضى من يضجر من شدة المرض، ومن طول أمده، **ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن جبريل المصرى** لما اشتد به المرض قال :

لَمْ تَجِدْ هَمِّى ولَا حَزَنِى أُمُّ مَفْقود، لَـهَا ولَه (٢)

ما بَقَاءُ الروحِ فِى جَسَدِى غَيْرُ تَعْذِيبٍ لَـهَا ولَـه (٣)

ومنهم القاضى أبو عبد الله المقرى التلمسانى أحد قضاة فاس، كان آية من آيات الله فى غزارة العلم، وقلما تقع مسألة إلا ويأتى بجميع ما للناس فيها من أقوال ، ويرجح ويعلل، قال أبو الحسن النباهى سألته عن حاله، فأنشدنى بيتى أبى عمران بن عبد الرحمن وهما :

حالى مع الدَّهْر فى تقلّبه كَطَائِرٍ ضَمَّه شَرَكُ

هَمَّته فى فكَاكِ مهْجتِهِ يروم تخليصَها فَتَشْتَبِكُ

وتوفى على إثر ذلك (٤)

ومنهم أبو المعالى الملقب بالملك الكامل الأيوبى :

قال ابن خلكان : لم يزل أبو المعالى فى علو شأنه، وعظيم سلطانه إلى أن مرض..... وكان ينشد فى مرضه كثيراً :

---

(١) صفة الصفوة ج٣ ص ٩٧ .

(٢) الوله : شدة الحزن .

(٣) الوافى بالوفيات ج٤ ص ١٨ .

(٤) المرقبة العليا صفحتا ١٦٩ و ١٧٠ .

يا خليليّ خبِّرَاني بِصدْقٍ كيف طعم الكرى فَإنِّي عَليلُ(١)

ولم يزل كذلك حتى توفى يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن بالقلعة بمدينة دمشق يوم الخميس الثانى والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة (٢)

ومنهم أبو الحسن بن الرومى .

ذكر السيوطى أن أبا بكر بن السراج قال : عدنا أبا الحسن بن الرومى فى مرضه الذى مات فيه، فأنشدنا لنفسه :

ولقد سَئِمْتُ مآربى فَكَأنَّ أَطيَبَهَا خَبِيثْ
إلا الحَدِيثَ فَإنّه مِثْل اسْمِه أبَداً حَدِيثْ

ومن المرضى من يمنُّ الله عليهم بالمعافاة، فيعيشون دهرا بعد وفاة من كانوا يعودونهم حتى قيل : (كَمْ مُعَافَى يَموت قَبْلَ المَرِيضِ) .

قال أبو العنبس الصيمرى :

كم مريضٍ قد عاشَ مِن بَعد يأسٍ
بَعْدَ مَوْتِ الطَّبِيبِ وَالعُوَّادِ
قَدْ يُصَادَ القَطَا فَيَنجُو سَلِيمًا
وَيَحِلُّ البَلاءُ بِالصَّيَّادِ

---

(١) الكرى : النوم .

(٢) وفيات الأعيان ج٥ ص ٨٣ .

مشاهد عيادة المرضى

عيادة المريض سنة من سنن الإسلام ، فقد قال البراء فيما رواه مسلم عنه: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع الجنائز وعيادة المريض .

كما روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

إن الله تعالى يقول يوم القيامة : "يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنى، قال يا رَبِّ كَيْفَ أعودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العَالَمينَ؟ قال أمَا عَلِمْتَ أنّ عَبْدِي فَلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْه أمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لَوْ عُدْتَه لَوَجدْتَنى عِنْدَه".

هكذا سيعاتب الله عبده، لأنه ما قام بعيادة عبده، وهكذا تجلت العناية الإلهية بكلٍّ من العائد والمعود، فوردت فى صورة جمع فيها المولى سبحانه بين العتاب وبين عظيم كرمه الذى تفضل به على من ألزمه فراش المرض، تنبيها على شرف المؤمن ومكانته عند ربه، وعلى ضمان الثواب العظيم لمن يعودون المرضى .

ومع أن الله سبحانه منزه عن أن يلحقه المرض، إذ ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فقد نسب المرض لذاته على معنى أنك لو عدت المريض لوجدت عنده ثوابى الجزيل وعطائى الجميل مما سأدخره لك عندى .

وبالإضافة إلى هذا الفضل العظيم وردت أحاديث أخرى تبين مواهب الله لمن يعود المريض .

روى أبو داود والحاكم عن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(مَا مِنْ رَجُلٍ يَعودُ مَريضاً مُمسيا إلاخَرَجَ مَعَه سَبْعونَ ألفَ مَلَك يَسْتَغفرونَ لَه حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَن أتَاه مصبحًا خَرَجَ مَعَهَ سَبْعونَ ألفَ مَلَك يَسْتَغفرونَ لَه حَتَّى يُمْسى .

وروى أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أيمَا رَجُلٍ عَادَ مَرِيضًا فَإنّمَا يَخوض فِى الرَّحْمَة، فَإذَا قَعَدَ عِنْدَ المَرِيضِ غَمَرَتُه الرَّحمَةُ) .

وروى مسلم عن ثوبان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِى خُرْفَةِ الجَنَّة حتَّى يَرْجِعَ).

فأشار صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث إلى أن العائد - فى ممشاه - كأنه يجمع من فواكه بساتين الجنة، وهو وعد صادق بأن للعائد خيرا مدخرا سيناله بفضل الله عند دخوله الجنة .

وبما يؤجر به العائد أيضا مـا رواه مسلم أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ أَصْبَحَ الـيَوْمَ مِنْكمْ صَائـمًا؟) قال أبو بكر: أنـا . قال : (مَنْ عَادَ مِنْكـمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟) قـال أبو بكر: أنا . قال : (مَنْ شَهِدَ مِنْكم الْيَـوْمَ جَنَازَةً؟) قال أبو بكر: أنا . قال : (مَنْ أطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟) قال أبو بكر: أنا .

قـال مروان بن مـعاوية (أحـد رجال سند الحـديث) بلغنى أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال :

(مَا اجْتَمَعَتْ هَذه الْخصَالُ فى رَجلٍ فى يَوْمٍ إلا دَخَلَ الْجنَّةَ).

وبما ورد من عيادَات رَسول الله صلىّ الله عَليـه وسلم مارواه البخارى ومسلم عن عائشـة بنت سعـد بن أبى وقاص رضـى الله عنه أن أباها قال : اشـتكيت بمكة شكوى شديدة فجاء النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى ...... إلى أن قال : ثم وضع يده على جبهتى ، ثم مسح وجهى وبطنى ، ثم قال :

(اللّهم اشْفِ سعدا وأَتِمَّ لَه هجْرَتَه) فما زلت أجـد برد يده على كبدى فيما يُخالُ إلىّ حتى الساعة .

كما روى مسلم فى صحيحه والبخارى فى الأدب المفرد عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليـه وسلم دخل على أم السـائب وهى تزفـزف فقـال لها (مَـالَكِ؟) قالت : الحمى أخزاها الله. فقال صلى الله عليه وسلم :

(مَهْ [1]لا تَسُبِّيهَا، فَإِنّها تُذْهِب خَطَايَا الْمؤْمنِ كما يُذْهِب الْكيرُ خَبَثَ الْحَديد).

وروى البخارى عن جابر رضى الله عنه أنه قَال : مرضت مرضا، فأتانى النبى صلى الله عليـه وسلم يعودنى وأبو بكر وهمـا ماشيـان فوجدانى أغْـمِىَ عَلَىَّ، فتـوضأ النبى صلى الله علـيه وسلـم، ثم صب وَضُـوءَهُ علىّ ، فـأفقـتُ، فإذا النـبى صلى الله عليـه وسلم، فقلـت : يا رسول الله كَيْفَ أَصْنَع فِى مـالى؟ فَلَمْ يجِبْنِى بِشَىْءٍ حَـتَّى نَزَلَتْ آيَة الميراَث.

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه أنَّ غلاما مـن اليهود كان يخدم النبى صلى الله عليـه وسلم فمرض ، فـأتاه النبى صلى الله عليـه وسلم يعوده، فـقعـد عند رأسه، فقـال: (أَسْلِمْ) فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه، فـقال له :أطع أبا القاسم .فأسلم، فـخرج النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول :

(الحمد لله الذى أَنقَذَه مِنَ النَّارِ) .

---

(١) يعنى كُفى عن هذا القول.

آداب العيادة :

من آداب العيادة ألا يتقيد العائد بأن تمضى على المريض ثلاثة أيام من ابتداء المرض، لأن التقيد بذلك ورد فى حديث شديد الضعف، وجمهور العلماء على خلافه. والعيادة يمكن أن تكون فى الليل كما يمكن أن تكون فى النهار، ولكن بصورة لا تحرج أهل المريض كالصباح المبكر والليل المتأخر .

ومن عادات أهل القيروان أنهم إلى عهد قريب يتبعون أهل المدينة المنورة فيما جرت به العادة عندهم من ترك عيادة المريض فى ليلتين من ليالى الأسبوع، وهما ليلة الأربعاء وليلة الجمعة، وذلك لتمكين أهل المريض من التفرغ لشئونهم الخاصة فى تينك الليلتين متأكدين من أنهم لا يفاجئهم فيهما أحد من العائدين .

ومن الآداب أن يضع العائد يده على جبهته أو على يده، ويسأله كيف هو .

روى أحمد والطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (.... مِنْ تَمَامِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ أَنْ يَضَعَ أَحَدُكُمْ يَده عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِه، فَيَسْأَلَه كَيْفَ هُوَ) .

ومن الآداب أن يتلطف فى إشعاره بقرب سلامته من المرض، وَبِمَا سيعقب ذلك مِن عيش سعيد ، فى عمر مديد.

روى الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيض فَنَفِّسُوا لَه فِى الأَجَلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَرُدُّ شَيْئًا، وَهُوَ يُطَيِّب نَفْسَ الْمَرِيضِ).

ومن الآداب أن يدعو الله بأن يجمع له بين الأجر والمعافاة.

وقد روى البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا عاد مريضا جلس عند رأسه، ثم قال سبع مرار:

(أَسْأَل اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ)

فإن كان فى أجله تأخير عوفى من وجعه .

وفى الأدب المفرد أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان إذا دخل على مريض يسأله كيف هو، فإذا قام من عنده قال : خَارَ اللَّه لَكَ [1] ولم يزد عليه .

---

(١) يعنى: أسأل الله أن يختار لك ما هو أنفع لك وأصلح .

وفى الأدب المفرد أيضا أن الربيع بن عبد الـله قال : ذهبت مع الحسن إلى أبى قتادة نعوده، فقعد عند رأسه، ثم دعا له فقال : اللَّهُمَّ أشفِ قَلْبه، واشفِ سَقَمَه.

وكان سفيان الثورى رضى الله عنه إذا عاد رجلاً قال : عَافَاكَ اللهُ مِنَ النَّارِ .

ومن الآداب أن يرغب العائد من المريض أن يدعو له.

روى ابن ماجه عن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إذَا دَخَلْتَ عَلَى مريض فَمُرْهُ أَن يَدعُوَ لَكَ، فَإنَ دُعاءَه كَدُعَاءِ المَلائكة)

ومِمّا يتـبع العيـادة أن من أراد الزيادة فى الأجـر، وتخفـيف ألَم المصاب أن يتـعهَّـده ويتفـقد أحـواله خصـوصا إذا كان المـريض فى حاجة إلـى ذلك، فإن القيـام بما هو فى حاجة إليه قد يكون سببا مساعدا على انتعاش قواه وتخفيف آلامه.

مما ينبغى اجتنابه فى العيادة:

أولا: ينبغى ألا يتوسع فى استفساره عن إصابته، إذا كانت إصابته فى حادث سيارة أو سـقوط من شـاهق أو نحو ذلـك، لأن بعض العائدين قـد يُفـرطون فى أسئلتـه عن تفاصيل ما حدث حتى يلجئوه إلى استحضـار صورة الحادث فيجتهد فى إجابتهم عنها بكل التـفاصيـل، ثم يخرج ذلك الفـوج فيأتـى آخرون ويسألونـه عما حـدث، ثمّ يأتى آخرون وآخرون، .كلّ فرد من العائدين يسأل المريض عن تفـاصيل ما حدث تعبيرا عن المودة، وإعرابا عن التـفجع، والمريض المسكين يتكلف الإجابة لكلّ واحـد حتى لا يجد كلّ عائد فى نفسه أن المريض لم يكترث به ولم يقدّر تفضله عليه بالعيادة.

والمريض فى كلّ ذلك قد يكون متعبًا من الأرق أو من الألم، أو ممّا يوجه إليه بعض المغفَّلين من لومـه على تورطه فيمـا حدث له، وكلّ ذلك ممَا يزيد فى ألمه خصـوصا فى بعض الحوادث التى يكون الـتذكير بهـا مجدداً للألم وقـد قيل : (إِنِ التَّذْكِـيْرَ بِالمصيبَةَ مُصِـيبَةٌ ثانيـة). ولو أن من يرهقون المريض بالأسئلـة قد تكون نواياهم حسنة، غـيرَ أَنَّ تلكَ النوايا لا تبـرِّر الإساءة إلى المريض بمثل ذلك التـصرف، كمـا قيل: (وَمِنَ البِـرِّ ما يكون عقوقا) فالواجب أن يكون المؤمن كيِّسَا فَطِنًا فى كل تصرفاته.

وقد حدث أن بعض المرضى أحرجه العائدون بأسـئلتهم عن تفاصيل الحادث الذى أصيب فيه، فعمد إلى ورقة كتب فيهـا كلّ ما حدث له بالتفصيل، ووضعها بجنبه، فإذا سأله أحد العائدين عن الحادث يدفع إليه الورقة ويقول له : (اقرأ).

قال سلمـة بن عاصم: دخلت على الفرّاء أعوده، فـألححت عليه فى السـؤال، فقال لى: ادن، فدنوت فأنشدنى بيتين وهما:

حقّ العيادة يوم بعد يومين ولحظة مثل لَحظ الطرف بالعيْنِ
لا تُبْرِمَنَّ مريضا فى مُسَاءَلَة يكفيك من ردّه ردّ بحرفَيْنِ

ثانيا: ينبغى ألا يطول الجلوس عند المريض، فقد روى الديلمىّ عن جابر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(أفضلُ العيادة أجرا سرعة القيام من عند المَرِيض) لأن المريض قد تطرأ عليه حاجة يستحى أن يذكرها أمام جلسائه.

قال أبو الحسن سرىّ بن المغلس السقطىّ : اعتللت بطرسوس بعلّة القيام، فعادنى ناس من القرّاء، فأطالوا الجلوس، فقلت : ابسطوا أيديكم حتى ندعو، فقلت : (اللهم علّمْنا كَيْفَ نَعودُ المرضى).

فعلموا أنهم قد أطالوا فقاموا (١).

ثالثا :ينبغى ألا يكثر تردّد العائدين على المريض، خصوصا إذا كانوا يعلمون أن المريض لم يكن لديه بالمنزل أناس مستعدون لاستقبال العائدين بالليل والنهار، فيتحرّج من مَواساة تصحبها مشقّة.

كان أبو على الحسن بن سعد العسقلانى المعروف بالمكربل لما كثر عوّاده ضجر من ذلك، فكتب على باب داره:

لا تزورونى فمالي أحَدٌ يفتَحُ بَابا
عظّم الله لمن خَفّف أجرا وثَوابَا (٢)

النهى عن تمنى الموت

الموت سبيل لا بدّ أن يعْبره كلّ حى، سئِل رجل عن أخيه فقال : مات، قيل له : وما سبب موته؟ قال : حياته.

ولقد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن أن يتمنى الإنسان الموت، أو أن يدعو به على نفسه، ولو لضرّ نزل به، وذلك لأن ما ينكشف للمرء بموته أمر شديد، فلماذا يستعجله؟ ولأن امتداد الحياة لا يزيد المؤمن الصالح إلا الإكثار من العمل الصالح، ولأن المسرف عن نفسه قد يرجع إلى الله بالمتاب.

وبيّن صلّى الله عليه وسلم أن المرء إذا كان داعيا ولا بدّ فليفوّض ذلك إلى الله، وليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى.

---

(١) طبقات الأولياء لابن الملقن ص ١٦٣ .

(٢) الوافى بالوفيات ج ١٢ ص ٣٠ .

وإليك بعض ما ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى تمنى الموت:

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلّى الله عليه وسلم قال: (لا يَتمنَّيَنَّ أحدُكم الموت ولا يدعُ به، من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدُكم انقطع عَمَلهُ، وإنه لا يَزيد المؤمنَ عمرُه إلا خَيْراً)

وروى البخارى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يَتمَنَّينَّ أحَدكم المَوتَ، إمَّا محسنا فلَعَله أنْ يَزْدَادَ، وإمَّا مسيئَا فلَعَلَّه أنْ يَسْتعتب) يعنى يقلع عن الإسَاءَة.

وروى أحمد وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله أنه صلّى الله عليه وسلم قال: (لا تَمنَّوا المَوْتَ، فإنَّ هَوْلَ المَطلَع شَديدٌ، وإن منَ السَّعَادة أنْ يَطولَ عمر المَرْء حَتى يَرْزقَهُ اللَّه الإنَابَة) والمطلَعُ هو مكان الإطلاَع من موضع عال، والمراد ما يُشْرفُ عليه الإنسان من أمر الآخرة إثرَ موته.

وروى أحمد والترمذى عن أبى بكرة رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله، أى النَّاسِ خَيرٌ؟ قال : (مَنْ طَالَ عمرُهُ، وَحسنَ عَمَلُهُ . قال : فأى النَّاس شَرٌّ؟ قال مَنْ طَالَ عمره وَسَاء عَمَله)

وروى أحمد والبزار عن طلحة رضى الله عنه أن النبى صلّى الله عليه وسلم قال : (لَيْسَ أحَدٌ أفضَلَ عنْدَ اللَّه مِنْ مؤمن يُعَمَّرُ فِى الإسْلام لتَسبيحهِ وتَكْبيرهَ وتَهليله)

وروى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلّى الله عليه وسلم قال : (لاَ يَتمَنَّينَ أحَدكم المَوتَ لضر نَزَلَ به، فإن كَانَ لاَبدّ متَمنيا فَليَقلْ اللَّهم أحيِنى مَا كَانت الحَيَاة خيرا لى، وَتوفَّنِى إذَا كَانَتِ الوَفَاة خَيْراً لى).

وروى مالك عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلّى الله عليه وسلم قال.
(لا تَقوم السَّاعةُ حَتَّى يَمرَّ الرجلُ بِقبرِ الرجلِ فَيَقولَ يَا لَيْتَنى كنتُ مكَانَه)

وروى مالك عن ثوبان رضى الله عنه أن من دعَاء النبى صلّى الله عليه وسلم : (اللَّهُمَّ إنِّى أسْألُكَ فعْلَ الخَيْرات، وَتَركَ المنكَرَات، وحبَّ المَسَاكين، وإذا أرَدْتَ بالناسِ فتْنَةً فَاقبضنى إلَيْكَ غَيْرَ مَفْتون).

وروى مالك عن عمر رضى الله عنه أنه دعا قائلا : (اللَّهُمَّ قَدْ ضَعُفَت قوَّتى وَكَبرتْ سنّى، وَانْتشرَتْ رَعيَّتى، فَاقْبضْنى إليكَ غَيْرَ مُضَيعٍ وَلاَ مقصّرٍ)

فما جاوز ذلك الشهر حتى قبض.

مشاهد من سئموا الحياة

من الناس من سئموا الحياة امّا من شدّة ألم المرض وإمّا عزوفا عن كلّ ما فى الحياة، وإمّا تبرّمًا بما صار عليه الناس، وإمّا رغبة فيما عند الله.

كان العرْبَاضُ بن سَارِيَةَ رضى الله عنه يقول وقد كبرتْ سنه :

اللَّهمَّ كَبَرتْ سِنّى، وَوَهَنَ عَظمِى فَاقْبِضْنى إِلَيكَ.

من (الحلية ج ٢ ص ١٤)

وقال حارثة بن مضـرب دخلنا على خَبَّاب وقد اكتوى فى بطنه سبع كـيّات.فقال : ما أعلم أحدا لقى من البلاء ما لقـيت، ولولا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : (لا يَتَمَنينَ أَحَدُكمُ المَوْتَ) لتمنيته.

من (الحلية ج١ ص١٤٤).

قال الزبيـر بن بكار: حدثنى محمـد بن الحسن أنه لمّا نزل القوم بالحـسين رضى الله عنه وأيقنَ أنهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

(قـد نزلَ مِن الأمرِ مـا تَرَوْنَ، وأن الدنيـا قـد تغيَّـرتْ وتنكرت، وأَدْبَرَ مـعـروفهـا، وَانْشَمَرَت حـتى لم يبق منها إلا كصبَابَة الإِنَاء، إلا خَسيسُ عـيشٍ كالمرْعَى الوَبيل. ألا ترون الحق لا يُعـمَل به، والبـاطلَ لا يتَنَاهَى عنه، لِيَـرغَبَ المؤمْنُ فى لِقـاءِ الله، وإنى لا أرَى المَوتَ إِلا سَعَادَة، ولا الحياة مع الظالمين إِلا جُرْماً).

من (الحلية ج٢ ص٣٩)

وروى أبو نعيم بسنده إلى عبد الرزاق أنه قال :

كان سـفيان الثـورى إذا اغتمّ رمى بنفسـه عند وُهَيْب بن الوَرْد، فقال له: يا أبا أمـية ترى أحد ا يتمنى الموت؟ فقال وُهَيْبُ : أَمَّا أنا فلا، قال سفيان: أمَّا أنا فَوَدِدْتُ أنِّى وَاللَّهِ مِتٌّ.

من (الحلية ج٨ ص ١٥٩)

وقال المغيرة بن حبيب اشتكى مالك بن دينار بطنه، فقيل له : لو عُمل لك قَلْيَةٌ فإنّها تَحبس البطن؟ فـقال : دعونى من طلبكم، اللهم إِنكَ تعلم أَنّى لا أُريدُ البـقاءَ فى الدنيا لبَطنِى ولاَ لفَرجى، فَلاَ تبقنى فى الدنيا.

من (الحلية ج ٢ ص ٣٦١)

ومن الناس من تمنى موت مَن أحبّ من ذريته محبّة شديدة، حتى لا يشغَلَ قلبَه أَحَدٌ مع الله.

قال بعض أصحاب البهلول بن راشد: دخلت عليه وبين يديه ابنته طفلة، وعليها ثياب مصبوغة، فقال لى : ماأَحْبَبْتُ شيئا حُبّى لها، وإنّى لأحب لو قَدَّمتُهَا لربّى.

قال : فانصرفت عنه، ثمّ رجعت إليه، فأصبت الناس مجتمعين على بابه، فسألت: فقيل لى: ماتت ابنته،فدخلت عليه وعزيته.

فلمّا ولَّيتُ لحقنى وقال: بالله لا تذكر ما كان منى - يعنى أمنيته - ما دمت حيًّا.

من(الحلل السندسية ص ٧١٩)

لاموت إلا عند حلول الأجل

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإنسان حين يكون فى بطن أمه يأمر الله سبحانه الملك بكتابة أجله الذى حدده له فى هذه الدنيا ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللّهُ نَفْسًا إِذا جَاءَ أجلُها وَاللهُ خَبيرٌ بما تَعمَلونَ﴾ - المنافقون - ١١ .

وقد يحدث أن بعض الناس تظهر عليهم علامات الموت، فلا يشك فى وفاتهم،فيجهّزون تجهيز الأموات، وقد يدفنون،ثم يتبين أنهم ما يزالون أحياء، فيعيشون بعد ذلك زمنا قد يمتد بهم فيتزوجون،ويولد لهم الأبناء،ثم يموتون عند حلول أجلهم،وإليك بعض المشاهد من تلك الأحداث.

كان الأمير العباسى إبراهيم بن صالح قد ولّى إمارة دمشق للخليفة المهدى ولما توفى حضر الرشيد لجنازته، فحلف الطبيب ابن بهلة أنه لم يمت ونخسه بإبرة تحت ظفره فحرك يده ثم أمر بنزع الكفن عنه،ودعا بمنفخة وكندس،فنفخ فى أنفه، فعطس، وفتح عينيه، فسأله الرشيد كيف أنت؟ فقال :

كنت فى ألذ نومة ،فعضنى كلب.

وقال ابن أبى أصيبعة:

(رأى فى منامه كلباً أهوى إليه فتوقاه بيده، فعض إبهامَ يده اليسرى عضة).

ثم إنه عوفى، وتزوج عباسة أخت الرشيد وتولى إمارة مصر بعد ذلك وبها مات.

من (الوافى بالوفيات ج٦ ص٢١)

وقال أحمد بن على بن ثابت البغدادى:

بلغنى أن محمد بن يحيى البغدادى المعروف بحامل كفنه،توفى وغسل وكفن وُصلى عليه،ودفن. فلما كان أول الليل جاءه نباش،فنبش عليه،فلما حل أكفانه

ليأخـذها استوى قـاعدا، فخرج النبـاش هاربا منه،فقام وحـمل كفنه وخرج من القـبر، وجاء إلى منزله وأهله يبكون،فدق الباب عليهم ، فقالوا من أنت؟

فقال : أنا فلان.

فقالوا له :

لا يَحلُّ لك أن تزيدنا على ما بنا.

فقالَ: يا قوم افتحوا،فأنا والله فلان.

فعرفوا صوته،فـفتحوا له الباب، وعاد حزنهم فرحا،وسُـمِّى من يومه (حامل كفنه) توفى - رحمه الله - فى حدود الثلاثمائة.

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص١٨٩)

وكان أبو الحسن محـمد بن عـمر بن يحـيى الزيدى العلوى قد بنى دارا بالـكوفة، وكان فـيهـا حائط عال، فـسقط من الحـائط بنَّاء،وقام سـالما،فعجب الناس،وعـاد البنَّاء ليصلح الحائط، فقال له الشريف أبو الحسن:

قد بلغ أهلك سـقوطك،وهم لا يصدقـون بسلامتك،وكأنـى بالنوائح وقد أتين إلى بابى،فاذهب إليهم ليطمئنوا،ويصدقوا أنك فى عافية.

فخرج البنّاء إلى أهله مسرعا، فلما بلغ عتبة الباب عَثَرَ، فوقع ميّتاً.

من (الوافى بالوفيات ج٤ ص٢٤٤)

كان أبو محمد عبد الله بن محمد بن زهر طبـيبا مفرط الذكاء،وكان آباؤه معروفين بالطب.

قال أبو مروان الباجى:

قال لى أبو محمد يوما: رأيت البارحة أخـتى- وكانت أخته قد ماتت قبله- وكأننى قلت لها: بالله يا أختى عرفينى كم يكون عمرى؟ فقالت لى : طابيتين ونصفاً .

والطابية هى خشبة للبناء معروفة بهذا الاسم، وطولها عشرة أشبار.

فقلت لها: أنا أقول لك جداً،وأنت تجيـبيننى بالهزل؟ فقالت: لا،والله ما أجبتك إلا بالجد، وإنما أنت ما فهمت، أليس أن الطابية عشـرة أشبار؟ والطابيتان والنصف خمسة وعشرون شبرا، يكون عمرك خمسا وعشرين سنة.

قـال أبومـروان : فلمّـا قصّ علـىّ هذه الرؤيا، قلت له : لا تتـوهم من هـذا، فلعلّه أضغاث أحلام، قال : ولم تكمل تلك السنة إلا وقد مات، وكان عمره كما قيل خمسا وعشرين سنة، لا أقل ولا أكثر .

قيل : وقد مات مسموما - رحمه الله.

من (الوافى بالوفيٰت ج١٧ ص٥٧٦)

مشهد من مات من غمّة القبر

قال ابن خلكان :

توفى أبو الفضل أحمد بن الحسين (بديع الزمان الهمذانى) بِهَرَاةَ يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة مسموما .

ثم قال :

وجدت فى آخر رسائله التى جمعها الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست ما مثاله :

هذه آخر الرسائل، وتوفى رحمه الله تعالى بهراة يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة .

قال الحاكم المذكور : وسمعت الثقاتَ يحكون أنه مات من السكتة، وعُجِّل دفنه، فأفاق فى قبره، وسمع صوته بالليل، وأنه نُبش عنه، فوجدوه قد قبض على لحيته، ومات من هول القبر- رحمه الله.

من (وفيات الأعيان ج١ ص ١٢٩)

مشاهد من ألهمهم الله بأحوال مماتهم

من أفضل ما يكرم الله به عبده أن يلهمه إلى معرفة زمن وفاته تحديدا أو تقريبا، ليتأهب للقاء الله.

وأن من الناس من تصفو نفوسهم، فلا تلوثها كدورات المخالفات والآثام، فيمُنّ الله عليهم ويكاشفهم بأوقات وفياتهم، وبشىء من أحوالها.

قد يحدث ذلك بسماع بعضهم لهاتف يهتف بهم فى اليقظة، وقد يكون فى رؤيا يراها الشخص أو يراها له بعض الناس .

روى الطبرانى فى المعجم الكبير عن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ذَهَبَتِ النبُوَّة، فَلا نُبَوَّةَ بَعْدِى، إلا المبَشـرَات : الرّؤْيَا الصَّالحَةُ، يَرَاهَا الرَّجلُ أو تُرَى لَه).

وروى ابن جرير عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (الرّؤْيَا الْحَسَنَةُ هِىَ البُشْرَى، يَرَاهَا المؤمن أَوْ تُرَى لَه) .

وروى الطبرانى فى المعجم الكبير والضياء المقدسى فى المختارة عن عُبادة بن

الصامت رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (رؤْيَا المؤْمِنِ كلامٌ يُكَلِّمُ به العَبْدَ ربُّهُ فِى المنامِ).

وليس معنى تلك المكاشفات أن الإنسان يرى فى المنام أنه قد مات ، لأن موت الإنسان فى المنام يعبّر فى علم (تعبير الرؤيا) بمعان كثيرة، وهى تختلف باختلاف ما يحيط برؤيا الموت من أشياء كالبكاء، والغسل، والكفن، والنعش، والدفن، والخروج من القبر، والعيش بعد الموت ....

فمن رأى أنه قد مات فقد تدل رؤياه على نقص فى دينه، وقد تدل على انتقاله بالسفر، وقد تدل على فقره بعد الغنى ، وقد تدل على زواجه، وقد تدل على نجاته من الهموم ..... الخ وهكذا يختلف تعبير رؤيا الوفاة باختلاف ما يحيط بها .

أما الدلائل على مدى عمر الإنسان فهى كثيرة، ومن بينها أن يرى الإنسان - فى منامه - شيئا خاصا، له دلالة على معنى معين يتصل باقتراب النهاية، فتدل رؤياه لذلك الشىءعلى قرب نهايته، كأن يرى شخصا أعطاه وردا ، فيكون تعبيره قرب وفاته، لارتباط ذلك بمدة بقاء الورد وهى مدة قصيرة، كما قال الشاعر :

أَنْتَ وَرْدٌ وَبَقَاءُ الْـ ... وَرْدِ شَهرٌ لا شهورْ
وَهْوَ فَوْقَ الآسِ وَالآ ... سِ عَلَى الدَّهرِ صَبُورْ

إن مكاشفات الناس بأحوال وفياتهم وأوقاتها مكاشفات كثيرة فى الحياة ومتنوعة . فمن الناس من يكاشفه الله بالسنة التى سيموت فيها، بل قد يكاشَفُ بالشهر، أو اليوم، أو بوقت محدد من يوم معين، مثل عقب صلاة الجمعة، أو قبل صلاة العشاء من آخر شعبان .

ومنهم من يكاشَف بمن سيُصلِّى عليه من خُصمائه فيكون الأمر كذلك، ومنهم من يكاشف بالمكان الذى سيُقبر فيه، ولو كان بعيدا عنه فيقبر فيه كما رأى .

ومنهم من يكاشَف بأنه سيُقبر بمكان، ثم يقع تحويله منه، فيتم ذلك حسب ما كوشف به، ويحوّل من قبره الأول بعد سنين.

ومنهم من يكاشف بأن عمره سيكون مساويا لعمر أبيه مثلا فيعيش كذلك .

إن كل تلك الأحوال هى من الغيب الذى استأثر الله وحده بعلمه، ما فى هذا الأمر شك ، ولكن الله سبحانه قد يكاشف بها خواصَّ عباده، إما بوحى منه، وهذه المرتبة خاصة بالأنبياء، وإما بإلهام صادق لعبد صالح، وإما برؤيا حسنة يراها المؤمن أو تُرى

له، فقد روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِنَ الرَّجلِ الصَّالِحِ جزْء مِنْ ستة وأَرْبَعينَ جزْءًا مِنَ النّبوّة).

وكل ذلك من مواهب الله تعالى ورحمته: ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِه مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ البقرة - ١٠٥ .

مشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوحى الله إليه بقرب وفاته

قال الشيخ صفى الرحمن المباركفورى فى (الرحيق المختوم) لما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره صلى الله عليه وسلم، وتتضح بعباراته وأفعاله.

أنه اعتكف فى رمضان من السنة العاشرة عشرين يوما، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، وتدارسه جبريل القرآن مرتين .

وقال فى حجة الوداع: إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً. وقال وهو عند جمرة العقبة : خذوا عنى مناسككم، فلعلى لا أحج بعد عامى هذا. وأنزلت عليه سورة النصر فى أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعيت إليه نفسه .

وفى أوائل صفر من السنة الحادية عشرة خرج صلى الله عليه وسلم إلى أحُد فصلَّى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر، فقال:(إنى فَرَطُكُمْ، وإنى شهيد عليكم، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإنى والله ما أخاف أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها) (١)

وفى الأيام الأخيرة من مرض وفاته الذى استغرق أربعة عشر يوما أحسَّ بخفة يوم الأربعاء قبل وفاته بخمسة أيام فدخل المسجد وهو معصوب الرأس حتى جلس على المنبر والناس مجتمعون حوله فقال : قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا تتخذوا قبرى وَثنًا يُعبدُ .

---

(١) وروى البخارى هذه الخطبة عن عقبة بن عامر، وقال : فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعرض صلى الله عليه وسلم نفسه للقصاصِ قائلا : من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فَلْيَستَقدْ، ومن كنت شتمت له عرضاً، فهذا عرضى فَلْيَستَقِدْ منه.....

ثم قال : (إن عبداً خيَّره الله أن يوتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده).

قال أبو سعيد الخدرى : فبكى أبو بكر رضى الله عنه وقال فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر، وكان أبو بكر رضى الله عنه أعلمنا.

من (الرحيق المختوم ص ٥٢٢ - ٥٢٤)

وروى ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : اجتمعن نساء النبى صلى الله عليه وسلم فلم تغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة رضى الله عنها كأن مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (مرحبا بابنتى) ثم أجلسها عن شماله، ثم إنه أسرَّ إليها حديثا، فبكت فاطمة رضى الله عنها ثم إنه سارَّها فضحكت أيضا، فقلت: لها ما يبكيك؟ قالت ما كنت لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن. فقلت لها حين بكت: أخصك رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث دوننا ثم تبكين ؟ وسألتها عما قال . فقالت : ما كنت لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا قُبض سألتها عما قال، فقالت: إنه كان يحدثنى أن جبريل كان يعارضه بالقرآن فى كل عام مرة ، وأنه عارضه به العام مرتين (ولا أرانى إلا قد حضر أجلى وأنك أول أهلى لحوقا بى، ونعم السلف أنا لك) فبكيت، ثم إنه سارَّنى فقال : (ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو نساء هذه الأمة، فضحكت لذلك).

وروى ابن ماجه أيضا عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (ما من نبى يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة) فلما كان مرضه الذى قُبض فيه أخذته بَحَّةٌ، فسمعته يقول : ﴿ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحين ﴾ النساء - ٦٩ قالت رضى الله عنها فعلمت أنه خُيِّر.

مشهد من اشتد مرضه، فأخبر أنه
سيعافى ثم يموت فى مرضة ثانية

ذكر أبو إسحاق السَّبائى أن أبا محمد عبد الله التَّاهرْتىّ اعتل علة شديدة حتى يئسوا منه، فقال للذى يخدمه:

إنى لست أموت من هذه العلة، وأنا أفيق منها إن شاء الله تعالى، فإذا كانت المرضة الثانية بعدها توقعوا موتى .

قال أبو إسحاق السبائى ما أراه إلا دعا الله عز وجل فأُخبر بذلك فى منامه. وقال أبو مالك سعد بن مالك الدباغ :

شهدته وقد احتُضر وحوله جماعة، فتذاكروا الموت وسكراته، وشدته وغمراته، ثم قال :

ادخُل يا ملك الموت، وأقبل يبتسم وينظر عن يمينه، وشَممْنَا رائحة طيبة.

من (رياض النفوس ج٢ ص ٨٢)

مشهد من أخبر أن رجلا سيموت فى
ذلك اليوم وقد عنى نفسه فمات

كان أبو صالح أيوب بن سليمان المعافرى الجيانى يهمس أحيانا بأشياء من علم الحدثان، وقد ذُكر أنه وقف يوما بباب داره مع جيرانه على عادته، فقال لهم :

سيموت اليوم رجل من العرب يعز فقده، ودخل داره، فما خرج عن داره، وتوفى رحمه الله مساء يومه، وذلك يوم الخميس لسبع بقين لمحرم سنة اثنتين وقيل إحدى وثلاثمائة.

من (ترتيب المدارك ج٥ ص ١٥٣)

مشهدان عجيبان من ميت وغاسل

قال خادم أبى بكر الشبلى الصوفى :

وجد الشبلى يوم الجمعة آخر ذى الحجة خفة من وجع كان به، فقال لى :

تنشط نُمضى للجامع ؟

فقلت : نعم .

واتكأ علىّ حتى انتهينا إلى الورَّاقين، فتلقانا رجل، فقال الشبلى :

غدا يكون لى مع هذا الشيخ شأن من الشأن.

وصلينا ثم عدنا، فتثاقل، ومات من الليل، فقيل لى فى موضع كذا شيخ صالح يغسِلُ الموتى، فدلونى عليه سحراً، فنقرت الباب خفيفا، وقلت سلام عليكم.

فقال :

مات الشبلى؟

قلت : نعم .

فخرج إلىَّ، فإذا هو الشيخ الذى لقيناه أمس.

قلت : لا إله إلا الله (تعجبا) ثم قلت :

بحق معبودك من أين لك أن الشبلى مات ؟ (فقال لى : يا أبْلَهُ، من أين للشبلى أن يكون لى معه شأن من الشأن اليوم ؟

توفى رحمه الله يوم الجمعة فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة .

من (ترتيب المدارك ج ٥ ص ٤٧)

مشهد من قال لمن عاده : غدا تعاين الكثير من عفو الله

ذكر القاضى عياض أن بكر بن سليمان الصوَّاف قال :

دخلنا على الإمام مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها، فقلنا: يا أبا عبد الله كيف تجدك؟

فقال :

ما أدرى كيف أقول، إلاّ أنكم ستعاينون غداً من عفو الله مالم يكن فى حساب. ثم ما برحنا حتى أغمضناه .

قال عياض : وقيل أنه تشهد ثم قال : للهِّ الأمرُ من قبل ومن بعد.

وقال : مرض مالك اثنين وعشرين يوما وتوفى يوم الأحد لعشر مضين من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة .

من (ترتيب المدارك ج٢ ص١٤٦)

مشهد من عبَّر سقوط باب داره بموته

ذُكر أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبى زيد القيروانى رُئىَ فى مجلسه تحت فكرة وكآبة، فسُئل عن سبب هذا فقال :

رأيت باب دارى سقط، وقد قال فيه الكرمانى : إنه يدل على موت صاحب الدار.

فقيل لأبى محمد :

هل الكرمانى مالك فى علمه؟

فقال : نعم هو فى علمه مثل مالك فى علمه .

فلم يقم الشيخ أبو محمد إلا يسيرا حتى مات رحمه الله سنة ست وثمانين وثلاثمائة .

(من (ترتيب المدارك ج٦ ص٢٢٢)

مشهد من ألهم أنه سيموت قبل الفجر من يوم الأحد

ذكر تاج الدين عبد الوهاب السبكى فى الطبقات الوسطى أن أبا العباس النَّسوى قال :

لما اعتل أبو العباس أحمد بن محمد الديبلى علتّه التى تُوفى فيها، وتوليت خدمته، شهدت منه فى علّته أحوالا سنيَّة، وقال لى : إنه يموت ليلة الأحد.

وقال لى :

تنحً فإنى أريد أن أجمع بين صلاتين (يعنى صلاة المغرب وصلاة العشاء).

وركع وأوتر، ثم أخذ فى السياق، وهو حاضر معنا إلى نصف الليل ، فقمت وطرحت نفسى ساعة، ثم رجعت إليه، فلما رآنى قال :

أىّ وَقْت هذا ؟

قلت : قُرْبَ الصُّبحِ.

فقال : حوِّلونى إلى القبلة .

فأخذ يقرأ، فقرأ مقدار خمسين آية، ثم خرجت روحه، مات رحمه الله سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

من (هامش الطبقات الكبرى ج٣ ص٥٥)

مشهد من سمع هاتفا يقول ستمتد حياته ثلاثين سنة

دخل محمد بن الحسين الآجُرّى الفقيه الشافعى مكة المكرمة، فأعجبته الإقامة بها فقال :

اللهم ارزقنى الإقامة بها سنة. فسمع هاتفا يقول : بل ثلاثين سنة ، فعاش بعد ذلك ثلاثين سنة ومات رحمه الله بمكة سنة ستين وثلاثمائة .

من (الوافى بالوفيات ج٢ ص٣٧٣)

مشهد من سمع هاتفا يخبره بوقت وفاته

نقل المالكى فى الرياض عن محـمد ولد أبى على الحسن بن نصـر السويسى أن أباه قال له :

يا بُنَىَّ أربِطْ لى حَبلاً فى السقف، لعلى أَقـدِر أصَلِّى قائما، وكان ذلك فى علته التى مات فيها.

قال : فـربطت له الحبل، وحملناه حتى وقـف على نفسه وأمسك الحـبل فغُلب ولم يستطع القيام كما كان، فبكى وقال :

وَاغَـوْثَاه، يَا لَلَّه، حيلَ بينْى وبين طاعة ربِّى، فقلت له :

يا أبى صَلِّ جَالِسًا، وأنتَ تعلَم أنّ الفَـرض يصَلَّى مِن جلوس مع الضرورة، فكيف النفل؟

فقال لى :

يا بُنَىّ العمرُ قـصيرٌ، والعملُ قليلٌ، وإنّمـا أردتُ أن أعمَل أكثرَ ممّا عَمِلْتُ، فـالحمد لله على ما قَضَى وَقَدَّرَ.

قال ابنه محمد :

ولما طالت بأبى العلة قال لوالدتى :

يا عائشة طالت علتى، وتوليتِ منى خـيراً، وتعبتِ معى تعبا كـثيرا . وأنت فى ذلك مثوبة مأجورة، لا تملى ولا تزهدىَ فى خدمتى، واصبرِى فإنى ما أشكُّ فى أن أجلى قد قَرُب، فيذهب أجرك بقلة الصبر، سمعتُ هاتفا يقول لى من هذا الطاق:

يا حسن، غداً صلاة الظهر يُفرج عنك، فما أشك فى أنى بالغداة أموت.

فكان كذلك رحمه الله تعالى .

من (رياض النفوس ج٢ ص ٣٩٣)

مشهد من نعى فى منامه بالشعر

كان أبو عمر أحمد بن محمد المعافرى الأندلسى الطَّلَمنكىُّ ذا عناية تامة بالأثر، وكان سيفا مجردا على أهل الأهواء والبدع، قال ابن بشكوالَ : أخبرنى أبو القاسم إسماعيل بن عيسى بن محمد الحجارى عن أبيه أنه قال :

خرج علينا أبو عمر الطَّلمنكى يوما ونحن نقرأ عليه فقال :

اقرأوا، وأكثروا، فإنى لا أتجاوز هذا العام، فقلنا له :

ولمَ - يرحمك الله؟

قالَ : رأيت البارحة فى منامى مَن يُنشدنى :

اغْتَنِـــموا الـبرَّ بشَيْـخٍ ثَوَى   تَرحَمُه السُّـوقَةُ والصِّـــيدُ
قَدْ خَتَـــمَ العُمرَ بعيدٍ مَضَى   لَيْـــسَ لَه منْ بَعْـــده عِيدُ

فتوفى رحمه الله فى ذلك العامِ فِىَّ ذى الحجة سنة تسع وعشرين وأربعمائة .

من (الوافى بالوفيات ج٨ ص٣٣)

مشهد من زار مدفنه قبل موته بيوم أو يومين

لما مرض الشيخ برهان الدين إبراهيم بن معضاد مرض موته، أمر أن يُخرج به حيا إلى مكان مدفنه ظاهر القاهرة بالحسينية، فلما وصل إليه قال له :

قُبَيْر، جاءك دُبَيْر.

وتوفى بعد ذلك بيوم أو يومين سنة سبع وثمانين وستمائة، وقد جاوز الثمانين بسنوات .

من (الوافى بالوفيات ج٦ ص ١٤٨)

مشهد من شعر بقرب دخول ملائكة الوفاة عليه

روى الشعبى عمن حدثه أن بُقيرة امرأة سلمان الفارسى رضى الله عنه قالت :

لما حضر سلمان الموت دعانى وهو فى عُلَيَّة لها أربعة أبواب، فقال :

افتحى هذه الأبواب يا بُقيرة فإن لى اليوم زوارا لا أدرى من أى هذه الأبواب يدخلون علىّ.

قالت : ثم دعا بمسك له فقال : أذيفيه فى تور ، ففعلت، ثم قال انضحيه حول فراشى ، ثم انزلى، فامكثى ، فسوف تطَّلعين فترينى على فراشى .

قالت : فَاطَّلَعْتُ، فإذا هو قد أخِذَتْ روحه، فكأنه نائم على فراشه.

من (الحلية ج١ ص٢٠٨)

مشهد من قال : لا يكون موتى بالأوجاع

قال أبو نعيم :

سمعت أبى يقول وعنده أصحاب علىّ بن سهل أن علىّ بن سهل كان يقول :

ليس موتى كموتكم بالأعلال والأسقام، إنما هو دعاء وإجابة أُدْعَى فأجيب.

فكان كما قال : كان يوما قاعدا فى جماعة فقال : لبّيك ووقع ميّتًا رحمة الله عليه وعلينا وعلى أموات المسلمين .

من (الحلية ج١٠ ص ٤٠٥)

وروى ابن الجوزى هذا المشهد بعد أن قدّم له بقوله :

كان أبو الحسن علىّ بن سهل بن الأزهر الأصبهانى من المترفين فتزهد، وكان يبقى

الأيـام الكـثيرة لا يـأكل، وقال استولى علىّ الشوق فألهانى عن الأكل.

وكان يقول : المبادرة إلى الطاعات من علامات التوفيق، والتقاعد عن المخالفات من علامات حُسن الرعاية.

قال أبو حامد أحمد بن عبد الله بن رُسْتَهْ، وكان من أصحاب علىّ بن سهل : أنه كان يقول :

ليس موتى كموتكم بأعلال وأسقام، إنما هو دعاء وإجابة، أُدْعَى فأجيب، فكان كما قال، كان يوما قاعدا فى جماعة فقال : لبّيك، ووقع ميْتًا رحمه الله توفى سنة سبع وثلاثمائة.

من (صفة الصفوة ج٤ ص٨٦)

مشهد من رجا ألا يتألم بسكرات الموت

كان الصحابى الجليل أبو ثعلبة الخُشَنىُّ رضى الله عنه يقول :

إنى لأرجو ألا يَخْنُقَنى الله عَزَّ وَجَلَّ كما أراكم تُخْنَقونَ عند الموت .

فبينما هو يصلى فى جوف الليل قُبض وهو ساجد .

ورأت ابنته فى نومها أن أباها قد مات فاستيقظت فزعة، فنادت أمها :

أين أبى ؟

قالت : فى مصلاه .

فنادته، فلم يجبها، فوجدته ساجدا فحركته فوقع لجنبه مَيْتًا.

من (الحلية ج٢ ص٣١)

مشهد من ألهم أنه سيعيش كعُمر أبيه

نقل ابن خلكان عن أبى إسحاق بن حفص أن أبا واثلة إياس بن معاوية المزنى القاضى قال - فى العام الذى توفى فيه - رأيتُ فى النوم كأنى وأبى على فرسين فجريا معا ، فلم أسبقه ولم يسبقنى، وعاش أبى ستا وسبعين سنة وأنا فيها.

قال أبو إسحاق :

فلمّا كان آخر ليالى إياس قال : أتدرى أىُّ ليلة هذه؟ هذه ليلة أستكمل فيها عمر أبى، ونام إياس فأصبح مَيْتًا.

وقال أبو إسحاق :

رأى إياس أنه لا يدرك عيد النحر فخرج إلى ضيعة له بِعَبْدَسِيّ (قرية بين البصرة وخوزستان) فتوفى بها سنة اثنتين وعشرين ومائة .

من (وفيات الأعيان ج١ ص ٢٥٠)

مشهد من قيل له سيكون عمره كعمر جده

نقل تاج الدين السبكى عن أبى عبد الله الحاكم صاحب المستدرك أنه قال :

سمعت أبا الوليد حسان النيسابورى فى مرضه الذى مات فيه يقول :

قالت لى والدتى : كنت حاملا بك وكان للعباس بن حمزة مجلس، فاستأذنت أباك أن أحضر مجلسه فى أيام العشر، فأذن لى، فلما كان فى آخر المجلس قال العباس بن حمزة قوموا، فقاموا وقمت معهم، فأخذ العباس يدعو فقلت :

اللهم هب لى ابنا عالما .

فرجعت إلى المنزل فبت تلك الليلة، فرأيت فيما يرى النائم كأن رجلا أتانى فقال: أبشرى فإن الله قد استجاب دعوتك، ووهب لك ولدا ذكرا وجعله عالما، ويعيش كما عاش أبوك، قالت وكان أبى عاش اثنين وسبعين سنة .

قال أبو الوليد : وهذه قد تمت لى اثنتان وسبعون سنة، قال الحاكم: فعاش بعد هذه الحكاية أربعة أيام، وكان إمام أهل الحديث بخراسان، وأزهد من رأيت من العلماء وأعبدهم وأكثرهم تقشفا ولزوما لمدرسته وبيته ، توفى رحمه الله تعالى بنيسابور ليلة الجمعة خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وثلاثمائة .

من (طبقات الشافعية لابن السبكى ج٣ ص٢٢٧)

مشهد من ألهم أن أجله كأجل ثلاثة سبقوه

كان أبو بكر عبد العزيز المعروف بغلام الخلاَّل قد قال فى علته التى مات فيها :

أنا عندكم إلى يوم الجمعة.

فقيل له :

يعافيك الله أو كلاما هذا معناه فقال :

سمعت أبا بكر الخلال يقول : سمعت أبا بكر المروزى يقول :

عاش أحمد بن حنبلٍ ثمانيا وسبعين سنة، ومات يوم الجمعة ودفن بعد الصلاة.

وعاش أبو بكر المروزى ثمانيا وسبعين سنة، ومات يوم الجمعة ودفن بعد الصلاة.

وعاش أبو بكر الخلال ثمانيا وسبعين سنة ومات يوم الجمعة ودفن بعد الصلاة.

وأنا عندكم إلى يوم الجمعة، ولى ثمان وسبعون سنة، فلما كان يوم الجمعة مات، ودفن بعد الصلاة رحمه الله .

من (طبقات الحنابلة ج٢ ص١٢٦)

مشهد من رأى أنه بنى سبعين درجة ثم تدهورت فعاش مثلها

نقل ابن خلكان عن ابن سعد من الطبقات أن خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى قال :

رأيت فى المنام كأنى بنيت سبعين درجة فلما فرغت منها تدهورت، وهذه السنة لى سبعون سنة قد أكملتها .

قال ابن سعد : فمات فيها رحمه الله .

توفى خارجة بالمدينة سنة تسع وتسعين وقيل سنة مائة .

من (وفيات الأعيان ج٢ ص٢٢٣)

مشهد من قال أنه لا يصوم رمضان المقبل فمات آخر شعبان

كان الشيخ الصالح على بن إسماعيل العثمانى من ذرية سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ولما دخل شهر شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة قال لتلاميذه :

إنى لا أصوم مع الناس شهر رمضان المعظم المستقبل، وهو - يومئذ - صحيح ليس به ألم، فعجبوا من مقاله، ولم يبق إلا ثلاثة أيام من شعبان، فمات فى آخر يوم من شعبان قبل دخول رمضان عليه .

ولما كان اليوم الذى توفى فيه تطهر وتوضأ وتطيب، وقال لخدمته :

لم يبق لكم من خدمتى إلا اليوم، ثم دخل إلى بيته فصلى ركعتين ونام على فراشه. فلما حان وقت صلاة الظهر أتاه خديمه يوقظه للصلاة فوجده ميتا رحمه الله ورضى عنه.

من (الأنيس المطرب ص ٢٦٥)

مشهد رجل صحيح أخبر أنه لن يستكمل يومه

قال قريش بن أنس :

قدم معاوية بن قرة من سفر، فدخل على ابنه إياس بن معاوية فقال :

إن هذا اليوم ما ينبغى أن أكون فيه حياً، إنى رأيت فى النوم كأنى وأبى نستبق إلى غاية، فأدركناها معا، وقد بلغت اليوم سن أبى .

قال:

فما أخرج إلا ميتًا .

من (الحلية ج٢ ص٣٠٠)

مشهد من ألهم أنه لا يستكمل ستين سنة

قال محمود بن حماد الحموى كاتب السر للسلطان أبى الفداء إسماعيل بن على صاحب حماه :

من الغريب أن السلطان كان يقول : ما أظن أنى أستكمل من العمر ستين سنة ، فما فى أهلى - يعنى بيت تقى الدين - من استكملها، وكان فى أوائل الستين من عمره، فمات فى بقية السنة ، رحمه الله .

من (الوافى بالوفيات ج٩ ص١٧٨)

مشهد من قال لا يصلى عليه إلا من أقسم أنه لا يصلى عليه

كان المولى أبو السعود العمادى صاحب التفسير قد وقع خلاف بينه وبين الشيخ حسن بن أحمد الرومى الخلوتى المشهور بسنان زاده القسطنطينى فحنق المولى أبو السعود، وحلف أنه إن مات الشيخ سنان قبله لا يحضر للصلاة عليه، فقال له :

خفّض عليك لا يصلى على إماماً إلا أنت، وليس لك محيد عن ذلك .

فاتفق أنه يوم موت الشيخ سنان توفيت ابنة السلطان سليمان، وأحضرت الجنازة فى الجامع، ودُعى أبو السعود للصلاة عليهما، وكان لم يبلغه نبأ وفاة الشيخ، فقدم للصلاة على الجنازتين.

ولما أتم الصلاة سأل ، فقيل له هذا الشيخ سنان فكفر عن يمينه، وكان بعد ذلك إذا طرأ ذكره يعظمه ويذكر أحواله .

من (خلاصة الأثر ج٢ ص٢٠)

مشهد من أخبر بوفاته ووفاة أصحابه على ترتيب محدد

كان الشيخ محمد بن أحمد بن عقبة بن الهادى قد زاره ثلاثة من أصحابه يوما فى سنة وفاته، فتذاكروا الموت، فقال لهم على سبيل المداعبة :

قد قربت وفاتي جداً، وأنت يا فلان تلحقني بسرعة، ثم فلان، ثم فلان .فصاحوا عليه، وقالوا : ما كان لنا حاجة بهذا الكلام.

فقال :

لابد من ذلك .

فمـا مضت أيام قليلة حـتى مات، ولحـقه المذكـورون كما ذكـر واحدا بعـد واحد. وكانت وفاته بمكة المكرمـة المشرفة سنة ثلاث وثمانين وألف للهجرة، ودفـن ببيته الذى كـان يسكنه مـلاصـقـا لقـبر أبيـه وجـده لأمـه بقـرب جبل شظـا على طريق الذاهب للمعلاة.

من (جامع الكرامات ج١ ص٢٠٢)

مشهد من توجه مستعجلا إلى اليمن وأحضر كفنه فمات

قال الشـيخ الغزى أخبـرنا الشيخ مـحمد ابن الشـيخ سعد الدين أن الـشيخ أبا بكر اليمنى نزيل مكة لما قربت وفـاته زار قبر النبى صلى الله عليه وسلم مستـعجلا، ثم عاد إلى مكة، وتوجه منها مـستعجلا إلى اليمن، فلما حـضر إلى البحر لقى سفينة فـركبها، فلما دخل اليـمن أمر بعض جمـاعته ليـحضر له جـهازه (يعنى كفنه) ثم مـات عقب ذلك فى سنة خمس وثمانين وتسعمائة .

من (جامع الكرامات ج١)

مشهد من رد زواجا وقال سيتزوج بعد خمسة أيام فمات بعدها

قال الشيخ محيى الدين بن عربى فى كتابه (روح القدس) :

كان أبو على الـشكاز الإشبيلى مـولعا بالنكاح جـدا لا يستـغنى عنه، فأراد شـيخنا السبريلى أن يأخذه لابنة أخيه، فمشت إليه أم الزهراء فقالت : يا أبا على إن أبا الحجاج يحب أن يعطيك بنت أخيه، وكان هذا يوم الأحد، فقال :

أنا كنت من أحب الناس فى مـصاهرته، ولكن قـد تزوجت وبعـد خمسـة أيام من يومنا هذا أدخل بزوجتى عروسا.

فقالت :

بنت من تزوجت ؟

فقال :

سترين ذلك الوقت .

وانصرف إلى منزله، ولازم فراشه حتى انقضت خمسة أيام، فمات رحمه الله.

من (جامع الكرامات ج١ ص٢٨٢)

مشهد من قال : إن منيتى قربت
ولغير هذا المكان قدرت

لما فشا ذكر أبى مدين فى البلاد، وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور،وقال له :

إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبها بالإمام المهدى، وأتباعه كثيرون بكل بلد .

فوقع فى قلبه، وأهمه شأنه، فبعث إليه فى القدوم عليه ليختبره، وكتب لصاحب بجاية بالوصية به والاعتناء وأن يحمل خير محمل .

فلماً أخذ فى السفر شق على أصحابه،وتحيَّرُوا وتكلموا فسكّتهم وقال لهم :

إن منيتى قربت، ولغير هذا المكان قُدرت، وأنا شيخ كبير ضعيف، لا قدرة لى على الحركة، فبعث الله تعالى من يحملنى إليه برفق، ويسوقنى إليه أحسن سوق، وأنا لا أرى السلطان ولا يرانى .

فطابت نفوسهم، وذهب بؤسهم، وعلموا أن ذلك من كراماته.

فارتحلوا به على أحسن حال، حتى وطئوا به حوز تلمسان فبدت له رابطة العُبَّاد، فقال لأصحابه : ما أصلحه للرقاد، فمرض مرض موته، فلما وصل وادى يسر اشتد به المرض ونزلوا به هنالك فكان آخر كلامه : الله الحق .

توفى رحمه الله سنة أربع وتسعين وخمسمائة

من (نفح الطيب ج٩ ص٣٤٩)

مشهد قاض بحلب رأى عمره يتم بقضائها
فدعى إلى قضاء دمشق فمات فى الطريق

طلب السلطان الشيخ أبا المعالى محمد بن على كمال الزملكانى، طلبه من حلب ليوليه قضاء دمشق لما نقل قاضى القضاة جلال الدين القزوينى إلى قضاء الديار المصرية.

حكى لى شهاب الدين بن فضل الله عن عبد الرحمن تقى الدين بن كمال الدين الزملكانى أن والده الشيخ كمال الدين قال له :

يا ولدى والله أنا ميت ، وما أتولى لا مصر ولا دمشق، وما بقى بعد حلب ولاية أخرى ، لأنه فى الوقت الفلانى حضر إلى الجامع فلان الصالح ، فترددت إليه، وخدمته، وطلبت منه التسليك، فأمرنى بالصوم مدة، ثم أمرنى بصيام ثلاثة أيام – أظنه قال – أفطر فيها على الماء واللبان الذكر ، وكان آخر ليلة من الثلاث ليلة النصف من شعبان، فقال لى :

الليلةَ تجيءُ إلى الجامع تتفرج، أو تَخْلو بنفسك ؟

فقلت : أخلو بنفسى .

فقال : جيِّد، ولا تزال تصلى حتى أجئَ إليك .

قال : فخلوت بنفسى أصلِّى كما وَفَّقنى ساعةً جيدة، فلما كنت فى الصلاة إذا به قد أقبل، فلم أبطل الصلاة، ثم إننى خيل لي قبة عظيمة بين السماء والأرض، وظاهرها معارج ومراق، والناس يصعدون فيها من الأرض إلى السماء، فصعدت معهم، فكنت أرى على كلِّ مرقاة مكتوبا نظر الخزانة، وعلى أخرى وكالة بيت المال، والمدرسة الفلانية ثم قضاء حلب.

فلما وصلت إلى هذه المرقاة استفقت من تلك الحالة ورجعت إلى حسى، وبت ليلتى، فلما اجتمعت بالشيخ قال :

كيف كانت ليلتك ؟ جئت إليك وما قصرت، لأنك ما اشتغلت بى، والقبة التى رأيتها هى الدنيا، والمراقى هى المراتب والوظائف والأرزاق، وهذا الذى رأيته كله تناله. والله يا عبد الرحمن، وكل شىء رأيته قد نلته ، وكان آخر الكل قضاء حلب، وقد قرب الأجل أو كما قال ثم مرض فى الطريق، وأدركه الأجل فى سادس عشر شهر رمضان سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

من (الوافى بالوفيات ج٤ ص٢١٦)

مشهد من جمع أصحابه ليلة وفاته، وأعلمهم بساعة انتقاله

كان السيد محمد بن عمر الملقب بالمعلم قد جمع ليلة وفاته جميع الأصحاب، وأوصى بما وردت به السنة والكتاب، وجعلهم عن يمينه وشماله، وأعلمهم بساعة انتقاله،وأمرهم بقراءة القرآن بإخلاص، وكرر هو سورة الإخلاص، ولم يزل يكررها إلى أن فاضت روحه عند آخرها - رحمه الله، وكانت وفاته سنة تسع وعشرين وثمانمائة.

من (جامع الكرامات ج١ ص٢٦٠)

مشهد من نظر إلى مقبرة وقال: إن لنا هنا حبسة طويلة

قال الشيخ على بن عبد الرحمن الصالحى :

كنت مع الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحيم الزعبى قبل أن يموت بسنة فى

الصالحـية، حتى إذا وصلنا إلـى الزقاق الذى يذهب منه إلى ضريح الشـيخ أبى بكر بن قرام غربى الصالحية قال :

لا إله إلا الله ، إن لنا هنا حـبسة طويلة، وأشـار إلى المقبـرة التى بالسفح فى الجـهة المذكورة.

قال الشيخ على :

فمـازلت متـفكرا فى مقالـته تلك حتى توفـى ودفن هناك، وكانت وفاته سـنة ثمان وسبعين وتسعمائة .

من (جامع الكرامات ج١ ص١٨٤)

مشهد من قال سأموت بعد يومين

كان أبو بكر الشعيبى الولى الزاهد من قرية الشعيبية وهى من قرى ميافارقين.

قال سعد الديـن الجوينى :كان الشعيبى من صلحـاء الأبدال، صاحب علم وعمل ، ورياضات ومجاهدات .

وكان أكثر أوقاته يتكلم على الخاطر، وكان كثيرا ما يقول عقب كلامه :

اللَّهمَّ ارْحَمْنَا .

فسألته عن التتار قبل أن يطرقوا البلاد فزفر زفرة ثم أنشد :

وَمَا كلّ أَسْرَارِ النّفوس مذَاعَةٌ ... وَلا كلّ مَا حَلَّ الفؤَادَ يقَالُ

خرج إلى قريته الشعيبية، وقال لأولاده:

احْفروا لى قَبْراً، فأنا أموت بعد يومين .

فحفَروا له، ثم مات فى اليوم الذى عينه سنة إحدى وأربعين وستمائة - رحمه الله.

من (الوافى بالوفيات ج١٠ ص ٢٦٩)

مشهد من ألهم أنه بقى من أجله شهران

قال نجم الدين الغزى كـان الشيخ يحيى بن العمادى شيـخنا فى تعليم القرآن، ولقد حدثنى قريب موته قائلا :

إن من أولياء الله مَن كرامته أن يُخبر بوقت موته قبل موته ليتأهب للقاء الله تعالى، وهى أفضل الكرامات.

قال نجم الدين الغزى :

وأخبـرنى - رحمه الله - قـبل موته أنه بقى من أجله شهـران، وكان - عندئذ- فى غاية الصحة، فـمرض بعد ذلك، ومات عند تمام الشهرين سنة تسع وثمـانين وتسعمائة ودفن بباب الصغير بدمشق .

من (جامع الكرامات ج٢ ص٢٨٨)

مشهد من قال سمعا وطاعة واستقبل القبلة ومات

نقل تاج الدين السبكى عن ابن الجوزى أنه قال :

ذكر الشيخ أحمد أخو الإمام أبى حامد الغزالى أنه لما كان يوم الاثنين وقت صلاة الصبح توضأ أبو حامد وصلى وقال : علىَّ بالكفن .

فأخذه وَقَبَّلَه ، ووضعَه على عَيْنَيْه، وقال :

سمعا وطاعة للدخول على الملك .

ثم مد رجليه، واستقبل القبلة، ومات قبل الإسفار.

توفى - رحمه الله - بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة .

من (طبقات الشافعية ج٦ ص٢٠١)

مشهد من ألهم أنه سيقبر فى موضع محدد

حدث محمد بن أبى رجاء ومحمد بن عيينة أو أحدهما فقال :

إن محمد بن يوسف خرج فى جنازة بالمصيصة، فنظر إلى قبر أبى إسحاق الفزارى ومخلد بن الحسين وبينهما موضع قبر فقال :

لو أن رجلا مات فدفن بينهما .

فما أتت عليه إلا عشرة أيام أو نحوها حتى دفن فى ذلك الموضع الذى أشار إليه.

من (الحلية ج٨ ص١٢٩)

مشهد من استنبط وفاته من آية لها صلة برؤيا

نقل تاج الدين السبكى عن التنوخى عن بعض أصحاب ابن سريج أنه قال :

إن ابن سريج قال لنا يوما:

أحسب أن المنية قربت ، فقلنا: وكيف ؟

قال : رأيت البارحة كأن القيامة قامت والناس قد حشروا، وكأن مناديا ينادى :

بم أجبتم المرسلين ؟

فقلت : بالإيمان والتصديق.

فقال : ما سئلتم عن الأقوال ، بل سئلتم عن الأعمال ، فقلت :

أما الكبائر فقد اجتنبناها، وأما الصغائر فعولنا فيها على عفو الله ورحمته.

فقلنا لابن سريج: ما فى هذا ما يقتضى سرعة الموت .

فقال : أما سمعتم قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ الأنبياء - ١ -
قال : فمات بعد ثمانية عشر يوما.
وكان ممن سمع هذا الكلام من ابن سريج أبو بكر الفارسى .
توفى ابن سريج - رحمه الله - سنة ست وثلاثمائة .

من (طبقات الشافعية ج٣ ص٢٣)

مشهد من سأل الله عمرا فوق السبعين فلم يجبه لذلك

نقل ابن خلكان من تاريخ ابن الأثير أنه قال :

حكى محمد بن منصور الكندرى وزير أبى طالب الملقب ركن الدولة طغرلبك أول ملوك السلجوقية، حكى عن طغرلبك أنه قال :

رأيت - وأنا بخراسان - فى المنام كأننى رفعت إلى السماء وأنا فى ضباب لا أبصر معه شيئا غير أننى أشم رائحة طيبة، وإذا بمناد ينادى :

أنت قريب من البارى جلت قدرته، فاسأل حاجتك لتقضى .

فقلت فى نفسى أسأل طول العمر، فقيل :

لك سبعون سنة.

فقلت : يا رب لا تكفينى .

فقيل : لك سبعون سنة.

فقلت : يا رب لا تكفينى .

فقيل : لك سبعون سنة .

قال ابن خلكان : ولما حضرته الوفاة قال : إن مثلى مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف، فتظن أنها تذبح، فتضطرب حتى إذا أطلقت تفرح، ثم تشد للذبح، فتظن أنه لجز الصوف فتسكن فتذبح.

وهذا المرض الذى أنا فيه هو شد القوائم للذبح، فمات من ذلك المرض - رحمه الله - يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة وعمره سبعون سنة .

من (وفيات الأعيان ج٥ ص٦٧)

مشهد من ألهم أنه سينقل من قبره

كان الشيخ أبو بكر بن قوام بن على البالسى زاهدا عابدا قانتا لله، عديم النظير، كثير المحاسن، وافر النصيب من العلم والعمل، صاحب أحوال وكرامات. أوصى ولده أن يدفن فى تابوت، وقال له :

يا بنى، لا بد أن أنقل إلى الأرض المقدسة، فنقل بعد اثنتى عشرة سنة إلى دمشق سنة سبعين وستمائة، وكانت وفاته سنة ثمان وخمسين وستمائة - رحمه الله .

من (الوافى بالوفيات ج١٠ ص٢٤٦)

مشهد من قيل له فى رؤيا قد فرغنا من بناء دارك

قال أبو المرضى سَلَمُ بن زرعة بن حماد :

كان بعبادان شيخ له عبادة وفضل، فقال لى يوما:

رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا يقول لى : قد فرغنا من بناء دارك، لو رأيتها قرت عيناك، وقد أمرنا بنجدها (أى تزيينها) والفراغ منها إلى سبعة أيام، واسمها السرور، فأبشر بخير .

فلما كان اليوم السابع وهو يوم الجمعة بكر للوضوء، فنزل فى النهر وقد مَدَّ (يعنى زاد ماؤه وارتفع) فزلق فغرق، فأخرجناه بعد الصلاة فدفناه.

قال أبو المرضى : فرأيته بعد ثالثة فى النوم وهو يجئ إلى القنطرة، وهو يكبر، وعليه حلل خضر، فقال لى :

يا أبا المرضى أنزلنى الكريم دار السرور، فما أعد لى فيها ؟ فقلت : صف لى، فقال:

هيهاتَ، يَعْجز الوَاصفونَ عن أن تَنْطقَ أَلْسنَتهم بما فيها، فَاكْتَسبْ مثلَ الذى اكْتَسَبْت، ويا ليتَ أَنَّ عِيَالِى يَعْلَمونَ أَنْ قَدْ هيِّئَ لهم منازل معى، فيها كلّ ما اشتهتْ أنفسهم، نَعَمْ وإِخْوَانِى، وأنتَ معهم إن شاء الله .

قال أبو المرضى : ثم انتبهت .

من (صفة الصفوة ج٤ ص٦٠)

مشهد من قال : اختموا لى ختمة فقد قرب أمرى

قال محمد بن الحسين السلمى سمعت جعفر بن أحمد يقول :

لما حضرت بكيرا الجرجانى الوفاة قال لأصحابه:

اجتمعوا عندى (واختموا) ختمة، فإنه قرب أمرى.

فلما اجتمعوا قرأوا الختمة وفرغوا منها مات فى ساعته - رحمه الله.

من (الوافى بالوفيات ج١٠ ص٢٧٤)

مشاهد الخائفين لا سيما عند الاحتضار

الخوف من الله هو دأب المتقين من عباد الله الصالحين، فهم الذين ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١) وهم الذين ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٢) وهم الذين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣)وهم الذين ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾(٤) وهم الذين ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٥)

هكذا عرض الله علينا ما شاء من أقوالهم وأعمالهم، فكانوا ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٦)ولم يكونوا ﴿ كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٧)

إن الخوف من الله محمود على كل حال، لا سيما إذا اجتمع مع الرجاء فى قلب العبد عند مفارقة الحياة.

روى أحمد والترمذى والنسائى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى الموت، فقال: كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه، وأمنه مما يخاف .

إن كثيرا من الناس يشتد بهم الخوف خصوصا عند الاحتضار، ومن الوقوف على أحوال بعضهم تبين أن خوفهم متنوع بالنظر إلى الداعى إليه .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٩١ .
(٣) سورة الحشر آية ١٠ .
(٤) سورة الرعد آية ٢١ .
(٥) سورة المؤمنون آيتا ٦٠-٦١ .
(٦) سورة الأنبياء آية ٤٩ .
(٧) سورة الحشر آيتا ١٩ - ٢٠ .

فمن الناس من يخاف من لقاء الله، ويرى أنه قد فرط فيما كان ينبغى له فى الحياة، ومنهم من يخاف من ألا تقبل طاعته فترد عليه حسناته، ومنهم من يخاف حياء وخجلا من الله لما كان قد تلبس به من بعض الأعمال، ومنهم من يخاف من النار وسحب العصاة إليها، ومنهم من يخاف مما بعد الموت بصفة عامة، ومنهم من كان خائفا فظهرت عليه إحدى علامات الأمن عند موته.

وإليك نماذج ممن اقترنت شدة خوفهم بالموت .

مشهد خائف من لقاء الله

قال عبد الواحد بن زيد : كان أبو محمد حبيب الفارسى قد جزع جزعا شديدا عند الموت، فجعل يقول بالفارسية:

أريد أن أسافر سفرا ما سافرته قط، أريد أن أسلك طريقا ما سلكته قط، أريد أن أزور سيدى ومولاى، وما رأيته قط، أريد أن أشرف على أهوال ما شاهدت مثلها قط، أريد أن أدخل تحت التراب فأبقى تحته إلى يوم القيامة، ثم أوقف بين يدى الله، فأخاف أن يقول لى يا حبيب هات تسبيحة واحدة سبحتنى فى ستين سنة لم يظفر بك الشيطان فيها بشىء؟ فماذا أقول وليس لى حيلة ؟

أقول : يا رب هو ذا قد أتيتك مقبوض اليدين إلى عنقى.

قال أبو زكريا: قالت امرأة حبيب :

كان يقول : إن مت اليوم فأرسلى إلى فلان يغسلنى وافعلى كذا، واصنعى كذا فقيل لامرأته: أرأى رؤيا ؟

قالت: هذا يقوله كل يوم .

من (صفة الصفوة ج٣ ص٣٢٠)

مشهد خائف من رد طاعته عليه

قال عبد الله بن الجلاء :

كنت بذى الحليفة وأنا أريد الحج، والناس يحرمون، فرأيت شابا قد صب عليه الماء يريد الإحرام وأنا أنظر إليه، فقال :

يا رب أريد أن أقول لبيك اللهم لبيك، وأخشى أن تجيبنى : لا لبيك ولا سعديك .

وبقى يردد هذا القول مرارا كثيرة، وأنا أتسمع عليه، فلما أكثر قلت له :

ليس لك بد من الإحرام .

فقال : يا شيخ أخشى إن قلت لبيك اللهم لبيك، أجابنى: «لا لبيك ولا سعديك»

فقلت له : أحسن ظنك وقل معى : لبيك اللهم لبيك .

فقال لبيك اللهم وطولها، وخرجت نفسه مع قوله اللهم فسقط ميتا.

من (صفة الصفوة ج٤ ص٤٠٨)

مشهدان لخائفين غلب عليهما الحياء من الله

قال أبو الأديان :

ما رأيت خائفا إلا رجلا واحدا، كنت بالموقف، فرأيت شابا مطرقا منذ وقف الناس إلى أن سقط قرص الشمس، فقلت :

يا هذا ابسط يديك بالدعاء .

فقال : ثَمَّ وحشة.

فقلت : هذا يوم العفو عن الذنوب.

فبسط يده، ففى بسط يديه وقع ميتا.

من (صفة الصفوة ج٤ ص٤١٠)

وقال ابن خلكان :

قيل لأبى الأسود الدؤلى عند الموت : أبشر بالمغفرة .

فقال : وأين الحياء ممن كانت له المغفرة ؟

من (وفيات الأعيان ج٢ ص٥٣٩)

مشهد خائف من أن يلقى الله وقد تداوى بالحرام

كان الملك الصالح إسماعيل بن محمود بن زنكى قد مرض بالقولنج جمعتين ولما اشتد به الألم وصف له الأطباء قليل خمر.

فقال : لا أفعل حتى أسأل الفقهاء .

فسألهم فأفتوه، وسأل العلامة الكاشانى فأفتاه أيضا، فلم يقبل وقال :

إن كان الله قد قَرَّب أجلى أيؤخره شرب الخمر؟

قال : لا .

قال : فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم علىّ .

فمات ولم يشربه - رحمه الله، وذلك فى رجب سبع وسبعين وخمسمائة.

من (الوافى بالوفيات ج٩ ص٢٢٢)

مشاهد بعض الخائفين من النار

روى أبو عبد الله الحاكم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن فتى من الأنصار دخلته خشية الله، فكان يبكى عند ذكر النار، حتى حبسه ذلك فى البيت، فذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه، فلما دخل عليه اعتنقه النبى صلى الله عليه وسلم وخر ميتا، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (جَهِّزوا صَاحِبكم فَإِنَّ الفَرَقَ فَلَذَ كَبِدَه)(١)

وفى رواية لابن أبى الدنيا عن حذيفة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه، فلما نظر إليه الشاب قام فاعتنقه وخر ميتا، فقال صلى الله عليه وسلم :

(جَهِّزوا صَاحِبكم فَإِنَّ الفَرَقَ مِنَ النَارِ فَلَذَ كَبِدَه، وَالذي نَفْسِي بِيَدِه لَقَدْ أَعَاذَه اللَّه مِنْهَا، مَنْ رَجَا شَيْئًا طَلَبَه، وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْه).

من (حياة الصحابة ج٣ ص٢٥٣)

قال ابن خلكان :

لما حضرت إبراهيم النخعى الوفاة جزع جزعاً شديدا فقيل له فى ذلك فقال :

وأى خطر أعظم مما أنا فيه؟ إنما أتوقع رسولاً يأتى على من ربى، إما بالجنة، وإما بالنار.

والله لوددت أنها تتلجلج فى حلقى إلى يوم القيامة، يعنى الروح .

من (وفيات الأعيان ج١ ص٢٥)

ونقل القاضى عياض عن يونس بن عبد الأعلى أن عبد الله بن وهب قال :

إن أصحاب الحديث طلبوا منى أن أسمعهم صفة الجنة والنار، وما أدرى أأقدر على ذلك ؟

ثم قعد لهم فقرأوا عليه صفة النار فغشى عليه، فرش بالماء وجهه، فقيل اقرأوا عليه صفة الجنة، فلم يُفق، وبقى كذلك اثنى عشر يوما.

قال ابن أخيه:

شهدت عبد الله بن وهب يقرأ عليه فى منزله (كتاب الأهوال) الذى كان يرويه أنه بلغه عن أبى هريرة رضى الله عنه وشهده أبو أسامة البكاء فأخذا فى البكاء.

ثم إن أبا أسامة قام بتلك الرقة، وابن وهب على حالته من البكاء والقارئ يقرأ،

(١) الفرق هو الخوف والفزع، ومعنى فلذ قطع، يعنى أن شدة الخوف قطعت كبده.

وابن وهب ينشج رافعا صوته، حتى أنى لأحسب من كان على خمسين ذراعا يسمعه، فلم يزل كذلك حتى مال على الحائط الذى كان مستندا إليه، ثم احتمل إلى منزله، فلم يزل على حاله لا يعقل حتى توفى - رحمه الله .

من (ترتيب المدارك ج٣ ص٢٤١)

قال عبد الواحد بن زيد :

دخلنا على عطاء السلمى وهو فى الموت ، فنظر إلى أتنفس، فقال : مالك؟ فقلت: من أجلك .

فقال : والله لوددت أن نفسى بقيت فى لهاتى وحنجرتى تتردد إلى يوم القيامة مخافة أن تخرج إلى النار .

وقال صالح المرى :

كان عطاء السلمى لا يسأل الله الجنة، فقلت له : إن أبانا - يعنى ابن عباس - حدثنى عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(يقول الله تعالى : انظروا فى ديوانِ عبْدِى، فَمَنْ رَأَيْتمـوه يَسْأَلنِى الجَنَّةَ أَعْطَيْـته، وَمَنِ اسْتَعَاذَنِى منَ النَّارِ أَعَذته).

فقال لى عطاء : كفانى أن يجيرنى من النار .

من (الحلية ج ٦ ص٢٢٤و ٢٢٦)

وروى أبو نعيم بسنده أن محمد بن واسع لما كثر الناس عليه فى العيادة وكان منهم أناس قيام، وآخرون قعود فالتفت إلى أحدهم وقال له :

أخبرنى ما يغنى هؤلاء عنى إذ أخذ بناصيتى وقدمى غدا، وألقيت فى النار، ثم تلا هذه الآية ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمَ، فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِى والأَقْدَامِ﴾ (١)

وقال : يا اخوتاه، تدرون أين يذهب بى ؟ يذهب بى والله الذى لا إله إلا هو إلى النار، أو يعفو الله عنى .

وكان فى صحته إذا قيل له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟

يقول : ما ظنك برجل يرحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة .

من (الحلية ج٢ ص٣٤٨)

---

(١) سورة الرحمن آية ٤١ .

وحدث حبيب بن الشهيد عن ثابت أنه قال : لما ثقل جابر بن زيد قيل له: ما تشتهى؟ قال : نظرة إلى الحسن البصرى .

قال : فأتيت الحسن فأخبرته، فركب إليه، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدونى، فجلس، فما زال يقول :

أعوذ بالله من النار وسوء الحساب، يعنى حتى قضى .

من (الحلية ج٣ ص٨٩)

وروى حسين بن يحيى بن آدم عن أبيه أنه قال :

لما حضرت مسعرا الوفاة دخل عليه سفيان الثورى فوجده جزعاً، فقال له :

تجزع؟ فو الله لوددت أنى مت الساعة.

فقال مسعر : أقعدونى .

فأقعدوه، فأعاد سفيان الكلام عليه .

فقال مسعر : إنك إذن لواثق بعملك يا سفيان، لكنى والله على شاهقة جبل، لا أدرى أين أهبط.

فبكى سفيان، وقال : أنت أخوف لله منى .

ومما كان ينشد مسعر فى حياته واعظا :

تفنى اللَّذَاذَات عَمَّنْ نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء من مغبتها ... لا خيرَ فى لذة من بعدها النار

توفى مسعر - رحمه الله - بالكوفة سنة خمس وخمسين ومائة .

من (صفة الصفوة ج٣ ص١٣٠)

ونقل القاضى عياض عن يحيى بن إسحاق حفيد أبى محمد يحيى الليثى أن أباه قال له :

دخلت أنا وعبد الملك زونان على أبى يحيى وهو مريض، فسأله عن علته فقال له :

يا أبا الحسن إنه ليخفف عنى ما أنا فيه تفكرى فى عظيم ما له خلقت .

قال أبى فكان زونان يردد هذا من كلامه ، ويعجب به .

وقال له مرة أخرى :

يا أبا الحسن : ليتنى أزحزح عن النار، على ألا أسمع بذكر الجنة .

من (ترتيب المدارك ج٣ ص٣٩٤)

وقال الشيخ عبد الرحمن الدباغ:
صام أبو محمد المسوحى المتعبد حتى اسود، وصلى حتى أقعد، وبكى حتى عمش، فلما حضرته الوفاة قال :
واحزنى إلى أين يسلك بى ؟
توفى - رحمه الله - سنة ست وثلاثمائة .

من (معالم الإيمان ج٢ ص٢٣٠)

مشهد خائف مما بعد الموت

قال أبو القاسم القشيرى:
سمعت أبا على الدقاق يقول :
دخلت على أبى بكرمحمد بن فورك - رحمه الله - عائدا، فلما رآنى دمعت عيناه، فقلت له :
إن الله تعالى يعافيك ويشفيك .
فقال : أترانى خائفا من الموت ؟ إنما أخاف مما وراء الموت .
وكان ابن فورك رجلا صالحا، وبلغت مصنفاته قريبا من مائة مصنف ، توفى -رحمه الله - سنة ست وأربعمائة .

من (الوافى بالوفيات ج٢ ص٣٤٤)

مشهد من ظهر عليه السرور بعد خوف طويل

قال الحارث الغنوى :
آلى ربعى بن حراش ألا يضحك حتى يعلم أفى الجنة هو أم فى النار !
فلقد أخبرنى غاسله أنه لم يزل مبتسما على سريره ونحن نغسله، حتى فرغنا من غسله.
وقد قال عبد الله العجلى :
حدثنى أبى أن ربعى بن حراش لم يكذب كذبة قط،وكان له ابنان عاصيان على الحجاج،فقيل للحجاج أن أباهما لم يكذب كذبة قط،لو أرسلت إليه فسألته عنهما، فسأله الحجاج : أين ابناك؟
فقال : هما فى البيت .
قال الحجاج : قد عفونا عنهما بصدقك .
مات ربعى- رحمه الله - سنة أربع ومائة.

من (صفة الصفوة ج ٣ ص ٣٦).

مشهد من قضى القاضى بأنه فى النار

قال القاضى عياض :

شهد عند محمد بن بشير القاضى رجلان ممن يظن بهما خير، شهدا لمملوك توفى مولاه أنه أعتقه،وزوجه ابنته،وأوصى إليه بماله.

قضى ابن بشير بشهادتهما،فلم يلبث أحد الشاهدين أن حضرته الوفاة فأرسل إلى القاضى أنه يريد أن يراه،فدخل عليه، فلما بصر به الشاهد وهو فى كربته (كربة الموت) جثا على ركبتيه،وجعل ينجر إليه.

فقال له القاضى : ما شأنك؟

فقال : إنى فى النار إن لم تنقذنى منها،الشهادة التى شهدنا بها عندك لفلان لم يكن منها شىء،فاتق الله وافسخ الحكم.

قال عياض : فلم يزد محمد بن بشير على أن وضع يديه على ركبتيه ثم قام،وجعل يقول له:

مضى الحكم وأنت فى النار،مضى الحكم وأنت فى النار.

من (ترتيب المدارك ج ٣ ص ٣٣٥)

من أضواء هذا المشهد

القاضى عياض علق على هذه الحادثة قائلا:

ما فعله ابن بشير من إمضاء الحكم صواب،وقوله أنت فى النار دون استثناء لعله قصد به الإغلاظ لأمثاله من شهداء السوء وإلافمشيئة الله فى العفو عنه من وراء هذا بفضله،فقبول توبة مثله ومحو سيئته بها موعود بها.

هذا ما قاله عياض رحمه الله ورضى عنه.

لكن المعروف هو أن التوبة لا تأثير لها فى مظالم العباد، فلقد روى أحمد فى المسند وأبو عبد الله الحاكم فى المستدرك عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(الدّواوين ثلاثة، فديوان لا يغفر الله منه شيئا، وديوان لا يعبأ الله به شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا.

فأما الّديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فالإشراك بالله، وأما الديوان الذى لايَعبأ الله به شيئا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه،أو صلاة تركَهَا، فإن الله يغفر ذلك إن شاء ويتجاوز، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا، فمظالم العباد، بينهم القصاص لا محالة).

كما روى الطبرانى فى معجمه الأوسط حديثا يتضمن نفس المعنى، وهو ما رواه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(ذنب يغفـر، وذَنب لا يغفَر، وذنب يجَازى به، فـأما الذنب الذى لا يغفر فـالشرك بالله، وأمـا الذنب الذى يغفـر فَعـملك بينك وبين ربك، وأما الذنب الذى يـجازى به فظلمك أخاك).

أما طريقة القـصاص الوارد فى هذين الحديثين فـقد تبينت فيمـا رواه كل من أحمد والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أتدرون مَا المفْلس؟ إن المفْلسَ من أمتى من يأتى يوم القيـامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شَـتَمَ هذَا وقذف هذَا وأكَل مال هـذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا فَـيعطَى هذا من حَسَنَاته، وهذا من حسنـاته، فإن فنيَت حَسَنَاته قبل أن يقضى مـا عليه، أخذ من خَطَايَاهم فَطرِحَت عَليه، ثم طرح فى النار).

والشاهد الذى اعـترف بأنه شـهد شهـادة زور قد اعـتدى على حقـوق العبـاد عدة اعتداءات، فقد تسبب فى عتق رقبة بغير وجه شرعى، وكانت موروثة من جملة التركة، ولا يشك فى أن العتق من أفضل القرب وأحبـها إلى الله، ولكن ذلك حين يتولاه من له الحق فيـه، كما أنه اعـتدى على بنت الميت فتـسبب بشهادته فى تـزويجها بغيـر وجه شرعى، واعتدى على الورثة فيما كانوا سيرثونه فنقله إلى من لا يستحقه.

ولما كانت مظالم شاهد الزور مـتعلقة بحقوق العبـاد فهى من الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا، وفيه القصاص لا محالة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلـم .

نعـم إن مـواهب الفـضل الإلهى قـد تغـمـر الظالمين إذا شـاء الله ذلك، لقـوله تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِه، ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلكَ لمن يَشَاءُ﴾ (١)

ويوضح هذا الفضل الإلهى ما رواه أبو يعلى وأبـو عبد الله الحاكم وصححـه- وتعقبه الذهبى -عن أنس رضى الله عنه أنه قال :

(بينما رسول الله صلى الله عليه وسـلم جالس إذ رأيناه ضَحك، حتى بَدَت ثَنايَاه، فقال عمر رضى الله عنه : مَا أضْحكَكَ يا رسـول الله؟ قال : رجلان جَثَيَا منْ أمتى بين يَدَىْ رب العزّة . فقـال أحدهما يا رب خذ لى مظلمتـى من أخى. قال الله: أعط أخَاكَ مظلمَـتَـهَ، قَـالَ يا رَب لم يَبق من حـسناتى شىء، قـال يا رب يَحـمل عنى من أوزارى وفاضـت عينا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بالبكاء، قال إن ذلك ليـوم عظيم يوم

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

يحتاج الناس فيه أن يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ لأى صديق هذا؟ لأى شهيد هذا؟ قال هذا لمن أعطى الثمن، قال يا رب : ومن يملك ثمنه؟ قال أنت، قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك، قال :يا رب قد عفوت عنه، قال خذ بيد أخيك فأدخله الجنة.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة) .

فتبين من النصوص المتقدمة أن القصاص هو الأصل فى مظالم العباد، وأن تدارك الغرقى فى مآثمها وإنجاءهم من أهوالها متوقف على مشيئته ورحمته والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

مشاهد الراغبين فى الانفراد عند النزع

إن بعض المدركين لاقتراب آجالهم يعرفون قيمة اللحظات الأخيرة من حياتهم، فتراهم يرغبون فى ألا يشغلهم أى شاغل - عند أخذهم فى سياق الموت - حتى يفارقوا الدنيا وهم مشغولون بالله وحده، ولذلك ترى منهم من يأمر الحاضرين لديه بأن يخرجوا عنه، حتى لا يكدر عليه توجهه إلى الله أحد، فيغتنم ما بقى له فى الحياة من لحظات الرهبة والرغبة، عسى أن يسعد فيها بصفاء التوجه وحسن الخاتمة.

فمن الراغبين فى الانفراد الخليفة عمر بن عبد العزيز:

قال عبيد بن حسان:

لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : اخرجوا عنى فقعد مسلمة (غلامه) وفاطمة (زوجته) على الباب فسمعوه يقول : مرحباً بهذه الوجوه، ثم قال : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١)

ثم هدأ الصوت، فدخلوا ، فوجدوه قد قبض.

قال أيوب : قيل لعمر بن عبد العزيز: لو أتيت المدينة فإن مت دفنت فى موضع القبر الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والله لأن يعذبنى الله بكل عذاب إلا النار أحب إلى من أن يعلم الله منى أنى أرانى لذلك الموضع أهلاً.

توفى بدير سمعان من أعمال حمص لعشر بقين من رجب سنة إحدى و مائة وعمره سبع وثلاثون سنة وستة أشهر - رحمه الله (٢)

---

(١) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٦٢ .

ومنهم أبو الحسن الطوسى :

قال أبو عبد الله محمد بن القاسم الطوسى :

كان أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسى يقول : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت نفسا تصلى إلى القبلة شراً عندى من نفسى.

ودخلت عليه قبل موته بأربعة أيام بنيسابور فقال :

يا أبا عبد الله تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بى الموت، وقد منّ الله علىّ أنه ليس عندى درهم يحاسبنى الله عليه وقد علم ضعفى، فإنى لا أطيق الحساب فلم يدع عندى شيئا يحاسبنى عليه.

ثم قال :

أغلق الباب، ولا تأذن لأحد علىّ حتى أموت.

واعلم أنى أخرج من الدنيا، وليس أدع ميراثا غير كسائى ولبدى و إنائى الذى أتوضأ فيه وكتبى.

وكانت معه صرة فيها نحو ثلاثين درهما، فقال هذا لابنى أهداه إليه قريب له، ولا أعلم شيئا أحل لى منه لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (أَنْتَ وَمَالُكَ لأبِيكَ) فكفنونى منها، فإن أصبتم لى بعشرة دراهم ما يستر عورتى فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتى لبدى، وغطوا علىّ بكسائى، وتصدقوا بإنائى، أعطوه مسكينا يتوضأ منه.

ثم مات - رحمه الله - فى اليوم الرابع .

قال أبو عبد الله وكان قال لى :

يا أبا عبد الله مالى ولهذا الخلق؟ كنت فى صلب أبى وحدى، ثم صرت فى بطن أمى وحدى، ثم دخلت الدنيا وحدى، ثم يقبض روحى وحدى، ثم أدخل فى قبرى وحدى، ثم يأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى، فإن صرت إلى خير صرت وحدى، ثم يوضع عملى وذنوبى فى الميزان وحدى، وإن بُعثت إلى الجنة بعثت وحدى، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدى. فمالى وللناس؟

ثم تفكر ساعة فوقعت عليه الرعدة حتى خشيت أن يسقط.

من (صفة الصفوة ج٤ ص١٢٦)

ومنهم أبو الفتح أسعد بن أبى نصر العمرى :

كان أبو الفتح من الأئمة الكبار فضلا ونبلا ، شافعى المذهب، تفقه بمرو ودرس

بالنظامية، اشتغل الناس عليه، وانتفعوا بطريقته الخلافية، وقدم إلى مرو مرسلا من جهة السلطان محمود السلجوقى، ثم توجه رسولا إلى بغداد .

وكان يخدمه فقيه من أهل قزوين، فقال كنا معه فى بيت لما أن قرب أجله فقال لنا: اخرجوا من هنا.

فخرجنا، فوقفت على الباب فسمعته يلطم وجهه ويقول:

(يَا حَسرتَا عَلَى مَا فَرَّطت فى جَنب الله) وجعل يبكى ويلطم وجهه ويردده إلى أن مات، توفى - رحمه الله - بهمذان سنة تسع وعشرين وخمسمائة باختصار.

من (الوافى بالوفيات ج٩ ص ١٨)

ومنهم بشر بن الحارث :

قال أحمد بن محمد بن غزوان:

إن بشر بن الحارث أرجف الناس بموته بباب الطاق فى يوم مطير، فجئت فى المطر والطين حتى بلغت بابه، فإذا على بابه ثلاثة نفر، وشيخ منهم يقول : إنما جئنا نعودك، فقال لهم - وهو يبكى - : لا حاجة لى فى عيادتكم، اذهبوا عنى، فقد آذيتمونى.

وقال : قال فضيل : أشتهى أن أمرضَ بلا عُوَّاد.

من (الحلية ج٨ ص ٣٤٠)

البكاء عند الموت

البكاء ميزة خص الله بها الإنسان، ومن سنن الحياة أن الإنسان إذا ولد يدخل الدنيا باكيا، ويخرج منها مشيعا بالبكاء .

وقد تخيل بعض الشعراء سبب بكاء الجنين عند وضعه فقال :

لمَا تُؤْذنُ الدنيا به منْ صُرُوفهَا (١) يَكُون بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

ولبكَاء الإنسان خمسةَ أسباب:

- خشية الله تعالى.
- شدة الفرح.
- الألم والحزن الشديدان.
- الخوف مما ينتظر الميت.
- التظاهر بالحزن .

(١) تقلبات ظروف الحياة.

أمـا البكاء من خشـية الله فـهو أعلـى درجات البكاء وأحـمدها، ولا ينشـأ إلا عن إحساس القلب المستنير بجلال الله، وعظيم سلطانه، وجميل إحسانه.

روى أبو داود وأحـمد عن عـبد الله بن الشِّـخِّيـر - رضى الله عنه - أنه دخل على رسول الله صـلى الله عليه وسلم وهو يصلى فكان لجـوفه صلى الله عليـه وسلم أزيز كأزيز المرجَلِ [1] (يعنى من مغالبة البكاء)

وقد وصف الله بعض الصالحين من أهل الكتـاب فذكر أنهم إذا يتلى عليهم القرآن ﴿ يَخِرُّونَ لِـلأَذْقَانِ سُجَّـداً ويقولون سُـبْحَـان ربِّنَا إن كان وعـدُ ربِّنَا لمفعُـولاً، ويَخِرُّونَ للأَذْقَانِ يبْكونَ ويَزِيدُهُم خُشُوعاً﴾ الإسراء ١٠٧ - ١٠٨

وروى البـخارى أنه صلى الله عليـه وسلم وعظ الصحـابة حين كـسفت الشـمس فجاء فى عظته قوله : (يَا أُمَةَ مُحَمَّـدٍ واللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قَليلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً).

وأما بكاء الفرح الشديد فمنه ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كـعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك ﴿لَـمْ يَكُـنِ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْلِ الكتَابِ وَالْمُشرِكينَ مُنفَكِّينَ حتَّى تَأتيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

قال أُبىٌّ : يا رسولَ الله وقد سمانى ؟

قال : نعم .

فبكى أُبىٌّ رضى الله عنه .

ولقد قال بعضهم :

هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتىَ أَنَّهُ ... مِن فَرطِ مَا قَدْ سَرَّنِى أَبكَانِى

وبكاء الإحساس بالألم والحزن يحدث من النساء أكثر مما يحدث من الرجال.

فقـد بكت السيـدة فاطمـة الزهراء لما توفى رسول الله صلى الـله عليه وسلم كـما بكت السيدة عائشة أبا بكر الصديق، وبكت حفصة عمر الفاروق رضى الله عنهن.

وأشهر البـاكيات ألماً وحزنا السيـدة تماضر بنت عمرو بن الشريد السُّلَمـية الخنساء، فقد كانت تبكى أخاها صخراً بكاء مراً، حتى ضرب المثل ببكائها.

أما البكاء خـوفا مما ينتظر الميت فمنه ما روى فـيه الإمام أحمد عـن البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال:

بَيْنَمَا نحنُ مَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بَصُر بجماعة فقال :

---

(٢) الأزيز : صوت الغليان، والمرجل : القدر.

عَلام اجتمع هؤلاء؟

قيل على قبر يحفرونه.

فبدر بين يدى أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه . قال البراء: فاستقبلته من بين يديه، لأنظر ما يصنع فبكى صلى الله عليه وسلم حتى بَلَّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال:

(أى إِخْوَانى لِمثْلِ هَذَا اليَوْمِ فَأعِدُّوا)

كما روى الإمَامَ أحمد عن هانىء مولى عثمان رضى الله عنه أنه قال:

كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلَّ لحيته، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتبكى من هذا .

فقال :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ القَبْرَ أَوَّلُ منازلِ الآخرةِ، فإنْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسرُ مِنهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ منه).

وأما البكاء تظاهراً بالحزن والألم فهو كثير فى الحياة، ومنه ما حدث من إخوة يوسف عليه السلام، فقد قال تعالى : ﴿وجَاءُوا أباهُم عشَاءً يَبْكُونَ .قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وتَرَكْنَا يُوسُفَ عندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صَادقِينَ . وجَاءُوا عَلَى قَمِيصه بدَم كَذِب﴾ يوسف ١٦ - ١٧ - ١٨ .

مشاهد الباكين عند الموت

تتنوع هذه المشاهد أربعة أنواع :

- بكاء الإنسان من توقعه اقتراب وفاته.
- بكاء المحتضرين الآخذين فى سياق الرحيل من الدنيا.
- بكاء المشاهدين للمحتضرين يُعالجون سكَرَاتِ الموت.
- البكاء على الأموات.

مشهد من بكى لتوقعه قرب موته

قال عيسى بن محمد الطومارى : دخلت على إبراهيم الحربى وهو مريض وكان يُحملُ ماؤه (بوله) إلى الطبيب، وكان الطبيب يجىء إليه ويعالجه فجاءت الجارية وردّت الماءَ، وقالت : مات الطبيب.

فبكى إبراهيم، ثم أنشد يقول :

إِذَا مَاتَ الْمُعَالِجُ مِنْ سَقَامٍ فَيُوشِكُ لِلْمُعَالِجِ أَنْ يَمُوتَ

من (طبقات الحنابلة ج ١ ص ٩١)

من أضواء هذا المشهد :

- الناس كثيرا ما ينسون مصيرهم المحتوم، ولكنّهم عند حلول الأجل تجابههم الحقيقة التى لا مفر منها.

- لقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الذِّى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجمعة ٨ .

- وقال سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الأنبياء ٣٤ - ٣٥ .

- مهما تكن ألوان الحياة فإن الموت خاتمة الأمر، قال الشيخ محمد بن على تقى الدين المعروف بابن دقيق العيد:

أُفَكِّرُ فِى حَالِى وَقُرْبِ مَنِيَّتِى وَسَيْرِى حَثِيثًا فِى مَسِيرِى إِلَى الْقَبْرِ
فَيُنْشِىءُ لِى فِكْرِى سَحَائِبَ لِلأَسَى تَسُحُّ هُمُوماً، دُونَهَا وَابِلُ الْقَطْرِ
إِلَى اللـه أَشْكُو مِنْ وُجُودِى فَإِنَّنِى تَعِبْتُ بِه مُذ كُنْتُ فِى مَبْدَإِ الْعُمْرِ
نَرُوحُ وَنَغْدُو وَالْمَنَايَا فَجَائِع تُكَدِّرُهُ، وَالْمَوْتُ خَاتِمَةُ الأَمْرِ

من (الوافى بالوفيات ج٤ ص٢٠٣)

- المرء يحصى الأوقات ويحصى الأموات، ولا بد من أن يدخل المحصى فى الإحصاء يوماً ما.

قال أبو بكر محمد بن ولاّد من أهل شَلْطِيشَ بغرب الأندلس :

نَطْوِى سُبُوتًا وَآحَاداً وَنَنْشُرُهَا وَنَحْنُ فِى الطَّىِّ بَيْنَ السَّبْتِ وَالأَحَدِ
فَعُدَّ مَا شِئْتَ مِنْ سَبْت وَمِنْ أَحَد حَتَّى تَصِيرَ مَعَ الْمَدْخُولِ فِى الْعَدَدِ

مشاهد بكاء المحتضرين

كثيرا ما يبكى المحتضَرون لمشاعر معينة تغلبت عليهم عند النزع أكثر مما كانت تراودهم قبل زمن الاحتضار.

فمنهم من بكى عند الاحتضار خجلاً واستحياءً من لقاء الله، ومنهم من بكى أسفاً

على أنه لم يمت شهيدا فى ساحة القتال. وكثيرا ماكان يجاهد فى سبيل الله، ومن الباكين من ندموا على ما أصابوا من زهرة الحياة الدنيا، رغم ماكانوا عليه من الزُّهد، ومنهم من اشتد خوفه من أن يساق إلى النار، ومنهم من ندم على ما أفتى فيه برأيه، ومنهم من بكى أسفًا على انقطاعه عن تلاوة القرآن، وقيام الليل، وصيام النهار.

وفيما يلى طائفة من الباكين عند الاحتضار:

أبو عمرو الأسود بن يزيد النخعى:

بكى خجلا من ملاقاة الله.

لما احتُضِرَ الأسود بن يزيد بكى فقيل له : ما هذا الجزع؟

فقال: لا أجزَع؟ ومَن أحق بذلك منى؟ والله لو أُتيتُ بالمغفرة مِنَ الله عزّ وجلّ لأهمَّنى الحياءُ منه بما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، ولا يزال مستحيياً منه.

توفى - رحمه الله - بالكوفة سنة خمس وسبعين من الهجرة.

من (صفة الصفوة ج ٣ ص ٢٤)

خالد بن الوليد رضى الله عنه: بكى من أنه لم يمت شهيدا

روى عبد الرحمن بن أبى الزناد أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة بكى وقال :

لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

مات بالشام على ميل من حمص سنة إحدى وعشرين رضى الله عنه .

من (صفة الصفوة ج ١ ص ٦٥٤)

ومن (حياة الصحابة ج ٢ ص ٤٠)

خبّاب بن الأرت : بكى على ما أصاب من الدنيا

روى أبو نعيم أن خبابًا عاده نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا:

أبشر أبا عبد الله، إخوَانُكَ تَقْدمُ عليهم غداً فبكى وقال :

أمّا أنه ليس بى جزع، ولكنكم ذكَّرتمونى أقواماً وسميتم لى إخوانا، وإن أولئك قد مضوا بأجورهم كما هى، وإنى أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم .

وروى من طريق آخر، أن خبابا قال أيضا:

ولقد رأيتُنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك درهما، وإن فى جانب بيتى لأربعين ألف درهم.

ثم أتى بكفنه، فلما رآه بكى وقال: لكنَّ حمزة رضى الله عنه لم يوجد له كفن إلا بُردة ملحاء (فيها خطوط سود وبيض) إذا جُعلت على رأسه قَلَصت عن قدميه. وإذا جُعلت على قدميه قَلَصت عن رأسه، حتى مُدَّت على رأسه وجُعل على قدميه الإذخر (نوع من النبات الطيب).

من (حياة الصحابة ج ٢ص٤٩٠)

أبو عبد الله سلمان الفارسى- رضى الله عنه :

بكى على ما أصاب من الدنيا.

دخل سعد بن أبى وقاص على سلمان يعوده فبكى سلمان، فقال له سعد: ما يُبكيك يا أبا عبد الله؟ توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض وَتَرِدُ عليه الحوض.

فقال سلمان:

أما إنى ما أبكى جزعا من الموت، ولاحرصا على الدنيا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلينا فقال : (لِتَكُنْ بُلغةُ أحَدِكُمْ مِثْلَ زَادِ الرَّاكِبِ) وأنا حَولِى هذه الأساود (١)

وإنما حوله إجّانة أو جَفْنَة أو مِطْهَرَةُ.

فقال له سعد :

يا أبا عبد الله اعهد إلينا بعهد فنأخذ به بعدك، فقال:

يا سعد، اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند بذلِ إذا قسمت.

من (صفة الصفوة ج١ ص٥٥٣)

أبو هريرة - رضى الله عنه :

بكى من التقصير فى الطاعة وخوفا من أن يساق إلى النار.

روى سالم بن بشير بن حجل أن أبا هريرة - رضى الله عنه - بكى فى مرضه، فقيل له :

---

(١) الأساود : الأشياء من أدوات وغيرها.

ما يبكيك ؟

فقال: أمـا إنه ما أبكى على دنياكم هذه، ولكن أبكى على بعـد سفرى، وقلة زادى، وإنّى أصبحت فى صعود مهبط على جنة ونار، لا أدرى إلى أيهما يؤخذ بى.

وروى ابن شوذب أن أبا هريرة لما قيل له: ما يبكيك؟ فـقال : بُعد المفازة، وقلة الزاد وعقبة كؤود، المهبط منها إما إلى الجنة أو النار.

توفى - رضى الله عنـه - فى آخر خـلافـة مـعـاوية - رضى الله عنه - سنة سـبع وخمسين وله ثمان وسبعون سنة .

من (صفة الصفوة ج ١ ص٦٩٣)

أبو عائشة مسروق بن الأجدع الهمدانى :

بكى خوفا من أن يساق إلى النار.

أبو عـائشة بن الأجـدع سُرق وهو صـغيـر، ثم وُجِد فـقيل له مـسروق، وكـان من أصحاب عبد الله بن مسعود، ولما احتُضر بكى، فقيل له :

ما هذا الجزع؟

فقال: مـالى لا أجزع، وإنما هى ساعـة، ولا أدرى أين يُسلك بى؟ بين يدىَّ طريقان لا أدرى إلى الجنة أم إلى النار؟

وقال الشعبى كان غُشى على مسروق، وهو صائم فى يوم صائف، فقالت له ابنته : أفطر .

قال: ما أردت بى ؟

قالت : الرفق .

قال : يا بنية، إنما أطلب الرفق لنفسى فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وكان - فيما مضى من حياته - يقول:

إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، يتذكر ذنوبه، ويستغفر الله منها.

مات - رحمه الله - بالكوفة سنة ثلاث وستين .

من (صفة الصفوة ج ٣ ص ٢٦)

أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن الأسود النَّخعى:

بكى خوفا من أن يساق إلى النار.

قال عمران الخياط:

دخلنا على إبراهيم النخعى نعوده، وهو يبكى، فقلنا له:

ما يبكيك أبا عمران؟

قال :

أنتظر ملك الموت، لا أدرى يبشرنى بالجنة أم بالنار؟

توفى - رحمه الله - بالكوفة سنة خمس وتسعين وهو ابن تسع وأربعين .

من (صفة الصفوة ج ٣ ص ٨٩)

الإمام مالك بن أنس - رضى الله عنه:

بكى ندما على ما كان أفتى فيه برأيه.

قال القعنبى:

دخلت على مالك بن انس فى مرضه الذى مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست فرأيته يبكى، فقلت :

يا أبا عبد الله ما الذى يُبكيك؟

فقال لى:

يا ابن قَعْنَب، وما لى لا أبكى ؟ ومن أحق بالبكاء منى؟ والله لوددت أنى ضُربت لكل مسألة أفتيتُ فيها برأيى بسوط سوط، وقد كانت لى السَّعة فيما قد سُبقت إليه، وليتنى لم أُفتِ بالرأى، أوكما قال .

توفى - رحمه الله - بالمدينة المنورة سنة تسع وسبعين ومائة .

من (جذوة المقتبس ص ٣٢٥)

أبو الحسن على بن دارس المتعبِّد:

بكى أسفا على انقطاعه عن تلاوة القرآن وعن القيام والصيام.

قال عبد الله بن نصر:

اعتل ابن دارس، وجئنا إليه نعوده، فأصبنا عنده يحيى بن عمر، وحمديس القطان، وجبلة، وأكابر أصحاب سَحْنُون، هؤلاء قعوداً عند رأسه، وهو مسجى إلى القبلة، ودموعه تنصب، فقال له يحيى بن عمر :

أصلحك الله ما الذى أبكاك؟

فقال:والله ما بكيت خوفا من الموت، لأنه كأس لابد منه، ولا بد من قدومى على الله عزّ وجلّ لأنى أقدم على كريم رحيم، ولا بكيت إلا على تمتعكم بعدى بتلاوة القرآن، وقيام الليل، وصيام النهار ، والتهجد، والتبتل، وانقطاع عملى، ثم قال لهم:

إن لى إليكم حاجة.

هذه الجبة الصوف والكساء، ختمت فيهما القرآن ثمانية آلاف ختمة ليلا ونهارا، كفنوني فيهما.

وهذه الحُصُر كنت أسجد عليها في سواد الليل، اجعلوها معي في لحدي، وقليل من الشعير تصدقوا به.

وهذه السطحية (المزادة) حبِّسوها، والله ما خلفت شيئا يسألني الله عنه غير هذا.

ثم أسأل الله الاجتماع معكم على الحوض مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. ثم قضى رحمه الله.

من (رياض النفوس ج١ ص ٤٨٠)

من مشاهد البكاء على المحتضَرين

بكاء صهيب على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

روى ابن سعد عن ابن سيرين أنه قال:

أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشراب حين طعن، فخرج الشراب من جراحته، فقال صُهيب رضي الله عنه:

واعمراه، وا أخاه، من لنا بعدك؟

فقال له عمر:

مه يا أخي أما شعرت أنه من يُعَوَّل عليه يعذب؟

وعن أبي بردة عن أبيه أنه قال:

لما طعن عمر أقبل صهيب يبكي رافعا صوته، فقال عمر :

أَعَلَيَّ ؟

قال صهيب:

نعم .

قال عمر:

أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ يُبْكَ عَلَيْهَ يُعَذَّبْ)؟

وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه أنه قال:

لما أصيب عمر دخلت عليه ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقالت:

يا صاحب رسول الله عليه الصلاة وأزكى السلام، وياصهر رسول الله عليه الصلاة وأزكى السلام، ويا أمير المؤمنين.

فقال عمر لابنه:

يا عبد الله أجلسنى، فلا صبر لى على ما أسمع، فأسنده إلى صدره، فقال لابنته حفصة:

إنى أحرِّج عليكِ بما لى عليك من الحق أن تَندُبينى بعد مَجْلسكِ هذا، فأما عينُك فلن أملكها، إنه ليس من ميت يُندب بما ليس فيه إلا الملائكة تمقته.

من (حياة الصحابة ج ٣ ص٢٨)

بكاء أخى سيبويه على سيبويه:

لما اعتل سيبويه وضع رأسه فى حجر أخيه، فبكى أخوه - لما رآه - لما به، فقطرت من دمعه قطرة على وجهه، فرفع سيبويه رأسه إليه، فرآه يبكى فقال:

أُخَيَّيْنِ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ... إلى الأمد الأقْصَى، وَمَنْ يَأمَنُ الدَّهْرَا؟

من (طبقات النحويين ص ٧٣)

بعض السلف يبكيه أخوه

احتُضر بعض السلف، فجعل أخوه يبكى بإفراط، فقال المحتضَر دون هذا يا أخى، فعن قليل تُرى ضاحكا فى مجلس أذكَر فيه.

من (الكشكول للعاملى ج ٢ ص ٢٧٤)

أبو السّرى واصلُ بن عبد الله الجمّى
تبكيه أخته

كانت لواصل أخت، وكان لاشتغاله بالعبادة والتبتُّل لا يتفرغ لزيارتها، وكانت هى لا تقدر على الوصول إليه.

فلما حضره الموت واشتد به الأمر، وقرب منه ما بَعُد، قال بعض من بحضرته :

امضوا لأختى فأتونى بها.

فمضوا إلى منزلها، فأتوه بها، فلمّا وصلت أخبروه، وقالوا:

أتدخل إليك ؟

فقال: لا سبيل إلى دخولها، ولا أكون أول من أباح للنساء دخول الحصون، اجعلوها عند باب القصر [1] تبكى وتنوح حتى أسمعها.

فبكت وناحت ، حتى سمعها فبكى، ثم قال:

---

(١) قصر الرباط بالمنستير.

قولوا لها انصرفى، فالموعد بينى وبينك الآخرة، ثم توفى- رحمه الله.

نقل ما تقدم أبو الحسن بن الخلاف، وكان يقول:

عجبا، كيف أمرها برفع الصوت بالنواح؟ ولعله إنما استخف ذلك، وأباحه لأخته للحديث الذى جاء فى (الموطأ) فى دخول النبى صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن ثابت الأنصارى، فوجده قد غُلب عليه، فصاح به، فلم يجبه، فاسترجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

غُلبنا عليك يا أبا الربيع.

فصاح النسوة وبكين، فجعل جابر يسكتهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (دَعْهُنَّ، فَإِذَا وَجَبَ فَلاَ تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ)

قالوا:

يا رسول الله - عليه الصلاة وأزكى السلام - ما الوجوب؟

قال: (إِذَا مَاتَ).

فقد أبَاح لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصياح والبكاء عند احتضار المريض وقرب الموت منه.

كانت وفاة واصل - رحمه الله - سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

من (رياض النفوس ج ١ ص ٤٤٠)

نهى المحتضَر عن البكاء عليه:

لما حضرت أبا سفيان بن الحارث الوفاة قال لأهله:

لا تبكوا علىّ، فإنى لم أتنطق بخطيئة منذ أسلمت، رحمه الله ورضى عنه.

من (صفة الصفوة ج ١ ص ٥٢٠)

أبو عمران موسى بن عيسى العجفونى الفاسى القيرواني

تبكيه زوجته

لما أفاق أبو عمران من إغمائه فى مرضه الذى مات فيه، سمع أمَّ ولده عيسى تبكى وتقول:

واشماتة أعداء عيسى بعيسى، فقال لها:

قولى لأعداء عيسى لا يموتون.

وجعلت تمرغ خديها على رجليه، فقال لها:

مَرِّغِى أو لاَ تُمَرِّغِى، أَمَا والله إنى ما مَشَيْتُ بهما إلى معصية قط.

من (معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٠٣)

مشاهد الصابرين عند موتهم صبرا عجيبا

صبر ثلاثة من شهداء اليرموك:

العطش ساعة الموت مرهق، والصبر عليه شديد، وايثار المحتضَر غيره بالماء فى تلك الساعة عجيب.

لقد صبر ثلاثة من شهداء اليرموك على العطش ساعة موتهم، وآثروا بالماء غيرهم، رغبة منهم فى ما عند الله، وما عند الله خير للأبرار .

روى ابن قدامة فى كتاب التوابين عن عبد الله بن مصعب أنه قال :

استشهد يوم اليرموك :

الحارث بن هشام

وعكرمة بن أبى جهل

وسهيل بن عمرو

فأُتوا بماء وهم صرعى فتدافعوه، كلما دُفع إلى رجل منهم قال : اسق فلانا، حتى ماتوا ولم يشربوه.

قال عبد الله بن مصعب: طلب الماء عكرمة فنظر إلى سهيل ينظر إليه، فقال : ادفعه إليه ، فنظر إلى الحارث ينظر إليه، فقال : ادفعه إليه، فلم يصل إليه حتى ماتوا جميعا، فرضى الله عنهم أجمعين.

من (كتاب التوابين لابن قدامة المقدسى ص ١١٧)

مشهد صبر الشيخ عبد الوهاب الأنماطى

قال ابن الجوزى:

دخلت على شيخنا عبد الوهاب الأنماطى فى مرضه، وقد َضنِىَ جسمه وهو ساكن صابر، فقال لى:

إن الله سبحانه لا يُتَّهم فى قضائه.

من (رسالة الثبات عند الممات ص ٦٣)

مشهد صبر الشيخ ابن الخشاب

قال ابن الجوزى:

دخلت على محمد بن الخشاب وهو فى مرض موته، وهو ساكن غير منزعج،فقال لى:

عِندَ الله أحتسب نفسى.

من (رسالة الثبات عند الممات ص ٦٣)

مشهد صبر أبي العالية الرياحي

قال سيار بن سلامة:

دخلت على أبي العالية الرفيع الرياحي في مرضه الذي مات فيه فقال: إن أحب الأمر إليّ أحبه إلى الله عز وجل، ومات - رحمه الله - في شوال يوم الاثنين سنة تسعين.

من (صفة الصفوة ج ٣ ص ١١٢)

مشهد صبر حمديس القطان

قال أبو سعيد بن محمد بن سحنون:

لما اعتلّ أبو جعفر أحمد بن محمد الأشعري المعروف بحمديس القطان أحضرنا له طبيبا، فتبسم وقال:

ما أقبح المخالفة بعد الموافقة، ثم قال:

من أراد الله عز وجل به حالاً، وأراد هو غيره، أليس قد خالف؟ ثم أنشد:

بيَد اللّـه دَوائي الذي يَعْـلَمُ دَائي
إنمَا أَظْـلمُ نَفْسَي باتّباعي لِـهَوَائي
كُلَّمَا دَاوِيْتُ دائي غَلَبَ الـدَّاءُ دوائي

مات - رحمه الله- سنة تسع وثمانين ومائتين.

من (رياض النفوس ج ١ ص ١٨٩)

مشهد صبر ابن غانم النميري

دخل أبو الوليد المهدي اللغوي على أبي عبد الرحمن عبد الله بن غانم قاضي القيروان في مرضه الذي مات فيه، فقال له:

رفع الله ضجعتك من هذه العلة، إلى إفاقة وراحة، وأعاد إليك ما عودك من الصحة و السلامة، فلطالما صَححْتَ وعوفيت أصلحك الله، فاصبر لحكم الله عز وجل، فإن الله يُحب أن يُصبَر علَى بلواه ، كما يحب أن يُشكر على نعماه.

فقال ابن غانم:

هو الموت، والغاية التي إليها انتهاء الخلق وما لابد منه، فصبر يُؤْجر صاحبه عليه، خير من جزع لا يغنى عنه، ثم تمثل بقول الشاعر:

فَهَل مِن خَالدٍ إمَا هَلَكْنَا وَهَلْ بالمَوْتِ يَا لَلنَّاسِ عَارُ

من (ترتيبَ المداركَ ج ٣ ص ٧٨
ومعالم الايمان ج١ ص ٢٣٢
والحلل السندسية ص ٧٤٠
ورياض النفوس ج١ ص ٢٢٩).

مشهد صبر ابن وافد قاضى القضاة بقرطبة

لما تغلب البرابرة على قرطبة وتم الصلح، وخُلع هشام، وهم أحنق الناس على ابن وافد، فاستخفى، وشُدِّد الطلب فيه، فعثُر عليه عند امرأة، فحُمل راجلاً مكشوف الرأس مهاناً، يُقاد بعمامته فى عنقه، والمنادى ينادى عليه:

هذا جزاء قاضى النصارى، ومسبب الفتنة وقائد الضلالة .

وكان يقول مجاوبا:

كَذَبْتَ بفيكَ الْحَجَر، بَلْ وَالله وَلى المؤمنين، وعَدو المَارقينَ ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾- يوسف - ٧٧ والناس تتقطع قلوبهم لما نزل به.

فلقيه بعض أعدائه فى هذه الحال، فقال له:

كيف رأيت صنع الله بك؟

فقال: ما أتهم قضاءه، كان ذلك فى الكتاب مسطورا.

ولقيه بعض أصحابه فقال:

ترى أن أبلغ أمرك أبا العباس بن ذكوان؟ (وكان مقبول القول عند البرابرة).

فقال : لا حاجة لى فى ذلك ....

فأدخل على المستعين سليمان بن الحكم فى تلك الحال، فأكثر توبيخه وأغرته به البرابرة،فأمر بصلبه، وشُرع فى ذلك ، فاضطرب البلد له، وَ وَرَدَتْ عليه شفاعة أبيه الحكم، وشفاعة ابنى ذكوان، وابن حومل، وجماعة من الفقهاء والصالحين الذين لا يرى ردهم يرغبون إليه فى شأنه، ويقبحون إليه ما أمر به فيه .

فرفع عنه الصلب والمثلة، وأمر بضمه إلى المطبق، وتثقيفه، وكان شديد الصبر فى محبسه، كثير التبسم والحديث، متعاهداً لصالح نفسه وجسمه من الاغتسال والاستياك والاستحداد، حتى عذله بعض من جمعته وإياه المحنة فى ذلك المكان على فعله، فقال:

وما لي لا ألهى عما لابد لى منه وأصل الراحة، والله إنى لأرجو لها الحور غادياً أو رائحاً، وسواكى طرى، وجسمى نقى، أو نحو هذا.

ولم يبعد - رحمه الله - أن اعتل فى محبسه فمات، فتكلم الناس أن حيلة وقعت عليه - فالله أعلم بذلك - فأخرج ميتاً فى نعش ،منتصف ذى الحجة سنة أربع وأربعمائة فوضعه الأعوان بالميضاة، موضع غسل المحاويج.

فاحتمله قوم إلى دار صهره ابن الأغبس الفقيه، فَسدّ الباب فى وجه النعش وتبرأ منه تقية.

وسمع الزاهد حماد بن عمار بالقصة، فبادره، وسار بنعشه إلى منزله ، فقام بأمره.

وكان مـن عجيـب الاتفاق أن ابن وافـد كان أودع عند هذا الرجل كـفنه، وحنوطه وقارورة من ماء زمزم لجهازه، فتم مراده، وعدت من كراماته، رحمه الله.

من (ترتيب المدارك ج٧ ص١٧٩)

مشهد صبر ابن مسرور على موت ولده

ذكـر القابسى أنه دخل إلى أبـى عبـد الله محـمد بـن مسـرور العسـال - وابنه أبو حفـص فى النزع - وهو جالس وفى يده جـزء من القرآن، وفى المجلس أبـو سعيـد بن أخى هشام، وابن التبـان، وابن أبى زيد، والشيخ ابن مسرور على حـاله، يقرأ جزءه ثم يحول وجهه إليهم ويقول:

كيف رأيتم أبا حفص؟

فتقول الجماعة: خير إن شاء الله.

إلى أن مات فوجموا وسكتوا، فحول الشيخ إليهم وجهه وقال:

مات أبو حفص؟

قلنا: نعم، أصلحك الله، وجبر مصابك.

فثنى الجزء على إبهامه، ثم حول وجهه وهو فى مكانه وقال :

رحمك الله يا بنى، فلقـد كنت صواماً قوامـاً، حافظاً لكتاب الله عـالماً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقـد طمعت أن أكون فى صحيفـتك (يعنى يسجل لك فى صحيفتك ثواب وفاتى قبلك) فالحمد لله الذى جعلك فى صحيفتى، ثم قال:

خذوا فى شأنه، وأقبل على مصحفه.

قال ابن شبلون:

لما مات أبو حـفص وغُسل وكُفِّن، وأبو عبـد الله أبوه حاضر، وأبو سعـيد ابن أخى هشام، وأبو الأزهر بن معتبَ، وأبـو محمد بن أبى زيد وأبو محمد بن التـبان، وغيرهـم من أهل العلم، قال الغاسل لأبيه:

مَا أعظَمَهَا منْ مُصيبة، فقال له:

لا تفعل، ثوابَ اللهَ تعالى أعظم، وخير منه.

ولقيه المهدى فقال:

عظم المصاب بأبى حفص.

فقال: ثواب الله أعظم.

ثم قال أبوه : رحـمك الله أبا حفص، لقد كنت مـباركاً علينا فى دنيانا وأخـرانا أما

دنيانا فقد كان قوتنا يجرى على يديك، وأما أخرانا فكنت أقول لعلى أكون فى صحيفتك، فقد صرت فى صحيفتى.

وكان أبو حفص قد دخل يوما على أبى إسحاق السبائى فقام إليه، وتلقاه وصافحه وقال : ما الذى جاء بك؟

فقال: نعتنى نفسى، وأظن أجلى قرب، فأردت أن أجدد عهدا بك، فقال له أبو إسحاق: جمع الله شمل المسلمين بك وأبقاك لهم.

كانت وفاة أبى حفص فى شعبان سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وهو ابن نحو أربعين سنة.

من (ترتيب المدارك ج ٦ ص ٧٩)

الصبر أحب إلى المؤمن أم الشكر؟

كان مطرف بن عبد الله يقول: لأن أعافى فأشكُر، أحب إلىّ من أن أُبتلى فأصبر.

و كان أخوه أبو العلاء يقول: اللهم أىُّ ذلك كان خيراً فعجله لى.

قال عمرو بن السكن: كنت عند سفيان بن عيينة فقام إليه رجل من أهل بغداد فقال: يا أبا محمد أخبرنى عن قول مطرف (لأن أعافى فأشكُر أحب إلى من أن أُبتلى فأصبر) أهو أحب إليك أم قول أخيه أبى العلاء : (اللَّهُمَّ رَضيتُ لِنَفْسِى مَا رَضِيتَ لى)؟

فسكت سكتة ، ثم قال: قول مطرف أحب إلىَّ .

فقال الرجل :

كيف وقد رضى هذا لنفسه ما رضيه الله له؟

قال سفيان : إنى قرأت القرآن ، فوجدت صفة سليمان مع العافية التى كان فيها ﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ ووجدت صفة أيوب مع البلاء الذى كان فيه ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ فاستوت الصفتان، هذا معافى وهذا مبتلى، فوجدت الشكر قد قامَ مقام الصبر، فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحب إلى من البلاء مع الصبر.

من (الحلية ج ٢ ص ٢١٢)

مشاهد من فزعوا من أمر فماتوا

قد يندهش المرء من شىءيفاجئه، فيفقد صوابه، وقد يعظم اندهاشه بالمفاجأة فيفقد قواه، ويغمى عليه، وقد يصدم بمفاجأة تكون أعظم من أن تتحملها نفسه، فيفقد روحه.

والإنسان فى حياته عرضة لكثير من المفاجآت، وأشدها خطرا عليه ما يذهب بحياته.

وإليك بعض المشاهد ممن فزعوا من أمر فماتوا .

مشهد أم ترتاع مما أصاب ابنها فتموت

كان سجن الحجاج حائطاً محوطاً لا سقف له، فإذا آوى المسجونون إلى الجدران يستظلون بها من حر الشمس رمتهم الحرس بالحجارة .

وكان يطعمهم خبز الشعير مخلوطا بالملح والرماد، وكان لا يلبث الرجل فيسجنه إلا يسيرا حتى يسود ويصير كأنه زنجي، حتى أن غلاما حبس فيه، فجاءت إليه أمه بعد أيام تتعرف خبره، فلما تقدم إليها أنكرته، وقالت ليس هذا ابنى، هذا أحد الزنج، فقال: لا والله يا أماه أنت فلانة بنت فلان، وأبى فلان.

فلما عرفته شهقت شهقة فاضت فيها نفسها.

من (الكشكول للعاملى ج ٣ ص ٣٦٥)

مشهد من دمرت صاعقة قصره فارتاع ثم مات

كان الملك الناصر أحمد بن إسماعيل صاحب اليمن من شرار بنى رسول ملوك اليمن، وفى أيامه خربت غالب بلاد اليمن لكثرة ظلمه وعسفه، ولعدم سياسته وتدبيره، واستمر على ذلك إلى أن توفى سادس عشر جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة من ساقطة سقطت على حصنه المسمى قوارير خارج مدينة زبيد فارتاع من سقوطها، وأقام أياما مريضا ملازما للفراش إلى أن مات.

من (المنهل الصافى ج ١ ص ٢٤٤)

مشهد من مات عند سماعه الرعد

كان عبد الله البرقى فتى متحركا فى الفقه والأدب ... وغلب عليه فى آخر عمره الورع والفضل، وخرج مرابطا، فمات بسوسة من رعدة سمعها.

كان قد أغفى فى حين الرعدة بعد دعاء شديد. وتضرع عظيم، فكان قلبه قد أُشرب الخوف، فلما فجأه الرعد القاصف ذهبت نفسه.

كان فى حين موته من أبناء الأربعين وتوفى سنة عشر وثلاثمائة - رحمه الله تعالى.

من (قضاة قرطبة وعلماء أفريقية ص ٢٣٣)

مشهد من ارتاع من رؤية قبر فمات

روى أبو القاسم الحسن النيسابورى بسنده إلى هشام بن عبيد الله أنه قال :

نظر الحارث بن سعيد فى قبر منخسف (منهـدم) فخر مغشيا عليه، ثم رفع وقد زال عنه عقله، فبقى كذلك حتى مات رحمه الله تعالى.

من (عقلاء المجانين ص ٦٥)

مشهد من غشى عليه من رؤية القبور ثم مات

قال الحارث بن سعيد:

أخذ بيدى أبو المعـاصر رياح بن عمرو القيـسى فقال: هلم يا أبا محـمد حتى نبكى على مر الساعات، ونحن على هذه الحال.

قال وخـرجت معـه إلى المقابر، فلمـا نظر إلى القبـور صرخ ثم خـر مغـشيا عـليه، فجلست والله عند رأسه أبكى، فأفاق فقال:

ما يبكيك؟

قلت: لما أرى بك .

قال : لنفسك فابك.

ثم قال: وانفساه، وانفساه.

ثم غشى عليه، فرحمتُـه والله مما نزل به، فلم أزل عند رأسه حتى أفاق، فوثب وهو يقول:

﴿تلكَ إذاً كرَّة خَـاسرَةُ﴾ النازعـات - ١٢ ﴿تلكَ إذاً كَرَّة خَـاسرَة﴾ ومَـضَى على وجهه، وأنا أتبعه لا يكلمنى، حـتى انتهى إلى منزله، فدخل وأصفق بابه، ورجعت إلى أهلى، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى مات - رحمه الله تعالى.

من (صفة الصفوة ج ٣ ص ٣٦٩)

مشهد من مات عندما صدم بإهانة الاسلام

روى ابن الجزرى عن أبى عبد الله الحافظ أن الروم الأسبان لما استولوا على أشبيلية سنة ست وأربعـين وستـمائة هال صـوت الناقـوس وخرس الأذان أبا الحـسن على بن جابر الدباج اللخمى الأشبيلى، فما زال يتأسف ويضطرب إلى أن قضى نحبه بعد أيام، رحمه الله، وقد عاش ثمانين سنة.

من (غاية النهاية لابن الجزرى ج ١ ص ٥٢٨)

مشهد من ارتاع من أبهة السلطان فارتعد ومات

ذكر الجلال السيوطي أن محمد بن أحمد بن محمد الأموي هو من ذرية معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه.

وقال : أورد له ابن السمعاني من الشعر ما عجز عنه الأوائل من معانٍ لم يسبق إليها، كما أن له في اللغة مؤلفات لم يسبق إليها، وكان فريد دهره في معرفة اللغة والأنساب، وهو من ألمع تلاميذ عبد القاهرالجرجاني، وكان قوى النفس جدا، ومن شعره مفاخرا:

يَا مَنْ يُسَاجِلُنِي وَلَيْسَ بِمُدرك ... شَأْوِى، وَلَيس لَهُ جَلاَلَة منصبِى

لاَ تَتْعَبَنَّ فَـــدُونَ مَا حَاوَلَتَهُ ... خَرْطُ القَتَادَةِ وَامتِطاء الكَوْكَبِ

ولما حضر عند السلطان أبى شجاع محمد بن ملك شاه تشخيصاً وهو على سرير ملكه ارتعد، ووقع ميتاً، وذلك يوم الخميس بين الظهر والعصر، العشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة - رحمه الله تعالى .

من (بغية الوعاة ص ١٦)

مشهد من ارتاعت من رؤيا فماتت

كم من رؤيا تصادف نفوذ أحكام القدر، ونفاد أيام العمر، ومثل هذه الرؤيا كثيرة الحدوث، متنوعة الصور، ومن أعجبها ما نقله بهاء الدين العاملى قائلا :

إن موسي الهادى العباسى كان مغرى بجارية تسمى (غادراً) وكانت من أحسن النساء وجهاً، وأكثرهن أدبا، وألطفهن طبعاً.

فبينما هى معه ذات ليلة إذ تغير لونه، وظهر أثر الحزن عليه، فقالت ما بال أمير المؤمنين؟ لا أراه الله ما يكره.

فقال : وقع فى فكرى الساعة أنى أموت، وأن أخى هارون الرشيد يلى الخلافة بعدى، وأنك تكونين معه، كما كنت معى الآن، فقالت:

لا أبقانى الله بعدك أبداً.

وأخذت تلاطفه ، وتزيل هذا الخيال من خواطره، فقال :

لابد أن تحلفى لى أيمانا مغلظة ألا تَخْلَى به بعدى، فحلفت على ذلك وأخذ عليها العهود والمواثيق الغليظة.

ثم خرج وأرسل إلى أخيه هارون، وحلفه ألا يخلو بغادر بعده، وأخذ عليه من المواثيق والعهود ما أخذ عليها.

فلم يمض إلا شهر حتى مات موسى الهادى وانتقلت الخلافة إلى هارون الرشيد، فطلب الجارية فحضرت، ورغب أن تكون معه كما كانت مع الهادى، فقالت:

وكيف يصنع أمير المؤمنين بتلك الأيمان والعهود؟

فقال: قد كَفَّرْتُ عَنْك وعن نفسى.

ثم خلا بها، ووقعت من نفسه موقعاً عظيماً، بحيث لم يكن يصبر عليها ساعة...

فبينما هى نائمة ذات ليلة إذ استيقظت مذعورة فقال لها:

ما بالك فدتك نفسى؟

قالت: رأيت أخاك ينشد هذه الأبيات:

أَخْلَفْتِ عَهْدِى بَعْدَمَا ... جَاوَرْتُ سُكَّانَ الْمَقَابِرْ
وَنَسِيتِنى وَحَنَثْتِ فِى ... أَيْمَانِك الزّورِ الْفَوَاجِرْ
وَنَكَحْتِ غَادِرَةً أَخِي ... صَدَقَ الَّذِى سَمَّاك (غَادِرْ)
لا يَهْنِك الإِلْفُ الْجَدِيدُ ... وَلاَ تَدُرْ عَنْك الدَّوَائِرْ
وَلَحِقْتِنِى قَبْلَ الصَّبَا ... حِ وَصِرْتِ حَيْثُ غَدَوتُ صَائِرْ

قالت:

وأظن أنى لاحقة به فى هذه الليلة، فقال:

فدتك نفسى إنما هى أضغاث أحلام، فقالت: كلا.

ثم ارتعدت واضطربت بين يديه حتى ماتت.

من(الكشكول للعاملى ج٣ ص ١٩٤)

مشاهد من تأثروا بالمواعظ فماتوا

إن البشر ليسوا سواء فى غلظ القلوب ورقتها، فمن الناس من تقسو قلوبهم، فتكون كالحجارة أو أشد قسوة، فلا تؤثر فيهم آيات الله المنبثة فى آفاق الكون، ولا يحبون أن ينتفعوا بعظة الواعظين، ومن هؤلاء الغلاظ القلوب قوم هود عليه السلام، فقد قابلوا دعوته بقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الشعراء- ١٣٦ . وأصروا على تعنتهم، وعلى شركهم، وعلى ازدرائهم له فقالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَة وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ هود -٥٣ - ٥٤ .

ومن الناس من ترقـقهم المواعظ، فتـرق قلوبهم ويخشـعون لله كمـن قال سبـحانه فيهم: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾ مريم - ٥٨ .

وبين هذين الصنفين من الـناس مراتب عديدة فى قسـوة القلب ورقتها ولقـد توعد الله الصنف الأول من الناس لقسوتهم وتعنتهم فـقال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّـاكٍ أَثِيمٍ. يَسْـمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الجاثية-٧-٨ .وذكر الله استجـابة الصنف الثانى للحق فى قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُـوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْـيُنَهُمْ تَفِـيضُ مِنَ الـدَّمْعِ مِـمَّا عَـرَفُـوا مِنَ الحَـقِّ يَقُـولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَـاكْـتُـبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيـنَ. وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَـا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَـا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ المائدة-٨٣-٨٤ .

ثم بشرهـم بقوله : ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْـتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة - ٨٥ .

وإليك طائفة من هؤلاء الذين صفت نـفوسهم، ورقت أفئدتهم، فمـاتوا متأثرين بما أدركوا من عظات.

روى ابن قدامة المقدسى بسنده إلى رجاء بن ميسور المجاشعى أنه قال:

كنا فى مجلس صالح المرى وهو يتكلم، فقال لفتى بين يديه: اقرأ يافتى. فقرأ الفتى قول الله تـعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَـاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ غافر - ١٨ .

فقطع صالح عليه القراءة وقال :

كيف يكون لظالم حـميم أو شفيع، والمطالـب له رب العالمين؟ إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصى يساقون فى السلاسل والأنكال إلى الجـحيم حفاة عراة، مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم، ذائبة أجسادهم، ينادون يا ويلنا ياثبورنا ما نزل بنا؟ ماذا حل بنا؟ أين يُذهب بنا؟ ماذا يُراد منا؟ والملائكة تسوقهم بمقـامع النيران، فمرة يجرون على وجوههم ويسـحبون عليـها منكبين، ومـرة يقادون إليهـا مقرنين، من بين باكٍ دمـاً بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت.

إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظراً لا يقـوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا تستقر لفظاعة هوله على قرار قدمك.

ثم نَحَبَ وصاح: يا سوء منظراه، يا سوء منقلباه وبكى، وبكى الناس.

فقام فتى من الأزد فقال:

أكل هذا فى القيامة يا أبا بشر؟

قال: نعم والله يا ابن أخى، وما هو أكثر، لقد بلغنى أنهم يصرخون فى النار حتى تنقطع أصواتهم، فما يبقى منها إلا كهيئة الأنين من المدنف، فصاح الفتى:

إنا لله، واغفلتاه عن نفسى أيام الحياة، وا أسفاه على تفريطى فى طاعتك، يا سيداه، وا أسفا على تضييعى عمرى فى دار الدنيا.

ثم بكى، واستقبل القبلة فقال:

اللهم إنى أستقبلك فى يومى هذا بتوبة لا يخالطها رياء لغيرك، اللهم فاقبلنى على ما كان فىّ، واعفُ عما تقدم من فعلى، وأقل عثرتى، وارحمنى ومن حضرنى، وتفضل علينا بجودك وكرمك، يا أرحم الراحمين، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقى، وإليك أنبت بجميع جوارحى، صادقاً لذلك قلبى، فالويل لى إن لم تقبلنى.

ثم غُلب فسقط مغشياً عليه، فحُمل من بين القوم صريعاً فمكث صالح وإخوته يعودونه أياماً، ثم مات والحمد لله فحضره خلق كثير يبكون عليه ويدعون له.

فكان صالح كثيراً ما يذكره فى مجلسه فيقول: وبأبى قتيل القرآن وبأبى قتيل المواعظ والأحزان.

قال المجاشعى: فرآه رجل فى منامه فقال له: ما صنعت؟ قال: عمتنى بركة مجلس صالح المرى فدخلت فى سعة رحمة الله التى وسعت كل شىء .

من (كتاب التوابين ص ٢٣٦)

مشهد من شهق من سماع آيتين فمات

قال صالح المرى:

كان أبو جهير مسعود الضرير قد خرج من البلد، وبنى له مسجداً يتعبد فيه...

ذهبت مع جماعة من أهل البصرة إلى منزل أبى جهير، فكرهنا أن نستأذن عليه، حتى إذا كان وقت الظهيرة خرج فأذن وأقام الصلاة وصلى فصلينا معه...

ثم قال لى: من أنت؟

قلت: صالح المرى.

قال: أنت الذى يقال: إنك أحسن أهل البصرة صوتاً؟ ثم قال لى: إنى كنت إلى صوتك مشتاقاً، هات اقرأ على خمس آيات من كتاب الله.

فاستفتحت فقرأت ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ المَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذ لِلمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً. وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ الفرقان -٢٢-٢٣ فشهق شهقة وغُشِيَ عليه، فلما أفاق قال: أعد عليّ قراءتك، فأعدت عليه فشهق شهقة أخرى وفارق الدنيا.

من (جامع الكرامات ج٢ ص ٢٥٢)

وذكر ابن الجوزى أن أبا جهير لما سمع الآية الثانية صاح صيحة، ثم انكب لوجهه وانكشف بعض جسده، فجعل يخور كما يخور الثور، ثم هدأ فدنونا منه ننظر، فإذا هو قد خرجت نفسه كأنه خشبة.

من (صفة الصفة ج٣ ص ٣٣٣)

مشهد من أدرك جلال الله غامراً للكون فمات

كان أبو السُّرى واصل بن عبدالله يأوى إلى مسجد السدرة بالقيروان، يركع ويسجد فيه إلى صلاة العصر، فإذا قيل له: أُرْفُقْ بنفسك.

قال: أنا رجل مطالب مديان.

أنشد بعض القراء وهو جالس هذه الأبيات:

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَدْعُو خَوَاطِرِى ... وَآخَرَ يَدْعُو نَاظِرِى وَلِسَانِي
فَمَا نَظَرَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ مَنْظَراً ... يَسُوءكَ إلاَّ قُلْتُ قَدْ رَمَقَانِى
ولا خَطَرَتْ فِى السِّرِّ دُونَكَ خَطْرَةٌ ... بِنَفْسِىَ إلاَّ عَرَّجَا بعِنَانِى
وَإِخْوَانِ صِدْقٍ قَدْ سَمِعْتُ حَدِيثَهُمْ ... فَأَمْسَكْتُ عَنْهُمْ نَاظِرِى وَلِسَانِى
وَمَا الدَّهْرُ أَسْلَى عَنْهُمُو غَيْرَ أَنَّنِى ... رَأَيْتُكَ مَشْهُوداً بِكُلِّ مَكَانِ

فبكى وصاح، وفارق الدنيا، مات سنة ست وسبعين وثلاثمائة ودفن بباب سلم رحمه الله.

من (معالم الإيمان ج٣ ص ١٠٥)

مشهد من تدبر آية فرددها فمات

كان أبو يوسف حجاج بن أبى يعقوب قد انتقل من القيروان إلى مصر، فمات بها، ودفن بالمقطم سنة تسع وأربعين وثلاثمائة.

وكان رحمه الله قد سمع قارئاً يقرأ آية الكرسى، فلم يزل يرددها وهو يبكى حتى حمل إلى بيته، ففاضت نفسه - رحمه الله تعالى.

من (معالم الإيمان ج٣ ص ٧٦)

مشهد من لم يطق تتابع الوعظ فمات

قال حصين بن القاسم الوزان:

كنا عند عبدالواحد بن زيد وهو يعظ، فناداه رجل من ناحية المسجد:

كف عنا يا أبا عبيدة، فقد كشفت قناع قلبى.

فلم يلتفت عبدالواحد إلى ذلك ومر فى الموعظة فلم يزل الرجل يقول:

كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبى، وعبد الواحد لا يقطع موعظته، حتى والله حشرج الرجل حشرجة الموت، ثم خرجت نفسه فمات.

ثم قال حصين:

أنا والله شهدت جنازته يومئذ، فما رأيت بالبصرة يوماً أكثر باكياً من يومئذ.

من (الحلية ج٦ ص ١٥٩)

مشهد من هاله سماع آية فزال عقله ثم مات

روى أبو القاسم النيسابورى بسنده إلى بشر بن عبدالعزيز أنه قال:

كان عمر بن درهم لا يخرج إلا إلى صلاة أو جنازة، فسمع قارئاً يقرأ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إلاَ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ القمر - ٥٠ .فصرخ صرخة، فخُلط فى عقله، فلم يزل على ذلك حتى مات - رحمه الله- تعالى.

من (عقلاء المجانين ص٦٦)

مشهد شهيد القرآن

نقل القاضى عياض عن أبى العز أن أبا جعفر أحمد بن مُعتب بن أبى الأزهر الأزدى كان عالماً بالحديث والرجال، حسن التفسير، ونقل القاضى يونس عن أبى العرب أن ابن معتب كانت له صلاة طويلة بالليل وبكاء، حتى كان يسمع جيرانه بكاءه وصراخه.

وقال أبو بكر بن اللبَّاد حضرت مشهد الذكر يوم السبت لسبع خلون من ذى القعدة سنة سبع وسبعين ومائتين، وأحمد بن معتب حاضر، وكان له بكاء ونوح، وكان القراء إذا علموا به تحركوا فقرأوا، وغيّروا، وأخذوا فى التغيير:

دَعِ الدُّنْيَا لِمَنْ جَهِلَ الصَّوَابَا فَقَدْ خَسِرَ المُحِبُّ لَهَا وَخَابَا

فلما وصلوا:

يَظَلُّ نَهَــــارَهُ يَبْكِى بِبَثٍّ وَيَطوِى اللّـيْلَ بِالأَحْزَانِ دَابَا

تحرك وبكى.

ثم قرأ قارئ: ﴿يَا عِبَادِى لاَ خَوْف عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا

وَكَـانُوا مُـسْلمينَ ﴾الزخرف - ٦٨ - ٦٩ .فصـاح ابن معتب صيحـة شديدة، ثم سقط على وجهه، فَأَقام ساعة، وأسنده إنسان إلي صدره، وكُلِّم فلم يتكلم، وقد أغلق عينيه، ثم قاء شيئاً أخضر.

فلما انقضى المجلس وخُتم بالدعـاء أردنا أن نحمله على دابة فلم نستطع، إذ كان لا يثبت، فجئنا بمحمل على جمل فحُـمل وأُخرج من المسجد، وكلٌّ من فى المسجد يبكى كأنه مأتم.

حُمل فى شق الجمل، وزامله ابـن عم له، ثم أُتى به إلى داره، فقاء شيئـاً أخضر ولم يتكلم، وتركناه لشأنه.

فلمَّا كان بعد العشاء الآخرة توفى رحمه الله، وما تكلم وما فتح عينيه.

قال ابن اللباد: وحضرتُ غسله، وقـد كُسى نوراً وبياض بدن، وصُلِّى عليه للعصر، صلى عليه حمديس القطان، وفات كثـيراً من الناس الصلاةُ عليه لكثرتهم ونودى على جنازته أيها الناس لا تفتكم جنازة أحمد بن معتب شهيد القرآن.

من (ترتيب المدارك ج٤ ص ٣٥٣)

وروى بعض هذا المشهد أبو بكر المالكى فى رياض النفوس مضـيفاً أن أبا جعفر بن معتب مر فى ذلك اليوم بموضع قبل دخوله مسجد السبت فسمع قائلا يقول:

الْعَفْوُ أَوْلَى بِمَنْ كَانَتْ لَهُ الْقُدَرُ لاَ سِيَّمَا عَنْ مُقِرٍّ لَيْسَ يَنْتَصِرُ
أَقَرَّ بِالذَّنْـــبِ إِجْــلاَلاً لسيِّدِه فَقَـــامَ بَـيْنَ يَدَيْهِ وَهْوَ يَعْتَذِرُ

فبكى وخشع، ودعا للقَائل وللذين حَضَـروا، ثمّ مضى ودخلَ مسجد السَبت...إلى آخر ما مر.

من (رياض النفوس ج١ ص ٤٧١)

كما روى أبـو عبد الله الخشنى قـصة وفاة ابن معـتب من (موعظة) عن أبى بكر بن اللبّـاد، فقال: حـضرته فى مـجلس السبت وقـد سمع شـيئـاً من أولئك القراء، فـصاح صيحة ثم خرّ، وانبعث الزبد من فيه، واحتُمل فى نعش إلى داره، فما سُمعت منه كلمة حتى مات - رحمه الله تعالى.

ثمّ قال الخُشَنى: قال ابن حارث، ولم أوقف أبا بكر بن اللباد عما سمع (من العظة) وقد سمــعت فى ذلك اختـــلافـا من الناس، فقـائل يقول أنه سمع ﴿أَلْهَـاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَـتَّى زُرْتُمُ الْمَقَـابِرَ﴾وقائل يقول أنه سـمع بيت شعر فيه ذكـر النار، فكان من أمره ما كان.

من (قضاة قرطبة وعلماء أفريقية ص ١٨٩)

مشهد واعظ يرق فيغشى عليه ويموت

نقل تاج الدين السبكى عن أبى سعيد بن السمعانى أن أبا العباس الطَّبرى كان من أخشع الناس قلباً إذا قص، فمن ذلك ما يُحكى أنه كان يقص على الناس بطرسوس، فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته، وملكته خشية مما كان يذكر من بأسه وسطوته فخر مغشياً عليه ومات.

توفى بطرسوس سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة - رحمه الله تعالى.

من (طبقات الشافعية لابن السبكى ج٣ ص ٥٩)

مشهد من سمع أهوال الآخرة فمرض فمات

قال أبو جعفر بن بطونة سمعت أبى يقول:

حضرت جنازة فى باب تونس (من مدينة القيروان) وحضرها أبو خالد عبدالخالق المتعبِّد، فذكر بعض من حضر الآخرة وأهوالها، فصاح عبدالخالق، ثم ولّى نحو الفحص هاربا على وجهه.

قال فمضينا فى إثره، فأصبناه جاثياً على ركبتيه، خاراً على وجهه، فحملناه على دابة.

ثم أقمنا بعد ذلك أياماً نعوده، حتى مات من شدة الخوف رحمه الله تعالى، وكان ذلك سنة عشرين ومائتين.

من (رياض النفوس ج١ ص ٣٢٦)

مشهد من مواعظ مسجد السبت

روى أبو الحسن علىُّ بن محمد الأنصارى عن أبيه أنه قال:

حضرت مسجد السبت القديم، وكان مبنياً بالطوب، فقال القوّالون أشعاراً فى الزهد، فبكى الناس بكاء عظيماً، حتى امتلأ المسجد بالبكاء وارتفعت أصواتهم، فقال رجل جالس بجوارى:

لقد طاب المسجد اليوم، فقال له رجل كبير السن شيخ:

يا هذا حَالَ المسجدُ عمّا كنا عهدناه قبل هذا الوقت (يعنى تحوَّل عما كان) ثم قال:

أعرف أنى حضرته يوماً فقام ابن السامة فقرأ ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِى النَّار خَيْر أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِـئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ فصلت - ٤٠ .فـقام شاب من الركن يبكى ويصيح:

الأمان بالله.

فرجع القارئ إلى الآية من أولها، فقال الشاب:

الأمان بالله.

فرجع القارئ مرة ثالثة، فصاح الشاب:

الأمان بالله، وخر ميتاً - رحمه الله تعالى.

من (رياض النفوس ج١ ص ٤٩٦)

مشهد موعظة انقلبت مُضحكة

نقل ابن خلكان عن محمد بن زياد أنه قال:

سـمعت ثعلبـا يقـول: لما ماتـت حمّـادة بنت عيـسى ابنة عم أبى جـعـفر المنصـور وزوجته، حـضر أبو جعفـر جنازتها، وجلس لدفنها، وهو متـألم لفقدها كئيب عليها. فأقبل أبو دُلامة، وجلس قريباً منه (وكان أبو دلامة معروفاً بالمزح).

فقال له المنصور:

ويحك ما أعددت لهذا المكان؟ وأشار إلى القبر.

فقال أبو دُلامة:

ابنة عم أمير المؤمنين.

فضحك المنصور، ثم قال له:

ويحك فضحتنا بين الناس.

من (وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٢٠)

مشاهد الواعظين لمن عندهم
وهم فى سياق الموت

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم المفلحون بشهـادة الله سبحانه، إذ يقول: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُـونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾- آل عمران الآية ١٠٤ .

ولقد دأب أناس على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى الدّعوة إلى الله على بصيرة، حتى اللحظات التى كانوا يودّعون فيهـا الحياة، ولم تشغلهم شدة ما هم فيه عن الاهتمام بأمر الله فى هذا الشأن.

من هؤلاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

قال عمر بن ميمون وهويروى حادث مقتل عمر:

لما طعنه أبو لؤلؤة فى صلاة الصبح وقد أُتى عمر بلبن فشربه فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت، ودخلنا عليه فجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب، فقال: أبشريا أمير المؤمنين ببشرى الله عز وجل لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ما قد علمت، ثم ولّيت فعدلت، ثم شهادة.

قال عمر رضى الله عنه: وددت أن ذلك كان كفافا لا علىّ ولا لى. فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال عمر:

(ردوا علىّ الغلام، ثم قال: يا ابن أخى ارفع إزارك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك).

من (الرياض النضرة ج٢ ص٤٠٧)

ومنهم أبو الدرداء رضى الله عنه.

قال معاوية بن قرة:

إن أبا الدرداء اشتكى، فدخل عليه أصحابه، فقالوا: ما تشتكى؟

قال: أشتكى ذنوبى.

قالوا: فما تشتهى؟

قال: أشتهى الجنة.

قالوا: أفلا ندعو لك طبيباً؟

قال: هو الذى أضجعنى.

وروى إسماعيل بن عبيد الله أن أبا مسلم قال: جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه فقال:

(ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه؟)

ثم قبض رضى الله عنه[1]

ومنهم محمد بن واسع بن جابر.

قال أبو عامر حدثنى صاحب لنا أن محمد بن واسع لما ثقل كثر الناس عليه فى العيادة، فدخلت، فإذا قوم قيام، وآخرون قعود، فأقبل عليّ فقال:

أخبرنى ما يغنى هؤلاء عنى إذا أخذ بناصيتى وقدميّ غداً، وأُلقيتُ فى النار، ثم تلا: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ، فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾[2]

وقال محمد بن عبدالله مولى الثقفيين: دخلنا على محمد بن واسع وهويقضى (يعنى فى سياق الموت) فقال:

(يا إخوتى، يا إخوتى، هبونى وإياكم سألنا الله الرجعة، فأعطاكموها ومنعنيها، فلا تخسروا أنفسكم).[3]

ومنهم محمد بن نوح العجلى:

كان العجلى ممن امتحنوا فى الفتنة القائمة على القول بأن القرآن مخلوق، فحمله المأمون ومعه أحمد بن حنبل إلى الرقَّة على بعير متزاملين، فمرض محمد بن نوح فى الطريق، فقال لأحمد:

(أبا عبد الله، الله الله فإنك لست مثلى، إنك رجل يُقتدى بك، وقد مَدَّ هذا الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك، فاتق الله، واثبت لأمره).

ثم مات - رحمه الله - فى (عانة) بين الرقة وهيث، فدفنه الإمام أحمد بها سنة ثمانى عشرة ومائتين.[4]

ومنهم أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى:

وفى شرح الجوزقى، قال المازرى:

لما أفاق أبو عمران من إغمائه فى مرضه الذى مات فيه سمع أم ولده عيسى تبكى وتقول: واشماتة أعداء عيسى بعيسى، فقال لها: قولى لأعداء عيسى: لا يموتون.[5]

---

(١) صفة الصفوة ج١ ص ٦٤١ .

(٢) سورة الرحمن الآية ٤١ .

(٣) صفة الصفوة ج٣ ص ٢٧١ .

(٤) الوافي بالوفيات ج٥ ص ١٣٤ .

(٥) معالم الإيمان ج٣ ص ٢٠٤ .

مشاهد من شعروا بدنو آجالهم فأوصوا

وصية الإنسان بإنفاذ شيء بعد وفاته ما هي إلا من رحمة الله بالإنسان، وقد شرعها الله لعباده تحقيقا لمآربهم التي تقْصُر حياتهم عن بلوغها .

والوصية من أوكد ما دل عليه النبي صلى الله عليه وسلم أمته فقد روى كل من البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا حَقُّ امْرِئٍ مسلم له شَيْء يُوصِى فِيه يَبِيت لَيْلَتَيْن إلا وَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَة عِنْدَه).

وروى ابن ماجه فى سننه بسند ضعيف عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ مَاتَ عَلَى وَصِيَّةٍ مَاتَ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ، وَمَاتَ عَلَى تُقىً وَشَهَادَةٍ، و مات مَغْفوراً لَه).

وللوصية أثر يسعد به الميت حالما يكون فى البرزخ، فقد روى ابن حبان فى كتاب الوصايا عن قيس بن قبيصة، أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ لَمْ يوصِ لَمْ يُؤْذَنْ له فِي الكلامِ مَعَ الْمَوْتَى - قيل : يا رسول الله وهل تتكلم الموتى؟ - قال : نعم ويتزاورون).

وروى أبو عبد الله الحاكم فى الكنى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ مَاتَ على غَيْرِ وَصيَّةٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَه فى الْكَلامِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة - قالوا يا رسول الله، ويتكلمون قبل يوم القيامة - قال : نعم ويزور بعضهم بعضا).

ولما كان للوصية ذلك الأثر وغيره رأينا كثيراً من الناس يوصون قبل وفاتهم بزمن قد يكون طويلا، وقد يكون قصيرا، وكان من أهل العلم من ينكر على من يدركه الموت من المسلمين ويموت على غير وصية، ومن المنكرين الشيخ عبد الرحمن بن الجوزى، فقد قال فى رسالة الثبات عند الممات:

(إنى رأيت جمهور الناس إذا طرقهم المرض اشتغلوا تارة بالجزع منه والشكوى وتارة بالتداوى إلى أن يشتد فيشغلهم اشتداده عن الالتفات إلى المصالح من وصية أو فعل خير، أو تأهب للموت، فكم له من ذنوب لا يتوب منها، أو عنده وديعة لا يردها، أو عليه دين أو زكاة أو فى ذمته ظُلامة لا يخطر له تداركها، وإنما اقتصرت همته على فراق الدنيا إذ لا همة له سواها، وربما فاق فأوصى بجور، وسبب هذا ضعف

الإيمان كمـا قال عز وجل : ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْـرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾. النجم ٢٩ - ٣٠ .

ثم قال رحمه الله :

(فينبغي للمتـيقِّظ أن يتأهّب فى حال صحته قـبل هجوم المرض، فربما ضاق الوقت عن عمل، واسـتدراك فارط أَوْ وَصيّـة، فإن لم يكن أوصى فى الصحة فليـبادر فى أول المرض، فليوص وليحذر من الجور فى وصيتـه. ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال : (إنّ الرَّجلَ لَيَـعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الخَـيْرِ سَبْـعينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى جَارَ فِى وَصِيَّته، فَيُخْتَم لَه بِشرِّ عَمَلِه، فَيَدخُل النَّار، وَإِنّ الرَّجلَ لَيَعْمَلُ الشَّرَّ سَبْعينَ سَنَةً فَيَعْدِل فِى وَصِيَّتِه فَيُخْتَم لَه بِخَيْرِ عَمَلِه فَيَدْخل الجَنَّةَ) .

وروى ابن مـاجه عن أنس بن مـالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : (مَنْ فَرَّ بِميرَاثه مِنْ وَارِثه قَطَعَ اللَّه مِيرَاثَه مِنَ الْجَنَّة) [١]

ما يحل من الوصايا وما لا يحل :

تحدث الوصية على صورة من خمس صور، وذلك باعتبار مضمونها كما يلى :

١) ما تتضمن أمرا من الأمور الواجبة .

٢) ما تتضمن أمرا مستحبا .

٣) ما تتضمن أمرا جائزا .

٤) ما تتضمن أمرا مكروها

٥) ما تتضمن أمرا محرما .

أما الوصية بالواجب فهى المتعلقة بأداء ما يجب على الإنسان من دين لم يقضه، أو زكاة لم يعطها، أو وديعة لم يردها، أو شهادة يـترتب عليها حق لم يؤدها، أو مال أخذه بغيـر حق ، فتاب وأوصى بدفعـه لمستحقـه، أو كان قد اسـتغل جهازا أو عقـارا ظلما، فتاب وأوصى بإرجاعهمـا لمن يستحقهما أو لوارث من يستحقهـما مصحوبين بعوض عما كان قد استغل .

وهكذا كل ما يجب على الإنسان من حق لم يقم به، وأوصى بإنفاذه استجابة لقول الله تعالى : ﴿ إِنّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ - النساء ٥٨

(١) رسالة الثبات عند الممات صفحة ٣٧ .

وأما الوصية بالأمر المستحب فـهى التى تكون بجزء من المال لبعض الفقراء أو لنشر الدعوة إلى الله، أولمؤسسة خيرية.

روى البـخارى ومـسلم عن سعـد بن أبى وقـاص رضى الله عنه أنه قال : جـاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى عـام حجة الوداع مـن وجع اشـتد بى، فقلت يا رسول الله قد بلغ بى الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال، ولا يرثنى إلا ابنة أفأتصدق بثلثى مالى؟

قال : لا.

قلت : فبالشطر يا رسول الله؟

قال : لا .

قلت : فبالثلث ؟

قـال : الثلث، والثلث كثـيـر، إنك إن تذر ورثتك أغنيـاء خيـر من أن تدعهم عـالة يتكففون الناس.

وروى ابن مـاجه عن عبـد الله بن عـمر رضى الله عنهـما أن النبى صلى الله علـيه وسلم قـال : فيـما يرويه عن رب العـزة يا ابن آدم جعلت لك نصـيبـا من مالك حـين أخذت بكَظِّك [1] لأطهرك وأزكيك .

وروى الطبرانى فى المعجم الكبير عن خالد بن عبيد أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(إِنَّ اللهَ أَعْطَاكمْ ثلثَ أَمْوَالِكمْ، زِيَادَةً فِى أَعْمَالِكمْ)

وروى أيضا فى المعجم عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(إِنَّ الرَّجلَ الْمسلِمَ لَيَصنَعُ فِى ثلثه عِنْدَ مَوْته خَيْراً فَيوَفِّى الله بِذَلِكَ زَكَاتَه).

وقـد ذهب العلمـاء إلى أن مال التـركـة إذا كان قليـلا والورثة فـقـراء لا تستـحب الوصية بجزء من ذلك المال القليل، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم لسعد :

(إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرَ مِنْ أَنْ تَدَعَهمْ عَالَةً يَتَكَفَّفونَ النَّاسَ) .

والوصـية بجـزء من المال لا تحل لأى واحد من الورثة لـقول النبى صلى الله عليـه وسلم : (إِنَّ اللَّهَ قَـدْ أَعْطَى لِكلِّ ذِى حَقٍّ حَـقَّـه، فَـلاَ وَصِـيَّـةَ لِوَارِثِ) رواه أبو داود والترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه .

---

(١) الكظ : غمرة الموت.

فإن وقعت وأجازها بقية الورثة فهى عطية منهم للموصى له.

ومن الوصايا المستحبة أن يوصى المرء من بعده بتقوى الله أو بالقيام بنوع من الطاعات أو بإبلاغ ظالمه أنه قد عفا عنه، إلى آخر ما يشبه هذه الطيبات .

وأما الوصية بالأمر الجائز فهى التى تتضمن أمرا مباحا، كأن يوصى بأن يكفن فى ثوب كان يلازم لباسه في تهجده، أو بأن يغسله أو يصلى عليه شخص معين، أو أن يدفن فى مكان مرجو البركة والرحمة، أو يرجو أن تذكر كلمة التوحيد سبعين ألف مرة، ويهدى له ثوابها أو نحوها من المبرات .

وأما الوصية بالمكروه فكأن يوصى بتكفينه بالحرير، أو بكفن غير أبيض أو بألا يسرعوا إلى تجهيزه ودفنه، حتى يَقْدِمَ فلان من السفر إلى آخر ما يشبه هذه الأمور لأنها مخالفة للسنة .

وأما الوصية بالأمر المحرم فلا تجوز شرعا، ولا ينبغى لأحد تنفيذها، ومن بينها الوصية بقطيعة الرحم، أو بالانتقام من أبناء عدوه، أو بالنواح عليه عند موته إلى آخر ما هو محرم فى الدين .

وستمر بك ألوان متعددة من الوصايا فى المشاهد التالية، ولعل المرء لا يعدم الخير من اطلاعه عليها إن شاء الله.

مشهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى مرضه وهو يوصى بالأنصار خيرا :

روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال :

مر أبو بكر والعباس رضى الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال :ما يبكيكم ؟

قالوا : ذكرنا مجلس النبى صلى الله عليه وسلم منا.

فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك .

قال : فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية بُرد، قال فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :

(أوصيكمْ بالأنْصَار، فَإنَّهمْ كَرْشِى وَعَيْبَتى[1] وقَدْ قَضَوا الذى عَلَيْهِمْ، وبَقِىَ الذى لَهمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ محْسنِهمْ، وتَجَاوَزوا عَنْ مَسِيئِهمْ).

---

(١) أى هم مستودع سرى وأمانتى .

مشاهد من آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم:

روى البيهقى أنه صلى الله عليه وسلم كان عنده فى مرضه سبعة دنانير، فكان يأمرهم بالصدقة بها، ثم يُغمى عليه، فيشتغلون بوجعه، فدعا بها، فوضعها فى كفه وقال:

(ما ظَنّ محمَّد بربِّه لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَعنده هَذه) ثم تصدق بها كلها.

وروى أبو داودَ عن على رضى اللـه عنه أَن النبى صلى الله عليه وسلم كان آخر كلامه:

(الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم).

وروى البيهقى عن أبى عبيدة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان آخر ما تكلم به أن قال:

(قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهودَ وَالنَّصَارَى اتَّخذُوا قبورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ،لاَيَبْقَيَنَّ دِينَانِ بِأَرْضِ الْعَرَبِ).

وروى البخارى أن سعيد بن جبير سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقول:

يوم الخميس، وما يوم الخميس، ثم بكى حتى بلَّ الحصى.

قلت: يا ابن عباس ما يومُ الخميس؟

قال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، فقال ائتونى بكتف أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا، فتنازعوا - ولا ينبغى عند نبى تنازع - فقالوا: مَـالَهُ أَهَجَرَ؟ استفهموه، فقال صلى الله عليه وسلم:

(ذَرونِى، فَالَّذى أَنَا فيهِ خَيْر مِمَّا تَدْعونِى إِلَيْهِ)

فأمرهم بثلاث قال:

- أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

- وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم.

قال والثالثة إما أن سكت عنها، وإما أن قالها فنسيتها.

قال سفيان: هذا هو من قول سليمان الراوى عن سعيد بن جبير. يعنى المتعلق بالثالثة.

مشاهد من وصايا أبى بكر رضى الله عنه:

نقل الطبرى فى الرياض النضرة عن محمد بن سعد بإسناده أن جماعة من الصحابة دخلوا على أبى بكر رضى الله عنه لما عزم على استخلاف عمر، فقال له قائل منهم:

ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا، وقد ترى غلظته؟

فقال أبو بكر: أجلسوني، ثم قال :

أبالله تخُـوِّفونَنى؟ خَـابَ مَنْ تَزَوَّدَ مِنْ أَمْـرِكمْ بظلْمٍ، أقـول : اللهمَّ إِنّى أَسْتَـخْلِف عليهمَ خَيْرَ أَهْلكَ، أَبْلِغ عَنِّى ما قلت لكَ مَنْ وَرَاءَكَ.

ثم اضطجع، وجاء عثمان بن عفان فقال له :

اكتب باسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر فى آخر عهـده بالدنيا خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيـها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب إنى أستخلف بعـدى عمـر بن الخطاب، فـاسمـعوا وأطيـعوا فـإنى لم آلُ الله ورسوله ودينه ونـفسى وإياكم خيـرا، فإن عـدل فذلك الظن به، وعلمى فـيه، وإن بدل فلكلِ امرئٍ ما اكتـسب، والخير أردت، ولا علم لى بالغيب ٠ ﴿ وَسَيَـعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ الشعراء ٢٢٧ . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كما روَى الطبرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابَاط أنه قال :

لما حضرت أبا بكر الوفاة دعا عمر فقال :

اتق الله يا عمر ، واعلم أن لله عملا بالنهـار، لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقـبل نافلة حتى تؤدَى فـريضة، وإنما ثقلت موازين مـن ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى دار الدنيـا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يكون فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خـفت موازين من خفت موازينه باتباعـهم الباطل، وحق لميزان لا يكون فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا.

وإن الله ذكـر أهل الجنة فـذكرهم بأحـسن أعـمالهـم، وتجاوز عن سيـئاتهم، فـإذا ذكـرتهم قـلت إنى لأخـاف ألا ألحق بهم، وإن الـله ذكـر أهل النار، وذكـرهـم بأسـوأ أعـمالهم، ورد عليـهم أحـسنها، فـإذا ذكرتهـم قلت إنى لأرجو ألا أكـون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبا، راهبا، لا يتمنى على الله، ولا يقنط من رحمته.

فإن أنت حفظت وصيتى فلايكُ غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، ولست تعجزه .

وروى أبو يعلى وأبو نعـيم والبيـهقى بأسـانيـدهم إلى عائشـة رضى الله عنها أنهـا قالت :

لَمَّا اشتدّ مرض أبى بكر بَكَيْت ، وأغْمِيَ عليه فقلت :

مَنْ لا يزال دَمْعه مقَنَّعًا فَإِنّه مِنْ دَمْعه مَدْفوق

وورد فى النهاية أنها قالت :

من لا يزال دمعه مقنعا لاَ بدَّ يوما أَنَّه يُهْرَاق

فأفاق أبو بكر فقال :

ليس كـمـا قلت يا بنيـة، ولكن ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ سورة ق - ١٩ .

ثم قال :

أى يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقلت : يوم الاثنين .

فقال : أى يوم هذا ؟

فقلت: يوم الاثنين .

قال : فإنى أرجو من الله ما بينى وبين هذا الليل .

فمات ليلة الثلاثاء.

وقال : فى كم كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقلت: كفناه فى ثلاثة أثواب سحولية [(١)] بيض جدد، ليس فيها قميص ولا عمامة.

فقـال اغسلوا ثوبى هذا، وبـه رَدْعٌ من زعفران - أى لَطْخٌ لـم يعمَّه كله- واجـعلوا معه ثوبين جديدين .

فقلت : إنه خَلَقٌ .

فقال : إن الحى أحوج إلى الجديد من الميت، إنما هو للمُهلة (أى ما يسيل من جسد الميت)

وفى رواية للإمام أحمد فى الزهد أنه قال :

اغسلى هذين، وكفنينى بهما، فإنمـا أبوك أحد رجلين: إما مكسو أحسن الكسو، أو مسلوب أحسن السلب.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٤٥٣)

كما روى أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال:

أى يوم هذا ؟

قالوا : يوم الاثنين.

قال : فـإن مت من ليلتى فلا تنتظروا بى الغـد، فإن أحب الأيام والليالى إلى أقـربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) منسوبة إلى سحول وهى قرية باليمن .

مشهدان من وصايا عمر رضى الله عنه:

روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن ميمون رضى الله عنه أنه حدث عن مقتل عمربن الخطاب رضى الله عنه، فجاء فى حديثه قوله : فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقَدَمٍ فى الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة.

قال : وددت أن ذلك كفاف لا علىّ، ولا لىّ .

فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض .

قال : ردّوا علىّ الغلام، قال يا ابن أخى ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك.

يا عبد الله بن عمر انظر ما علىّ من الدين .

فحسبوه، فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه.

قال : إن أوفى مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تَعْدُهم إلى غيرهم، فأد عنى هذا المال.

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى، فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه .

فقالت: كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنّه به اليوم على نفسى .

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء .

قال : ارفعونى، فأسنده رجل إليه، فقال : ما لديك؟

قال : الذى تحبُّ يا أمير المؤمنين أذنتْ.

قال عمر : الحمد لله، ما كان من شيء أهم إلى من ذلك، فإذا أنا قَضيتُ فاحملونى، ثم سلِّم فقل يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنتْ لى فأدخلونى، وإنْ ردّتنى رُدُّونى إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قُمْنَا، فَولَجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلا لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا أَوْصِ يا أمير المؤمنين استخلفْ.

قال ما أَجدُ أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين تُوُفّىَ رسول الله صلى

الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن بن عوف .

وقال : يَشْهدُكُم عبد الله بن عمر، وليس له منْ الأمر شيء كهيئة التعزية له. فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيُّكُم ما أمِرَ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

وقال : أُوصِي الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم .

وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يُعفى عن مسيئهم .

وأوصيه بالأعراب خيرا، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشى أموالهم، وتُردَّ على فقرائهم.

وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُوَفَّى لهم بِعَهْدِهِم، وأن يقاتَلَ مِنْ ورائهم، ولا يُكلَّفوا إلا طاقتهم.

من (صحيح البخارى ج٤ ص٢٠٥)

وروى ابن سعد عن يحيى بن أبى راشد النصرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حضرته الوفاة قال لابنه :

يا بنى إذا حضرتنى الوفاة فأحْرِفْنى [١] واجعل ركبتيك فى صلبى، وضع يدك اليمنى على جبينى، ويدك اليُسرَى على ذَقْنِى، فإذا قُبضت فأغمضنى، واقصدوا فى كفنى، فإنه إن يكن لى عند الله خيرٌ أبدلنى خيرا منه، وإن كنت على غير ذلك سلبنى فأسرع سلبى، واقصدوا فى حُفرتى، فإنه إن يكن لى عند الله خير وسع لى فيها مَدَّ بصرى، وإن كنت على غير ذلك ضيقها علىَّ حتى تختلف أضلاعى ، ولا تخرجن معى امرأة، ولا تُزكُّونى بما ليس فىَّ، فإن الله هو أعلم بى .

وإذا خرجتم بى فأسرعوا فى المشى، فإنه إن يكن لى عند الله خير قدمتمونى إلى ما هو خير لى، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شرا تحملونه.

من (حياة الصحابة ج٣ ص ٤٥٥)

---

(١) يعنى أملنى .

مشاهد من وصايا عثمان بن عفان رضى الله عنه:

ذكر الطبرى فى الرياض النضرة أن شداد بن أوس رضى الله عنه قال :

لما اشتد الحصار بعثمان يوم الدار أشرف على الدار فقال: يا عباد الله.

قال شداد: فرأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه خارجا من منزله مُعتَمّاً بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم متقلدا سيفه أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار، حتى حملوا على الناس وفرّقوهم.

ثم دخلوا على عثمان فقال له علىّ : السلام عليك يا أمير المؤمنين، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر وإنى - والله - لا أرى القوم إلا قاتلوك ، فمُرنا فلنقاتل.

فقال عثمان: أنشُد الله رجلا رأى الله حقا، وأقر أن لى عليه حقا أن يهريق فى سبيلى ملء محْجَمَة من دم، أو يهريق دمه فىَّ .

فأعاد علَى عليهِ القول، فأجابه بمثل ما أجابه. قال شداد: فرأيت عليًا خارجا من الباب وهو يقول : اللهم إنك تعلم أنَّا بذلنا المجهود.

وذكر أيضا فى الرياض أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال :

دخل أبو قتادة ورجل آخر على عثمان وهو محصور، فاستأذناه فى الحج، فأذن لهما، فقالا له : إن غلب هؤلاء القومُ فمع من نكون؟

قال : عليكم بالجماعة .

قالا: فإن كانت الجماعة هى التى تغلب عليك، فمع من نكون ؟

قال : فالجماعة حيث كانت.

فخرجنا، فاستقبلنا الحسن بن على عند باب الدار داخلا على عثمان، فرجعنا معه لنسمع ما يقول، فسلّم على عثمان ثم قال :

يا أمير المؤمنين مرنى بما شئت .

فقال عثمان: يا ابن أخى ارجع واجلس حتى يأتى الله بأمره .

فخرج وخرجنا عنه، فاستقبلنا ابن عمر داخلا إلى عثمان، فرجعنا معه نسمع ما يقول، فسلّم على عثمان ثم قال :

يا أمير المؤمنين صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعت وأطعت ثم صحبت أبا بكر فسمعت وأطعت، ثم صحبت عمر فسمعت وأطعت، ورأيت له حق الوالد وحق الخلافة، وها أنا طوع يديك يا أمير المؤمنين فمُرنى بما شئت.

فقال عثمان : جزاكم الله يا آل عمر خيراً مرتين، لا حاجة لى فى إراقة الدم، لا حاجة لى فى إراقة الدم.

ثم دخل أبو هريرة متقلداً سيفه فقال : الآن طاب الضراب .

فقال عثمان :

عزمت عليك يا أبا هريرة لما ألقيت سيفك .

كما ذكر فى الرياض أن العلاء بن الفضل روى عن أمه أنها قالت :

لما قتل عثمان فتشوا خزانته فوجدوا فيها صندوقا مقفلاً، ففتحوه فوجدوا فيه ورقة مكتوبا فيها :

(هذه وصية عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم. عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها يحيا ، وعليها يموت، وعليها يبعث إن شاء الله)

مشاهد من وصايا على بن أبى طالب رضى الله عنه :

ذكر الطبرانى فى الرياض النضرة أن عليا رضى الله عنه لما ضربه ابن مُلجم أوصى إلى الحسن والحسين وصية طويلة، وفى آخرها يا بنى عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضا، تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بى إلا قاتلى .

انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة، ولا تمثلوا به، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إِيَّاكُمْ وَالمثْلَةَ ولو بالكلب العَقُور) .

وروى البغوى عن هارون بن سعيد أن عليا رضى الله عنه كان عنده مسك أوصى أن يحنط به، وقال: فضل من حنوط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان قبل أن يلى الخلافة مرض فأشفق عليه أبو فضالة الأنصارى، وظن أنه سيموت فى مرضه ذاك، فرد عليه على بأن موته سيكون قتلا، روى ذلك الإمام أحمد فى المسند عن فضالة بن أبى الأنصارى، وكان أبو فضالة من أهل بدر، قال : خرجت مع أبى عائدا على بن أبى طالب رضى الله عنه من مرض أصابه ثقل منه، فقال له أبى : ما يقيمك فى منزلك هذا ؟ لو أصابك أجلك لم يَلِكَ إلا أعراب جهينة.

تحمل إلى المدينة، فإن أصابك أجلك وليك أصحابك، وصلوا عليك

فقال على رضى الله عنه : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهِدَ إِلَيَّ ألا أموتَ حتى أُؤَمَّرَ، ثمّ تخضَبَ هذه يعنى لحيَتَه من دَم هذه يعنى هَامَتَه، فَقُتل وَقُتِل أبو فضَالَةَ مع علىٍّ يوم صِفّين .

وروى أحمد عن زيد بن وهب أنه قال :

قدم على على قوم من أهل البصرة من الخوارج فـيهم رجل يقال له الجعد بن بعجة فقال له :

اتق الله يا على فإنك ميت .

فقال على رضى الله عنه: بل مقتول، ضربة على هذه تخضب هذه - يعنى لحيته من رأسه - عهد معهود وقضاء مقضى، وقد خاب من افترى .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سبع أنه قال :

خَطَبَنَا علّى رضى الله عنه فقال :

والذى خلقَ الحَبَّة وبَرَأَ النَّسَمَةَ لَتُخْضَبَنَّ هَذِه مِنْ هذه.

قال فقال الناس : أعلمنا من هو لنبيره .

قال : أنشدكم بالله أن لا يقتل بى غير قاتلى.

قالوا : ان كنت قد علمت ذلك فاستخلف .

قال : لا، أكلكم إلى من وكلكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونقل الطبرى فى الرياض النضرة عن أبى حاتم أن صهيبا رضى الله عنه قال :

إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى :

ما أَشْقَى الأولينَ يا علىُّ ؟

قال : الذى عَقَرَ نَاقَةَ صَالِح .

قال : صدقت فمن أشقى الآخرين ؟

قال : الله ورسوله أعلم .

قال : أشقى الآخرين الذى يضربك على هذه، وأشار إلى يافوخه.

فكان على يقول لأهله : والله لوددت أن لو انبعث أشقاها

وروى الإمام أحمد فى المسند عن ربيعة بن نَاجذ أَنَّ عَلياً رضى الله عنه قال :

قال لى النبى صلى الـله عليه وسلم : (فيكَ مَـثَلٌ منْ عيسى عليـه السلام، أَبْغَضَـتْه اليَهود حتى بَهَتوا أمَّه، وأَحَبَّتْه النَّصارَى حتى أَنْزَلوه بِالمَنْزِلَة التى لَيْـسَ به)

ثم قال :

يَهْلك فِىّ رجلان : رجل محِبٌ مفرِط يَقْـرِظنِى بما ليس فِىّ، ومبْغض يَحْمِله شَنَآنِى على أَنْ يَبْهَتَنِى .

مشهد من أوصى بالاستماتة فى الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم:

روى أبو عبد الله الحاكم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال :

بَعَثَنِى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُدٍ لطلب سَعْدِ بْنِ الربيع رضى الله عنه، وقال لى: إن رأيتَه فاقْرأه منى السلام وقل له :

(يقول لك رسول الله كَيْفَ تَجِدُكَ؟)

قال زيد : فجعلت أطوف بين القتلى فأصبته وهو فى آخر رمق، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت له :

يا سعد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام، ويقول لك أخبرنى كيف تجدك؟

قال سعد : على رسول الله وعليك السلام، قل له : يا رسول الله أجدنى أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار لا عذر لكم عند الله إن يُخْلَصْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم شفر يطرف.

قال زيد: وفاضت نفسه رحمه الله ورضى عنه .

من (حياة الصحابة ج١ ص٧٧٣)

مشهد من تصدق بدمه ليصلح بين المسلمين

روى الطبرانى عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه قال : لما أنشأ الناس الحج سنة تسع ، قدم عروة بن مسعود رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما، فاستأذن رسول الله أن يرجع إلى قومه ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أخاف أن يقتلوك، فقال :

لو وجدونى نائما ما أيقظونى، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى قومه مسلما عشاء، فجاء وفد ثقيف يحيونه، فدعاهم إلى الإسلام فاتهموه وأغضبوه وأسمعوه فقتلوه.

وأخرج ابن سعد عن غير واحد من أهل العلم أن عروة قدم الطائف عشاء فدخل منزله، فأتته ثقيف تسلِّم عليه بتحية الجاهلية، فأنكرها عليهم وقال:

عليكم بتحية أهل الجنة السلام.

فآذوه ونالوا منه، فحلُم عنهم، وخرجوا من عنده فجعلوا يأتمرون به، وطلع الفجر فأوفى على غرفة له، فأذَّن بالصلاة، فخرجت إليه ثقيف من كل ناحية فرماه رجل من بنى مالك يقال له أوس بن عوف فأصاب

أكحله [1] ولم يَرْقَ دمُه فقام غيلان بن سلمة، وكنانة بن عبد ياليل، والحكم بن عمرو ووجوه الأحلاف فلبسوا السلاح وحشدوا وقالوا :

نموت عن آخرنا أو نثأر به عشرة من رؤساء بنى مالك.

فلما رأى عروة بن مسعود ما يصنعون قال :

لا تقتلوا فىَّ، قد تصدَّقت بدمى على صاحبه لأصلح بذلك بينكم، فهى كرامة أكرمنى الله بها، وشهادة ساقها الله إلىَّ، وأشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد أخبرنى بهذا أنكم تقتلوننى ثم دعا رهطه فقال :

إذا مت فادفنونى مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم.

فمات فدفنوه معهم، وبلغ النبى صلى الله عليه وسلم مقتله فقال: مثل عروة مثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه .

من (حياة الصحابة ج١ ص٢٩٧)

مشهد وصية لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه

كان رضى الله عنه آخر العشرة المبشرين بالجنة موتا. وقد أوصى أن يكفن فى جبة صوف له كان لقى المشركين فيها يوم بدر، فقال أخبئُها لهذا ، فكفن فيها .

من (الرياض النضرة ج٤ ص٣٣٣)

مشهد وصية للزبير بن العوام رضى الله عنه

نقل الطبرى فى الرياض عن البخارى أن عبد الله بن الزبير قال :

جعل الزبير يوم الجمل يوصينى بدَينه، ويقول : إن عجزت عن شىء منه فاستعن عليه بمولاى ، قال : فو الله ما دريت ما أراد حتى قلت : يا أبت من مولاك؟

قال : الله تعالى، فوالله ما وقعت فى كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير، اقض عنه فيقضيه.

وإنما كان دينَه الذى عليه أنّ الرجل كان يأتيه بالمال يستودعه إيّاه فيقول الزبير : لا، ولكنه سلف، فإنى أخشى عليه الضيعة.

قال عبد الله فحسبت ما عليه من الدَّين فوجدتُه ألفَى ألف ومائة ألف، فقُتل ولم يدع دينارا ولا درهما، إلا أرضَين بعتهما، وقضيت دَينه.

فقال بنو الزبير: ميراثنا. قلت : والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دَين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادى.

---

(١) الأكحل عرق فى الذراع يخرج منه الدم بغزارة عند جرحه .

فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم، وكان للزبير أربع نسوة، فأصاب كلّ امرأة ألف ألف ومائتا ألف.

من (الرياض النضرة ج٤ ص٢٨٩)

مشاهد من وصايا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه

ذكر الطبرى فى الرياض النضرة أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه لما حضرته الوفاة بكى بكاء شديدا، فسئل عن بكائه، فقال : إن مصعب بن عمير كان خيراً منّى، توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن له ما يكفن فيه، وإن حمزة ابن عبد المطلب رضى الله عنه كان خيرا منى، توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يجد له كفنا.

وإنى أخشى أن أكون ممن عُجلت له طيباته فى حياته الدنيا.

كما نقل الطبرى عن عروة بن الزبير أنه قال : أوصى عبد الرحمن بن عوف بخمسين ألف دينار فى سبيل الله تعالى .

ونقل من كتاب أخبار المدينة أن عائشة رضى الله عنها، أرسلت إلى عبد الرحمن ابن عوف حين نزل به الموت أن هلمّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أخويك فقال : ما كنت مضيقا عليك بيتك، إنى كنت عاهدت ابن مظعون أيّنا مات دفن إلى جنب صاحبه. فدفن فى البقيع جوار ابن مظعون وإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مشهد وصية لأبى عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه

روى المحب الطبرى فى (الرياض النضرة) عن سعيد بن المسيب أنه قال :

لما طُعن أبو عبيدة رضى الله عنه بالأردن[1] دعا من حضره من المسلمين وقال :

إِنى موصيكم بوَصيَّة إن قَبِلتموهَا لَنْ تَزَالوا بخير : أَقيموا الصلاةَ، وصوموا شهرَ رمضانَ، وتَصَدَّقوا، وحُجّوا واعْتَمروا، وتَوَاصَوْا، وَانْصَحوا لأمرَائكم وَلا تَغشّوهم، ولا تلْهكم الدنيَا، فَإنَّ امْرَأً لَوْ عُمِّرَ أَلفَ حَوْلٍ ما كان له بدّ منْ أنْ يَصيرَ إِلَىَّ مَصْرَعى هذا الذى تَرَوْنَ، إنّ الله تعالى كَتَبَ الْمَوْتَ على بنى آدم، وهُم ميتُّونَ فأكْيَسُهم[2] أطوَعهُمْ لربّه، وأَعْمَلهمْ لِيَوْمِ مَعَاده، والسلام عليكم ورحمة الله، يا مُعَاذَ ابْنَ جَبَلٍ صلّ بالناس .

من (حياة الصحابة ج٢ ص٢٨٩)

---

(١) أصابه مرض الطاعون (الوباء) . (٢) أكْيَسهمْ : أعْقَلهمْ.

مشهد وصية لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه

روى أبو نعيم فى (الحلية) عن الضحاك بن عبد الرحمن أنه قال :

دعا أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه فتيانه حين حضرته الوفاة فقال : اذهبوا واحفروا وأوسعوا وأعمقوا .

فجاءوا فقالوا قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا.

فقال : والله إنّها لإحْدَى المَنْزِلَتَيْنِ : إمَّا لَيوسَّعَنَّ عَلَىَّ قَبْرِى، حتى تكون كلّ زاوية منه أربعين ذراعا، ثم ليُفْتَحَنَّ لى باب إلى الجنة فَلأنظرَنّ إلى أزواجى ومنازلى، وما أعدّ الله تعالى لى مِن الكرامة، ثم لأكُونَنّ أَهْدَى إلى مَنْزِلى مِنىّ اليوَمَ إلى بيتى ، ثمّ لَيصيبنى من رِيحِهَا وَرَوحِهَا حتى أبْعَثَ. وَلَئِنْ كَانَتِ الأخرى - ونعوذ بالله منها - لَيُضَيَّقَنَّ عَلَىّ قبرى حتى يكونَ فِىَّ أَضيَقَ مِنَ القَنَاة فِى الزجِ. (١)

ثمّ ليُفْتَحَنَّ لى باب من أبواب جهنمَ فَلأنْظَرنّ إلى سلاسلى وأغلالى وقرنَائى، ثمّ لأكونَنّ إلى مقعدى من جهنمَ أَهْدَى منى اليومَ إلَى بيتى، ثمّ لَيصيبُنى من سَمومِهَا وَحَميمِهَا حَتَّى أبْعَثَ .

من (حياة الصحابة ج٣ ص٤٥٨)

مشهد وصية عمرو بن العاص رضى الله عنه

روى ابن سعد عن ابن شماسة المهرى أنه قال : حضرنا عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو فى سياقة الموت، فحول وجهه إلى الحائط يبكى طويلا وابنه يقول له :

ما يبكيك؟ أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ أما بشرك بكذا؟

قال وهو فى ذلك يبكى ووجهه إلى الحائط، قال ثم أقبل بوجهه إلينا فقال :

إن أفضل مما تَعُدُّ علىَّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنى قد كنت على أطباق ثلاث (٢).

قد رأيتنى ما من الناس من أحد أبغض إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحب إلى من أن أستمكن منه فأقتله، فلو مت على تلك الطبقة لكنت من أهل النار.

---

(١) القناة هى الرمح، والزج حلقة من حديد تكون فى أسفل الرمح .

(٢) أحوال ثلاث.

ثم جعل الله الإسلام فى قلبى فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبايعه فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله، قال فبسط يده ثم إنى قبضت يدى، فقال: ما لك يا عمرو؟ فقلت أردت أن أشترط، فقال: تشترط ماذا؟ فقلت: أشترط أن يغفر لى، فقال أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، فقد رأيتنى مامن الناس من أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل فى عينى منه، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت، لأنى لم أكن أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء بعد، فلست أدرى ما أنا فيها، أو ما حالى فيها.

فإذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار، فإذا دفنتمونى فسنوا علىَّ التراب سنا، فإذا فرغتم من قبرى فامكثوا عند قبرى قدر ما تنحر جزور[1] ويقسم لحمها، فإنى أستأنس بكم، حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى.

وفى رواية لمسلم، أنه رضى الله عنه بعد ما أوصى بنحو ما تقدم حول وجهه إلى الجدار وجعل يقول: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك.

وفى رواية أنه وضع يده على موضع الغل [2]من عنقه ورفع رأسه إلى السماء وقال:

اللهم لا قوى فأنتصر، ولا برئ فأعتذر، ولا مستنكر، بل مستغفر لا إله إلا أنت، فلم يزل يرددها حتى مات رضى الله عنه.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٤٨١)

مشهد وصية عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه

روى ابن عساكر عن هارون بن رباب أن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما لما حضرته الوفاة قال:

انظروا فلانا فإنى كنت قلت له فى ابنتى قولا كشبه العدة، فما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق، فأشهدكم أنى زوجته.

من (حياة الصحابة ج٣ ص١١٠)

مشاهد وصايا عبادة بن الصامت رضى الله عنه

روى الإمام أحمد والترمذى عن الوليد بن عبادة أنه قال:

دخلت على عبادة رضى الله عنه وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت يا أبتاه أوصنى واجتهد لى.

---

(١) الجزور الناقة.   (٢) طوق من حديد يوضع فى عنق الشخص المعاقب.

فقال : أجلسونى .

فلما أجلسوه قال :

يا بنى إنك لم تَطعَم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم حتى تؤمن بالقدر خيره وشره

قلت : يا أبتاه، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟

قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

يا بنى إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنَّ أوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، ثمّ قال له اكْتُبْ، فَجَرَى فِى تلكَ السَّاعَة بِمَا هوَ كَائِن إلى يَوْمِ القِيامة).

يا بنى إن مُتَّ ولست على ذلك دخلت النار .

وروى البيهقى عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت أنه قال :

لما حضرت عبادة رضى الله عنه الوفاة قال :

أخرجوا إلىَّ موالى وخدمى وجيرانى ومن كان يدخل علىّ، فجمعوا له فقال :

إن يومى هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتى على من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة وإنى لا أدرى لعله قد فرط منى إليكم بيدى أو بلسانى شىء وهو - والذى نفسى بيده - القصاص يوم القيامة، وأُحرِّج على أحد منكم فى نفسه شىء من ذلك إلا اقتص منى من قبل أن تخرج نفسى .

فقالوا : بل كنت والداً، وكنت مؤدبا.

قال : وما قال لخادم سوءا قط.

فقال : أعفوتم ما كان من ذلك ؟

قالوا : نعم .

قال : اللهم اشهد، ثم قال : إما لا فاحفظوا وصيتى : أُحرِّج على إنسان منكم يبكى علىّ، فإذا خرجت نفسى فتوضأوا وأحسنوا الوضوء، ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً فيصلى، ثم يستغفر لعُبادة ولنفسه، فإن الله تعالى قال : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاة﴾ البقرة - ٤٥ .

وأسرِعوا بى إلى حفرتى ، ولا تُتبِعنّى ناراً، ولا تضعوا تحتى أرجوانا.(١)

من (حياة الصحابة ج٣ ص٤٦٥)

---

(١) الأرجوان : نبات له نور أحمر.

مشهد وصية لمعاذ بن جبل رضى الله عنه

روى الإمام أحمد عن يزيد بن عميرة أنه قال :

لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له : يا أبا عبد الرحمن أوصنا.

قال: أجلسونى، فقال : إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما، وجدهما (يقول ذلك ثلاث مرات) فالتمسوا العلم عند أربعة رهط، عند عويمر أبى الدرداء، وعند سلمان الفارسى، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام الذى كان يهوديا ثم أسلم، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه عاشر عشرة فى الجنة.

مشهد وصية لأنس بن مالك رضى الله عنه

نقل ابن خلكان عن ابن عوف أن أنس بن مالك رضى الله عنه أوصى أن يغسله ابن سيرين ويصلى عليه.

وكان ابن سيرين محبوسا، فأتوا الأمير - وهو رجل من بنى أسد - فأذن لابن سيرين فى الخروج من السجن لإنفاذ وصية أنس، فخرج فغسله، وكفّنه، وصلى عليه فى قصر أنس بالطف، ثم رجع، فدخل كما هو إلى السجن، ولم يذهب إلى أهله.

قال ابن خلكان:

وذكر عمر بن شيبة فى كتاب أخبار البصرة أن الذى غسل أنس بن مالك هو قطن ابن مدرك الكلابى والى البصرة .

من (وفيات الأعيان ج٤ ص١٨٢)

أقول : من الجائز أن يكون الرجلان، قد اشتركا فى غسل أنس رضى الله عنه وكانت وفاته سنة ثلاث وتسعين وله مائة وثلاث سنين، وقد لقى فى حياته خيرا كثيرا ببركة دعاء النبى صلى الله عليه وسلم

مشهد وصية قيس بن عاصم لبنيه

روى البخارى فى (الأدب المفرد) عن حكيم بن قيس بن عاصم أن أباه أوصى بنيه عند موته فقال :

اتقوا الله، وسَوِّدُوا أكبركم، فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم، وإذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك فى أكفائهم.

وعليكم بالمال واصطناعه، فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم.

وإياكم ومسألة الناس فإنها من آخر كسب الرجل، (١) واذا مت فلا تنوحوا، فإنه لم

---

(١) يعنى أن السؤال لا يلتجئ إليه المرء إلا إذا عجز عن الكسب.

يُنَح على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وإذا مت فادفـنونى بأرض لا يشعـر بدفنى (بكر بن وائل) فإنى كنت أغاولهم فى الجاهلية.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٩)

مشهد وصية أبى شبل علقمة بن قيس النخعى

أوصى علقمة عند وفاته فقال :

لا تنعـونى كنعى أهل الجاهليـة، ولا تُؤذنوا بى أحـدا، وأغلقوا البـاب، ولا تتبـعنى امرأة ولا تُتبِعُونى بنار.

وإن استطعتم أن يكون آخر كلامى لا إله إلا الله - يـعنى فافعلوا. توفى رحمه الله بالكوفة سنة إحدى وستين أو اثنتين وستين وهو ابن سبعين سنة.

من (صفة الصفوة ج ٣ ص ٢٧)

مشهد وصية نافع بن عبد الرحمن أحد القراء السبعة

كان نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم من القُرَّاء والفقهاء العُبَّاد، ولما حضرته الوفاة قال له أبناؤه : أوصنا.

فقال رحمه الله :

(اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)

وهذه آية كريمة انتزعها من أول سورة الأنفال .

توفى بالمدينة المنورة سنة تسع وستين ومائة.

من (التعليق على ربيع الأبرار للزمخشرى ج٢ ص٧٥٥)

مشهد من وصايا محمد بن أسلم الطوسى

روى أبو نعيم عن أبى عبد الله بن القاسم الطوسى أنه قال :

دخلت على محمد بن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور فقال :

يا أبا عبد الله تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بى الموت، وقد من الله علىّ أنه ليس عندى درهـم يحاسـبنى به الله. وقد عـلم الله ضعـفى وأنى لا أطيق الحساب، فلم يدع عندى شيئا يحاسبنى الله عليه .

ثم قال : أغلق الباب ولا تأذن لأحد علىّ حتى أموت.

واعلم أنى أخـرج من الدنيا، وليس أدع مـيراثا غيـر كتـبى وكسائى ولـبدى وإنائى الذى أتوضأ منه.

وكانت معه صرة فيها نحو ثلاثين درهما فقال :

هذا المال لابنى أهداه إليه قريب له، ولا أعلم شيئا أحل لى منه، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (أنتَ ومالكَ لأبيك) وقال : (أطيَب مَا يَأكُل الرَّجل مِنْ كَسْبه، وَوَلَده مِنْ كَسْبِهِ) فكَفنونى فيها ، فإن أصبتم لى بعشرة دراهم ما يستر عورتى فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا لجنازتى لبدى، وغطوا على جنازتى كسائى ولا تكلفوا أحدا ليأتى جنازتى، وتصدقوا بإنائى، أعطوه مسكينا يتوضأ منه، ثم مات فى اليوم الرابع - رحمه الله.

من (الحلية ج٩ ص١٤١)

مشهد من وصايا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه

روى أبو نعيم عن أبى الفضل صالح بن أحمد بن حنبل أنه قال :

أوصى وصيته وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله فى العابدين، ويحمدوه فى الحامدين، وأن ينصحوا الجماعة المسلمين.

وأوصى: أنى قد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا. وأوصى: أن لعبد الله بن محمد المعروف ببوران علىَّ نحوا من خمسين دينارا وهو مصدَّق فيما قال ، فيُقْضى ما له علىَّ من غلة الدار إن شاء الله، فإذا استوفى أُعْطى ولدى صالح وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل كل ذكر وأنثى عَشْرَةَ دراهم بعد وفاء ماعلىَّ لابن محمد (بوران) . شهد أبو يوسف وصالح، وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل.

من (الحلية ج٩ ص٢١٢)

مشهد من أوصى بأن تجعل فى فمه شعرات من شعر الرسول صلى الله عليه وسلم

روى محمد بن شاكر أن أبا الفضل جعفر بن محمد المعروف بابن خنزابة[١] كان محدثا، روى عنه الدارقطنى عدة أحاديث، وهو بغدادى نزل مصر.

---

(١) خنزابة هى المرأة القصيرة الغليظة.

وكـان ينفق على أهل الحـرمين من الأشـراف وغيـرهم، واشـترى دارا إلى جـانب المسجد النبوى من أقرب الدور إلى القـبر الشريف، ليس بينها وبينه إلا حائط، وأوصى بأن يدفن فيـها وقرر عند الأشراف ذلك فأجـابوه، فلما مات حُمل تابوتـه من مصر إلى الحرمـين، وخرج الأشراف من مكة وحـملوه وسعوا به وطافـوا، ووقفوا به بعـرفة، ثم ردوه إلى المدينة ودفنوه فى الدار التى اشتراها.

ونقل ابن شاكـر عن المستجى أن ابن خنزابة الوزير المحـدث لما غُسل جُعِل فى فـيه ثلاث شعـرات من شعـر النبى صلى الله عليـه وسلم كان ابتـاعها بمال عظيـم، وكانت عنده فى درج مـختـوم الأطراف بالمسك، وأوصى أن تجُعل فى فـيه إذا مـات، ففُـعل به ذلك - رحمه الله - وكانت وفاته سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة .

من (فوات الوفيات ج١ ص٢٩٣)

من أضواء هذا المشهد:

كيف وصل الشَّعر النبوى إلى بعض الناس ؟

روى البخـارى ومسلم عن أنـس بن مالك رضى الله عنه أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أتى منًى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر.

ثم قال للحلاَق : خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن، ثمَّ الأيسر ثم جعل يعطيه الناس.

وفى رواية الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه أنه قال :

لما حلق رسـول الله صلى الله عليـه وسلم رأسه بمنى، أخـذ شقَّ رأسه الأيمن بيـده فلما فرغ ناولنى فقال :

يا أنس انطلق بهذا إلى أم سليم (أم أنس).

فلما رأى الناسُ ما خصَّنا به تنافسـوا فى الشق الآخر، هذا يأخذ الشيء وهذا يأخذ الشيء .

قال محـمد بن سيرين فـحدَّثْتُه عبيـدةَ السلمانى فقال : لأن تكون عنـدى شعرة منه أحب إلىَّ من كل بيضاء وصفراء، (فضة وذهب) على وجه الأرض وفى بطنها .

وورد فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم أمر أبا طلحة وزوجه أم سليم رضى الله عنهما بقسمة شعره بين الصحابة الرجال والنساء، الشعرة والشعرتين .

وأخرج الملاَّ فى سيرته عن أبى بكـر الصديق رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ناول أبا طلحة شعره يُفَرِقه بين الناس كلمه خالد بن الوليد فى ناصيته، فدفعها إليه.

وذكر السيوطى فى الخصائص الكبرى أن سعيد بن منصور وابن سعد، وأبا يعلى الموصلى، وأبا عبد الله الحاكم، والبيهقى وأبا نعيم رووا عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه أن خالد بن الوليد رضى الله عنه فقد قلنسوته يوم اليرموك فطلبها حتى وجدها، وقال : اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه، فابتدر الناس جوانب شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها فى هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالا وهى معى إلا رزقت النصر .

وقال الشيخ الفاضل بن عاشور فى رسالته (كشف الذعرات) .

كان ممن شهد حلق النبى صلى الله عليه وسلم بمنًى فى حجة الوداع سيدنا أبو زمعة البلوى وأخذ شعرات وضعها فى قلنسوته.

قال : وقد ذكر الشيخ الدباغ فى معالم الإيمان أن القلنسوة دفنت معه ثم قال : وذكر الشيخ ابن ناجى أن فى حفظه أن الشعرات ثلاث، وأن أبا زمعة رضى الله عنه أوصى بأن توضع شعرة على عينه اليمنى، وشعرة على عينه اليسرى، وشعرة على لسانه.

وممن أوصى بدفن شيء من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم معه أنس بن مالك رضى الله عنه

روى ابن حجر فى الإصابة أن ثابتا البُنانى قال :

قال لى أنس بن مالك رضى الله عنه : هذه شَعْرَةَ من شَعَرِ النبى صلى الله عليه وسلم فَضَعْهَا تحت لسانى .

قال : فوضعتها تحت لسانه، فدفن وهى تحت لسانه.

وعلل الشيخ الفاضل رحمه الله حرص الصحابة على العناية الفائقة بشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا :

لذلك كان الذين سعدوا بهذه الشعرات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضعونها فى أعز مكان، فتحفظ فى قلانسهم التى على رؤوسهم ويحتفظون بها إلى الموت، لأنها أمان وضمان بشهادة النبى صلى الله عليه وسلم لها، تلويحا وتصريحا، فقد روى ابن حجر فى الإصابة عن سعيد بن المسيب أن أبا أيوب الأنصارى أخذ من لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، فقال : (لا يُصِيبُكَ السّوءُ يَا أَبَا أَيُّوبَ).

ونقل الشيخ الفاضل عن الزرقانى- من شرح المواهب - قوله : إنما قسم رسول الله

صلى الله عليه وسلم شَعَرَه بين أصحابه ليكون بركةً باقيةً بينهم وتذكرة لهم، وكأنه أشار بذلك إلى اقتراب الأجل، وخص أبا طلحة بالقسمة التفاتا إلى هذا، لأنه هو الذى حفر قبره، ولحد له وبنى فيه اللَّبن.

وقد أورد الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء مشهدا عجيبا لشعر الرسول صلى الله عليه وسلم نقلا عن ابن العديم قائلا :

إن ابن أبى طاهر العلوى كان عنده أربع عشرة شعرة من شعره صلى الله عليه وسلم فبلغه أن بعض أمراء حلب يحب العلويين وله كرم، فارتحل له، وأهدى له تلك الشعرات، فأكرمه، ثم أتاه بعد أيام فعبس فى وجهه، ولم يلتفت إليه، فسأله عن السبب فقال له قيل لى : إن هذه الشعرات لا أصل لها، فسأله إحضارها، فأُحضرت فطلب منه ناراً موقدة، فأتى بها، فرمى شعرات منها فى النار فلم تحترق، بل صارت أحسن مما كانت، فقبل رجله، وأنعم عليه بنعم لا تحصى، وأكرمه غاية الإكرام.

مشهد منْ أوصى بوضع خده على لبنة صنعها من غُبار غزواته

قال ابن خلكان :

كان أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان (الملقب بسيف الدولة) قد جمع من نفض الغبار الذى يجتمع عليه فى غزواته شيئا، وعمله لبنة بقدر الكف، وأوصى أن يوضع خده عليها فى لحده.

فنفذت وصيته فى ذلك وتُوفى بالموصل فى يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة - رحمه الله .

من (وفيات الأعيان ج٣ ص٤٠٥)

مشهد منْ أوصى أن ينثر غبار غزواته على كفنه

قال أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدى :

إن أبا عامر محمد بن أبى عامر أمير الأندلس فى دولة هشام المؤيد بالله، كان ذا همة ونية فى الجهاد، مواصلا لغزو الروم، حتى أنه ربما يخرج إلى المصلى يوم العيد فتقع له نية فى ذلك فلا يرجع إلى قصره، ويخرج بعد انصرافه من الصلاة كما هو من فوره إلى الجهاد، فتتبعه العساكر، وتلحق به أولا فأولا، فلا يصل إلى أول الدروب إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر.

غزا نيفا وخمسين غزوة ذُكرت فى (المآثر العامرية) بأوقاتها، وآثاره فيها، وفتح فتوحات كثيرة، ووصل إلى معاقل جمة امتنعت على من كان قبله.

وكان فى أكثر زمانه لا يخل بغزوتين فى السنة .

وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر بأن ينفض غبار ثيابه التى حضر فيها معركة القتال ، وأن يجمع ويحتفظ به .

فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك الغبار أن ينثر على كفنه إذا وضع فى قبره.

توفى رحمه الله فى طريق الغزو فى أقصى الثغور بمدينة (سالم) سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وكانت مدة إمارته بضعا وعشرين سنة .

من (جذوة المقتبس ص٧٣)

من أضواء المشهدين السابقين:

لقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاه فى سَبِيلِ الله حَرَّمَه اللَّهُ عَلَى النَّار) (١)

فمن هنا كان من بلغه هذا الحديث يحرص على عدم التوقى من ذلك الغبار، وربما سعى إلى التعرض له، مستبشرا بما يصيبه منه.

ومن نفائس سلوك المتعرضين لهذا الغبار ما رواه ابن حبان عن أبى المصبح المقرائى من أن مالك بن عبد الله الخثعمى كان فى إحدى غزوات الروم قد مر بسيدنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقود بغلا، فقال مالك: اركب يا أبا عبد الله فقد حملك الله.

فقال جابر : أصلح دابتى، وأستغنى عن قومى، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاه فى سبيل اللَّه حَرَّمه اللَّه عَلَى النَّار) .

قال أبو المصبح : فما رأيتُ يومًا أكثر ماشيا منه (يعنى فنزلَ الغزاة عن دوابهم لما سمعوا هذا الحديث) .

مشهد من أوصى أن تدفن معه شهادة بإحدى مآثره

قال ابن خلكان :

كان أبو دُلَف أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده، وكان كريما سريا، ذا وقائع مشهورة، وصنائعَ مأثورة، من ذلك أنه لحق أكرادا قطعوا الطريق فى عمله فطعن فارسا فنفذت الطعنة إلى أن وصلت إلى فارس آخر وراءه رديفه على الفرس فنفذ فيه السنان فقتلهما وفى ذلك قال ابن النطاح يمدح أبا دُلَف :

قالوا ويَنْظم فارسين بطَعْنَة ... يومَ الهياج ولا تَراه كَليلا
لا تَعْجَبوا فَلَوَ أنّ طولَ قَنَاتَه ... ميل إذن نَظَمَ الفوَارِسَ ميَلا

(١) رواه البخارى

ولما مرض أبو دُلَف مرض موته حُجب الناس عن الدخول عليه لثقل مرضه، فاتفق أنه أفاق في بعض الأيامَ، فقال لحاجبه :

من بالباب من المحاويج ؟

فقال عشرة من الأشراف ، وقد وصلوا من خراسان، ولهم بالباب عدة أيام لم يجدو طريقا .

فقعد أبو دُلَف على فراشه واستدعاهم، فلما دخلوا عليه رحب بهم، وسألهم عن بلادهم وأحوالهم وسبب قدومهم.

فقالوا ضاقت بنا الأحوال ، وسمعنا بكرمك فقصدناك. فأمر خازنه بإحضار بعض الصناديق، وأخرج منه عشرين كيسا، في كل كيس ألف دينار، ودفع لكل واحد منهم كيسين، ثم أعطى كل واحد مؤونة طريقه، وقال لهم، لا تمسوا الأكياس حتى تصلوا بها سالمة إلى أهليكم، واصرفوا هذا في مصالح الطريق.

ثم قال : ليكتب لي كل واحد منكم خطه أنه فلان ابن فلان، حتى ينتهي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويذكر جدته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم ليكتب :

يا رسول الله إني وجدت إضاقة وسوء حال في بلدي، وقصدت أبا دُلَفٍ العجلي، فأعطاني ألفي دينار كرامة لك، وطلبا لمرضاتك، ورجاء لشفاعتك.

فكتب كل واحد منهم ذلك، وتسلم الأوراق وأوصى من يتولى تجهيزه إذا مات أن يضع تلك الأوراق في كفنه، حتى يلقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرضها عليه .

قال ابن خلكان :

ومع هذا فقد حكى جماعة من أرباب التواريخ أن ولده دُلَف بن أبي دلف قال :

رأيت في المنام آتيا أتاني، فقال لي أجب الأمير، فقمت معه، فأدخلني داراً وحشة وعرة سوداء الحيطان مقلعة السقوف والأبواب، وأصعدني على درج منها، ثم أدخلني غرفة في حيطانها أثر النيران، وفي أرضها أثر الرماد، وإذا بأبي وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه.

فقال لي كالمستفهم : دُلَف ؟

قلت : دلف.

فأنشأ يقول :

أَبْلغَنْ أَهْلَنَا ولا تخْف عنهم ... ما لَقِينَا فى البرزخ الخَنَّاق
قدَ سئلْنَا عن كلّ ماقدَ فَعَلْنَا ... فَارْحَموا وِحْشَتِى وَمَا قَدْ الاقِى

ثم قال : فَهِمْتَ ؟

قلت : نعم.

ثم أنشد :

فَلَوْ أَنَّا إذَا متْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ الموت راحةَ كلِّ حَى
ولكنا إذَا متْنَا بعِثْنَا ... وَنُسْأَل بَعْدَ ذَا عَنْ كلِّ شَىْءِ

ثم قال : أَفَهِمْتَ ؟

قلت : نعم وانتبهت.

كانت وفاة أبى دلف ببغداد سنة ست وعشرين ومائتين رحمه الله، وعفا عنه وعنا .

من (وفيات الأعيان ج٤ ص٧٣)

من أضواء هذا المشهد :

محبة آل البيت والإحسان إليهم فضيلة دعا إليها الكتاب والسنة، ولقد أحسن أبو دلف رحمه الله فى ما صنع بالأشراف الوافدين عليه.

أما طلبه أن يكتبوا له شهادة بما صنع فهو تصرف لا تدعو الحاجة إليه، فالله سبحانه ﴿ يَعْلَم السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (١)

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلوا منْ خَيْر فَإنَّ اللهَ به عَليم ﴾ (٢)

كما ورد فى الأثر أن أعمال العباد تعرض على الله يوم الاثنين والخميس وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة، نقل ذلك الإمام السيوطى فى (شرح الصدور) عن الحكيم الترمذى من نوادر الأصول .

وأما الوصية بدفن شىء، مكتوب مع الميت فهذا لم يرد فيه شرع، ولم تدع إليه الحاجة، مع أن اسم الله ورسوله لم يقابلا فى هذا التصرف - لا بالتعظيم، ولا بالتكريم، إذ قد يصيبهما ما يتحلل من جسد الميت، زيادة على أنهما قد يَتَوَطَّؤهمَا من يمشى على القبر، فيتعرض الاسمان الكريمان لجعلهما تحت الأقدام، وذلك مناف لما يجب لهما من تعظيم وإجلال.

وأما رؤيا ولد أبى دلف لأبيه فى حالة غير مرضية، فهى - والله أعلم - إشارة إلى

---

(١) سورة طه الآية ٧ . ٢) سورة البقرة الآية ٢١٥ .

أنه فى حاجة أكيدة إلى ما ينفعه بعد الموت، من صدقة بمال طيب أو دعوة من ولد صالح.

ولقد أراد الله بأبى دلف خيرا حين كاشف ولده بأمره، ليبادر إلى مساعدته على الخروج من تلك الحالة التى هو فيها، وقد قال صلى الله عليه وسلم : مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاه فَلْيَنْفَعْه) رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه.

وإذا كانت المساعدة مما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم بين الإخوان فكيف الأمر إذا كانت من الأبناء إلى الآباء .

وحاجة أبى دلف إلى المساعدة واضحة جدا فيما ورد من قوله: (أبلغوا قومنا... ما لقينا) وقوله : (فارحموا وحشتى، وما قد ألاقى)

إن الأمر بعد هذه الحياة لجد عظيم .

نسأل الله السلامة والعافية، ورحم الله أبا دلف وغفر لنا وله.

مشهد من أوصى أن يكفن فى ثياب كان يتعبد فيها

كان القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق من سادات التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة[1] وذكر محمد بن إسحاق أن رجلا جاء إلى القاسم بن محمد فقال له : أنت أعلم أمْ سالم ؟ (يريد سالم بن عبد الله بن عمر)

فقال القاسم : ذاك مبارك سالم .

قال ابن إسحاق : كَرِهَ أن يقول : هو أعلم منى فيكذب، أو يقول : أنا أعلم منه فيزكى نفسه .

قال ابن إسحاق: وكان القاسم أعلمهما.

وأوصى عند وفاته فقال :

كفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها قميصى وإِزَارِى، ورِدَائى.

---

(١) فقهاء المدينة السبعة هم :

١ - عُبَيْد الله بن عبد الله بنِ عتْبَة بنِ مسعود .
٢ - عروَة بن الزبير بنِ العوّام .
٣ - قاسم بن محمد بنِ أبى بكر الصديق.
٤ - سعيد بن المسيّب .
٥ - أبو بكر بن عبيد بنِ عبد الرحمن بنِ الحارث بنِ هشام.
٦- سليمان بن يسار.
٧ - خارجة بن زيد بن ثابت.

وقد نظم أسماء هؤلاء الفقهاء السبعة من قال :

إذا قيل من فى العلم سبعة أبحر روایاتهم لیست عن الحق خارجه
فقل : هم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خَارِجةِ

فقال ابنه : يا أَبَت ألا نَزيد ثوبين ؟

فـقـال : هكذا كُفِّن أبـو بكر فى ثلاثة أثواب، والحى أحـوج إلى الجـديد من الميت.
توفى القاسم بقديد سنة إحدى أو اثنتين ومائة رحمه الله .

من (وفيات الأعيان ج٤ ص٥٩)

مشهد من أوصت أن تكفن فى ثياب التهجد

قال ابن مرحوم العطار :

حدثتنى عـبدة بنت أبى شوال - وكـانت من خيـار إِمَاءِ الله - وكانت تخـدم رَابعةَ العَدَوِيَّة، فقالت :

كانت رابعة تصَلِّى الليـلَ كلَّه، فإذا طلع الفجر هَجَعَتْ فى مـصَلَاها هجعةً خفـيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبتْ من مرقدها ذلك وهى فزعة :
يا نفس كم تنامـين؟ وإلى كم لا تقـومين؟ يوشك أن تنامـى نومة لا تقـومين منهـا إلا لصرخة يوم النشور.

فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت.

فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت :

يا عبدة لا تؤذنِي أحدا بموتى وكفنينى فى جبتى هَذِهِ، وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون.

قالت عبـده فكفنَّاها فى تلك الجبة، وخمـار صوف كانت تلبسه، ورأيتـها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى، عليهـا حُلَّةٌ من استبرق خضراء، وخـمار من سندس أخضر لم أر شيئا قط أحسن منه.

فقلت : يا رابعة ما فعلت الجبة التى كفنَّاك فيها، والخمار الصوف؟

قالت : إنه والله نُزِع عنى، وأبدلت به هذا الذى ترينه علىَّ، وطويت أكـفانى وختم عليها ورفعت فى عليين، ليكْمُلَ لى بها ثوابها يوم القيامة.

قالت : فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟

فقالت : وما هذا من كرامة الله عز وجل لأوليائه ؟

قالت : فقلت : فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب؟

فقالت: هيهات، هيهات، سبَقَتْنَا والله إلى الدرجات العلى.

قلت : وَبِمَ قد كنت عند الناس؟ (تعنى كنتِ أكثرَ منها اجتهادا).

قالت : إنَها لم تكنَ تبَالى عَلَى أى حال أصبحَت من الدنيا أو أمستْ

فقلت: فَما فعل أبو مالك؟ (تعنى ضيغَما) .

قالت : يزور الله متى شاء .

قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟

قالت : بَخٍ بَخٍ، أعْطِىَ - والله فوقَ ما كان يأمل.

قلت : فَمرِينى بأمْرٍ أتقرّب به إلى الله عزّ وجلّ .

قالت : عليكِ بكثرةِ ذِكْرِهِ، أوشكَ أن تَغْتَبِطِى بذلكِ فى قَبْرِك.

مَن (صفةَ الصفوة ج٤ ص٢٩)

مشهد من أوصى بذكر كلمة التوحيد سبعين ألف مرة

قال فى نفح الطيب :

ومن فوائد أبى عبد الله القرشى أنه قال : سمعت الشيخ أبا إسحاق بن طريف يقول :

لما حضرت الشيخ أبا حسن بن غالب الوفاة قال لأصحابه اجتمعوا وهللوا سبعين ألف مرة، واجعلوا ثوابها لى ، فإنه بلغنى أنها فداء كل مؤمن من النار.

قال : فعملناها، واجتمعنا عليها، وجعلنا ثوابها له .

من (جامع الكرامات ج١ ص١١٦)

من أضواء هذا المشهد :

لا شك أن كلمة التوحيد هى أفضل أنواع الذكر، فقد نقل السيوطى فى الجامع الصغير - عن الترمذى والنسائى وابن ماجه، وابن حبان والحاكم أنهم رووا عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أفضل الذكر لا إله إلا الله)

كما روى مالك - فى الموَطَّإ - عن طلحة بن عبيدٍ مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفْضَل ما قلت أنا والنبيونَ مِن قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له).

والإكثار من ذكر كلمة التوحيد مطلوب من كل مؤمن، فقد روى أبو يعلى بسند جيد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أكْثروا منْ شَهَادة أنْ لا إله إلا الله قَبْل أنْ يُحَالَ بينكم وبينها).

ووردَ عنَ النبى صلى الله عليه وسلم أن الإكثار من ذكر كلمة التوحيد سبيل إلى تجديد الإيمان وتزكيته، فقد روى الإمام أحمد فى المسند بسند حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(جَـدِّدوا إيمَانَكم).

قيل يا رسول الله وكيف نُجَدِّد إيمانَنَا ؟

قال : (أَكْثِرُوا من قول لا إله إلا الله).

أما ذكرها بعدد معين فقد ورد الترغيب فيه بعشر مرات، وورد بمائة مرة.

فالعشر وردت فى رواية البخارى ومسلم عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ قـال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك ، وله الحمـد، وهو على كلِّ شَيْء قدير عشراً، كان كمن أَعْتقَ رَقَبَةً من وَلَد إسماعيل).

والمائة وردتْ فى رواية البخارى ومسلم أيضـا عن أبى هريرة رضى الله عنه، وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَن قـال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمـد، وهوعلى كل شئ قدير، فى يوم مائة مرة، كانت له عَدْلَ عشر رقاب، وكُتبَتْ له مائة حَسَنَة، ومُحيَتْ عنه مائَـة سيِّئَـة، وكانت له حـرْزاً من الشيطان يومَـه ذلك حتى يُمْسِـى، ولمْ يأتِ أَحَد بأفضلَ ممّا جاءَ به، إلا أحَد عَمِل عَمَلاً أكثر من ذلك) .

وأما ذكرها سبعين ألف مرة فلم يرد به حديث صحيح، ولا حسن ولا ضعيف. فقد نقل الشيخ أبو عـبد الله الكتانى المغربى فى (شـفاء الأسقام والآلام، بما يكفـر ما تقدم وما تأخر من الذنوب والآثام) نقل عن الشيخ نجم الدين الغوطى أنه قال :

وقفت على صورة سؤال وجه للحافظ ابن حجر رحمه الله عن صحة ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنـه قال : (مَن قال لا إله إلا الله سبـعينَ ألفاً اشتَـرَى نَفْسَهَ من الله) فقـال الحافظ ابن حجـر هو حديث باطل مـوضوع، لا تحلُّ روايته إلا مـقرونا ببيان حاله.

هذا من حيث صحة الحديث المتضمن لذكرها سبعين ألفا.

ومع هذا فـإن كثـيراً من النـاس ما يزالون يذكـرونها بـهذا العـدد، ويُهدون ثوابهـا للأموات متذرعين بسببين:

الأول : هو أنهم يفعلون ذلك تبركا بما لكلمة التوحيد من عظمة وإشراق.

والثانى : هو أن جماعة كثيرة من الأحيـاء كوشفوا فى رؤى منامية بآثار حميدة من علامات الرحمة بادية على من أهدى لهـم ثوابها من الأموات، بعد أن كانوا رأوهم فى أحوال غير مريحة.

وقد نقل الشيخ الكتانى رحمه الله فى (شفاء الأسقام) أيضا عن ابن ثابت أنه قال: استحب الأئمة هذا العدد - الذى هو سبعون ألفا - من التهليل، وحضوا عليه، قالوا وكذلك إذا أراد المرء أن يفدى أحداً من النار من والديه وإخوانه فليهلل هذا العدد، ويهديه له، كما استحبوا إذا مات أحد من الإخوان أن يجتمع إخوانه، فيهللونها ويهدون ثوابها إليه.

ونقل أيضا فى (شفاء الأسقام) أنه ينبغى الجمع بين لا إله إلا الله وبين محمد رسول الله عدد السبعين ألفاً، وأن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم مرة أو مرتين عند الشروع فى الذكر، وليكن ذلك العدد فى ليلة الجمعة أو الاثنين، فإن لم يتيسر ذلك فى تلك الليلة فليكن فى يوم آخر أو يومين أو شهر أو أكثر حسبما يتيسر، ثم قال: والاستعجال أحسن .

مشهد من أوصى بما فى الكتاب والسنة

كان محمد بن عمر الملقب بالمعلم من آل باعلوى قد جمع جميع الأصحاب فى ليلة وفاته.

وأوصى بما وردت به السنة والكتاب، وجعلهم عن يمينه وشماله، وأعلمهم بساعة انتقاله وأمرهم بقراءة القرآن بإخلاص، وكرر هو سورة الإخلاص، ولم يزل يكررها إلى أن فاضت روحه عند آخرها - رحمه الله.

وكانت وفاته سنة تسع وعشرين وثمانمائة.

من (جامع الكرامات ج١ ص١٥٦)

مشهد من أوصى بالاستعداد للموت

قال عبد العزيز بن أبى رَوَّاد :

دخلت على المغيرة بن حكيم فى مرضه الذى مات فيه، فقلت له : أوصنى. فقال : اعمل لهذا المضجع.

من (الحلية ج٨ ص١٩٤)

مشهد من أوصى بثلاثة أمور

قال ابن الجَوْزىّ :

لَمَّا احْتُضِرَ أبو بكر بن حَبِيب قال له أصحابه: أوصِنا.

فقال أوصيكم بثلاث:

١ - بتَقْوَى اللهِ عزّ وجلّ.

٢ - وبمراقبته فى الخلوة .
٣ - واحذروا مصرعى هذا، فقد عشت إحدى وستين سنة، وكأنى ما رأيت الدنيا.

ثم قال لبعض أصحابه :

انظر هل ترى جبينى يعرق؟

قال : نعم .

فقال : الحمد لله ،هذه علامة المؤمنين.

قال ابن الجوزى يريد بذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (المؤمن يموت بعرق الجبين).

ثمّ بسط يديه عند الموت وقال :

هَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِى إِلَيْكَ فَرُدَّهَا ... بِالفَضْلِ لا بشماتة الأعداء

من (رسالة الثبات عند الممات ص ٦٢)

مشهد من أوصى بإغراق تآليفه إذا لم يكن يكاشف بقبولها

قال ابن خلكان :

إن أبا الحسن علىّ بن محمد الماوردى لم يظهر شيئا من تصانيفه فى حياته وإنما جمعها كلها فى موضع، فلما دنت وفاته قال لشخص يثق إليه:

الكتب التى فى المكان الفلانى كلها تصنيفى، وإنما لم أظهرها لأنى لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يَشُبْهَا كدر، فإن عاينت الموت ووقعت فى النزع فاجعل يدك فى يدى، فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل منى شىء منها، فاعمد إلى الكتب وألقها فى دجلة ليلاً، وإن بسطت يدى ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قبلت ، وأنى قد ظفرت بما كنت أرجو من النية الخالصة .

قال ذلك الشخص :

فلما قارب الموت وضعت يدى فى يده، فبسطها ولم يقبض على يدى، فعلمت أنها علامة القبول، فأظهرت كتبه بعده.

توفى يوم الثلاثاء آخر شهر ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة ودفن من الغد فى مقبرة باب حرب عن ست وثمانين سنة - رحمه الله .

من (وفيات الأعيان ج٣ ص٢٨٢)

مشهد من أوصى أبناءه بعدم التفرّق

قال ابن خلكان :

إنّ أبا سعيد المهَلَّبَ بنَ أبى صفرةَ لَمّا حضرتْه الوفاة جَمَعَ مَنْ حَضَرَه مِن بنيه، ودعا بِسِهَامٍ فَحزِمَتْ، ثمّ قال :

أَتَرَوْنكم كَاسِرِيهَا مجتَمِعةً؟

قالوا : لا .

قال : أَتَرَوْنَكم كاسريها مفرَّقَةً؟

قالوا : نعم.

قال : هكذا الجماعة .

ثم مات، ونقل ابن خلكان من تاريخ الطبرى أن وفاة المهلب كانت سنة اثنتين وثمانين. رحمه الله.

من (وفيات الأعيان ج٥ ص٣٥٤)

مشهد من أوصى بإخراج ما نواه من الصدقة

قال عبد الملك العوانى الحسينى : إن والده عبد الله بن سالم تصدق فى عام بألف دينار على الفقراء من أهل الستر، يعطى الأضعف فالأضعف، حتى نفد جميع الألف، وقال : هذه اشتريت بها نفسى من الله .

ثم تصدق بألف دينارثانية.

قال ابنه عبد الملك: لم أعلم بذلك إلا فى مرضه الذى مات فيه، قال لى :

يا ولدى كنت أخرجت من مالى ألف دينار برسم الصدقة فى حال الصحة، وبقى منها مائتا دينار فى صندوقى، فإن أنا متُّ أخرجها علىَّ من حظك (يعنى من نصيبك فى الميراث).

فقلت له: لو أخرجت عوضها طعاما عن كفارة أيمان كان أصوب .

فقال : ما أعلم أن علىَّ يمينا أكفرها.

قال عبد الملك :

فأخرجتها عنه بعد وفاته - رحمه الله.

مات سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

من (معالم الإيمان ج٤ ص٣)

مشهد من أوصى ألا يجهز بما يبعث به الأمير

قال عمران ابن القاضى أحمد بن أبى محرز :

لما احتُضر أبى قال لى :

إنى أظن هـذا الملك - يعنى زيادة الله - إذا أنـا مت يبـعـث إلىّ بكفـن وحنوط، ويصلى علىّ، فإذا أنـا مت فاستـر موتى، وغسلنى وكـفنى، وحنطنى، وصلِّ علىِ أنت ومن حضرك من أهـل خاصتنا، ثم أظهر مـوتى، وأخرجنى إلى قبرى . ثم مـات رحمه الله، وفعل عمران ما أمره، فلمـا أخرجه وصار على باب داره وافاهم خلف الخادم من عند الأمير زيادة الله ومعه اثناعشر ثوبا، وبرمة فيها مسك فقال :

يا عمران ما هذا الذى صنعت؟

فقال له : ماكان عندنا علم من هذا الذى صنعتم .

قال : فلا بد أن تدخلوا هذه الثياب فى كفنه.

فقال عمران : ليس إلى هذا سبيل، ولا يصلح هذا .

فأخـذ خلف الخادم تلك البـرمة وفرغـها على كـفن القاضى حتى أتـى على آخرها ومضوا به.

فلقيهم الأمير زيادة الله عند المصلى، فنزل وصلى عليـه، وحضر دفنه وعزى عمران ولده.

ثم قـال : يا أهل القيـروان: ما لكم عند الـله من خيـر، ولو أراد بكم خيـرا لـم يزل أحمد فيكم وبين أظهركم ، وإنما استكفيناه أموركم تسعة أشهر.

توفى - رحمه الله - فى جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين ومائتين .

من (رياض النفوس ج١ ص٤٠٠)

مشهد من أوصى أن يصلى علىَّ شخص بعينه

قال أبو نعيم:

انطلق الحسن البصرى وإياس إلى أبى نضرة يعودانه، فقال له أبو نضرة:

ادن منى يا أبا سعيد.

فدنا منه الحسن، فوضع أبو نضرة يده على عنق الحسن، وقبل خده.

فقـال الحسن: يـا أبا نضرة إنك والله لولا هول المطلع لسـر رجالا من إخـوانك أن يكونوا فارقوا ما هاهنا.

فقالوا : يا أبا سعيد اقرأ سورة، وادعُ بدعوات.

فقرأ قل هو الله أحد، والمعوذتيـن، وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قال : اللهم مس أخانا الضر وأنت أرحم الراحمين.

- فبكى أبو نضرة، وبكى الحسن، فبكى أهل البيت رحمة لأخيهم.

قال إياس: فما رأيت الحسن بكى بكاء أشد منه، وقال أبو نضرة:

يا أبا سعيد، كن أنت الذى يصلى علىَّ .

من (الحلية ج٣ ص ٩٨)

مشهد من أوصى بتقريع عدوه

قال أبو الحسن النباهى :

لما احتُـضر يحيى بن معمر، وهو ببلد إشـبيلية وأيقن بالموت قـال لمولى له على ما حكاه الزاهدى بن سعيد :

أقسمت عليك إذا أنا مت إلا مـا ذهبت إلى قرطبة فقف بيـحيى بن يحيى وقل له : يقول لك ابن معمر: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الـذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾- الشعراء -٢٢٧

ففعل ذلك مولاه لما مـات سيده، وبلغ يحيى ما تقرّعه به، قـال فبكى يحيى وقال : ﴿إنّا للّه وَإنّا إلَيْهِ رَاجعونَ﴾ ما أظنّ الرَّجلَ إلاّ أنّا خُدعْنَا فيه، ثمّ تَرَحَّم عليه واستْغفرَ له.

وكـان بين ابن معـمر ويحـيى بن يحـيى عداوة، فـسعى فى عـزله عند الأميـر عبـد الرحمن، وأقام عليه الشهادة بما زعمه الشهود فعزله.

من (المرقبة العليا ص٤٥)

وروى نفس القصة أبو عبد الله الخشنى فى (قضاة قـرطبة وعلماء أفريقية) بصفحة ٧٨ بزيادة (فبكى يحيى حتى أخضل لحيته، ثم قال : إنّا للّه وَإنّا إلَيْهِ رَاجعونَ ... الخ)

مشهد من أوصى ولده بمباشرة أمور السَلطَنة

كان السلطان محـمد بن ملكشاه السلجوقى رجل الملوك السلجوقـية وفحلهم، وله سيرة حسنة، وبر وافر، حارب الملاحدة واستقل بالملك بعد أخيه بركياروق.

ولما أنس من نفسه- فى مرضه الذى مات فيـه - أحضر ولده محموداً وقبله وبكى، وأمره أن يجلس على تخت السلطنة، وينظر فى أمور الناس.

فقال محمود لوالده:

إنه يوم غير مبارك، يعنى من جهة النجوم .

فقال له : صدقت، ولكن على أبيك، وأما عليك فمبارك بالسلطنة.

ولم يخلف أحـد من الملوك السلجوقـية ما خـلفه من الذخائـر والأموال والدواب،

مات - رحـمه الله - سنة إحـدى عشـرة وخمسـمائة بمدينة أصـبهان ، ودفـن بها فى مدرسة عظيمة للحنفية.

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص٦٢) •

مشهد ملك أوصى وصية جامعة

ذكر صاحب (الاستقصاء) أن السلطان سليـمان بن محمد سلطان المغرب الأقصى لما أثقله المرض أعاد العهد للمولى عـبد الرحمن بن هشام وبعث به إلى فاس - إذ كان الخليفة بها كما مر - فدعا - رحمه الله - بصحيفة بيضاء ، ودعا بالطابع الكبير، فجئ به، ولـم يحـضـره إلا أهله من النسـاء، فطبع الصـحيـفـة بيده، وكـتب بعض الكتـاب، وأكـملته بعض حظاياه ممـن كانت تحـسن الكتابة، ثم طـواه، وختم عليـه، ودعا القـائد الجيلانى الرحمانى الجويوى، وكان قـائد المشور، وقال له : ادع لى فارسين يذهبان بهذا الكتاب إلى فاس ، وقد عينت لهما سخرة كبيرة يقبضانها هناك إذا أسرعا السير.

فكان ذلك الكتاب هو الذى قرئ بفاس ونصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، أخوالنا الودايا، ورماة فـاس وأعيانهـا ورؤساءها، سلام عليكم ورحـمة الله وبركاتـه، وعلى ابن عمنا الفقيه القاضى مولاى أحمد والفقيهين ابن إبراهم والآزمى.

وبعد فقد وجدت من نفسى ما ليس بتـارك أحداً فى الدنيا، وهذه وصية أقدمها بين يدى أجلى ، والله ما بقى فى قلبى مثقـال ذرة على أحد من خلق الله، لأن ذلك أمر قد قدره الله وسبق علمـه به، ولست فيه بأوحد، وما وقع لمن قـبلى أشنع وأفظع، وإنى قد عـقدت بين أخـوالى وأهل فاس أخـوة بحول الله لا تـنفصم يرثهـا الأبناء على الآباء وأوصى الجميع بما أوصى الله به الأولين ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذينَ أوتوا الْكتَابَ منْ قَبْلكم وَإِيَّاكمْ أَنِ اتقـوا اللَّهَ﴾ ﴿ وَمَا آتَاكم الرَّسولُ فَـخذوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْه فَـانْتَهوا ﴾ وبسـنة رسول الله صلى الله عليـه وسلم : (عَلَيْكمْ بِسنَّتى وَسنَّة الْخلَفَاء الراشـدينَ منْ بَعْدى، عَضـّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجذ) ولن تزال هـذه الأمة بخير مـا أخذوا بكتاب اللَه، وقد عـهدت لابن أخى مولاى عبد الرحمن بن هشـام، ورجوت الله أن يكون لى فى هذا الأمر مثل ما لسليمان بن عبد الملك فى عهده لعمر بن عبد العزيز ﴿إِنَّا نَحْن نحْيِى الْمَوْتَى وَنَكْتبُ مَـا قَـدَّمـوا وَآثَارَهَمْ ﴾ (مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَـسَنَةً فَلَه أَجْـرهَا وَأَجْر مَنْ عَـمِلَ بِهَـا إِلى يَوْمِ الْقيَامَة) وقـد انعقد الإجماع على عقد البـيعة بالعهد، والقاضى والفقـيهان يبينون لكم هذَا ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتمْ فِى شَىْءٍ فَردوه إلى اللَهِ وَالرَّسولِ﴾ وإنى أشهد الله أنى مقر بالسمع

والطاعة لعبد الله عبد الرحمن بن هشام وببيعته ألقاه، وقد أديت لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عليّ من النصيحة، وأرجو الله أن يثيبنى بهذه النية الصحيحة، وهو المطلع على ما فى الضمائر، والعالم بالسرائر والسلام، فى رابع ربيع النبوى عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف.

ثم توفى - رحمه الله - فى الثالث عشر من ربيع الأول من العام المذكور.

من (الاستقصاء ج٨ ص١٦٥)

مشهد من أوصى بوصية مختصرة

قال الجنيد :

دخلت على خالى سرى السقطى وهو فى النزع، فجلست عند رأسه، ووضعت خدى على خده، فدمعت عيناى، فوقع دمعى على خده، ففتح عينيه وقال لى :

مَن أنت؟

قلت خَادِمك الجنَيْد.

فقال : مرَحبا.

فقلت : أوصنى بوصية أنتفع بها بعدك.

قال : إياك ومصاحبة الأشرار، وأن تنقطع إِلَى الله بمصاحبة الأخيار.

من (طبقات الأولياء لابن الملقن ص١٦٤)

مشهد أب يحرم ولده من ماله.....!

قال الوزير عون الدين بن هبيرة : كان بينى وبين شيخ ظاهر الصلاح فى بغداد صداقة، فلما حضرته الوفاة دفع إلىّ ثلاثمائة دينار وقال جهزنى بها، وادفنى بمقبرة مَعْرُوف، وتصدق بما يبقى على من تعرف أنه مستحق.

فلماً مات دفنته ورجعت، فلما صرت فى أثناء الجسْرِ صدمنى فرس، فسقط المنديل من يدى فى دجلة، وفيه الدنانير فضربت يدى بالأخرى، وصحت لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لى رجل : ما قصتك؟ فشرحت له حالى، فألقى ثيابه ورمى نفسه حيث وقع المنديل فغاص، وما خرج إلا والمنديل فى فمه فسلمه إلىّ، فدفعت إليه خمسة دنانير، فكاد يطير فرحاً، وحلف أنه أصبح ما يملك قوتا، وأخذ يشكو أباه ويلعنه....! فأنكرت ذلك عليه، ونهيته عن لعن والده، فقال: قد منعنى عن ماله مع علمه بفقرى، وهجرنى إلى أن مات فى يومه هذا، ولم يعلمنى بمرضه، وكان له مال صالح، فقلت له :ومن أبوك؟ فقال: هو فلان بن فلان، وسمى الشيخ الذى رجعت من دفنه،

فتعجبت من أمره، وطلبت منه الشهود على ذلك، فشهد جماعة كثيرة بأنه ولده، فدفعت إليه الدنانير، وقلت له : هى لك .

من (الكشكول ج٣ ص١٦٩)

مشهد من أوصى بوصية من أروع الوصايا

كان الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى التيمى البكرى قد أوصى برسالة أملاها على تلميذه ومصاحبه إبراهيم بن أبى بكر الأصبهانى جاء فيها :

وأقول : دينى متابعة سيد المرسلين، وقائد الأولين والآخرين إلى حظائر قدس رب العالمين، وكتابى هو القرآن العظيم وتعويلى فى طلب الدين عليهما.

اللهمَّ يا سَامِعَ الأصوات، ويـا مجيبَ الدعوات، ويَا مقيلَ العَثَرَات، ويا راحم العَبَرَات، ويا قَيَّامَ المحْدَثَاتِ والممْكِنَات، أنا كنت حَسَنَ الظَّنِّ بك، عظيمَ الرجاء فى رَحْمَتك، وأنت قلت أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى فَلْيَظنَّ بِى خَيْراً، وأنتَ قلتَ أَمَّنْ يـجيب المضْطَرَّ إِذَا دَعَاه، وأنْتَ قلتَ وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنّى فَإِنّى قَرِيب، فَهَبْ أنىّ مَا جِئْت بِشَىء فَأَنْتَ الغَنِىّ الكَرِيم، وأنا المحْتَاج اللَّئِيم، وأعْلَم أَنَّه لَيْسَ لِى أَحَد سِواكَ، ولا أحد كَرِيم سواك، ولا أحد محْسن سِوَاك، وأنَا معْتَرِف بِالزَّلَّة والقصور، والعَيْبِ والفتور، فَلَا تخَيِّب رجائى، ولا تَرُدَّ دعائى، واجعلنى آمنا مِن عذابك قبلَ الموتِ وعندَ الموت وبعدَ المَوْتِ، وسَهِّل علىّ سكرات الموت، وخَفّض عَنّى نزول الموت، ولا تضيّقْ علىَّ سَبَبَ الآلام والأسقَام فإنّك أرحم الراحمين.

ثم قال فى آخرها:

واحملونى إلى الجبل المصاقب لقرية (مزداخان) وادفنونى هناك، وإذا وضعتمونى فى اللحد فاقرأوا علىّ ما تقدرون عليه من آيات القرآن العظيم، ثم ردوا على التراب بالمساحى، وبعد إتمام ذلك قولوا مبتهلين إلى الله مستقبلين القبلة على هيئة المساكين المحتاجين يا كريمُ ياكريمُ، ياعالماً محل هذا الفقير المحتاج أحسن إليه، واعطف عليه، فأنت أكرم الأكرمين، وأنت أرحم الراحمين، وأنت الفعال به، وبغيره ما تشاء، فافعل به ما أنت أهله، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة.

توفى رحمه الله بهراة فى دار السلطنة يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة .

قال محمد بن نصر بن حنين كنت بخراسان فى مجلس الفخر الرازى إذا أقبلت

حمامة يتبعها جارح، فسقطت فى حِجْرِ الرازى وعاذَتْ بِهِ وهو على منبره، فقمت وأنشدت بديها:

يا ابنَ الكرام المطعمينَ إذا شَتَوْا ... فى كلّ مسْغَبَة وثَلْجٍ خَاشف
والعاصمينَ إذَا النّفُوس تَطَايَرَتْ ... بينَ الصَّوَارِم وَالوَشيجِ الرَّاعف
مَنْ نَبَّهَ الوَرْقَاءَ أنَّ محَلَّكمْ ... حَرَم وأنَّكَ مَلجَأ للخَائف؟
وافَتْ إليكَ وقَدْ تَدَانَى حَتْفهَا ... فَحبَوْتَهَا ببَقَائهَا الْمستَأْنَف
وَلَوَ أنّهَا تحْبَى بِمَال لانْثنَتْ ... منْ رَاحَتَيْكَ بنَائل متَضَاعف
جَاءَتْ سلَيْمَانَ الزَّمَانِ حَمَامَة ... وَالْمَوْت يَلْمَع منْ جَنَاحَيْ خَاطف

من (الوافى بالوفيات ج ٤ ص٢٥٠، ٢٥٢)

مشهد من حذر من مخالفة وصيته

قال ابن خلكان :

لما اشتد المرض بأبى الصلت الأندلسى الأديب الحكيم أوصى ولده عبد العزيز ثم قال له :

عبدَ العزيز خَليفَتى ... رَبّ السَّمَاء عَلَيْكَ بَعْدى
أنَا قَدْ عَهِدْتُ إلَيْكَ مَا ... تَدْريه فَاحْفَظْ فيه عَهدى
فَإذَا عَملْتَ بِهِ فَإنّكَ لا تَزَال حَليفَ رشْد
ولَئنْ نَكَثْتَ لَقَدْ ضَلَلْتَ وَقَدْ نَصَحْتُكَ حَسْبَ جُهْدى

مات - رحمه الله- بالمهدية، ودفن بالمنستير مستهل سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

من (وفيات الأعيان ج١ ص٢٤٦)

مشاهد من ختمت أعمارهم بإحدى الطاعات

ما من إنسان يموت إلا وتتم وفاته على حال خاصة، فإما أن تكون حالا حسنة وإما أن تكون حالا سيئة .

وقد يموت على حال من أحسن الأحوال أو على حال من أسوأ الأحوال .

وأيا ما تكن الحال التى يموت عليها الإنسان فإنها أمارة على ما تهيأ له بعد الموت على ما سبق فى علم الله سبحانه ، ويدل على هذه الحقيقة ما رواه مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

يُبْعَثُ كلّ عَبْدٍ عَلَى مَامَاتَ عَلَيْهِ.

وما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن رجلا مات وهو محرم، فقال صلى الله عليه وسلم :

(اغْسلوه بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِى ثَوْبَيْهِ، وَلَا تَمَسّوه بِطِيبٍ، وَلَا تَخَمِّروا رَأسَه، فَإِنَّه يُبْعَث يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا).

وما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا قال يا رسول الله أخبرنى عن الجهاد والغزو فقال :

(إِنْ قُتِلْتَ صَابِراً مُحْتَسِبًا بعثتَ صَابِراً محتَسِباً، وإِنْ قُتِلتَ مرائياً مكَاثِراً بعثتَ مرائياً مكَاثِراً، عَلَى أَيِ حَالٍ قَاتَلْتَ أَوْ قُتِلتَ بَعَثَكَ اللَّه بِتِلْكَ الحَالِ) .

وما رواه الإمام أحمد عن جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ مَاتَ عَلَى شَىءٍ بَعَثَه اللَّه عَلَيْه)

كما روى أحمد عن حذيفة رضى الله عنه، أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ قَالَ لا إله إلا اللَّه ابْتِغَاءَ وَجهِ اللَّه خُتِمَ لَه بِهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنَ صَامَ يَوْماً ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّه خُتِمَ لَه بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة).

وما رواه أبو نعيم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ وَافَقَ مَوْته عِنْدَ انْقِضَاء رَمَضَانَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ وَافَقَ مَوْته عِنْدَ انْقِضَاء عَرَفَةَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ وَافَقَ مَوْته عِنْدَ انْقِضَاء صَدَقَة دَخَلَ الْجَنَّةَ).

وما رواه أبو نعيم عن خيثمة رضى الله عنه أنه قال : كان يعجبهم أن يموت الرجل عند خير يعمله، إما حج وإما عمرة، وإما غزوة وإما صيام رمضان .

إن من الناس من يكونون من المسرفين على أنفسهم فى حياتهم، وفى أخرياتها يوفقهم الله بفضله، فيلهمهم التوبة قبل وفاتهم، فيجتنبون المخالفات ويلزمون الطاعات، أو يصابون ببعض المكاره ليكفر الله بها عنهم سيئاتهم، ولا يموتون إلا على أحسن الأحوال .

ولقد أخبر صلى الله عليه وسلم بإفاضة فضل الله على هذا الصنف من الناس فقال فيما رواه أحمد والترمذى وابن حبان والحاكم عن أنس بن مالك رضى الله عنه:

(إِذَا أَرَادَ اللَّه بِعَبْدٍ خَيْراً اسْتَعْمَلَه.

قيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟

فقال : يوفقه لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ، ثُمَّ يَقْبِضه عَلَيْه.

كما روى الطبرانى فى المعجم الكبير عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إِذَا أَرَادَ اللَّه بِعَبْدٍ خَيْراً طَهَّرَه قَبْلَ مَوْتِهِ .

قالوا : وما طهور الْعَبد؟

قال : (عَمَل صَالِح يلْهِمه إِيَّاه، حَتَّى يَقْبِضَه عَلَيْه).

والناس فى ختم أعمارهم بالصالحات صنفان :

صنف يأتيه الموت وهو متلبس بإحدى الطاعات من غير قصد منه لتلقى الموت على تلك الحال .

وصنف يرجو الله أن يختم له حياته حالما يكون قائما بطاعة معينة، أو عند إتمامه لها، رجاء منه أن يبعث يوم القيامة على تلك الحال، وأن يلقى ربه عليها، وقد حقق الله بفضله هذا الرجاء لكثير من عباده، فإنه سبحانه قال ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الشورى ٢٦

وإليك بعض المشاهد من هذين الصنفين :

الصنف الأول :

مشهد من ختم الله عمره عقب الوضوء للصلاة

سأل جعفر بن نصير خادما للشيخ أبى بكر الشبلى قائلا:

ما الذى رأيت منه (يعنى عند موته) فقال :

قال لى : علىّ درهم مظلمة، قد تصدقت عن صاحبه بألوف، وما على قلبى شغل أعظم منه، ثم قال : وَضِّئْنى للصلاة، ففعلت، فنسيت تخليل لحيته، وقد أمسك لسانه (يعنى عجز عن النطق) فقبض على يدى، وأدخلها فى لحيته ثم مات.

فبكى جعفر وقال :

ما تقولون فى رجل لم يفته فى آخر عمره أدب من آداب الشريعة .

من (نشر المحاسن لليافعى ج٢ ص ٢٩٢)

مشهد من ختم الله عمره عقب صلاة

قال سفيان بن عُيَيْنَة :

آلى صفوان بن سليم ألا يضع جنبه على الأرض حتى يلقى الله عز وجل. فلما حضره الموت وهو منتصب قالت له ابنته: يا أبت أنتَ فى هذه الحالة لو ألقيت نفسك؟ قال : يا بنية إذن ما وفّيت له (يعنى ما وفّى لله بماَ حلف).

وقال ابن أبى حازم :

دخلت أنا وأبى نسأل عنه وهو فى مصلاّه، فما زال به أبى حتى رده إلى فراشه، فأخبرتنى مولاته قائلة: إنه ساعة خرجتم مات - رحمه الله .

من (الحلية ج٣ ص١٥٩)

مشهد من ختم الله عمره فى الصلاة

قال المالكى فى رياض النفوس :

كان أبو عقال بن غلبون قد جرد أذياله فى الصبِّا، وأطال من عنانه فى الهوى، منهمكا فى البطالة، صاحب لهو وصبوة، مع مروءة وفتوة، إلى أَن تناهت حدود القضاء فشمر وارعوى، وآثر ما يبقى على ما يفنى، فبكى وناح على ما سلف من أيامه، وعلى ما قارف من آثامه، صائما نهاره، قائما ليله، حتى كان يُضرب به المثل فى العبادة....

ثم رحل من القيروان إلى مكة .

قال أبو بكر بن سعدون :

رأيت أبا عقال على جبل الرحمة يوم عرفة جاثيا بين يدى الله عزّ وجلّ على ركبتيه، باسطا ذراعيه ، شاخصا ببصره، ودموعه تُسكب سكبا، فقلت له :

إنه ليوم عظيم، ألاَ تدعو؟

فقال لى : يا ابن سعدون هو يعرف حاجتى، وفى أى شىء جئت.

وقال أبو القاسم الجوهرى: حدثنا أبو على الواسطى قال :

لقيت أبا إسحاق المقرئ بطرسوس، قال : لقيت أبا عقال بمسجد الخيف من منى، وعليه خيشتان مؤتزرا بواحدة، ومرتديا بالأخرى، فقلت له : حدثنى بأشد شىء مر عليك فى الحجاز، وحوله جماعة يكتبون كلامه، فقال لى :

كان معى سبعون صاحب رَكْوَة (وعاء للماء من جلد) فوقع القحط، فماتوا وبقى منهم ستة أثر الضيم فيهم ، وبقينا ليالى لم نطعم، فوقع فى سرى أن آتى الركن ،

فالتزمته فلعلى أن أموت على ذلك، فعلقته حبوا من الجوع، فطرأ على قلبى أبيات فرجعتْ إلىّ نفسى وهى :

عَقَدْتُ عَلَيْكَ مُكْمَنَات خَوَاطِرى عَقْدَ الرَّجَاء فَأَلْزَمَتْكَ حُقُوقَا
إنَّ الزَّمَانَ عَـدَاً عَلَىَّ فَزَادَنى علماً بِأَنَّكَ سَـيدّى تَحْقِيقَا
مَا نَالَـنى ضُـرّ بوَجْه مَسَاءَة إلاَ وَجَدْتُ به إلَيْـكَ طَرِيقَا
حَسْبى بِأَنَّكَ عَالم بمَـصَالحِى إذْ كُنتَ مَأمُـوناً عَلَىَّ شَفِيقَا
أَمْضِ الْقَضَاءَ عَلَى الرِّضَا منِّى بِه إنِّى رَأيْتُـكَ فى البَلاء رَفِيقَا

فرجعتْ إلىَّ نفسى واستندت إلى زمزم، فما استويت جالسا حتى أتى إلىَّ أسود على رأسه مكْتل فيه خبز ولحم مشوى وصرة دراهم، فقال لى:

أنت ابن غلبون؟

فقلت له : نعم .

فوضعه بين يدى ومضى، فأومأت إلى أصحابى فكنت فيه كأحدهم.

وقيل : إن أخت أبى عقال كتبت إليه من القيروان كتبا كثيرة ترغب إليه فى الرجوع إلى المغرب لتجتمع به وتسر برؤيته قبل أن يفرق الموت بينهما، فكل كتاب وصل إليه منها ألقاه من يديه ولم يقرأه.

فلما طال ذلك عليها أوصت إليه بغير كتاب وقالت : بحق الثدى الذى رضعته معك إلا أريتنى وجهك قبل الموت وفراق الدنيا. مالك فى حين صباك وجناياتك، وكثرة ما يطرأ علينا بسببك كنت عندنا، وحين صرنا نفتخر بك ونتبرك برؤيتك فارقتنا؟

فقال لرسولها: قل لها ما كنتُ لأدع بلدا عرفت الله عزّ وجلّ فيه، وأمضى إلى بلد عصيت الله فيه، أخشى أن تقتضينى العوائد.

ثم قَدمَتْ عليه أخته بعد ذلك، وأقامت معه بمكة حتى ماتت.

كانتَ وفاة أبى عقال - رحمه الله - فى شهر رمضان، وذلك أنه لما صلى ترويحة أو اثنتين فسجد الناس، وسجد، ثم قام الناس وبقى أبو عقال ساجداً بحاله، فظن مَن وراءه أنه نام فى سجوده. فلما انقضت الترويحة التى كانوا فيها ذهبوا يحركونه فإذا هو قد مات.

فصعد رجل على الحجْر فقال :

أيها الناس إن الله تبارك وتعالى أراد أن ينشر لأبى عقال فى أرضه اليوم عَلَماً.

ملخص من (رياض النفوس ج١ ص٤٢٧)

مشهد من ختم الله عمره بعد أن أدى الصلاة

قال أبو نصر عبد الوهاب السبكى :

كان أبو عبد الله محمد بن أحمد التركمانى الذهبى محدث العصر قد رآه الوالد -رحمه الله - قبل المغرب وهو فى السياق، وقال له :

كيف تجدك؟

فقال : فى السياق، ثم سأل - رحمه الله - والدى فقال:

أَدَخَلَ وقتُ المغرب؟

فقال له الوالد: أَلَمْ تُصَلِّ الْعَصْرَ؟

فقال : بلى، ولكنى لم أصَلِّ المغرب إلى الآن، ثم سأل الوالد عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديما (للعشاء عن وقتها) فأفتاه بذلك، ففعله، ومات بعد العشاء قبل نصف الليل.

قال أبو نصر السبكى :

حضرتُ الصلاةَ عليه ودفنه، وكان قد أَضَرَّ قبل وفاته بمدة يسيرة .

من (طبقات الشافعية ج٩ ص١٠٥)

مشهد من ختم الله عمره وهو ينتظر إقامة الصلاة

نقل السيوطى عن ابن حجر أن الطيبى كان آية فى استخراج الدقائق من القرآن والسنن، مقبلا على نشر العلم، حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، شديد الحب لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، محبا لمن يعرف منه تعظيم الشريعة.

وكان يشتغل فى التفسير من بكرة إلى الظهر، ومن ثم إلى العصر فى الحديث إلى اليوم الذى مات فيه، فإنه فرغ من وظيفة التفسير، وتوجه إلى مجلس الحديث، فصلى النافلة، وجلس ينتظر إقامة الفريضة، فقضى نحبه متوجها إلى القبلة رحمه الله ورضى الله عنه، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة.

من (بغية الوعاة ص ٢٢٨)

مشهد من لم يزل يصلى بعسر حتى قبض

قال أبو بكر العطار:

حضرت الجنيد عند الموت فى جماعة من أصحابنا، فإذا هو قاعد يصلى، ويَثْنِى رجليه كلما أراد أن يسجد، ولم يزل كذلك حتى خرجتِ الروح من رجله فثقلتْ عليه حَرَكَتُهَا، فمدّ رجليه وقد تورمتا، فقال بعض أصدقائه:

ما هذا يا أبا القاسم؟

قال : هذه نعم (الله أكبر) .

فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الحريرى :

لَو اضْطَجَعْتَ يا أبا القاسم؟

فقال: يـا أبا محمد هذا وقت يؤخـذ من (الله أكبر) فلم يزل ذلك حاله حـتى مات -رحمه الله-

من (رسالة الثبات عند الممات ص ٦١)

ومـعنى قـوله : (هذا وقت يؤخـذ من (الله أكـبر) أنه وقت يغـتنم فـيـه المزيد من نفحات وبركات (الله أكبر).

مشهد من ختم الله عمره وهو قائم فى الصلاة

قال الشيخ محمد الكنانى :

كان أبو عبد الله غَـزِّيَّة لا يفتر لسانه عن ذكر الله، وكان يؤذّن احـتسابا، وله صوت جهورى حسن، قلَّ مَن يؤذِّن مثله.

قال الكنانى :

وأخبرنى الشـيخ أبو الفلاح صالح الجودى قـاضى القيروان أنه عاده حـين حضرته الوفاة، فسـأل عن العصر، فقـيل له : المؤذن أذن الآن، فقام وصلى الركعـة الأولى تامة، وفى آخر الثانية سقط على الأرض ميتاً - رحمه الله .

من (تكميل معالم الإيمان ص ٢٣٢)

مشهد من أحب أن تختم حياته بالصلاة

كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخاً لعـثمان بن عفانٍ من الرضاع، وكان فارس بني عامر بن لؤى والمقدّم فيـهم، وقد شهد فتح مصر واختطَّ بهـا، وكان صاحب ميمنة المسلمين مع عمرو بن العاص رضى الله عنه.

ودخل أفريقيـة (تونس) غازيا وأميرا بتولية عـثمان سنة سبع وعشريـن ، وكان معه جمـاعة من الصحابـة رضى الله عنهم فى هذه الغزوة، منهم ستـة كل منهم اسمه عـبد الله.

(وأسس مسجـدا فى مكان يقع شرقى مدينة القـيروان قبل تأسيس القـيروان وكان يعرف بمسجد ابن أبى سرح وبقى زمنا معمورا، ثم خرّبته الأودية ولم يقع تجديده) .

ولما حضرت ابن أبى سـرح الوفاة - وهو بالرملة - وكان قد خـرج هاربا من الفتنة جعل يقول لهم من الليل : أصبحتم؟ فيقولون: لا، فلمّا كان من الصبح قال :

يا هشام بن كنانة، إنّى لأجد بَرْدَ الصبح فانظروا، ثم قال :

اللهم اجعل خاتمة عملى صلاة الصبح .

فنظروا فإذا هم بالصبح .

فصلّى وقرأ فى الركعة الأولى بأم القرآن والذاريات، وفى الثانية بأم القرآن وسورة، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره فقبض الله عز وجل روحه سنة ست وثلاثين .

من (رياض النفوس باختصار ج١ ص٤٤)

مشهد من أحب أن يصلى قبيل موته

قال على بن هارون متحدثا عن واحد من أصحابه ممن حضر موته، فقال غشى عليه عند صلاة المغرب ثم أفاق فنظر إلى ناحية من باب البيت فقال :

قف عافاك الله، فإنما أنت عبد مأمور ، ما أُمرت به لا يفوتك،وما أُمرت به يفوتنى، فدعنى أمضى لما أُمرت.

فدعا بماء فتوضأ للصلاة (وصلّى) ثم تمدّد وغمّض عينيه، وتشهد ،فمات رحمه الله.

من (الحليةج١٠ ص٣٠٧)

مشهد من أحب ختم حياته بالصيام

قال يزيد بن عبد ربه عُدْتُ مع خالى علىّ بن مسلم أبا بكر بن أبى مريم، وهو فى النزع فقلت له :

رحمك الله لو جَرَعْتَ جَرْعَةَ مَاءٍ ؟

فقال بيَده : لا .

ثم جاءَ اَللَيل فقال : أذَّن ؟

فقلت : نعم .

فقطرنا فى فمه قطرة ماء، ثم غمضناه فمات - رحمه الله، وكان لا يقدر أحد أن ينظر إليه من خَوَى فمه من الصيام .

من (الحلية ج٦ ص٨٩)

مشهد من أحب أن تختم حياته وهو صائم

لما حضرت الوفاة أبا إسحاق إبراهيم بن هانئ النيسابورى جعل يقول لابنه:

يا إسحاق ارفع الستر، ارفع الستر.

قال : يا أبتِ السِّتر مرفوع، قال :

أنا عطشان .

فجاء ابنه بماء، فقال إبراهيم:

أغابت الشمس؟

قال : لا . .

فرده، ثم تلا :

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ الصافات - ٦١ .

ثم خَرَجت روحه - رحمه الله . مات يوم الأربعاء لأربع خلون من ربيع الآخر سنة خمس وستين ومائتين.

من (طبقات الحنابلة ج١ ص٩٨)

مشاهد من ختمت حياتهم بالتضرع إلى الله

مشهد من احتسب نفسه عند الله

روى رَقَبَة بن مَصقَلَةَ أنّ سيدنا الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه لما نزل به الموت قال :

أَخْرِجوا فِرَاشى إلى صحن الدّار .

فأخرِج، فَقال :

اللهمَّ إنّى أَحْتَسِب نفسى عندك، فإنّى لَمْ أصَبْ بمثلها غير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من (صفة الصفوة ج١ ص٧٦٢)

مشهد من رجا عفو الله

قال المزنى :

دخلت على الإمام الشافعى فى علّته التى مات فيها، فقلت له :

كيف أصبحت ؟

فقال : أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخوانى مفارقا، ولكأس المنية شاربا، ولسوء أعمالى ملاقيا، وعلى الله واردا، فلا أدرى روحى تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشد :

وَلَمَّا قَسَى قَلْبِى وَضَاقَتْ مَذَاهِبِى ... جَعَلْت رَجَائى نَحْوَ عَفْوِكَ سلَّمَا

تَعَاظَمنِى ذَنْبِى فَلَمَّا قَرَنْته ... بِعَفْوِكَ رَبِّى كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

وَمَا زِلت ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ ... تَجُود وَتَعْفو مِنَّةً وَتَكَرّما

وقال المزنى أيضا سمعته ينشد :

فَمَا شئْتَ كَانَ، وَإنْ لَمْ أشَأ ... وَمَا شئْت - إنْ لم تَشَأ - لَمْ يكنْ
خَلَقْتَ العبَادَ عَلَى مَا أرْدتَ ... فَفى الْعلْم يَجرْى الْفَتَى والمسنْ
عَلَى ذَا مَننْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ ... وَهَذَا أعَنْتَ، وَذَا لَمْ تُعنْ
فَمنهمْ شَقِىّ وَمنهمْ سَعيد ... وَمنهمْ قَبيح وَمنهمْ حَسَنْ

توفى - رحمه الله - سنة خمسين ومائتين .

من (الوافى بالوفيات ج٢ ص١٧٩)

مشهد من دعا الله أن يزحزحه عن النار

قال ابن خلكان :

لما حضرت الوفاة ذا الرّمَّة قال :

أنا ابن نصف الهرم، أنا ابن أربعين سنة وأنشد :

يَا قَابِضَ الرّوحِ عَنْ نَفْسِى إذَا احْتُضِرَتْ ... وَغَافِرَ الذَّنْبِ زَحْزِحْنِى عَنِ النَّارِ

من (وفيات الأعيان ج٤ ص١٦)

مشهد من دعا ألا يساق إلى النار

لما حضرت الوفاة الخليفة أبا العباس السفاح، كان آخر كلامه وهو فى النزع:

إلَيْكَ يَاربّ لا إلَى النَّارِ

مَاتَ بالجدَرى - رحمه الله - سنة ست وثلاثين ومائة .

من (فوات الوفيات ج٢ ص٢١٦)

مشهد من ذكر ليقول شيئا فدعا

قال أبو الحسن على بن إبراهيم البغدادى : سمعت أبا عبد الله الخناقاباذى يقول :

حضرنا يوسف بن الحسين الرازى وهو يجود بنفسه فقيل له :

يا أبا يعقوب، قل شيئا، فقال :

اللهمَّ إنّى نَصَحْت خَلْقَكَ ظاهرا، وَغَشَشْت نفسى باطنا، فهَبْ لى غِشِّى لنفسى، لنصحى لخلقك. ثم خرجت روحه.

قال أبو الحسن على بن إبراهيم الرازى : حكى لى أبو خلف الوزَّان عن يوسف بن الحسين أنه رِئَ فى المنام فقيل له :

ماذا فعل الله بك ؟

قال : غفر لى ورحمنى، فقيل له : بماذا؟

قال : بكلمة، أو كلمات قلتها عند الموت، قلت :

اللهم إنى نصحت الناس قولا، وخنت نفسى فعلا، فهب لى خيانة فعلى لنصح قولى .

توفى رحمه الله سنة أربع وثلاثمائة.

من (صفة الصفوة ج٤ ص١٠٣)

مشهد من دعا الله أن يحسن جزاءه عن مصيبته بالموت

لما حضرت الوفاة أبا محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلى من الجزيرة الخضراء كان آخر ما سمع منه لدى احتضاره قوله:

اللهم إنك وعدت بالجزاء عند كل مصيبة ، ولا مصيبة علىّ أعظم من نفسى فأحسن جزائى عنها، يا أرحم الراحمين .

ثم خَفَتَ .

وكان قد أعد قبره لنفسه، يقف عليه ويتعظ به،توفى- رحمه الله - ليلة الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

من (ترتيب المدارك ج٧ ص١٤٤)

مشهد من سأل الله أن يرفق به

كان الشيخ صدقة الضرير المتعبد إذا حبس الله عن الناس الغيث أتوا إلى صدقة يسألونه الدعاء، فأتوا إليه يوما، وقد أصاب البلد قحط شديد، فسألوه الدعاء، فرفع يديه إلى السماء، ودعا بدعاء عظيم ثم قال :

يا رب، الساعة الساعة .

فما خرج الناس عنه حتى أغاثهم الله عز وجل بالمطر، وكانت آخر كلمة سمعت منه وهو يجود بنفسه :

ارْفقْ بحبيبك يا حبيبى

ثم فاضت نفسه - رحمه الله.

من (رياض النفوس ج٢ ص١٢٩)

مشهد من دعت الله ألا يخذلها ولا يوحشها

كانت أم عثمان بن سودة الطفاوى من العابدات، وكانت يقال لها (راهبة) قال ابنها عثمان :

لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت :

يا ذخرى وذخيرتى، ويا من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى، لا تخذلنى عند الموت، ولا توحشنى فى قبرى.

فلما ماتت كنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها، وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات ليلة فى منامى فقلت :

يا أماه كيف أنت ؟

قالت : أى بنى، إن للموت لكربة شديدة، وأنا بحمد الله لفى برزخ محمود، نفترش فيه الريحان، ونتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور.

فقلت : ألك حاجة ؟

قالت : نعم، لا تدع ما أنت عليه من زيارتنا والدعاء لنا، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذ أقبلت من عند أهلك، يقال لى : يا راهبة هذا ابنك قد أقبل من أهله زائرا لك فأسر بذلك ويسر من حولى من الأموات .

من (صفة الصفوة ج٤ ص٤٢)

مشهد من ختم الله عمره بعد قيامه بصلاة الاستسقاء

قال الكاتب ابن أزهر :

ارتفع المطر، فخرج القاضى إسماعيل بن حماد الأزدى قاضى بغداد إلى المصلى، فصلى ركعتين بسبح اسم ربك وهل أتاك حديث الغاشية ثم صعد المنبر، وخطب خطبتين، وحول رداءه، وحدث بحديث طويل خشع له الناس، وبكى وانصرف خاشعا.

فقبض ليلة استسقائه وقت صلاة العشاء، لثمان بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة عن اثنتين وثمانين سنة .

من (المرقبة العليا ص ٣٥)

مشهد من ختم الله عمره وهو يتلو الفاتحة فى الصلاة

كان أبو سعد إسماعيل بن أحمد الجرجانى الشافعى شيخ الشافعية بجرجان، وكان مقدما فى الفقه والعربية كثير التصانيف .

ومما أكرمه الله به أنه مات وهو فى صلاة المغرب يقرأ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ففاضت نفسه. وذلك ليلة الجمعة منتصف ربيع الآخر سنة ست وتسعين وثلاثمائة.

من (الوافى بالوفيات ج٩ ص٨٧)

مشهد من ختمت حياته بالصدقات

باع يزيد بن ميسرة كل ما كان يملك من شىء فتصدق بثمنه، حتى باع منزله الذى كان يسكنه، وكان يقول بعد ذلك : اللهم لا أكون عذرت، اللهم عجل قبضى إليك، فلم يلبث إلا يسيرا حتى قبضه الله.

من (الحلية ج٥ ص٢٤٢)

مشهد من مات بعد صدقاته بأيام

قال أبو نعيم رأى الربيع بن راشد رجلا مريضا يتصدق بصدقة يقسمها بين جيرانه، فقال الربيع:

الهدايا أمام الزيارة .

(يعنى أن عادة الناس إذا زار أحدهم غيره يحمل هدية يقدمها لمن يذهب لزيارته).

وقال الربيع :

فلم يلبث الرجل المتصدق إلا أياما حتى مات، فبكى عند ذلك الربيع وقال أحس الرجل - والله - بالموت، وعلم أنه لا ينفعه إلا ما قدم بين يديه .

من (الحلية ج٥ ص٧٧)

مشهد من ختمت حياته بالصدقة وعتق المماليك

قال ابن خلكان :

كان معز الدولة أبو الحسن بن بويه صاحب العراق والأهواز يقال له الأقطع ، لأنه كان مقطوع اليد اليسرى، وبعض أصابع اليمنى فى معركة مع الأكراد، وعاش بعد ذلك سليما.

ولما حضرته الوفاة أعتق مماليكه، وتصدق بأكثر ماله، ورد كثيرا من المظالم.

توفى - رحمه الله - يوم الاثنين سابع عشر ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة ببغداد عن ثلاث وخمسين سنة .

من (وفيات الأعيان ج١ ص١٧٦)

مشهد من ختمت حياته وهو يسرد الصوم

نقل ابن خلكان عن أبى جعفر النفيلى أن خلف بن هشام كان من أصحاب السنة لولا بلية كانت فيه ، كان يشرب النبيذ.

قال عبد الكريم بن الحداد:

وكان خلف يشرب من الشراب على التأويل، فكان ابن أخته يوما يقرأ عليه سورة

الأنفال حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الأنفال - ٣٧ .

فقال يا خال إذا ميز الله الخبيث من الطيب أين يكون الشراب؟ فنكس خلف رأسه طويلا، ثم قال : مع الخبيث، فقال له : فترضى أن تكون مع أصحاب الخبيث؟ فقال :

يا بنى امض إلى المنزل فاصبب كل شيء فيه.

فترك خلف الشراب، فأعقبه الله تعالى الصوم، فصام الدهر إلى أن مات.

قيل أنه أعاد صلاة الأربعين سنة التى كان يتناول فيها الشراب على مذهب الكوفيين.

وكانت وفاته يوم السبت السابع عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين - رحمه الله.

من (وفيات الأعيان ج٢ ص٢٤٢)

مشهد من مات وهو يستنبط معانى القرآن

قال أبو الحسين محمد بن على بن حبيش :

صحبت أبا العباس بن عطاء عدة سنين متأدبا بآدابه ، وكان له فى كل يوم ختمة، وفى كل شهر رمضان كل يوم وليلة ثلاث ختمات، وبقى فى ختمة يستنبط مودع القرآن بضع عشرة سنة، يستروح معانى مودعها، فمات قبل أن يختمها.

سمعته يقول فى قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ آل عمران - ٩٦: فى البيت مقام إبراهيم وفى القلب آثار إبراهيم ، وللبيت أركان، وللقلب أركان، فأركان البيت الصم من الصخور ، وأركان القلب معادن النور.

من (الحلية ج١٠ ص٣٠٢)

مشهد من ختم الله حياته وهو يتلو القرآن العظيم

قال أبو عبد الله الدارمى :

سمعت أبا بكر العطوى يقول : كنت عند أبى القاسم الجنيد الزاهد المشهور حين مات، فختم القرآن، ثم ابتدأ البقرة، فقرأ سبعين آية ثم مات - رحمه الله .

توفى يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين بالشونيزية.

من (الحلية ج١٠ ص٢٦٤)

مشهد من ختم الله عمره وهو يكتب المصحف

روى تاج الدين السبكى أن أبا حكيم الخبرى كان يكتب المصاحف، وذكر أنه كان ذات يوم قاعدا مستندا يكتب فى المصحف، فوضع القلم من يده، واستند وقال :

والله إنّ هَذَا مَوْتٌ طَيِّبٌ وَهَنِيءٌ .

ثم مات - رحمه الله - وذلك فى ذى الحجة سنة ست وسبعين وأربعمائة.

من (طبقات الشافعية ج٥ ص٦٣)

مشهد من توفاه الله وهو يكتب الحديث الشريف

نقل تاج الدين السبكى عن القاضى أبى زُرْعَةَ رَوْحِ بنِ محمد سِبْطِ ابن السنى أنه قال :

سمعت عمى على بن أحمد الدينورى يقول : كان أبى رحمه الله يكتب الحديث، فوضع القلم فى أنبوبة المحبرة، ورفع يديه يدعو الله تعالى فمات، وذلك فى أواخر سنة أربع وستين وثلاثمائة - رحمه الله.

من (طبقات الشافعية ج٣ ص٣٩)

مشهد من ختم الله حياته بكلمة التوحيد

روى الإمام أحمد وأبو داود وأبو عبد الله الحاكم عن معاذ بن جبل أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ كَانَ آخرُ كَلامه لا إلَهَ إلا اللَّه دَخَلَ الْجَنَّةَ) .

قال أبو جعفر التُّسْتَرِى حضرنا أبا زرعة الرازى وكان فى السَّوْق (يعنى سياق الموت) وعنده أبو حاتم، ومحمد بن مسلم، والمنذر بن شاذان، وجماعة من العلماء، فذكروا حديث التلقين، وقوله صلى الله عليه وسلم لقنوا موتاكم لا إله إلا الله. فَاسْتَحْيَوْا من أبى زرعة، وهابوا أن يلقنوه. فقالوا تعالوا نذكر الحديث ، فقال محمد ابن مسلم:

أنبأنا الضحاك بن مَخْلَدٍ عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح ولم يجاوز، والباقون سكتوا.

فقال أبو زرعة وهو فى السَّوْق:

حدثنا بندار قال حدثنا أبو عاصم قال حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبى عريب عن كثير بن مرة الحضرمى عن معاذ بن جبل أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مَنْ كَانَ آخرُ كَلامه لا إِلَهَ إلا اللَّه) وتوفى رحمه الله.

وكانت وفاته بالرىَ آخرَ يوم من ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين عن أربع وستين سنة .

من (صفة الصفوة ج٤ ص٨٩)

وزاد الصَّنْعَانى فى كتابه (جَمْعُ الشَّتِيت) أن أبا زرعة لما قال لا إله إلا الله خرجت روحه مع الهاء، قبل أن يقول دخل الجنةَ .

مشهد من تشهد فمات

نقل تاج الدين السبكى عن أبى عبد الله الحاكم صاحب المستدرك أن محمد النيسابورى ولدت له بنت وهو ابن تسعين سنة، وتوفى وزوجته حُبْلَى .

قال : بلغنى أن زوجته قالت له عند وفاته قد قربت ولادتى .

فقال : سلميه إلى الله، فقد جاءوا ببراءتى من السماء، وتَشَهَّدَ ومات فى الوقت .

توفى - رحمه الله - فى الثامن والعشرين من ذى القعدة سنة ست وسبعين وثلاثمائة.

من (طبقات الشافعية ج٣ ص٧٠)

مشهد من جعل يكرر التشهد حتى مات

قال ابن خلكان :

صاح أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدِّينَوَرِىُّ صيحة عظيمة سُمِعَتْ من بعيد، ثم أغمى عليه إلى وقت الظهر، ثم اضطرب ساعَة ، ثم هدأ، فما زالَ يتشهد إلى وقت السحر، ثم مات - رحمه الله - فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين.

من تآليف ابن قتيبة أدب الكاتب، وغريب القرآن، وغريب الحديث .

مشهد من ختم الله حياته بالشهادة فى سبيله

فى نهاية معركة بدر قام أناس من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بتفقد القتلى والجرحى، فوجدوا فى الجرحى الأصيرم- عمرو بن ثابت وبه رمق يسير، وكانوا

من قبل يَعْرِضُون عليه الإسلام فيأباه، فـقالوا إن هذا الأصيرم ما جاء به لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر؟

ثم سألوه:

ما الذى جاء بك؟ أحدب على قومك أم رغبة فى الإسلام؟

فقـال : بل رغبة فى الإسـلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلـت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصابنى ما ترون، ومـات من وقته، فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هُوَ مِنْ أهلِ الجنّة.

قال أبو هريرة : ولم يصلِّ لله صلاة قط (يعنى ما بين إسلامه واستشهاده لـم يمر به وقت صلاة من الصلوات) .

من (زاد المعاد ج٢ ص٩٤)

الصنف الثانى :

أما الصـنف الثانى فهـو المتعلق بـأناس رجوا أن يختـم الله حياتهـم بطاعة معـينة، فاستجاب لهم سبحانه بفضله ورحمته، كما سبقت الإشارة إليهم.

إن أفـراد هذا الصنف كـثيـرون فى الإسـلام، وإليك طائفـة من مشـاهد من كـانت منياتهم على ما رجوه من الله .

مشهد فتى صغير رغب فى الشهادة فنالها

لما توجه المسلمـون إلى غزوة بدر خـرج غلام اسمـه عميـر بن أبى وقاص وهو فى السادسـة عشـرة من عمره، وكـان قد خـاف ألا يقبله النبى صلى الله عليـه وسلم لأنه صغـير ، فكان يجتهـد ألا يراه أحد ، فجـعل يتوارى فسـأله أخوه الأكبر سـعد بن أبى وقاص عن ذلك فقال :

أخـاف أن يردنى رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم وأنا أحـب الخـروج لعل الله يرزقنى الشهادة.

فأراد رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أن يرده، لأنه لم يبلغ مـبلغ الرجال فـبكى الفتى عمير، ورق له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجازه.

قال أخوه سعد : فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره.

ثم ختم الله حياة عمير بالشهادة فى بدر كما رجا، فرحمه الله ورضى عنه.

من (الإصابة ج٣ ص٣٦)

مشهد من استطال اللحظات الباقية من عمره قبل الظفر بالشهادة المرجوَّة

لَمَّا حرض رسـول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين على القتـال يوم بدر جاء فى تحريضه قوله:

(وَالـَّذِى نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ لا يُقَاتِلُهم اليَوْمَ رَجل فَيُقْبِل صَـابِراً مُحتَسِباً ، مقْبلاً غَيْرَ مدْبِرٍ إلا أَدْخَلَه اللَّه الْجَنَّةَ) .

وقال : (قوموا إلَى جنَّة عَرْضُـهَا السَّمَاوَاتُ والأرضُ) .

فقال عمير بن الحُمام بَخٍ، بَخٍ [1]: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِ بَخٍ، بَخٍ؟) فقال :

لا و الله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فَإنَّك مِنْ أَهْلِهَا .)

فأخرج عمير تَمرات من قرنه (أى جعبته) فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل، رحمه الله ورضى عنه.

من (صحيح مسلم ج٢ ص١٣٩)

مشهد من رجا أن يستشهد وأن يمثل به فتم له ما أراد

روى البغوى أن إسحاق بن سعد بن أبى وقاص قال :

حدثنى أبى سعد أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد:

ألا تأتى فندعو؟

قال فخلونا فى ناحية، فدعا سعد فقال :

يا رب إذا التـقينا اليـوم، فَلَقِّنِى رجلا شـديدا حَرَدُهُ، أقـاتله فيك، ثم ارزقنى الظـفر عليه، حتى أقتله وآخذ سلبه.

قال سعد : فأمن عبد الله بن جحش .

ثم قال عبد الله :

اللهم ارزقنى رجلاً شديداً حـرده، أقاتله فيك، حتى يأخذنى، فـيجدع أنفى وأذنى،

---

(١) بخ، بخ: كلمة تقال عند الرضى بالشىء ، وتكرر للمبالغة.

فإذا لقيتك، قلت هذا فيك وفى رسولك صلى الله عليه وسلم فتقول صدقت.

قال سعد :

فكانت دعوة عبد الله خيراً من دعـوتى، فلقد رأيته آخر النهار، وإن أنفه وأذنه لمعلق فى خيط.

دفن هو وحمزة رضى الله عنهما فى قبر واحد، وكـان عمر عبد الله عند استشهاده نيفا وأربعين سنة.

من(الإصابة ج٢ ص٢٧٨)

مشهد شيخين من الصحابة رغبا فى الشهادة ففازا بها

قال ابن إسحاق:

لما خـرج النبى صلى الله عـليه وسلـم إلى أُحُد رفع حسـيل بن جـابر (المعـروف باليمـان والد حذيفـة) هو وثابت بن وقش إلى الآطَام مع النساء لكبـرهما وضـعفهـما فقالا:

إنه لم يبق من آجالنا إلا ظِمْءُ حمار (أىْ مِقْدَار مَا بَيْنَ الوِرْدَيْنِ).

فنزلا ليحضرا الحرب، فجاء طريقهما على ناحية المشركين.

فأما ثابت فقتله المشركون.

وأما اليـمان فـقتله المسلمـون خطأ، وتصدق حذيفـة بدية أبيه على المسلـمين، ولـم يعاتب أحداً منهم لظهور العذر فى ذلك.

من (تاريخ ابن الأثير حوادث السنة الثالثة)

وروى البخارى هذه القصة من طريق هشـام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

لَمَّا كـان يوم أحد هُزم المشـركون، فصـاح إبليس أى عبـاد الله أخراكم، فـرجعت أولاهم، فاجتلدت هى وأخراهم، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيـه اليمان فقال : أى عباد الله أبى، أبى، فو الله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة غفر الله لكم .

قال عروة :

فما زالت فى حذيفة منه بقية خير، حتى لحق بالله.

من (الإصابة ج .. ص٣٣٠)

وحذيفة رضى الله عنه معروف بين الصحابة بأنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما سئل : أى الفتن أشد؟ أجاب قائلا:

أن يُعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيهما تركب .

إن عدد الصحابة الذين رجوا أن يرزقهم الله الشهادة فنالوها عدد كبير جدا، فمن شاء أن يعرف أسماءهم ويطلع على أحوالهم تلك، فليطلبها فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه، وفى الفتوحات الإسلامية الأولى .

مشهد قاض قاد جيش المسلمين فانتصر ثم استشهد

كان زيادة الله بن الأغلب قلد أسد بن الفرات قاضى القيروان أن يغزو صقلية، فركب إليها البحر من سوسة - فى حديث طويل - فزحف إليه (بلاطة) ملك صقلية، قيل : فى نحو مائة وخمسين ألفا .

قال ابن أبى الفضل :

لما زحفوا علينا رأيت أسد بن الفرات فى يده اللواء وهو يزمزم (يعنى يتلو ويدعو) فحملوا علينا، فكانت فينا روعة شديدة، وأقبل أسد على قراءة يس، فلما فرغ منها قال للناس:

(هَؤلاء عَجَم السواحل هؤلاء عبيدكم لاتهابوهم)

ومعنى قوله : عجم السواحل أى الذين هَرَبوا من الساحل لمّا فَتَحَ الله أفريقية على المسلمين .

ثم حمل أسد وحمل المسلمون معه، فهزم الله (بلاطة) وأصحابه، ولما انصرف أسد رأيت الدم وقد سال مع قناة اللواء ومع ذراعه، حتى صار تحت إبطه.

استشهد رحمه الله من جراحات شديدة أصابته، وكان عند وفاته محاصرا لسرقوسة فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائتين ودفن هناك.

من (معالم الإيمان ج١ ص١٥)

مشهد من كان يتمنى الشهادة ففاز بها

كان الأمير أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الهكارى سمحا، لطيفا، دينا ، ورعا، بارا بأهله، وبالفقراء والمساكين ، كثير الصدقات .

بنى بالقدس مدرسته للشافعية، ووقف عليها الأوقاف، وبنى مسجدا قريبا من الخليل عليه السلام عند يونس عليه السلام على قارعة الطريق وكان يتمنى الشهادة دائما ويقول:

ما أحسنَ وَقْعَ سيوفِ الكفّارِ على أَنْفِى وَوَجْهِى.

استشهد على الطور، وأبْلَى يومَ استشهاده بلاء حسنا، وكانت له المواقف المشهورة في قتال الإفرنج....

ولما مات شهيدا حُمِل إلى بيت المقدس فدفن هناك، وكانت وفاته - رحمه الله- سنة أربع عشرة وستمائة .

من (الوافى بالوفيات بتقديم وتأخير ج٤ ص٣٥٠)

مشهد من أحب أن تختم حياته بالجهاد

غزا أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم فى البحر مع أصحابه (فأصابه إسهال) .

فكان يختلف فى الخلاء فى الليلة التى مات فيها خمسا وعشرين مرة كل مرة يجدد الوضوء.

فلما أحس بالموت قال:

أوتروا لى قوسى .

ثم قبض عليها، وتوفى وهى فى كفه، فدفن فى جزيرة فى البحر فى بلاد الروم.

توفى - رحمه الله - سنة إحدى وستين ومائة.

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص٣١٨)

مشهد قاض تعلق بأستار الكعبة وسأل الله الشهادة فنالها

كان أبو الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضى قد سمع بالقيروان من عبد الله بن أبى زيد ومن أبى الحسن القابسى، وسمع بمكة ومصر والأندلس.

قال الحميدى أخبرنى أبو محمد على بن أحمد أن أبا الوليد بن الفرضى أخبره قائلا:

تعلقت بأستار الكعبة وسألت الله الشهادة ثم انحرفت وفكرت فى هول القتل فندمت، وهممت أن أرجع، فأستقيل الله ذلك فاستحييت.

قال أبو محمد فأخبرنى من رآه بين القتلى، فدنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف وهو فى آخر رمق منه .

(لا يُكْلَمُ أَحَدٌ فى سَبِيلِ اللَّه - وَاللَّه أَعْلَمْ بِمَنْ يُكْلَم فى سَبِيله - إلا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَة وَجَرْحه يَثْعَبَ دَماً ، اللَّوْن لَوْن الدَّمِ وَالرِيحِ رِيحُ المِسْك) كأنه يُعيد على نفسه الحَديثَ الوارد فى ذلك .

قال : ثم قضى نحبه على إثر ذلك،وهذا الحديث فى الصحيح أخرجه مسلم عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة.

قال الحميدى :

مات مقتولا فى الفتنة أيام دخول البرابرة قرطبة سنة أربعمائة .

من (جذوة المقتبس ص٢٣٨)

مشهد قاض أندلسي جاهد فاستشهد

كان القاضى أبو الربيع سليمان الحِمْيَرِىّ خطيبا مفوها، وكان هو المتكلم عن الملوك فى مجالسهم ، والمبين عنهم لما يريدونه على المنبر فى المحافل، ولِّىَ الخُطبة بالمسجد الجامع من بلنسية.

من مؤلفاته كتاب : (الاكتفاء بما تضمنه من مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء) فى أربعة مجلدات.

خرج مجاهدا فى واقعة (أنيشة) على ثلاثة فراسخ منها.

ولما انهزم بعض ما كانوا معه جعل يناديهم والراية بيده قائلا:

(أعَنِ الجَنَّة تَفرُّون ؟) وثبت - رحمه الله - إلى أن توفى مقبلاً غير مدبر ، وذلك ضحى يوم الخميس الموفى عشرين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة وهو ابن سبعين سنة إلا شهرا.

ورثاه أبو عبد الله بن الأبَّار فى قصيدة تزيد على مائة بيت ذكر منها أبو الحسن النباهى أربعة وستين بيتا منها :

سَقَى اللَّه أشْلاءً بسَفْحِ (أنيشة) سَوَافِحَ يُزجيهَا ثقَال الْغمَائم
وَصَلَّى عَلَيْهَا أنْفُسًا طَابَ ذكْرُهَا بطَيِّب أنْفَاسِ الريَاحِ النَّوَاسِمِ
لَقَدْ صَبَرُوا فيهَا كراماً وَصَابَرُوا فَلا غَرْوَ إنْ فَازوا بصَفْو الْمكَارم
وَمَا بَذَلوا إلاّ نفوساً نَفِيسَةً تَحِنّ إلَى الأخْرَى حَنينَ الرَّوَائم

رحمهم الله ورضى عنهم

من (المرقبة العليا ص١٩)

مشهد قاض مدرس مجاهد شهيد

كان القاضى محمد بن يحيى بن بكر الأشعرى من ذرية الصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، وكان ملازما أيام قضائه للإقراء مع التعليم، وربما نحا فى أحكامه أنحاء مصعب بن عمران أحد قضاة قرطبة، فكان لا يقلد مذهبا، ويقضى بما يراه صوابا، وإن قلنا إنه كان فى شدائد أحكامه أشبه علماء وقته بسحنون بن سعيد لم يكن فى ذلك ببعيد.

استمرعلى عمله من الاجتهاد والرغبة فى الجهاد إلى أن فُقد - رحمه الله - فى

مصاف المسلمين يوم المناجزة الكبرى بظاهر (طريف) شهيداً محرّضاً يشحذ البصائر، ويشير على الأمير أن يكثر من قول (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) وقد كشف دابته التى كان عليها راكبا، فنزل وهو رابط الجأش مجتمع القوى، وقال لمن أشار عليه بالركوب:

انصرف هذا يوم الفرح .

يشير - والله أعلم -إلى قول الله تعالى فى الشهداء :

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُم اللَّهُ مِنْ فَضْلِه) آل عمران - ١٧٠ .

ولقد ظفر رحمه الله بالفرحة الكبرى فى تلك المناجزة عام واحد وأربعين وسبعمائة.

من (المرقبة العليا ص١٤٦)

من أضواء مشاهد الشهادة:

تفضل الله سبحانه علينا فعرّفنا فى القرآن العظيم أن الشهداء أموات الأجسام، أحياء الأرواح ، إلا أن حياتهم ليست كالحياة المعروفة لدينا، وإنما هى حياة أخص من حياتنا الحاضرة، وأرقى منها وأكرم، ولقد وهب الله لأصحابها من مواهب التكريم ما ذكره فى قوله: ﴿وَلاَتَحْسَبَنَّ الذينَ قُتلوا فى سَبِيل اللَّه أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فرحِينَ بِمَا آتَاهمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا همْ يَحْزَنُونَ ﴾ آل عمران - ١٦٩ - ١٧٠ .

وروى أبو داود عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكمْ بِأُحُد جعل اللَّه أَرْوَاحَهمْ فِى أَجْوَاف طَيْر خُضْر تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّة، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِى إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَب فِى ظِل الْعَرْشِ .

فلما وجدوا طيب مطعمهم ورأوا حسن منقلبهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما أكرمنا الله به، وما نحن فيه، لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلُوا عند الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تبارك وتعالى :

﴿ وَ لاَ تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتلوا فِى سَبِيلِ اللَّه أَمْوَاتاً﴾ الى آخر الآيتين.

ولقد مَنَّ سبحانه على المؤمنين ففتح فى وجوههم باب الشهادة بقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُم الْجَنَّةَ يُقَاتلونَ فى سَبِيلِ اللَّه، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْه حَقًا فِى التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلِ وَالْقرآن وَمَنْ أَوفَى بِعَهْدِه مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة-١١٢ .

وروى أحمد وابن حبان والطيالسى عن عتبة بن عبدِ السُّلَمِى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

القتلى ثلاثة رجال:

رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله، حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل، فذلك الشهيد المفتخر (وفى لفظ الممتحن) فى خيمة الله تحت عرشه، لا يَفْضُلُهُ النبيون إلا بدرجة النبوة.

ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله، حتى إذا لقى العدو قاتل حتى يُقتل ، فتلك مصمصة (يعنى مغسلة) محت ذنوبه وخطاياه، إن السيف محاء الخطايا. وأدْخِلَ من أى أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أسفلَ من بعض.

ورجل منافق جاهد بنفسه وماله، حتى إذا لقى العدو قاتل فى سبيل الله حتى يُقتل، فإن ذلك فى النار، إن السيف لا يمحو النفاق .

وروى ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : ذُكر الشهداء عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

(لا تجف الأرض من دم الشهيد حى تبتدره زوجتاه كأنهما ظئران أضلتا فصيلهما فى براح من الأرض بيداء وفى يد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا وما فيها) .

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لا يُكْلَمُ أحد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يُكْلَمُ فى سبيله - إلا جاء كهيئته يوم القيامة، اللون لون دم، والريح ريح مسك) .

وروى البخارى أيضا عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(ما من نفسٍ تموت لها عند الله خيرٌ يسرها أن ترجع إلى الدنيا ولها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فيتمنى أن يرجع فيقتل مرة أخرى).

وروى مالك فى الموطأ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لولا أن أشق على أمتى لأحببت ألا أتخلف عن سرية تخرج فى سبيل الله ، ولكنى لا أجد ما أحملهم عليه، ولا يجدون ما يتحملون عليه فيخرجون، ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدى، فوددت أنى أقاتل فى سبيل الله فأقتل، ثم أحيا فأُقْتَل، ثم أحيا فأُقْتَل).

وروى عبد الله بن المبارك بسنده إلى الضحاك فى قوله تعالى :
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ البقرة - ٢١٦ .
أنه قال :

نزلت آية القتال فكرهوها، فلما بين الله عز وجل ثواب أهل القتال، وفضيلة أهل القتال، وما أعد الله لأهل القتال من الحياة والرزق لهم، لم يُؤْثِرْ أهل اليقين بذلك على الجهاد شيئا، فأحبوه، ورغبوا فيه ، حتى أنهم يستحملون النبى صلى الله عليه وسلم، فإذا لم يجد ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

ثم إن الشهادة ليست مقصورة على القتل فى ميدان الحرب لإعلاء كلمة الله، ولو أن ذلك القتل هو أعلى مراتب الشهادة، فقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أن الشهادة أوسع مدى من القتل فى سبيل الله، إذ روى مالك فى الموطأ عن جابر بن عتيك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(..... وَمَا تَعُدُّونَ الشهادَةَ؟)

قالوا : القتل فى سبيل الله .

فقال صلى الله عليه وسلم :

الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله، المطعون شهيد، والغَرِق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحَرِق شهيد، والذى يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيد (يعنى التى تموت فى النفاس) .

وروى أحمد عن عبد الله بن عَتِيك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(من وضع رجله فى ركابه فاصِلاً (خارجا للجهاد) فى سبيل الله فلدغته هامة، أو وقصته دابة، أو مات بأى حتف فهو شهيد).

ولما توفى عبد الله بن ثابت قالت ابنته : والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيدا، فإنك كنت قد قضيت جهازك (أى أتممت ما تحتاج إليه فى سفرك للغزو) وسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَه عَلَى قَدْرِ نِيَّته).

ثم إن الشهداء لهم مراتب متفاوِتَة الدرجات، يدل على هذا ما رواه أحمد وابن حبان عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل :

أيُّ الجهاد أفضلُ ؟
فقال : (مَنْ عُقِرَ جَوَادُه وأُهْرِيقَ دَمه).
وقال أهل العلم :
الأموات على أربعة أقسام :
١) قسم منهم شهيد عند الله وعند الأمة، أو هو ما يعرف بشهيد الدنيا والآخرة.
وهذا هو الذى قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، واستشهد أثناء القتال أو كان فى طريقه إليه.
أما أنه شهيد عند الله، فَلأن الله وعده بأنه سيكرمه بأعظم الكرامات، وينزله عنده أرفع المنازل .
وأما أنه شهيد عند الأمة فلأنه لا يُفعل به ما يُفعل بسائر الأموات، فلا يغسل ولا يكفن ، وإنما يدفن فى ثيابه التى استشهد فيها، ولا يصلى عليه، لأن الله بين أن الشهيد حى، ولا يصلى على الحى .
٢) وقسم شهيد عند الله لا عند الأمة، أو هو ما يعرف بشهيد الآخرة فقط. وأفراد هذا القسم كثيرون منهم من تضمنه الحديث المتقدم وهو الذى رواه مالك فى الموطأ بسنده إلى جابر بن عتيك.
أما كون أفراد هذا القسم شهداء عند الله فقط، فلأن الله سبحانه قد تكرم عليهم فألحقهم بالشهداء، كما بينت ذلك الأحاديث النبوية.
وأما كونهم ليسوا شهداء عند الأمة فلأن حكمهم فى الغسل والكفن والصلاة كحكم غير شهداء القتال .
٣) وقسم شهيد عند الأمة فقط وليس بشهيد عند الله، وهذا هو من يموت مقاتلا مع من يقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا، ولكن نيته فى قتاله هى الحمية القبلية أو المفاخرة أو الغنيمة أو أى شىء آخر غير إعلاء كلمة الله .
أما كونه شهيدا عند الأمة، فلأنها تعامله بظاهر حاله، فتسن به ما تسن بالشهداء، إذ هى لم تطلع على ما انطوت عليه نفسه.
وأما كونه ليس بشهيد عند الله فلأنه جعل لغير الله ما هو لله، وأمثال هذا هم أول من تسجر بهم جهنم كما ورد فى الحديث الصحيح.
٤) وقسم ليس بشهيد لا عند الله ولا عند الأمة وهو من لم يمت فى قتال لإعلاء كلمة الله ولا فى الأحوال الأخرى التى بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مشاهد المرتاحين لأحوالهم عند الموت

ورد فى الأثر أنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه، وهذا الأثر أخرجه وكيع فى الزهد من قول عبد الله بن مسعود.

قال السخاوى فى المقاصد الحسنة: رفعه بعضهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم واستشهد له بحديث عائشة رضى الله عنها: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّه أَحَبَّ اللَّه لِقَاءَه....) كما استشهد له آخر بقوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن قوله مستريح ومستراح منه : (العَبْدُ المؤْمِن يَسْتَرِيح مِنْ نَصَبِ الدّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّه....)

والمرتاحون إلى أحوالهم عند الموت كثيرون .

فمنهم من ارتاح إلى رحلة يؤمن بها وهو عاصم بن أبى النجود أحد القراء السبعة وشيخ حفص رضى الله عنهما .

روى أبو بكر بن عياش أحد الرواة عن عاصم أنه قال : دخلت على عاصم وقد احتُضر، فجعلت أسمعه يردد هذه الآية يُحققها حتى كأنه يصلى : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّه مَوْلاَهُمُ الحَقِّ أَلا لَهُ الحُكْمُ وَهوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾ (١)

من (غاية النهاية ج١ ص٣٤٨)

ومنهم من ارتاح إلى الفقر الذى يموت عليه وهو عبد الله بن عبد العزيز العمرى.

روى أبو يحيى الزهرى أن عبد الله العمرى قال عند موته: بنعمة ربى أحدث أنى لم أصبح أملك على الناس إلا سبعة دراهم ملكتها بيدى، وبنعمة ربى أحدث لو أن الدنيا أصبحت تحت قدمى لا يمنعنى من أخذها إلا أن أزيل قدمى عنها ما أزلتها.

من (الحلية ج٨ ص٢٨٣)

ومنهم من ارتاح إلى تعففه عن المال الحرام، وهو أبو الفرج محمد بن عبد الله البصرى.

نقل السيوطى عن ياقوت الحموى أن أبا الفرج تلقى العلم عن كثير من شيوخ بغداد والبصرة، وكان حسن المذاكرة، وله تصانيف حسان.

تولى قضاء البصرة، وتوفاه الله فى تاسع المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة.

وسُمع فى مرضه يقول : ما أخشى أن الله يحاسبنى أنى أخذت شيئا من وقف أو من مال يتيم.

من (بغية الوعاة ص٧٢)

---

(١) سورة الأنعام الآية ٦٢ .

ومنهم من ارتاح - في شوق - إلى لقاء الله، وهو أبو عبد الله الدُّكالى.

روى أبو عبد الله الأنصارى المعروف بالرَّصَّاع عن أبِى الحسن الحياتى أنه قال : دخلت مصر فوجدت الشيخ سيدى أبا عبد الله محمد الدُّكالى مريضا، فوقفت على موضعه، فاستأذنت فخرجت زوجته، ودخلت عليه فسألته عن حاله.

فقال لى : يا فقيه حالى حال من اشتاق إلى لقاء الله فى هذه الحالة.

قال أبو الحسن ثم خرجت، فأنا بالباب وإذا بالزوجة أدركتنى وقالت : يا سيدى، الشيخ - رحمه الله - قضى نحبه .

من (فهرست أبى عبد الله الرصاع ص٧٣)

ومنهم من ارتاحت إلى مفارقة الدنيا بعد أسفها على مفارقة العبادة، وهى معاذة العدوية التابعية، قالت عفيرة العابدة بلغنى أن معاذة العدوية لما حضرها الموت بكت ثم ضحكت.

فقيل لها: مم بكيت ثم ضحكت؟ فمم البكاء ومم الضحك؟

قالت أما البكاء الذى رأيتم ،فإنى ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر، فكان البكاء لذلك، وأما الذى رأيتم من تبسمى وضحكى ، فإنى نظرت إلى أبى الصهباء قد أقبل فى صحن الدار، وعليه حلتان خضراوان وهو فى نفر، والله ما رأيت لهم فى الدنيا شبها فضحكت إليه، ولا أرانى أدرك بعد ذلك فرضا.

فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة - رحمها الله.

أدركت معاذة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وروت عنها، وممن روى عن معاذة الحسن البصرى وأبو قلابة.

من (صفة الصفوة ج٤ ص٢٤)

مشاهد من ظهرت عليهم آيات التكريم

لم يزل الله حفيا بعباده المخلصين ﴿ الذينَ آمَنوا وكَانُوا يَتَّقونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الحَيَاة الدّنْيَا وَفِى الآخرَةِ﴾ (١) ﴿يُبَشّرهُمْ رَبّهُم بِرَحْمَةٍ منْه وَرِضْوَانٍ وَجَنَّات لَهُمْ فيهَا نَعيمٌ مُقيمٌ. خَالدينَ فِيهَا أَبَداً إنَّ اللَّه عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢)

---

(١) سورة يونس آيتا ٦٣ / ٦٤ .

(٢) سورة التوبة آيتا ٢١ / ٢٢ .

ولم يزل تكريم الله للمخلصين متناميا فى حياتهم حتى ساعة الاحتضار، فيدعوهم - بعد غربتهم فى هذه الدنيا - بقوله: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً .فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (١)

وتتجلى علامات التكريم الإلهى للمصطفين الأخيارفيما يختم الله به حياتهم على سبيل التنبيه والتعريف، وذلك إما بفيض من السرور الغامر، يبدو عليهم فى حركة لطيفة طيبة لم يعهدها الأحياء من الأموات، وإما بقول طافح بالبشر يُترجم عن الفوز بالرضا والقبول، وإما بومضات تتلألأ من نور عجيب يشهدها منهم بعض الناس من أصحاب البصائر النيرة، وإما بغير ذلك من المواهب والنفحات الدالة على التكريم الإلهى العظيم.

ومن أوائل من فازوا بآيات التكريم من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنْه) ثلاث مرات، وهو الصحابى الجليل جليبيب الثعلبى حليف الأنصار رضى الله عنه.

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مغزى له قال : هل تفقدون من أحد؟

قالوا: نفقد فلانا، ونفقد فلانا، ونفقد فلانا.

ثم قال : هَلْ تَفْقِدونَ مِنْ أَحَدٍ ؟

قالوا : نفقد فلانا، ونفقد فلانا.

ثم قال : هل تفقدون من أحد ؟

قالوا : لا .

قال : لكنى أفقد جليبيبا فاطلبوه فى القتلى .

فنظروا فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنه، أَقَتَلَ سَبْعَةً ثمّ قَتَلوهُ؟ هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنه، أَقَتَلَ سَبْعَةً ثمّ قَتَلوه؟ هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنه).

فوضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ساعديه، ثم حفروا له، ما له سرير إلا ساعدا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وضعه فى قبره .

من (صفة الصفوة ج١ ص٧٢٣)

---

(١) سورة الفجر آيات ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ .

ومنهم ربيع بن خراش رضى الله عنه:

روى أبو نعيم عن ربعى بن خراش أنه قال : كنا أربعة إخوة، وكان ربيع أخى أكثرنا صلاة، وأكثرنا صياما وأنه توفى، فبينا نحن حوله إذ كشف الثوب عن وجهه فقال : السلام عليكم، فقلنا : وعليكم السلام أبعد الموت؟ قال : نعم إنى لقيت ربى بعدكم، فلقيت ربا غير غضبان، فاستقبلنى بروح وريحان وإستبرق، ألا وإن أبا القاسم ينتظر الصلاةعلىَّ، فعجلوا بى ولا تؤخرونى، ثم طفى .

فنمى الحديث إلى عائشة رضى الله عنها ، فقالت : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يَتَكَلَّم رَجلٌ مِنْ أمَّتى بَعْدَ الْمَوْت) .

قال أبو نعيم : حديث مشهور، وأخرجه البيهقى فى الدلائلَ .

وقال: حديث صحيح لا شك فى صحته.

وأخرجه ابن أبى شيبة بنحو ما تقدم .

من (شرح الصدور ص ٣٠)

ومنهم الفضل بن عطية :

روى أبو بكر الشافعى فى الغيلانيات عن سلام بن سلام أنه قال :

زاملت الفضل بن عطية إلى مكة، فلما دخلنا من فيد أنبهنى فى جوف الليل، قلت: ما تشاء؟ قال : أريد أن أوصيك، قلت أنت صحيح، قال أُريت فى منامى ملكين، فقالا: إنَّا أمرنا بقبض روحك، فقلت: لو أخرتمانى إلى أن أقضى نسكى، فقالا: إن الله قد تقبل نسكك منك، ثم قال أحدهما للآخر : افتح اصبعيك السبابة والوسطى، فخرج من بينهما ثوبان ملأت خضرتهما بين السماء الأرض، فقالا: هذا كفنك من الجنة، ثم طواه وجعله بين إصبعيه.

قال سلام : فما وردنا المنزل حتى قبض- رحمه الله.

من (شرح الصدور ص ٣٢)

ومنهم مطرف بن عبد الله بن الشخير رضى الله عنهما:

روى ابن سعد عن ثابت البنانى أنه ورجلا آخر دخلا على مطرف بن عبد الله بن الشخير يعودانه، فوجداه مغمى عليه، قال : فسطعت منه ثلاثة أنوار : نور من رأسه، ونور من وسطه، ونور من رجليه، فهالنا ذلك، فلما أفاق قلنا له: لقد رأينا شيئا هالنا، قال: وما هو؟ فأخبرناه، قال : ورأيتم ذلك ؟ قلنا : نعم ، قال : تلك ألف لام ميم السجدة، وهى تسع وعشرون آية، سطع أولها من رأسى، وأوسطها من وسطى ، وآخرها من رجلى، وقد صعدت تشفع لى، وهذه تبارك تحرسنى، قال ثابت فمات -

رحمــه الله. (يعـــنى أن الـــســـورتـــين كـــان يـــقرؤهـــما كل ليـــلة).

من (-شرح الصدور ص٣٠)

ومنهم أبو محمد الجوينى والد إمام الحرمين :

نقل ابن خلكان عن أبى صالح المؤذن أن أبا محمد الجوينى مرض سبعة عشر يوما، وأوصانى أن أتولى غسله وتجهيزه.

فلما توفى غسلته، فلما لففته فى الكفن رأيت يده اليمنى إلى الإبط زهراء منيرة من غير سوء، وهى تتلألأ، تلألؤ القمر، فتحيرت وقلت فى نفسى هذه بركات فتاواه.

توفى أبو محـمد الجوينى بنيـسابور فى ذى القعـدة سنة ثمان وثلاثين وأربعـمائة - رحمه الله.

من (وفيات الأعيان ج٣ ص٤٧)

ومنهم أبو إسحاق السبائى القيروانى:

قال أبو الحسن القابسى : لما احتضـر أبو إسحاق رأى من حضره نورا دخل من باب البيت، فـدار فى البيت حـتى أتى وجهه، ثم زال عن وجـهه، ومـر على صدره، ثم إلى رجليه، ثم خرج من البيت .

فقبض الشيخ - رحمه الله، وكانت وفاته لثمان بقين من رجب سنة ست وخمسين وثلاثمائة ومولده سنة سبعين ومائتين .

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٧٥)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن المنكدر:

قال صفـوان بن سليم: أنه أتى إلى محمد بن المنكدر وهو فى (سيـاق)الموت، فقال له : يا أبا عبد الله كـأنى أراك قد شق عليك الموت، فما زال يهـون عليه الأمر، وينجلى عن محمد، حتى أن وجهه لكأنه المصابيح.

ثم قال له محمد : لو ترى ما أنا فيه لقرت عينك .

ثم قُضى - رحمه الله.

من (الحلية ج٣ ص١٤٧)

ومنهم أبو الوقت :

قال ابن الجوزى : كان أبو الوقت صالحا، كثيـر الذكر، قال أبو عبد الله: لما احتضر أسندته إلىّ، فكان آخر كلمة قالها : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ .بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (١)

من (رسالة الثبات عند الممات ص ٦٣)

---

(١) سورة يس آيتا ٢٦ - ٢٧ .

ومنهم أبو الحسن على بن أبى بكر العرشانى:

كان فى مرض موته يصلى قائما وقاعدا، وعلى جنبه، ولما صار فى النزع سمعوه يقول : لبيك لبيك .

فقالوا: من تعنى ؟ وفى رواية: من تجيب ؟

فقال : الله دعانى، ارفعونى إلى ربى ، ثم توفى عقب ذلك - رحمه الله- وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وخمسمائة .

من (جامع الكرامات ج٢ ص١٦٠)

و(طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٢)

ومنهم أبو على حسن الغلاّس :

قال محمد بن العباس لما اشتد الأمر بحسن الغلاّس طلب ماء فشرب، وقال : لقد أعطانى ما يتنافس فيه المتنافسون.

من (رسالة الثبات عند الممات ص٦١)

ومنهم الحسن البصرى

قال ابن خلكان : أغمى على الحسن البصرى عند موته، ثم أفاق فقال :

لقد نبهتمونى من جنات وعيون ومقام كريم .

توفى - رحمه الله - بالبصرة عشية الخميس، مستهل رجب سنة عشر ومائة، وحمل إلى مثواه بعد صلاة الجمعة.

من (وفيات الأعيان ج٢ ص٧٢)

ومنهم أبو بكر محمد بن الحسن النقاش الموصلى :

روى ابن الجزرى عن أبى الحسن بن الفضل القطان أنه قال : حضرت النقاش وهو يجود بنفسه فى ثالث شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، فجعل يحرك شفتيه، ثم نادى بعلو صوته :

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾(١)

يرددها ثلاثا ثم خرجت نفسه - رحمه الله .

من (غاية النهاية ج٢ ص١٢١)

ومنهم أبو بكر بن مسلم الحضرمى:

لما احتضر أبو بكر ابتدأ القرآن فانتهى فى سورة طه إلى قول الله تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ (٢)

---

(١) سورة الصافات الآية ٦١ .

(٢) سورة طه الآية ٨٤ .

ففاضت نفسه رحمه الله، وذلك سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٢٧١)

ومنهم أبو حفص عمربن عبد الله المعروف بابن الإمام الصدفى

لما احتُضر أبو حفص دعا بشراب فأُتى به .

فقال : قد سقيت وشُفيت، وأُرْوِيت.

ثم أومأ بيده إلى السلام.

فقلنا : رأيت الملائكة ؟

قال : رأيت ..

وجعل يومئ بيده حتى فاضت نفسه.

وقال بعضهم : لما حضرت أبا حفص الوفاة قال : بُشِّرْت.

قلت : بماذا ؟

قال : أما تقرأ: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ...... ﴾(١)

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٥١)

ومنهم رجل أسود يدعى مقبلا:

قال أبو بكر العابر: سافرت إلى مكة فى جماعة من الصوفية ، فلما بلغوا ذاتَ عِرْقٍ لَبَّوْا ، ولبسوا ثياب الإحرام، وكان فيهم عبد أسود سكيت، فلم يلب ذلك اليومَ مع الناس، فقال له شيخ لنا متقدم علينا:من شرط الحج التلبية، وأنت ما لبيت.

فقال : أقول لبيك، ولم يقل لى يامقبل؟ إذا قال لى يا مقبل قلت لبيك.

فلما كان فى غد صلى بنا الشيخ الفجر، وسمعنا مقبلا يقول : لبيك اللهم لبيك، ثم وقع ميتا، فقلنا : قدَ دعاه مولاه، وواريناه رحمه الله.

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص١٦٧)

ومنهم الحكم بن المطلب القرشى المخزومى:

كان من أجواد قريش من أهل المدينة، وكان من أبر الناس بأبيه قال قبيل موته: هذا ملك الموت يقول : إنِّى بِكلِّ سَخِيٍّ رفيق .

ومات عقب كلامه هذا.

من (الوافى بالوفيات ج١٣ ص١٢٣)

---

(١) سورة التوبة الآية ٢١ .

ومنهم أبو القاسم إسماعيل بن محمد الحافظ المعروف بجوجى:

كان إماما فى التفسير والحديث والأدب والورع والزهد، قال أحمد الأسوارى الذى تولى غسله، وكان ثقة : إنه أراد أن ينحى عن سوأته الخرقة، فجذبها الشيخ إسماعيل من يده وغطى بها فرجه.

فقال الغاسل : أحياة بعد الموت ؟

توفى - رحمه الله - سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

من (الوافى بالوفيات ج٩ ص٢٠٩)

ومنهم أبو مدين شعيب :

اسمه محمد بن أحمد بن عمران العياشى اليمانى، غلب عليه لقبه شعيب، فصار لا يعرف إلا به.

لما توفى وحُمل إلى المقبرة إذا بمؤذن يؤذن لوقت من أوقات الصلاة وإذا بالفقيه ثقل على الذين يحملونه ثقلا خارجا عن الحد حتى عجزوا عن القيام به، فوضعوا السرير حتى فرغ المؤذن وحركوه فوجدوه خفيفا كما كان ، فحملوه وساروا به إلى القبر وهم متعجبون من ذلك، فقال لهم بعض أصحابه، كان الفقيه متى سمع المؤذن قام على قدميه، وجعل يجاوبه حتى يفرغ.

من (جامع الكرامات ج١ ص١١٧)

ومنهم الشيخ إبراهيم السعدى:

أصله من قرية من أعمال (جنين) فى رأس جبل صغير اسمها (المزار) لأن فيها قبر أحد أجداده، وجميع أهلها من السلالة السعدية.

وكان له زوجة فى قرية (زرعين) الواقعة فى أسفل الجبل الذى عليه قرية (المزار)

فذهب إلى زرعين من جنين فى تلك الأيام، فمرض وتوفى إلى رحمة الله تعالى، فجاء خبر وفاته إلى جنين، وبينها وبين زرعين نحو ساعتين، قال الشيخ يوسف النبهانى ركبت مع جماعة وذهبنا لنحضُر جنازته فوجدنا كثيرا من أهالى القرى المجاورة هناك يقصدون ما قصدنا من التبرك بحضور جنازته.

وبعد غسله والصلاة عليه وحمله فى النعش أراد أهل قريته (المزار) أن يأخذوه إلى قريتهم ليدفنوه عند أجداده، فامتنع أهل (زرعين) من ذلك ، وأرادوا دفنه عندهم للتبرك بقبره، ووقع الخلاف بين أهل هاتين القريتين.

ثم حصل الاتفاق على دفنه فى قرية (المزار) فحمله الرجال وأرادوا التوجه به إلى

(المزار) فثقل عليهم النعش ولـم يطعهم، وتكاثروا عليـه يشدون به إلى تلك الجـهة، وهو يغلبـهم، بحيث يقع بعـضهم على الأرض، ثم يجـتهـدون فيـغلبهم مـرة أخرى، وهكذا وقع ذلك مرارا.

وفى آخر الأمر غلبهم غلبة قوية، بحيـث لم يستطيعوا رده بوجه من الوجوه، وسار بهم جَبْراً قَـهْراً عنهم بسرعة شديدة، وهم تابعـوه إلى أن وصل إلى مكان خارج القرية على حافة الطريق، فنزل فيه بدون اختيـارهم، وليس هناك مقبرة، فاتفقوا على دفنه فى المكان الذى استقر منه فيه النعش، وهكذا كان، فحفروا له ذلك المكان، ودفنوه فيه.

قـال النبهـانى: وهذه الأمور شـاهدتها بعـينى مع جـميع ذلك الجـمع العظيم، ولا يحتمل ذلك التصنع ممن حملوا النعش لأن غلبـته إياهم كانت ظاهرة لا تحتمل التأويل بوجه من الوجوه.

من (جامع الكرامات ج١ ص٢٥٠)

مشهد من مات وعليه دين ونظرة الإسلام إلى الإستدانة

للمال عند الـله حرمة عظيـمة، فقـد قال سبـحانه : ﴿لاَ تَأْكُلُـوا أَمْـوَالَكُمْ بَيْـنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[1] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[2] وقال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[3]

وقـال الرسول صلى الله عليـه وسلم - فى خطبـته التى ألقـاها بحجـة الوداع وهو يوصى الأمة قبل وفاته بثلاثة أشهر:

(إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ).

والإنسـان قد تضطره الحـياة إلى التـداين، وكان مـن لطف الله بعبـاده أن أباح لهم التدايـن، ولكن على أساس قـيام المدين بقـضاء كل ما عليـه، وعلى أن يعمـل بحرص شديد على أداء الدين فى أقرب وقت .

فـإذا يسر الله أمـره ولـم يبـادر إلى أداء ما عـليه كـان - فى مماطلتـه - ظالما للدائن، وأصبح هدفا للنيل من كرامته، ولاستحقاق العقاب الدنيوى مع ما سيناله فى الآخرة.

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَطْلُ الغَنِىِّ ظُلْمٌ)

---

(١) سورة النساء ٢٩ .

(٢) سورة البقرة ٢٨٢ .

(٣) سورة الأنفال ٢٨ .

وروى البخارى أيضاً عن الشريد بن سويد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلّ عِرْضَه وَعُقُوبَتَه) .

وكـان النبى صلى الله عليه وسـلم يحذر من التـداين إلا فى حالة الضـرورة، وفى أضيق الحدود، فقد روى الديلمى عن عائشة رضى الله عنها أنه قال :

(الدَّيْنُ هَمٌّ بِاللَّيْلِ وَمَذَلَّةٌ بِالنَّهار) (١)

وروى أبو عبد الله الحاكم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(الدَّينُ رَايَةُ الله فِي الأرضِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُذِلَّ عَبْداً وَضَعَهَا فِي عُنُقِه).

وروى البيهقى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أَقِلَّ مِنَ الذّنوبِ يَهُنْ عَلَيْكَ المَوْتُ، وَأَقِلَّ مِنَ الدَّيْنِ تَعِشْ حراً).

وروى أبو عبـد الله الحاكم عن أبى سعـيد الخدرى أن النبى صلـى الله عليه وسلم قال :

(أعوذُ بِاللَّهِ مِنَ الكُفْرِ وَالدَّيْنِ)

فقال رجل : يا رسول الله أَتَعْدِلُ الكُفْرَ بِالدَّيْنِ ؟ قال : (نعم) .

وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ قُضِيَ مَنْ حَسَنَاته، لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ)

وروى أبو داود عن أبى مـوسى الأشعـرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال :

(إِنَّ أَعْظَمَ الذّنوبِ عِنْدَ اللَّه أَنْ يَلْقَاه بِهَا عَبْدٌ - بَعْدَ الكَبَائِرِ التِي نَهَى اللَّه عَنْهَا - أَنْ يَمُوتَ رَجُلٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ لاَ يَدَعُ لَه قَضَاءً)

ولـم يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على التحذير من عواقب التداين بأقواله، بل شدد التنفيـر منه بأفعاله، فقد روى الطبرانى عـن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال:

---

(١) يطيل التفكير فى أداء ما عليه بالليل، وقد يتواري من دائنه أن يتجرع مطالبته بالنهار.

كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فأُتى برجل يصلِّى عليه فقال صلى الله عليه وسلم:
(هَلْ عَلَى صَاحبكُمْ دَيْنٌ ؟) قالوا: نعم، قال :
(فَمَا يَنْفَعكُم أَنْ أُصلِّيَ عَلَى رَجلٍ روحه مرتَهن فى قَبْره، لا يَصْعَدُ روحه إِلَى السَّمَاء، فَلَوْضَمنَ رَجُلٌ دَيْنَه قُمْتُ فَصَلَّيْتُ عَلَيْه، فَإِنَّ صَلَاتى تَنْفَعُهُ) .
وروى أحمد وأبو داود والحاكم وابن حبان والدارقطنى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال : توفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاه وكَفَّنَّاه وَحَنَّطْنَاه ثمَّ أَتَيْنَا به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليصَلِّيَ عَلَيْه، فَقلْنَا: تصَلّى عَلَيْه، فَخَطَا خطْوَةً ثمَّ قال :
(أَعَلَيْه دَيْنٌ؟) قلنا: ديناران، فانصرف، فتحملهما أبو قتادة، فأتيناه، فقال أبو قتادة: الديناران عليّ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(قَدْ أَوْفَى اللَّهُ حَقَّ الغَرِيمِ، وَبَرِئَ منْهُمَا الْمَيِّت ؟)
قال أبو قتادة: نعم، فصلى عليه، ثم قال بعد ذلك بيومين:
(مَا فَعَلَ الدينَارَان؟)
قال أبو قتادة : إنما مات أمس، قال جابر فعاد إليه من الغد فقال : قد قضيتهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(الآنَ بَرَّدْتَ جلْدَتَه).
وروى الطبرانى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(أَهَاهنا أَحَدٌ منْ بَنى فلان؟ إنْ صَاحبَكمْ حُبسَ عنْدَ بَابِ الْجَنَّة بدَيْنٍ كَانَ عَلَيْه، فإنْ شئْتُمْ فَافْدوه، وإنْ شئْتُمْ فَأَسْلمُوه إِلَى عَذَاب اللَّه)
وروى أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(نَفْسُ الْمؤْمنِ مُعَلَّقَةٌ بدَيْنه حَتَّى يُقْضَى عَنْه)
وروى الطبرانى عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
(صَاحبُ الدَّيْنِ مَأْسورٌ بدَيْنه فى قَبْرِه يَشْكو إِلَى اللَّه الْوحْدَةَ).
ومن أجل ما يلقى المدين عند موته من عقاب معجل تقرر فى شريعة الإسلام أن أول ما يؤخذ من تركة الميت - بعد تجهيزه من التركة بلا إسراف - هو أن يقضى ما عليه من ديون، وذلك قبل تنفيذ وصيته، وقبل قسمة التركة على ورثته، ولو كانوا أطفالا وصغارا.

روى أحمد عن سعيد بن الأطول أنه قال : مات أبونا وترك ثلاثمائة درهم وعيالا ودنيا، فأردت أن أنفق على عياله فقال صلى الله عليه وسلم :

(إنَّ أبَاكَ مَحْبوسٌ بِدَيْنه فَاقْضِ عَنْه).

ومما تقرر في الإسلام أن الناس إذا ماتوا كانوا على درجات متفاوتة، وتفاوت درجاتهم هناك أعظم من تفاوتها هنا، فقد قال سبحانه : ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾[1]

ومن المعلوم أن أكمل الدرجات وأرقاها هي درجات الشهداء بعد مراتب الأنبياء والصديقين،ومع ما للشهداء من أعظم المنازل فإن المدين منهم لا يسعد بمقامه إلا بعد قضاء الدين الذى عليه.

روى النسائى والحاكم والطبرانى عن محمد بن جحش رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قِبَلَ السماء، ثم خفض بصره، فوضع يده على جبهته، فقال :

(سبْحَانَ اللَّه، سبْحَانَ اللَّه، مَاذَا أنْزلَ منَ التَّشْديد؟)

قال فعرفنا وسكتنا، حتى إذا كان الغد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: ما التَّشْديد الذى نَزَلَ؟ قال فى الدَّين :

(وَالذى نَفْسى بيَده لَوْ قُتلَ رَجُلٌ فى سَبِيلِ اللَّه ثمَّ عَاشَ، ثمَّ قُتلَ ثمَّ عاش ثم قتل وَعَلَيْه دَيْن مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى دَيْنُهُ).

وروى أحمد عن محمد بن جحش رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : مَا لِى إن قُتلتُ فى سَبِيلِ اللَّه؟ قال : (الجنة). فلما ولى قال صلى الله عليه وسلم :

(إلا الدَّيْنَ، سَارَّنى به جبْرِيلُ آنفاً).

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(يُغْفَرُ للشَّهيد كلُّ ذَنْب إلاَّ الدَّيْنَ) .

وروى الطبرانى والحاكم عن سهل بن حنيف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أوَّلَ مَا يُهْرَاقُ منْ دَمِ الشَّهِيدِ يُغْفَرُ لَه ذَنْبهُ كله إلاَّ الدَّيْنَ)

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢١ .

ومن تبعات الدين الذى لا يقضى أنه يحول بين المدّين وبين أجره عن العمل الصالح، فقد روى الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ قَرَأَ كلَّ يَوْمٍ مِائَتَى مَرَّةٍ قل هُوَ اللَّه أَحَدٌ، مُحِيَ عَنْه ذنوب خَمْسِينَ سَنَةً إلا أَنْ يكونَ عَلَيْه دَيْنٌ).

وكان مِن دعائه صلى الله عليه وسلم :

(.... وأَعوذ بكَ مِنْ غَلَبَة الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الْعَدُوّ)

جزاه الله أفضلَ ما جزى نَبيا عن قومه ورسولا عن أمته على ما حذّر وعرّف وعلّم وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

مشهد من تحرج عند وفاته من الدين الذى عليه

روى البخارى عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه أنه قال : جعل الزبير يوم الجمل يوصينى بدينه ويقول : إِنْ عَجَزْتَ عَنْ شَىء منه فَاسْتَعِنْ عليه بِمَوْلاىَ فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت يا أبى من مولاك؟ قال : الله.

قال عبد الله: ما وقعت فى كُربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه فيقضيه، وإنما دينه الذى كان عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه، فيقول الزبير: لا ، ولكنه سلف ، فإنى أخشى عليه الضيعة، قال: فحسبت ما عليه من الدين، فوجدته ألفى ألف ومائتى ألف، فقتل، ولم يدع ديناراً ولا درهما إلا أرضين، فبعتهما، يعنى وقضيت دينه. فقال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، فقلت : والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين : ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه.

فجعل كل سنة ينادى بالموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم .

مشهد من تحرج بعد وفاته من الدين الذى عليه

مما يؤثر عن أبى العباس أحمد بن إبراهيم السروجى قاضى قضاة الحنفية بالقاهرة ومصر أنه كان له درج يكتب فيه جميع ما عليه من الدين، فاتفق أنه لما مات أوفوا ما عليه، فجاء شخص وقال : لى عليه مائتا درهم، فنظروا فى الدرج فلم يجدوا شيئا، فقالوا له: ما كتب لك شيئا.

فرآه بعض الفقهاء فى النوم وهو يقول : أعطوا فلانا مائتى درهم، فإن له علىّ ذلك.

فقال له : لِمَ لَمْ تَكْتُبْهَا فى الدرج؟

فقال: هى مكتوبة بخط دقيق.

فأصبح وطلب الدرج، فوجدوه كما قال ، فأعطوا المائتى درهم للطالب.

توفى رحمه الله يوم الخميس ثانى عشر شهر رجب سنة عشر وسبعمائة (١)

مشاهد من استشهدوا لثباتهم على الحق

فى طليعة هؤلاء السيدة سمية بنت خباط، كانت رضى الله عنها مولاة لأبى حذيفة ابن المغيرة المخزومى، ولما أسلمت كانت سابعة سبعة سبقوا إلى الإسلام، فعذبها أبو جهل، وطعنها فى قُبُلِهَا فماتت، وكانت أول شهيدة فى الإسلام رحمها الله ورضى عنها. (٢)

إن استشهاد الثابتين على الإسلام كانت تفيض بخبره الأيام فى مختلف الأقاليم، وعلى مدى المسيرة الراسخة لهذا الدين، فى أحوال الحرب، وفى أيام السلم.

مع اتساع ميدان الاستشهاد فى الثبات على الإسلام، رأينا ميدانا آخر قد انفتح لمن استشهدوا من أجل تمسكهم بمذهب أهل السنة والجماعة كالشيخين الجليلين أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الضبى المعروف بابن البرذون ورفيقه أبى بكر بن هذيل.

كان أبو إسحاق من شيوخ السنة المعروفين بالذّبّ عن مذهب الإمام مالك، ولم يكن فى نشأة القيروان أقوى على الحجة والمناظرة منه.

وكان أبو بكر بن هذيل على مثل طريقته، فرفع أمرهما إلى أبى عبد الله الشيعى أولأخيه أبى العباس، وذُكر أن من أمرهما أنهما يطعنان فى دولة الشيعة، فصدر الأمر بحبس ابن البرذون وابن هذيل .

ثم أمر عامل القيروان حسن بن أبى خنزير بضرب ابن هذيل خمسمائة سوط، وبضرب رقبة ابن البرذون، فغلط ابن أبى خنزير، فضرب ابن البرذون، وقتل ابن هذيل. ثم تنبه من الغد فقتل ابن البرذون.

ولما جُرِّد إبراهيم بن البرذون ليقتل ، قال له حسن بن أبى خنزير: ترجع عن مذهبك؟

فقال له : أعَنِ الإسلام تَسْتَتِيبُنِى ؟

فقتل ، ثم ربطت أجسامهما بالحبال، وجرتهما البغال، مكشوفين بالقيروان، وصلبا نحو ثلاثة أيام، ثم أنزلا ودفنا.

وكانت الحادثة سنة تسع وتسعين ومائتين. (٣)

---

(١) كتاب المقفى الكبير ج١ ص٣٤٩ .

(٢) الإصابة ج٤ ص٣٣٤ .

(٣) ترتيب المدارك باختصار ج ٥ ص١١٨ .

وذكر الدباغ فى معالم الإيمان أن جر الشيخين كان على وجوههما من باب تونس إلى باب أبى الربيع فصلبا هناك .

كما نقل الدباغ عن المالكى بسنده أن عبيد الله لما وصل إلى رقادة أرسل إلى القيروان من أتاه بابن البرذون وابن هذيل، فلما وصلا إليه وجداه على سرير ملكه جالسا، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعى، وعن يساره أبو العباس أخوه، فلما وقفا بين يديه قال لهما أبو عبد الله وأبو العباس: اشهدا أن هذا رسول الله ، وأشارا إلى عبيد الله .

فقالا جميعا بلفظ واحد :

والله الذى لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان أنه رسول الله ما قلنا إنه رسول الله.

فأمر عبيد الله بعقابهما على نحو ما تقدم. (١)

كما ذكر أبو عبد الله الخشنى قصة جلدهما وقتلهما. ووصف ابن البرذون بأنه كان تلميذا لسعيد بن الحداد، وكان ذا بأس شديد، وأبهة نبيلة، وكان شديد التحكك بالعراقيين (٢).

وممن استشهدوا فى هذه السبيل أبو جعفر محمد بن خيرون المعافرى الأندلسى القيروانى .

قال الشيخ أبو الحسن القابسى رضى الله عنه : ذكر لى من أثق به أنه كان جالسا عند ابن أبى خنزير - لعنه الله - فى سقيفته، حتى دخل عليه شيخ ذو هيئة جميلة، وقد علاه صُفار وسمت وخشوع، وعلى رأسه منديل مهلبى، فلما رآه ابن خنزير بكى ، فقال له :

ما الذى أبكاك ؟

قال : السلطان - يعنى عبيد الله - وجه إلى يأمرنى أن آمر بدوس هذا الشيخ حتى يموت، وهو ابن خيرون.

---

(١) معالم الإيمان ج٢ ص ١٧٨ .

(٢) قضاة قرطبة وعلماء أفريقية ص٢٨١ .

ثم أُمر به فأُدخل إلى المجلس، ثم بُطح على ظهره، وطلع السودان فوق السرير، فقفزوا عليه بأرجلهم حتى مات .

ولما مات أخذوه وحملوه على بغل وألقوه فى حفير.

كان ذلك لجهاده فى الدين ، وبغضه لعبيد الله وجنده، وكان الذى عمل عليه وسعى به هو المروذى لعنة الله عليه. (١)

وممن مضى فى هذه السبيل الشيخ محمد بن إسحاق الحبلى قاضى مدينة برقة رحمه الله .

كان سبب استشهاده أنه أتاه عامل برقة المعروف بابن كافى فقال له :

إن غدا العيد .

فقال القاضى : إن رُئى الهلال الليلة كان كما قلت، وإن لم يُر لا أخرج، لأنه لا يمكننى أن أفطر الناس يوما من رمضان، وأتقلد ذنوب الخلق.

فقال له بهذا وصل كتاب مولاى .

فالتمس الناس الهلال فى تلك الليلة فلم يروه، فأصبح العامل إلى القاضى بالطبول، والبنود، وهيئة العيد.

فقال له : لا والله لا أخرج، ولا أخطب ولا أصلى العيد ولا أتقلد أن أفطر الناس يوما من رمضان ولو عُلقت بيدى.

فمضى العامل، فجعل من خطب وصلى ، وكتب بما جرى إلى مولاه- فى القيروان - فلما وصل إليه الخبر أمر برفعه إليه، فلما وصل قال له : إما أن تتنصل وأعفو عنك، وإلا فعلت بك ما قلت .

فامتنع من الدخول فى دعوته، وقال له : اعمل ما شئت .

فنصب له صاريا عند الباب الأخير من أبواب الجامع الذى يلى درب المهدى، وعُلق بيده إليه فى الشمس، فأقام كذلك ضاحيا للشمس فى شدة الحر يومه ذلك، فلما كان بالعشى مات - رحمه الله.

وكان يطلب من يسقيه الماء فى ذلك الحال، فلا يجسر أحد من الناس أن يسقيه لشدة خوفهم.

---

(٢) رياض النفوس ج٢ ص٥٥ وكان محمد بن عمر المروذى معتقدا لمذهب الشيعة، فلما دخل الشيعى القيروان بادر إليه، ودخل فى دعوته ولزمه، فولاه قضاء أفريقية فتصلب وأخاف أهل السنة.

فلما مات أخذوه ومضوا به فصلبوه على خشبة بباب أبى الربيع رحمه الله. [1]

وذكر الدباغ أن الخليفة الذى جرت محنة هذا القاضى على يديه، هو إسماعيل المنصور بن القائم سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

مشاهد المجادلين لقاتليهم

لا تخلو حياة الناس من الجدل والمراجعة، فلقد كان الجدل وما يزال من طبيعة الحياة، والله عز شأنه يقول : ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [2]

غير أن المرء قد يشهد فى مسيرة الحياة أنواعا غريبة من الجدل قد تعنف أحيانا، حتى تتحول إلى مصارعة بين طرفين قويين : طرف قوى بنفوذه وسلطانه، وطرف قوى برسوخ إيمانه.

روى أبو نعيم أن الحجاج بن يوسف لما أتى بسعيد بن جبير التابعى المعروف قال له: أنت الشقى بن كُسير ؟

قال: بل أنا سعيد بن جبير.

قال الحجاج: بل أنت الشقى بن كُسير.

قال سعيد : كانت أمى أعرف منك باسمى.

قال : ما تقول فى محمد ؟

قال : تعنى النبى صلى الله عليه وسلم ؟

قال : نعم .

قال : سيد ولد آدم، النبى المصطفى ، خير من بقى وخير من مضى .

قال : فما تقول فى أبى بكر ؟

قال : الصديق خليفة رسول الله مضى حميدا وعاش سعيدا، مضى على منهاج نبيه صلى الله عليه وسلم لم يغير ولم يبدل .

قال : فما تقول فى عمر ؟

قال: عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله مضى حميدا على منهاج صاحبه لم يغير ولم يبدل.

قال : فما تقول فى عثمان ؟

---

(١) رياض النفوس ج٢ ص٤٠٤ .

(٢) سورة الكهف آية ٥٤ .

قال: المقتـول ظلما، المجهز جيش العسـرة، الحافر بئر رومة، المشتـرى بيته فى الجنة، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه، زوجه النبى بوحى السماء .

قال : فما تقول فى علىّ ؟

قال: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج فاطمة وأبو الحسن والحسين.

قال : فما تقول فى معاوية ؟

قال: شغلتنى نفسى عن تصريف هذه الأمة وتمييز أعمالها .

قال : فما تقول فىّ ؟

قال : أنت أعلم بنفسك .

قال : بُثَّ بعلمك.

قال : إذاً يسوؤك ولا يسرك.

قال :بُثَّ بعلمك .

قال : أعفنى .

قال : لاعفا الله عنى إن أعفيتك .

قال : إنى لأعلم أنك مـخالف لكتاب الله تـعالى ، ترى من نفسك أمـورا تريد بها الهيبة وهى تقحمك الهلكة، وسترد غدا فتعلم .

قال : أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك ولا أقتلها أحدا بعدك .

قال : إذن تفسد علىّ دنياى وأفسد عليك آخرتك.

قال : يا غلام، السيف والنطع.

قال الحسن البصرى : فلما ولى سعيد ضحك.

قال الحجاج : أليس قد بلغنى أنك لم تضحك ؟

قال سعيد : وقد كان ذلك.

قال الحجاج : فما أضحكك عند القتل ؟

قال : من جراءتك على الله، ومن حِلْمِ الله عنك.

قال الحجاج : يا غلام اقتله .

فاستقبل سعيد القبلة وقال : ﴿وَجَّهْتُ وَجهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً ومَـا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1]

فصرف وجهه عن القبلة، فقال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [2]

---

(١) الأنعام - ٧٩ . (٢) البقرة - ١١٥ .

قال الحجاج للغلام : اضرب به الأرض.

قال سعيد : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١)

قال الحجاج : اذبح عدو الله، فما أنزعه لآيات القرآن.(٢)

وقال إسماعيل بن واسط دعانى خالد بن عبد الله القسرى وهو يومئذ أمير على مكة، فقال : يا ابن واسط انطلق بهذا الرجل (سَعِيد بن جُبَيْر) إلى الحجاج بن يوسف، فإن عبد الملك بن مروان بعث إلى أن أبعث به إلى الحجاج.

قال : فخرج إلى سعيد بن جبر وهو أحسن الناس وجها وأفصحهم لسانا، له وفرة إلى شحمة أذنيه، لم أر فى مثل هيئته وتشميره أحدا من أهل زماننا.

قال : فأخذته ووثقته فى الحديد، وانطلقت به حتى نزلت ماءً لبنى أسد .

فقال لى يا ابن واسط، بهذا الماء جماعة من قومى فإن رأيت أن تطلق عنى هذا الحديد فعلت، فأطلقت عنه حديده فانطلق.

فقال لك الله على أن أرجع إليك، فانطلق ، فجعلت أدعو الله أقول: اللهم لا يرجع إلى، ويحك يا نفس تذهبين بخير الناس إلى شر الناس، فوالله ما لبث إلا قليلا حتى عاد، فتركته مطلقا من حديده، حتى دنونا قريبا من واسط، فلما نظر إلى الخضراء قال :يا ابن واسط ما هذه الخضراء ؟ قال: قلت: قبة الحجاج، فاسترجع فقال : (ما أظن الموت إلا قد أتى) قلت: أو يدفع الله .

قال إسماعيل فأدخلته على الحجاج وقد أوثقته قبل ذلك بالحديد، فلما نظر إليه الحجاج استوى جالسا، وكان متكئا، وقال إيهًا عدو الله، خرجت علينا مع عبد الرحمن بن الأشعث.

قال سعيد: ما فعلت، ولكن أتيت بيت الله الحرام الذى من دخله كان آمنا، فأُخذت وأنا متعلق بأستار الكعبة .

قال الحجاج : ما اسمك ؟

قال : اسمى سعيد بن جبير

قال الحجاج: الشقى بن كسير ؟

قال سعيد : أمى أعلم باسمى .

---

(١) طه - ٥٥ . (٢) الحلية ج٤ ص٢٩٤ .

قال الحجاج : شَقيتَ وَشَقيَتْ أمّك.

قال سعيد : الغيب يعلمه غيرك .

قال الحجاج : لأوردنك حياض الموت .

قال سعيد : أصابت أمى اسمى حقا.

قال الحجاج : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى .

قال سعيد : لو علمت أن ذلك لك لاتخذتك إلها، لا إله إلا الله.

قال الحجاج : يا سعيد ما علمك بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟

قال سعيد : نبى ختم الله به الرسل وصدق به الوحى ، إمام الهدى ونبى الرحمة صلى الله عليه وسلم عليه وعلى أهل بيته.

قال الحجاج : يا سعيد ما قولك فى الخلفاء ؟

قال سعيد : إنما استحفظت أمرَ بَنىَّ ، وخيرهم أرضاهم لخالقه .

قال الحجاج : يا سعيد أى رجل أنا ؟

قال سعيد : يا حجاج يوم القيامة تخبر أى رجل أنت ،إذا وقفت بين يديه تبارك وتعالى، ثم سئلت عن عملك.

قال الحجاج : فأى رجل أنت ؟

قال سعيد : أنا أهون على الله من أن أطلع على غيبه.

قال الحجاج : يا سعيد مالك لم تضحك قط ؟

قال سعيد : وكيف يضحك رجل مخلوق من طين، والطين تأكله النار، ولا يدرى إلى ما يصير، إلى جنة أو إلى نار، فإن كان مصيره إلى الجنة فقد فاز، وإن كان مصيره إلى النار فقد خسر خسرانا مبينا، ثم هو يوم القيامة يحاسب.

قال الحجاج : يا سعيد أما رأيت لهواً قط؟

قال سعيد : ما أعلمه، فدعا الحجاج بالعود والناى فضرب بين يديه بهما، فلما سمع سعيد الناى بكى بكاء شديداً ثم قال يا حجاج والله ما شبع بطنى أبدا ما بقيت، ولا أزال هكذا لما رأيت فى مجلسك هذا، أما هذه النافخة فذكرتنى قول الله عز

وجل : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ (١)

وقوله ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾(٢)

وأما هذه الأوتار فقطعت من نفس، ثم هي يوم القيامة تُبعث معك ، وأما هذه الخشبة فنبات أرض قطعت من غير الحق، ذكرتني يا حجاج بكاء طويلا.

قال الحجاج : يا سعيد ما قولك فى على بن أبى طالب أفى الجنة هو أم فى النار؟

قال سعيد : لو أدخلت الجنة وفيها أهلها والنار وفيها أهلها لعلمت يا حجاج، فما سؤالك عن علم الغيب يا حجاج؟ وقد حجب عنك وقد امتحن الله قلبك بالإيمان.

قال الحجاج : الويل لك منى يا سعيد .

قال سعيد : الويل لمن أبعد عن الجنة وأدخل النار .

قال الحجاج : إنى قاتلك .

قال سعيد : إذاً أخاصمك .

قال الحجاج : أَخْصُمُكَ (يعنى أعلو عليك فى الخصام).

قال سعيد : هَيْهَاتَ يا حجاج، القضاء يومئذ إلى غيرك، وقد فرغ الله من أمرى ، وكَتَبَ أجلى ، ومنقطع أثرى .

قال إسماعيل بن واسط فأمر بقتله .

فقال سعيد : أستودعك هذه الشهادة يا حجاج، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أستودعك هذه الشهادة حتى ألقاك فأخاصمك بين يدى الله، فأمر به الحجاج إلى القتل ، فجعل سعيد يضحك، قالوا أصلح الله الأمير قد ضحك. قال: ردوه فسأله : ما أضحكك يا سعيد ؟

قال سعيد : يا حجاج ضحكت من العجب .

قال : وما ذلك العجب ؟

قال : عجبت من تجرئك على الله وحلمه عنك، فإن تكن عافية فمن الله، وإياه أسأل تمام العافية، وأما أنت يا حجاج فلا براءة لك ولا عذر، فلو طالت حياتى لكان مصيرى يوما إلى الفناء، فاذكر يا حجاج يوم الأبد، والدهر الفانى الذى لا ينجو منه أحد سالما.

---

(١) الزمر - ٦٨ .

(٢) النمل - ٨٧ .

قال الحجاج : اضربوا عنقه .

قال سالم بن أبى حفصة لما قال الحجاج اضربوا عنقه قال : دعنى أصلى ركعتين.

قال الحجاج : ولّوه قبلة النصارى .

قال سعيد : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّه ﴾.

ثم قال الحجاج : ياغلام قمْ إليه فاضرب به الأرض ضربة ثم اعلُ على صدره لتذبحه، فلما وضع السيف على حلقه قال باسم الله وعلى ملة الله وملة رسوله.

فقال خلف بن خليفة أخبرنى بواب الحجاج أن رأس سعيد بن جبير لما وقع على الأرض سمعته يقول لا إله إلا الله (١)

وكان قتل الحجاج لسعيد سنة خمس وتسعين وعمره ست وأربعون سنة .

وقال ابن ذكوان :

إن الحجاج بن يوسف بعث إلى سعيد بن جبير ، فأصابه الرسول بمكة فلما سار به ثلاثة أيام رآه يصوم نهاره ويقوم ليله، فقال الرسول - وقد رَقّ له - والله إنى لأعلم أنى أذهب بك إلى من يقتلك، فاذهب إلى أى طريق شئت .

فقال سعيد : أنه سيبلغ الحجاج أنك قد أخذتنى، فإن خليت عنى خفت أن يقتلك، ولكن اذهب بى إليه، فذهب به، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك .. إلى آخر ما تقدم (٢)

وروى الطبرى : أن عبد الرحمن بن الأشعث لما انهزم بدير الجماجم، ودخل الحجاج الكوفة أجلس مَصْقَلة بن كرب العبدى إلى جنبه، وكان مصقلة خطيبا، فقال له: اشتم كل امرئ بما فيه ممن كنا أحسنا إليه، فاشتمه بقلة شكره، ولؤم عهده، ومن علَمتَ منه عيبا فعبه بما فيه ، وصغر إليه نفسه ، وكان لا يبايعه ،أحد إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال : نعم بايعه وإلا قتله .

فجاء إليه رجل من خثعم قد كان معتزلاً للناس جميعا من وراء الفرات فسأله عن حاله،فقال : ما زلت معتزلا وراء هذه النطفة، منتظرا أمر الناس حتى ظهرت، فأتيت لأبايعك مع الناس .

قال الحجاج : أمتربص؟ أتشهد أنك كافر ؟ قال : بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة، ثم أشهد على نفسى بالكفر.

---

(١) كتاب المحن ص ٢١٦ .

(٢) صفة الصفوة ج٣ ص٨٣ .

قال الحجاج : إذا أقتلك .

قال : وإن قتلتنى فوالله ما بقى من عمرى إلا ظِمْء حِمارٍ[1] وإنى لأنتظر الموت صباح مساء.

قال الحجاج : اضربوا عنقه .

قال الطبرى : فزعموا أنه لم يبق حوله قرشى ولا شامى ولا أحد من الحزبين إلا رحمه ورق له من القتل[2]

ونقل ابن خلكان عن القاضى أبى الفرج المعافى أنه قال :

كانت امرأة من الخوارج يقال لها فراشة، وكانت ذات نية فى رأى الخوارج تجهز أصحاب البصائر، ولم يُظفر بها .

وكان الحجاج يدعو الله أن يمكنه منها أو من بعض من جهزته فراشة، فمكث ما شاء الله، ثم جئ له برجل فقيل له: هذا ممن جهزته فراشة، فخر ساجدا، ثم رفع رأسه.

فقال : يا عدو الله.

قال : أنت أولى بها يا حجاج.

قال : أين فراشة ؟

قال : مرت تطير منذ ثلاث .

قال : أين تطير ؟

قال : بين السماء والأرض .

قال : أعن تلك سألتك عليك لعنة الله ؟

قال : عن تلك أخبرتك عليك غضب الله .

قال : سألتك عن المرأة التى جهزتك وأصحابك .

قال : وما تصنع بها ؟

قال :أضرب عنقها .

قال : ويلك يا حجاج ما أجهلك، أدلك وأنت عدو الله على من هو ولى الله؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين .

قال : فما رأيك فى أمير المؤمنين عبد الملك؟

قال : على ذلك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين.

---

(١) ما بين شربة وشربة .

(٢) تاريخ الطبرى ج٦ ص٣٦٤ .

قال : ولمَ لا، أمَّ لك ؟

قال : إنه أخطأ خطيئة طبقت ما بين السماء والأرض.

قال : وما هى ؟

قال : استعماله إياك على رقاب المسلمين.

فقال لجلسائه : ما رأيكم فيه ؟

قالوا : نرى أن تقتله قتلة لم يُقْتل مثلها أحد.

قال : ويحك يا حجاج، جلساء أخيك أحسن مجالسة من جلسائك .

قال : وأىَّ أخوَىّ تريد ؟

قال : فرعون حين شاور فى موسى فقالوا : أرجه وأخاه، وأشار هؤلاء بقتلى.

قال : فهل جمعت القرآن .

قال : ما كان مُفَرَّقاً فأجْمَعَه.

قال : أقرأته ظاهراً ؟

قال: معاذ الله، بل قرأته وأنا أنظر إليه.

قال : فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك ؟

قال : ألقاه بعملى، وتلقاه بدمى .

قال : إذن أعجلك إلى النار .

قال : لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك، واتقيت عذابك، ولم أبغ خلافك ومناقضتك.

قال : إنى قاتلك.

قال : إذن أخاصمك، لأن الحكم يومئذ إلى غيرك.

قال : نقمعك عن الكلام السيىء.

ثم قال: يا حرسىٌّ اضرب عنقه، وأومأ إلى السياف ألا تقتله؟

فجعل السياف يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف.

فلما طال ذلك رشح جبينه.

قال الحجاج: جزعت عن الموت يا عدو الله؟

قال : لا يا فاسق، ولكن أبطأت علىّ بما فيه راحة.

قال : يا حرسىٌّ أوجب جرحه .

فلما أحس بالسيف قال: لا إله إلا الله .

والله لقد أتمها ورأسه فى الأرض[1]

ولما أسرت أم علقمة الخارجية وأتى بها الحجاج ، وكان قد وقع بينها وبين الحجاج حروب شديدة فقال لها : يا عدوة الله تخبطين الناس من سيفك خبط العشواء.

فقالت: ويحك أعلى تبرق وترعد، لقد خِفْت الله خوفا صيرك فى عينى أصغر من ذباب.

وكانت منكسة، فقال :

ارفعى رأسك وانظرى إلىّ

قالت :

أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه .

فقال :

يا أهل الشام، ما تقولون فى دمها؟

فقالوا جميعا:

حلال، اقتلها أيها الأمير.

فقالت :

ويحك كان جلساء أخيك فرعون خيرا من جلسائك حيث استشارهم فى موسى وهارون فقالوا أرجه وأخاه، وهؤلاء الفسقة أمروا بقتلى .

فأمر بها الحجاج فقتلت [2]

ونقل ابن خلكان عن القاضى أبى الفرج المعافى أن الحجاج لما حمل له الأسرى وهو حينئذ بواسط القصب قبل أن يبنى مدينة واسط قال لحاجبه : قدم إلىّ سيدهم فيروز بن حصين .

فقال له الحجاج : أبا عثمان، ما أخرجك مع هؤلاء ؟

قال : فتنة عمت الناس .

فقال : اكتب لى أموالك.

قال : ثم ماذا ؟

قال : اكتبها أولا.

قال : ثم أنا آمن على دمى ؟

---

(١) وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٧ .

(٢) الكشكول ج٣ ص١٠٥ .

قال : اكتبها ثم انظر .

قال فيروز : اكتب يا غلام ألف ألفى ألف حتى ذكر مالا كثيرا.

فقال الحجاج : أين هى ؟ وعند من هى ؟

قال : لا والله لا جمعت بين مالى ودمى .

فأمر الحجاج به فعذب بأنواع العذاب، وكان من جملة ما عذب به أن يشد عليه القصب الفارسى المشقوق ثم يجر حتى يجرح جسده، ثم ينضح عليه الخل والملح، فلما أحس بالموت قال : إن الناس لا تَشُكُّنَّ أنى قتلت، ولى ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبدا، فأظهرونى للناس ليعلموا أنى حى فيؤدوا المال فأخرج، فصاح فى الناس : من عرفنى فقد عرفنى أنا فيروز، إن لى عند أقوام مالا فمن كان لى عنده شىء فهو له، وهو منه فى حل، فلا يؤدى أحد منه درهما، ليبلغ الشاهد الغائب .

فأمر به الحجاج عندئذ فقتل [1]

كان (أَيْلَبَا) مملوكا لطغتكين، وكان فى خدمة شمس الملوك، فاتفق أن خرج شمس الملوك إلى (صيد نايا) يتصيد ، وكانت سيرته قد ساءت ، وانفرد شمس الملوك ، فضربه أيلبا بالسيف ضربة هائلة، فانقلب السيف فى يده، ورمى شمس الملوك بنفسه إلى الأرض، فضربه أخرى، فوقعت فى عنق الفرس، فأتلفه وحال بينهما الفرس وانهزم أيلبا.

وعاد شمس الملوك سالما إلى دمشق، وسار الغلمان فى طلب أيلبا فقاتلهم، وظفروا به.

فلما جاءوا به إليه قال له :

ما الذى حملك على هذا ؟

قال : لم أفعله إلا تقربا إلى الله تعالى لأريح المسلمين منك، لأنك قد ظلمت المساكين وضعفاء الناس، وإن معى فلانا وفلانا ، وكلنا قد اتفقنا عليك.

فجمع المتهومين، وقتل الكل صبرا، وأول من قتل أيلبا ولم يكفه قتل المتهومين حتى اتهم أخاه (سونج) فتركه فى بيت وسد عليه الباب فمات جوعا، وذلك سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وسونج هو ابن بورى أبى طغتكين [2]

---

(١) وفيات الأعيان ج٢ ص٣٨ .

(٢) الوافى بالوفيات ج١٠ ص٢٥ .

مشاهد من قتلتهم أقوالهم

كَمْ فى المقابر مِنْ قَتِيل لسانه ... كانتْ تَهَاب لقاءَه الأقرانُ

من الناس من أحسنوا القـول، فلم يلق قولهم إلا الغضـب العاصف ممن يستمـعون القول، فـلا يتبعون أحـسنه، فيتعـرضون بما قالوا إلى الرفض العنيـد، والبطش الشديد، كما لقى السحرة من قسوة فرعون ما لقوا لما أعلنوا عن إيمانهم برب العالمين.

وإن بطون التاريخ مملوءة بأمثال هؤلاء.

فى أيام العبيديين بالقيـروان دخل محمـد بن موسى التمـار فى جماعـة من رجال القيروان على عبيد الله فى سلام عيد ، فـاندفع محمد يصف سوء حالة الرعية وما نزل بهم من ظلم العمال .

فوقع ذلك من عبـيد الله موقع الكراهية ، واتصل خـبر ذلك بمن أسماهم، فـعقدوا عليه شهادة عنـد صاحب الخبر ، ورفعها على يد مـحمد بن أحمد البغـدادى إلى عبيد الله.

فأمر بضربه مائتى سوط، فضرب ضربا معنتا، فمات رحمه الله من ذلك [1]

ومن الناس من انفلتت منهم كلمات، لم يقدروا نتائجها، فتسببت فى قتلهم، مع أن كلماتهم ليست مما يبيح الله بها دماءهم .

قال أحمد بن إبراهيم الهاشمى :

لما عفـا أبو العباس السفـاح عن سليمان بن هشـام بن عبد الملك وعن ابنيـه، قربهم وأدناهم، وباسطهم حتى كـانوا يسمرون عنده بالليل، وكان سليـمان إذا دخل ثنيت له وسادة، وكذلك لابنيه، وربما طرحت لهم نمارق، ونصبت لهم كراسى .

فبينما هم عنده ذات ليلة أو ذات يوم، إذ دخل إليه أبو غسان الحاجب، فقال يا أمير المؤمنين بالباب رجل مُلَثّم أناخ راحلته وقال :

استأذن لى على أمير المؤمنين، فقلت له : ضع عنك ثياب سفرك، فقال:

لا أحط رحلى ولا أسفر عِمّتى حتى أنظر إلى وجه أمير المؤمنين.

فقال أبو العباس: سله منَ هو؟

قال أبو غسان: قد فعلت، فذكر أنه سُديف مولاك.

فقال أبو العباس: سديف، سديف، ائذن له.

فدخل رجل أحم طويل يتثنى، عليه مِمْطَر خز، ومعـه محجن يتوكأ عليه، فلما نظر

---

(١) قضاة قرطبة وعلماء أفريقية ص ٣٠١ .

إلى أبى العباس أسفر عن وجهه، ثم سلم ودنا، وقبّل يده، ثم انصرف إلى خلفه، فقام مقام مثله، وأنشده:

أصبح المُلْكُ ثابتَ الأسَاسِ ... بالبهاليل من بنى العبّاس
لا تُقيلَنَّ عبدَ شمسٍ عثارا ... واقْطَعَنْ كُلَّ رَقْلَة وغِرَاس[1]
ولقد ساءنى وساءَ سِوَائى ... قُرْبهم من نَمَارِق وكراسى
أنْزِلُوها بحيث أنزلَها اللـ ... ـهُ بدار الهَوَانِ والإتْعَاس
وأذكُروا مَصْرَعَ الحُسَين وزَيْد ... وقتيلا بجانب المِهْرَاس
والقتيلَ الذى بحَرَّانَ أمْسَى ... ثَاوياً بين غُرْبَة وتَنَاسى
نِعْمَ شِبلُ الهِرَاش مولاك لولا ... أَوَدٌ مِنَ حبائل الإفلاس

فقام سليمان بن هشام فقال:

(يا أمير المؤمنين إن مولاك هذا مثل بين يديك يبعثك على قتلى وقتل ابنىّ، ويحدوك على طلب ثأرك منا، وقد بلغنى أنك تريد اغتيالى).

فقال أبو العباس:

والله ما كان عزمى أن أقتلك، ولا أن أسىء بك، ولا أطالب بشىء مما طالبت به أهل بيتك، فأماً إذ وقع فى خَلَدِك أنى أغتالك، فيا جاهل من يحول بينى وبينك، وبين قتلك حتى أغتالك؟

ثم أمر بقتله، وقتل ابنيه.

فقال سليمان لقاتله أبى الجهم:

إنك قد أمرت بأمر لا بد لك من إنفاذه، وحاجتى إليك أن تقدم ابنى (فتقتلهما قبلى) حتى أحتسبهما.

ففعل أبو الجهم.

وخرج سُديف وقد وصله أبو العباس بخمسة آلاف دينار، وهو يقول: قد قرت العينان، واشتفت النفس، فلله الحمد والشكر[2].

وممن لم يقدر نتائج كلماته فأودت بحياته، الربيع بن يونس، فقد كانت له جارية، يقال لها أَمَةُ العزيز، وكانت فائقة الجمال، ناهدة الثديين، حسنة القوام، فأهداها إلى

(١) الرقلة هى النخلة الطويلة.

(٢) المحاسن والمساوئ ص ٣٨١ .

المهدى، فلما رأى المهدى جمالها وهيئتها قال: هذه لموسى الهادى أصلح، فوهبها له، فكانت أحب الخلق إليه، وولدت له بنيه الأكابر.

ثم إن بعض أعداء الربيع بن يونس قال لموسى أنه سمع الربيع يقول: ما وضعت بينى وبين الأرض مثل أمة العزيز.

فغار موسى من ذلك غيرة شديدة، وحلف ليقتلّن الربيع.

فلما استُخلف دعا الربيع فى بعض الأيام فتغدى معه وأكرمه، وناوله كأساً فيها شراب عسل.

قال ابن القدّاح: فقال الربيع: فعلمت أن نفسى فيها، وأنى إن رددت الكأس ضرب عنقى، مع ما قد علمت أن فى قلبه علىّ من دخولى على أمه، وما بلغه عنى، ولم يسمع منى عذرا، فشربتها.

قال: وانصرف الربيع إلى منزله، فجمع ولده، وقال لهم: إنى ميت فى يومى هذا أو من غد، فقال له ولده الفضل : ولِمَ تقول هذا جُعلت فداك؟

قالَ: إن موسى سقانى شربة سم بيده، فأنا أجِد عملها فى بدنى.

ثم أوصى بما أراد، ومات فى يومه أو من غده، ثم تزوج الرشيد أمة العزيزبعد موت موسى الهادى، فأولدها على ابن الرشيد.

كانت وفاة الربيع بعد ولاية موسى الهادى بأشهر، وأوذن بموته، فلم يحضر جنازته، وصلى عليه هارون الرشيد، وهو يومئذ ولى عهده، وذلك سنة تسع وستين ومائة (١)

مشاهد المعتذرين لقاتليهم

كم سرَّت مباهج الحياة أناساً، ثم انقلبت أفراحهم فجأة إلى أتراح، وعندصفو الليالى يحدث الكدر.

وَانْظُـرْ إِلَى هـذَا الأَنَام بعبْرَة ... لاَ يُعْجبَـنَّك حُسْنُهُ وَرُوَاؤُهُ
بيْنَاهُ كَالرَّوْضِ النَّضِيرتَقَضَّبَتْ ... أَغْصَانُهُ وَتَسَلَّبَتْ شَجْرَاؤُهُ

وكم سجّلت الأيام فى دورانها من حوادث الانتقام :

وبَعْضُ انْتِقَامِ المرء يُرْدى بعقْله ... وَإِنْ لَمْ يَقَعِ إِلاَّ بِأَهْلِ الجَرَائِمِ

نقل ابن خلكان محاورة المَنصور لأبِى مسلم الخراسانى فقال:

---

(١) تاريخ الطبرى ج٨ ص ٢٢٨ .

رتب المنصور جماعة يقفون وراء السرير الذى خلف أبى مسلم، فإذا عاتبه لا يظهرون، وإذا ضرب يدا على يد ظهروا وضُرب عنقه.

جلس المنصور ودخل عليه أبو مسلم فسلم، فرد عليه، وأذن له فى الجلوس، وحادثه ثم عاتبه، وقال فعلت وفعلت.

فقال أبو مسلم: ما يقال هذا لى بعد سعيى واجتهادى وما كان منى (يعنى من قيامه بالدعوة لبنى العباس، وعمله على تقويض دولة بنى أمية).

فقال له المنصور: يا ابن الخبيثة إنما فعلت ذلك بجَدِّنا وحظنا (يعنى بحب الناس لنا، وميلهم إلينا لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولو كان مكانك أمة سوداء لعملت ما عملت.ثم قال له (مبيناً بعض أسباب نقمته عليه): ألست الكاتب إلى فتبدأ بنفسك قبلى؟ ألست الكاتب تخطب عمتى آسية وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله بن العباس؟ لقد ارتقيت - لا أُمَّ لك - مرتقى صعباً.

فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها، ويعتذر إليه.

فقال له المنصور وهو آخر كلامه: قتلنى الله إن لم أقتلك.

ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى، فخرج إليه القوم وخبطوه بسيوفهم، والمنصور يصيح: اضربوا قطع الله أيديكم.

وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة: استبقينى يا أمير المؤمنين لعدوك.

فقال: لا أبقانى الله إذن، وأى عدو أعدى منك؟

ولما قتله المنصور أدرجه فى بساط، فدخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور: ما تقول فى أمر أبى مسلم؟

فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل، ثم اقتل، ثم اقتل.

فقال المنصور: وفقك الله، ها هو فى البساط، فلما نظر إليه قتيلا قال: يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك، فأنشد المنصور:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى　　　كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالإِيَابِ المُسَافِرُ

كان قتل أبى مسلم يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة.

من (وفيات الأعيان ج٣ ص ١٥٣)

ونقل ابن خلكان عن (مروج الذهب) للمسعودى أن عبد الحميد بن يحيى الكاتب كان كاتبا لمروان آخر ملوك بنى أمية، ولما أيقن مروان بزوال ملكه قال له: قد احتجت

أن تصير مع عدوى، وتظهر الغدر بى، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابك يحوجهم إلى حسن الظن بك.

فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمِى بعد وفاتى.

فقال له عبدالحميد: إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك، وأقبحهما بى، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى أو أقتل معك، وأنشد:

أُسِرُّ وَفَاءً ثُمَّ أُظهِرُ غــــدْرَةً فَمَنْ لِى بِعُذْرٍ يُوسِعُ الناسَ ظَاهِرِ

كما نقل ابن خلكان عن (كتاب الوزراء) للجهشيارى أن عبد الحميد الكاتب لما طلبه أبو جعفر المنصور - عند قيام دولة بنى العباس - كان مع صديقه ابن المقفع فى بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفا من أن ينال صاحبه مكروه، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال: ترفقوا بنا، فإن كلاً منا له علامات، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى البعض الآخر، ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم، ففعلوا، ثم أُخذَ عبد الحميد.

كما نقل ابن خلكان عن محمد اليزيدى أن أبا جعفر المنصور أُتِى بعبد الحميد الكاتب - بعد قتل مروان بن محمد - فقال عبد الحميد:

استبقنى يا أمير المؤمنين.

قال المنصور: وما عندك؟

قال: أنا أبلَغُ أهلِ زمانى فى الكتابة.

فقال له المنصور: أنت الذى فعلت بنا الأفاعيل، وعملت بنا الدواهى.

فأمر به فقطعت يداه ورجلاه، ثم ضرب عنقه.

ونقل ابن خلكان أيضاً أن المنصور دفع عبد الحميد إلى الجبار بن عبدالرحمن صاحب شرطة المنصور، فكان يحمى له طستا بالنار، ويضعه على رأسه حتى مات.

ثمّ عقّب ابن خلكان على الحالتين قائلاً: والله أعلم أى ذلك كان.

من (وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٢٨)

وأقول:

إذا كان القصد إنهاء حياته للتخلُّص من وجوده فما الفائدة من التعذيب، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالإحسان فى قتل الحيوان المؤذى وبالإحسان فى ذبح مأكول اللحم فقال:

(إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) رواه مسلم عن شداد بن أوس رضى الله عنه.

فإذا وجب هذا فى الحيوان فكيف الأمر فى الإنسان؟ ألا إنها الغفلة المطبقة عن قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ سورة الزلزلة.

وهذا أبو الحسن على بن جبلة الشاعر الضرير المعروف بالعكَّوك كان قد مدح أبا دُلَف العِجْلى بقصيدة فلما بلغ المأمون خبر القصيدة غضب غضباً شديداً وقال:

اطلبوه حيثما كان وأتونى به.

فطلبوه فلم يقدروا عليه لأنه كان مقيماً بالجبل، فلما اتصل به الخبر هرب إلى الجزيرة الفراتية، وقد كانوا كتبوا إلى الآفاق أن يؤخذ حيثما كان، فهرب من الجزيرة حتى توسط الشامات فظفروا به، فأخذوه، وحملوه مقيدا إلى المأمون.

فلما صار بين يديه قال له:

يا ابن اللخناء أنت القائل فى قصيدتك للقاسم بن عيسى أبى دلف:

كُلُّ مَنْ فِى الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه والافتخار به.

قال العكَّوك: يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاس بكم، لأن الله اختصكم لنفسه عن عباده، وآتاكم الكتاب والحكمة، وآتاكم ملكا عظيماً، وإنما ذهبت فى قولى إلى أقران وأشكال القاسم بن عيسى من هذا الناس.

فقال المأمون: والله ما أبقيت أحداً، ولقد أدخلتنا فى الكل، وما أستحل دمك بكلمتك هذه، ولكنى أستحله بكفرك فى شعرك حيث قلت فى عبد ذليل مَهِين فأشركت بالله العظيم، وجعلت معه مالكاً قادرا وهو قولك:

أَنتَ الَّذِى تُنْزِلُ الأَيَّامَ مَنْزِلَهَا ... وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ
وَمَا مَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إِلَى أَحَدٍ ... إِلا قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ

ذاك الله عز وجل يفعله، ثم قال:

أخرجوا لسانه من قفاه.

فأخرجوا لسانه من قفاه فمات، وكان ذلك ببغداد سنة ثلاث عشرة ومائتين عن أربع وخمسين سنة.

قال الجاحظ:

كان العكُّوك أحسن خلق الله إنشاداً، ما رأيت مثله بدوياً ولا حضرياً.

من (وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٨)

مشاهد من صلوا ركعتين عند قتلهم

لا أحرج للعبد من لحظات الموت، ولا أقرب إلى المؤمن من ربه، ولا أشرف من أن يتوجه إليه بالصلاة وفى الصلاة، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاَةِ﴾[1] ثم ألم يكن من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة، وفى رواية أنه إذا حز به أمر صلى.[2]

من أجل ذلك كان الذين يقدمون إلى القتل يرغب بعضهم فى تلك الساعة أن يتوجهوا إلى الله بالصلاة راغبين وراهبين.

فمن هؤلاء خبيب بن عدى الأنصارى الأوسى:

وكان من أمره رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه إلى المشركين عينا فوقع بأيدى المشركين أسيراً، ولما عزموا على قتله خرجوا به من مكة حتى جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه، فقال لهم:

إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال:

أما والله لو لا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة.

ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال:

اللهم إنّا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال:

اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا.

ثم قتلوه، فكان خبيب بن عدى رضى الله عنه أول من سن هاتين الركعتين للمسلمين عند القتل.

من (حياة الصحابة ج١ ص ٧٨٤)

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٥ .

(٢) روى ذلك أحمد وأبو داود عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

ومن هؤلاء إبراهيم بن ميمون الخراسى الصائغ:

كان إبراهيم - رحمه الله - من القانتين، وكان إذا رفع المطرقة وسمع النداء تركها وورد الصلاة.

ولما أمر أبو مسلم الخراسانى بقتله قال: دعونى أصلى ركعتين، وقال: اللهم إن كان العمل الذى عملته غير رضا فاجعل هذا القتل كفارة.

قال يحيى بن معين تولى قتله رجل لم يحسن القتل، فبقى يومه ذلك يتشحط فى دمه، وكان قتله - رحمه الله - سنة إحدى وثلاثين ومائة.

من (كتاب المحن ص ٢٧٥)

ومنهم أبو سعيد خلف بن مسعود الرعينى :

وكان من أمره أنه لما ثارت الفتنة بقرطبة، وقاموا على البرابر أول قيام المهدى اتصلت الثورة بالأندلس، فأغرى العامة به بعض أعدائه، فشدخوه بالحجارة.

وقيل أنه لما أرادوا قتله سألهم أن يمهلوه حتى يصلى ركعتين، فأمهلوه ثم أضجعوه وذبحوه، وطافوا برأسه- رحمه الله-وكان ذلك آخر سنة أربعمائة.

من (ترتيب المدارك ج٧ ص ١١١)

ومنهم أبو نصر محمد بن منصور عميد الملك الكندى:

وكان أبو نصر أول وزير لبنى سلجوق، استوزره طغر لبك، ولما توفى طغرلبك وقام بالمملكة من بعده ابن أخيه ألب أرسلان عزله لسبب يطول شرحه وولى مكانه الوزير نظام الملك فحبسه بنيسابور، ثم نقل إلى مرو الروذ فحُبس فى دار فيها عياله.

ولما أحس بالقتل دخل إلى حجرة، وأخرج كفنه، وودع عياله، وأغلق باب الحجرة، واغتسل وصلى ركعتين، وأعطى الذى هم بقتله مائة دينار وقال له:

حقى عليك أن تكفننى فى هذا الثوب الذى غسلته بماء زمزم.

وقال لجلاده: قل للوزير بئسما فعلت، علمت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر مهواة وقع فيها، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وأنشد عندَقتله:

إن كَان بالناس ضيق عن مزاحمتى فالموت قد وسع الدنيا على الناس
قضيت والشامت المغرور يتبعنى إن المنـــية كأس كلنا حاســى

والعجب أن ألب أرسلان ونظام الملك ماتا مقتولين، وكان قتل أبى نصر سنة ست وخمسين وأربعمائة - رحمه الله - وعمره يومئذ نيف وأربعون سنة.

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص ٧٤)

مشهدان من أفظع أحوال الموت قتلاً

كان محمد بن داود بن الجراح كاتبا عارفاً بارعاً، عالماً بأيام الناس وأخبارهم، ودول الملوك، له فى ذلك مصنفات، وكان مع ابن المعتز.

فلما انحل ابن المعتز وقتل اختفى ابن داود.

قال أبو عمر محمد بن يوسف القاضى:

لما جرت واقعة ابن المعتز حبست أنا والقاضى أبو المثنى أحمد بن يعقوب، ومحمد ابن داود بن الجراح، وكنا فى دار (الحبس) فى ثلاثة أبيات متلاصقات، وبيتى فى الوسط، وإذا جننا الليل تحدثنا من وراء الجدر، وأوصى بعضنا إلى بعض.

فلما كان فى بعض الليالى دخل أناس بشموع إلى بيت محمد بن داود بن الجراح وأخرجوه وأضجعوه للذبح فقال:

يا قوم ذبحاً كالشاة؟ أين أنتم من المصادرات؟ أين أنتم من الأموال؟ أنا أفدى نفسى بكذا وكذا. فلم يُسمع منه وذبحوه، وأخذوا رأسه، وألقوا جثته فى البئر.

ثم أخرجوا أبا المثنى بعدما ذهبوا وعادوا، وقالوا له: يا عدو الله يقول لك أمير المؤمنين:بم استحللت نكث بيعتى؟ فقال لعلمى أنه لا يصلح.

فقالوا: أمرنا أن نستتيبك من الذنب فإنه كفر، فقال أعوذ بالله من الكفر.

فذبحوه وأخذوا رأسه، وألقوا جثته فى البئر، ومضوا وعادوا فأخرجونى وقالوا: يقول لك أمير المؤمنين:

يا فاعل ما الذى حملك على خلع بيعتىَ؟

قلت: الشقاوة، وقد أخطأت، وأنا تائب إلى الله تعالى، فحملونى إلى دار الخلافة وابن الفرات جالس، فوبخنى، وتنصلت واعتذرت.

فقال: وهب لك أمير المؤمنين ذنبك واشتريت دمك وحرمك بمائة ألف دينار.

فقلت: والله ما رأيت بعضها مجتمعاً قط، فغمزنى الوزير، فأديت البعض وسومحت بالباقى.

كانت وفاة ابن الجراح سنة ست وتسعين ومائتين.

ومن شعره قوله:

قَد ذَهَبَ النَّاسُ فَلا نَاسُ ... وَصَارَ بَعْدَ الطَّمَعِ اليَاسُ
وَسَادَ أَمْرَ القَوْمِ أَدْنَاهُمُو ... وَصَارَ تَحْتَ الذَّنَبِ الرَّأْسُ

من (الوافى بالوفيات ج٣ ص ٦١)

مشهد قتل لا أفظع منه

أبو بكر محمـد الرملى كبير أهل الرملـة المعروف بابن النابلسى كان فقـيها، زاهدا، مالكى المذهب ذا يسار وظهـور، وكان شديدا على بنى عبيد حين مـلكوا مصر والشام، ذامًا لهم، منفراً للعامة عنهم، وكان يستنفر الناس لقتال بنى عبيد.

وكان الحـسن بن أبى منصور القـرامطى الملقب بالأعصم قـد دخل بجيـوشه الرملة ولـم يَسَعْ أبا بكر بن النابلسى إلا مداراته لئلا يستبيح بلده .

ثم زحف الأعصم القرامطى إلى مصر، فهزمه المعز العبيدى، وفر الأعصم إلى بلده الأحساء سنة أربع وستين وثلاثمائة.

ولما انبعـثت عسـاكر العبـيديين فى الشام خـرج ابن النابلسى من الرملة خـائفا إلى دمـشـق فـقبـض عليه بهـا ، ثم حـمـل مع ابنه إلى مـصر فى جـملة من الأسـرى المنهزمين وطيف بجميعهم على الجمال، ثم ضربت أعناق الأسرى، وألقيت جثثهم فى النيل.

أما ابن النابلسى فقد أمر به أن يُسلخ من جلده وهو حى بعد أن قتل ابنه بين يديه.

فلما سمع أنه سيسلخ من جلده وهو حى رمى بنفسه عن الجمل، وقال لجوهر غلام المعز:

عَرِّف السلطان أنى أفدى نفسى بخمسمائة ألف، فدخل جوهر، ثم خرج فقال : اذهبوا به واسلخوه.

فرمـى بنفسـه ثانية، فلُطم شـديدا، وحُمل إلى المنظر، فـبطح على وجهـه بالأرض وجلس على ظهره ووركـيه ، ومُسك جدا وشق السـلاخون عرقوبيه، ونُفخ كـما تنفخ الشاة، ثم سلخ، وهو فى كل هذا يقرأ القرآن بصوت قوى وترتيل، إلى أن انتهى السلخ إلى كتفيه، فتغاشى ثم مات، فصلب جسده بناحية، وجِلْده بعد أن حُشى بناحية أخرى. رحمه الله .

من (ترتيب المدارك ج٥ ص٢٨٤)

من أضواء هذا المشهد

إذا استحل العبيدى قتل ابن النابلسى بأى وجـه، فكان يكفيه قتله، وهو متمكن من ذلك، أما أن يمثل به على تلك الصورة الفظيعة الشنيعة فذلك مالم يأذن به الله.

روى البـخارى عن عـبد اللـه بن زيد الأنصارى رضى الله عـنه أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن النُّهبة والمُثْلة.

كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن حفص أن يعلى بن مرة الثقفى رضى الله عنه كان عند زياد جالسا، فأُتى برجل شهد، فغير شهادته، فقال :

لأقطَعَنَّ لسَانَكَ، فقال له يَعْلَى :

أَلاَ أحَدِّثُكَ حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(قال الله عَزَّ وَجَلَّ لا تُمثِّلوا بِعِبَادِى) قال فتركه زياد .

إن التمثيل بكل ذى روح حرام فى دين الله، ولو كان تمثيلاً بحيوان.

روى الإمام أحمد عن سعيد بن جبير أنه قال : مررت مع ابن عمر وابن عباس فى طريق من طرق المدينة، فإذا فتية قد نصبوا دجاجة يرمونها، لهم كل خاطئة، قال : فغضب، وقال من فعل هذا ؟ قال : فتفرقوا، فقال ابن عمر لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من يمثل بالحيوان.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله سيمثل يوم القيامة بمن يمثل بذى الروح مالم يتب من ذلك.

روى أحمد عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ مَثَّل بذى روح ثمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللَّه بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . ﴿وَكَفَى بِربِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ الإسراء ١٧ .

أما ابن النابلسى فلعل الله قد أكرمه بالشهادة فإن أبا الحسن بن جهضم ذكر فى كتابه فى صدق فراسة المؤمن أن أبا بكر ابن النابلسى خرج مع أبيه فى جماعة يستقبلون الشيخ أبا الحسن على بن محمد بن سهل لما قدم إلى الرملة، فلما نظر الشيخ إلى أبى بكر قال له : مرحبا بشهيد مصر، وكان قوله هذا سنة عشرين، واستشهاد أبى بكر سنة أربع وستين وثلاثمائة. رحمه الله .

ونقل ابن أيبك الصفدى فى كتابه (الوافى بالوفيات) عن ابن الشماع المصرى أنه رأى ابن النابلسى فى النوم فقال له :ما فعل الله بك؟ فقال :

حَبَانى مَالكي بدَوَام عَزٍّ ... وَوَاعَدَنى بقرْبِ الانْتِصَار
وَقَربَني وَأَدْنَانِي إِلَيْهِ ... وَقَالَ انعَمْ بعَيْشٍ فِي جِوَارِي

وكان ابن النابلسى- رحمه الله - ممن روى عنهم الدارقطنى.

من (الوافى بالوفيات ج٢ ص٤٤)

مشهد من أسوإ أحوال الموت

روى ابن عساكر عن مالك عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه قال :

جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى، وصُهيب الرومى، وبلال الحبشى رضى الله عنهم فقال :

هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟

فقام معاذ بن جبل رضى الله عنه فأخذ بتلبيبه - يعنى أمسك بثيابه من عند صدره - حتى أتى به النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته، فقام صلى الله عليه وسلم مغضبا يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودى، الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أيها الناس إنّ الرَّبَّ رَبّ واحد، وإنّ الأَبَ أب واحد، وإنّ الدين دين واحد. ألا وإن العربيةَ ليستْ لكم بأَب وَلا أمٍّ، إنما هى لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربى.

فقال معاذ: وهو آخذ بتلبيب ابن مطاطية:

يا رسول الله ما تقول فى هذا المنافق؟

فقال صلى الله عليه وسلم : دَعْه إلَى النَّار .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : فكان ابن مطاطية فيمن ارتد فقتل فى الردة.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٣٦)

مشهد من أسوإ أحوال الموت

كان إبراهيم بن سيار البصرى المعروف بالنظام ابن أخت أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، وكان النظام رأساً من رؤوس المعتزلة، وهى الطائفة المعروفة بالنظامية، وكان يقول : إن الإجماع ليس بحجة فى الشرع، وكذلك القياس، وإنما الحجة قول الإمام المعصوم .... وكان يميل إلى الرفض، وقد وقع فى أكابر الصحابة رضى الله عنهم، وقد ذهب جماعة إلى أن النَّظَّام كان فى الباطن على مذهب البراهمة الذين ينكرون النبوة، وأنه لم يظهر ذلك خوفا من السيف، فكفّره معظم العلماء، وكفره جماعة من المعتزلة حتى خاله أبو الهذيل والإسكافى وجعفر بن حرب، كل منهم صنف كتابا فى تكفيره، وكان مع ذلك فاسقا مدمنا للخمر.

وكان آخر كلامه والقدح فى يده وهو سكران فى عُلِّيَّة له يشرب فيها :

اشْرَبْ عَلَى طَرَب وَقلْ لمهَدِّد هَوِّنْ عَلَيْكَ يَكون مَا هو كائن

فلما فرغ من كلامه سقط من العُلِّيَّة فمَات من ساعته فى سنة ثلاثين ومائتين .

من (الوافى بالوفيات باختصار ج٦ ص١٨)

مشهد من أسوإ أحوال الموت

كان أسعد بن السديد الماعز القبطى قد أسلم فى الدولة الأشرفية، وكان (مسْتَوْفِى) الديار المصرية.

قال ابن أيبك صاحب كتاب (الوافى بالوفيات)حكى لى شهاب الدين محمود - رحمه الله - فقال :

لما مرض المذكور توجهنا إليه نعوده، فوجدناه ضعيفا إلى الغاية، وقد وضعوا عنده أنواعا من الحلى والمصاغ المجوهر والعقود، وفيها العنبر الفائق، وأنواعاً من الطيب، ثم قال :

ارفعوا هذا عنى .

وأسر إلى خادم كلاماً، فمضى وأتى بحُقٍّ، ففتحه وأقبل يشمه وقمنا من عنده، ثم إنه مات، فسألنا ذلك الخادم فيما بعد: ما كان فى ذلك الحُقِّ؟ فقال :

شَعْرَة مِنِ اسْتِ الرَّاهِبِ الفلانِي الذى كان له كذا وكذا سنةً مَا لِمَسَ المْاءَ وَلاَ قَارَبَه.

قال شهاب الدين فأنشدت :

مَا يقْبِض المَوْت نَفْساً مِنْ نفوسِهمو إلاَّ وَفِى يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عود

توفى أسعد بن السديد سنة بضع وتسعين وستمائة

من (الوافى بالوفيات ج٩ ص٤٦)

مشهد من أسوإ أحوال الموت

نقل القاضى عياض من كتاب (المغْرِب عَنْ أَخْبَارِ المَغْرِبِ) أنه فى أيام أبى العباس عبد الله بن طالب التميمى قاضى القيروان تم إعدام إبراهيم الفزارى، ثم قال :

وكان إبراهيم شاعرا متفننا فى كثير من العلوم مع استهزاء وطيش، وكان يحضر مجلس ابن طالب لمناظرة الفقه، فقيل إنه كان يزرى به، ويتضاحك بأمره، ونمت عنه أمور منكرة، فانتهى ذلك إلى ابن طالب، فطلبه وحبسه، وشهد عليه أكثر من مائتين بالاستهزاء بالله، وبكتاب الله وأنبيائه، وبنبينا صلى الله عليه وسلم قيل : كان منهم ثلاثون عدلا .

فجلس له ابن طالب، وأحضر العلماء، يحيى بن عمر وغيره، وأمر بقتله، فطعن بسكين فى حنجرته، وصلب منكسا، ثم أنزل بعد ذلك وأحرق بالنار.

وحكى بعضهم أنه لما رفعت خشبته وزالت عنه الأيدى استدارت وتحولت عن

القبلة، فكانت آية للجميع، فكبر الناس، وجاء كلب فولغ فى دمه، فقال يحيى بن عمر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسند حديثا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(لاَ يَلَغُ الكَلْب فِى دَمِ المسْلِمِ) .

من (ترتيب المدارك ج٤ ص٣١٣)

مشهد من كانت وفاته عبرة

القاضى عبد العزيز بن عبد الواحد المعروف بالرفيع الجيلى كان عنده شهود زور، ومن يدعى زوراً.

فيُحضر الرجل المتمول إلى مجلسه، ويُحضر المدعى عليه بألف أو ألفين، فينكر.

فيُحضر الشهود، فيلزمه، ويحكم عليه، فيصالح غريمه على النصف أو أكثر أو أقل.

فاستبيحت أموال الناس.

قال أبو المظفر بن الجوزى:

حدثنى جماعة أعيان أنه كان فاسد العقيدة، دهريا، مستهتراً بأمور الشرع، يجئ إلى الصلاة سكران، وأن داره كانت مثل الحانة.

وفى ثانى عشر ذى الحجة سنة اثنتين وأربعين وستمائة أُخرج الرفيع من داره، وحبس بالمقدمية، ثم أخرج ليلا، وسجن فى مغارة فى نواحى البقاع، وقيل ألقى من شاهق .

قال ابن واصل:

حكى لى ابن صبح بالقاهرة أنه ذهب بالرفيع إلى (شقيف أرنون) فعرف أنى أريد أن أرميه فقال :

بالله عليك، دعنى أصلى ركعتين.

فأمهلته حتى صلاهما، ثم رميته فهلك.

وحكى بعض الذين باشروه أنه لما رموه فى تلك الهوة تحطم فى نزوله، وكأنه تعلق فى بعض جوانبها بثيابه، فبقينا نسمع أنينه نحو ثلاثة أيام، وكلما مر يوم يضعف ويخفى، حتى تحققنا موته، ورجعنا عنه، نسأل الله تعالى حسن العاقبة. (١)

وقال شمس الدين الذهبى :

حدثنى الإمام محمد بن منتاب أن عز الدين الموصلى كتب إليه وأرانى كتابه، قال :

---

(١) فوات الوفيات ج٢ ص٣٥٣ .

كان لنا رفيق يشهد معنا فى سوق الطعام يقال له (شمس الدين بن الحشيشى) كان يسب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ويبالغ، فلما ورد شأن تغيير الخطبة إذ ترفّض (القان خربندا) افترى وسب فقلت :

يا شمس قبيح عليك أن تسب وقد شبت، مالك ولهم، وقد درجوا من سبعمائة سنة، والله يقول : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ فكان جوابه: والله إن أبا بكر وعمر وعثمان فى النار، قال ذلك فى ملإٍ من الناس، فقام شعر جلدى، فرفعت يدى إلى السماء وقلت :

اللهم يا قاهر فوق عباده، يا من لا يخفى عليه شيء، أسألك بنبيك إن كان هذا الكلب على الحق فأنزل بى آية، وإن كان ظالما فأنزل به ما يعلم هؤلاء الجماعة أنه على الباطل فى الحال .

فورمت عيناه حتى كادت تخرج من وجهه، واسود جسمه حتى بقى كالقير[1] وانتفخ، وخرج من حلقه شىء يصرع الطيور، فحمل إلى بيته، فما جاوز ثلاثة أيام حتى مات، ولم يتمكن أحد من غسله مما يجرى من جسمه وعينيه ودفن .

وقال ابن منتاب جاء إلى بغداد أصحابنا وحدثوا بهذه الواقعة، وكانت وفاة (ابن الحشيشى) سنة عشر وسبعمائة .[2]

من أضواء هذا المشهد :

إن هذا المسكين المغرور قد حمله الطيش على اقتحام ثلاثة مخاطر :

أولها: إصراره على معرفة غيب لا يعلمه إلا الله .

ثانيها: إعلانه عن مخالفة ما ثبت عن الله ورسوله، من حيث إن أولئك الثلاثة قد شهد الله بأنه سبحانه رضى عنهم، إذ يقول فى القرآن : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [3] وجميعهم من أهل بيعة الرضوان إضافة إلى أنهم من العشرة المبشرين بالجنة، إلى ما لا يكاد يحصى من فضلهم وجهادهم فى الله حق جهاده.

---

(١) القير هو القطران. (٢) الوافى بالوفيات ج٣ ص٢٢ .

(٣) سورة الفتح الآية ١٨ .

ثالثها: تألّيه على الله بأن خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيبين قد أدخلهم الله فيما ذكر هذا الطائش المسكين .

إن التألى [1]على الله أمر محرم ، والمتألى يقتحم الهلكة هذا إذا كان التألى فى شأن أحد العصاة، فكيف إذا بلغ فى تطاوله إلى النيل من أهل الفضل وخيرة هذه الأمة .

روى مسلم فى صحيحه عن جندب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث (أن رجلا قال : والله لا يَغْفر الله لفلان، إنّ اللهَ تعالى قال : مَنْ ذَا الّذى يَتَألّى عَلَىَّ أنّى لاأغفر لفلان ، فَإنِّى قد غَفَرْت لفَلان، وأَحْبَطْت عَمَلَكَ).

وروى أحمد وأبو داود عن أبِى هريرة رضى اللهَ عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(كان رَجلاَن فِى بَنِى إسْرَائيلَ متَواخيَيْن، وكَانَ أَحَدهمَا مذْنباً والآخر مجْتَهداً فِى العِبَادة، وكَانَ لايزَال المجْتَهد يَرىَ الآخَرَ عَلَى الذّنْب فيقول أقْصرْ، فوَجَدَه يوْماً عَلَى ذَنْب فَقَالَ لَه أَقْصرْ، فقَالَ خَلّنى وربِّى، أَبُعثْتَ عَلَىَّ رَقيباً .

فقال : وَاللّه لا يَغْفر اللّه لَكَ، أوْ لا يدْخلك اللّه الْجَنّةَ.

فَقُبِضَ رُوحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فقال لهَذَا الْمجْتَهد أكنْتَ بى عَالماً؟ أوْكنْتَ عَلَى مَا فِى يَدِى قَادراً ؟ وقال للمذْنبِ اذْهَبْ فَادْخلِ الْجَنَّةَ برَحْمتَى، وقال للآخَرِ : اذْهَبوا بِهِ إلَى النّار).

مشاهد من جرى القدر بموتهم عند الدعاء عليهم

قد يحمل الطيش وضعف الإيمان بعض الناس على الظلم، مع أن الله سبحانه قد قال فى الحديث القدسى : (يا عِبَادِى إنِى حَرَّمْت الظّلمَ عَلَى نَفْسِى، وَجَعَلْته بيْنكمْ محَرَّماً، فَلاَ تَظَالَموا).

رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه.

واتفق البخارى ومسلم على أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال له :

(اتّقِ دَعْوَةَ المَظْلومِ، فَإنّهَا لَيْسَ بيْنَهَا وَبَيْنَ اللّهِ حِجَاب)

(١) التألى هو الحلف .

كمـا روى الطبراني في معـجمه الصـغير أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال فيـما يرويه عن ربه :

(اشْتَدَّ غَضَبِى على مَنْ ظَلَمَ مَنْ لاَ يجد لَه نَاصراً غَيْرى).

وكان زيد بن حكيم يقول : مـا هبت أحدا قط هيبتى رجـلا ظلمته، وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله، يقول حسبى الله، الله بينى وبينك .

وقال بعض الشعراء :

لاَ تَظلمَنَّ إذَا مَا كنْتَ مقْتَدراً ... فَالظّلم مَرْجِع عقْبَاه إلَى النَّدَمِ
تَنَام عَيْنَاكَ وَالمَـظلوم منْتَبِـهٌ ... يَدْعو عَلَيْكَ وَعَيَنَ اللَّه لَمْ تَنَمِ

والمظلومون كثيراً ما يضرعون إلى الله أن ينتـقم من ظالميهم، فيستجيب الله لهم فى الوقت .

وقد يفزع المظلومون إلى من يرون أنه مرجو الإجـابة من الله، فيدعو على ظالميهم، فيقبل الله دعاءه عاجلا.

وإليك نماذج من هلاك الظالمين عند الدعاء عليهم:

أكـان مُطَرِّفُ بن عبـد الله عـبد الـناس وأنسكهم، وذكروا أنـه وقع بينه وبين رجل منازعة، فرفع يديه- وكان فى مسجد البصرة - وقال :

اللَّهمَّ إِنّىَ أَسْأَلكَ ألا يقومَ مِن مَجْلسه حتى تَكْفِيَنى إياه.

فلم يفرغ مُطَرِفٌ من كلامه حتى صُرِعَ الرجل فمات، ثم أُخذ مطرف وقدموه إلى القاضى، فـقال القاضى : لم يقتله، وإنما دعـا عليه فأجاب الله دعـوته، فكان بعد ذلك تتقى دعوته .

مات مطرف - رحمه الله تعالى - سنة سبع وثمانين وقيل خمس وتسعين.

من (وفيات الأعيان ج٥ ص٢١١)

مشهد من شتم عليا فدعا عليه
سعد فهلك فى الحال

روى أبو عبد الله الحاكم عن قيس بن أبى حازم أنه قال :

كنت بالمدينة، فـبينـما أنا أطوف فى السـوق إذ بلغت أحـجار الزيت فـرأيت قومـا مجـتمـعين على فـارس قد ركب دابة، وهو يشـتم على بن أبى طالـب رضى الله عنه ، والناس وقوف حواليه، إذ أقبل سعد بن أبى وقاص فوقف عليهم فقال :

ما هذا ؟

قالوا : رجل يشتم عَلِيَّ بْنَ أبى طالب رضى الله عنه .

فتقدم سعد، فأفرجوا له، حتى وقف عليه، فقال :

يا هذا علام تشتم على بن أبى طالب كرم الله وجهه؟ ألم يكن أول من أسلم ؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟ وذكر أشياء حتى قال: ألم يكن ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته؟

ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم إن هذا يشتم وَلِيّاً من أوليائك فلا تفرّق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك

قال قيس :

فو الله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته، فرمته على هامته فى تلك الأحجار، فانفلق دماغه فمات .

قال أبو عبد الله الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ومسلم، ووافقه الذهبى.

كما أخرج هذا الحديث أبو نعيم فى دلائل النبوة عن ابن المسيب بنحو السياق المتقدم.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٢٥)

مشهد مصرع جرئ يتصرف بلا نظر للدين

لما مات سليمان بن عبد الملك وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة جاءه خالد بن الريان متقلدا سيفه فى اليوم الذى استخلف فيه عمر، فقال له عمر:

يا خالد انطلق بسيفك هذا فضعه فى بيتك، واقعد فيه، فإنه لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أمرت بشىء فعلته، لا تنظر لدينك.

فلما ولّى خالد نظر عمر فى قفاه فقال:

اللهم يا رَبِّ إنّى قد وضعته لَكَ، فلا تَرْفَعْه أبَداً، فما لبِث خالد إلا جُمعَةً حتى ضَرَبَه الفَالِج فَقَتَلَه.

من (المحاسن والمساوىء ص ٥١٦)

مشهد مصرع حاكم حكم الله عليه

كان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من أجمل الناس، وكان قد جعل على كل زوج (من الأبقار) تحرث ثمانية دنانير، فضاق الأمر بالناس، فقدم حفص بن عمر الجزرى مع رجال صالحين من أهل الجزيرة، فدخلوا على أبى العباس، فقال له حفص:

أيها الأمير، اتق الله الذى إليه مصيرك . وأرحم شبابك هذا، واحذر على وجهك

الجـميل النار، وخـفف عن الناس، وأسـقط عنهم مـا وضـعت على الأزواج من هذه الدنانير .

فقال : لست أفعل ، ولا أحطهم شيئا.

فخرجوا من عنده يريدون القيروان، فقال لهم حفص:

تصلون ركعـتين تخلصـون فيهـما الدعاء، ونضـرع إلى الله، لعله يكفيناه، فـإنا قد يئسنا من المخلوقين فنرجع إلى الخالق عز وجل، فتوضأوا وصلوا ركعتين.

ففعلوا ثم قال حفص :

اللهم إن هذا الرجل الذى فضلتـه على عبادك فى هذه الدنيا، ومكنـته فى بلادك قد ظلمنا، وعمل علينا ما لا نقوى ولا نطيق دفعه، ولا نستطيع منعه، فاكفناه، واحكم بيننا وبينه وأنت خير الحاكمين.

فما لبث أبو العباس إلا خمسة أيام ثم خرجت له قرحة عظيمة تحت أذنه مات منها فى اليوم السابع من دعائهم.

من (رياض النفوس ج١ ص٢٣٨)

مشهد من نوى سحق طرابلس الغرب

جاء فـى كتـاب الدول المنقطعة أن باديس بن منـصور بن بلكين الصنهـاجى قصـد طرابلس، ولم يزل على قرب منها عازما علـى قتال أهلها، وحلف على ألا يرحل عنها حتى يعيدها فدنًا للزراعة لسبب اقتضى ذلك .

فاجتمع أهل البلد عند ذلك إلى المؤدب محـرز، وقالوا يا ولى الله قد بلغك ما قاله باديس، فادع الله أن يزيل عنا بأسه، فرفع يديه إلى السماء وقال :

يَارَبِّ بَاديسَ اكْفنَا بَاديسَ

فهلك باديس فىَ ليلتهَ بالذبحة والله أعلم .

وكـان ذلك لما مــضى نصف الليل من ليـلة الأربعـاء سلخ ذى القـعــدة سنة ست وأربعمائة عن اثنين وثلاثين عاما .

مشهد من دعا مفوضاً أمره وأمر خصمه إلى الله

خرج عبـد الله الأموى على حفيد أخـيه عبد الرحمن بن الحكم، ولما صلى الجـمعة عازما على أن يخرج يوم السبت قال فى خطبته:

اللهم إنْ كنتُ أَحَقَّ بهَذَا الأمْر من عبد الرحمنِ حَفيدِ أخى فَانْصرْنِى عليه، وإن كانَ هو أَحَقَّ بهَ منّى وأَنَا صنْوُ جَده فانْصرْه عَلَىَّ.

فَأَمَّنوا علَى دعـائهِ، ولـم يَسْتَـتِـمَّ كَلامَه حتـى ضَرَبَتْه الرِيّح البَـارِدَة، فسقط مَـفْلوجاً،

فَكَمَّلَ النَّاس صَلاتهمْ بِغيْرِهِ، وافترقَ الجَمْع وَصَارَ إِلى بَلَنْسِيَةَ فمات بها فى سنة ثمان ومائتين .

من (المُغرب فى حلى المغرب ص٤٧)

مشهد مصرع ظالم دعا عليه أبو إسحاق الجَبنيانى فمات

كان رجل من أهل السنة، وبقريته مشارقة ومعتزلة، ليس فيهم سنى غيره، وعلى قريتهم كتامى يقال له : (أبو دَكْرَكَ) وهو فرعون من الفراعنة، فقال جيران السنى لأبى دكرك:

نكتب عليه محضراً أنه يسب السلطان، وتأخذ أنت ماله وتقتله، فإذا سألك السلطان عن قتله أخرجت المحضر.

فأمر أبو دكرك باعتقال دار الرجل لينزل عليها بالليل.

فتحيل السنى حتى خرج من الدار، ووصل إلى الشيخ أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد بن على الجبنيانى، وقد ذهل عقله، فسلم عليه سلاما محتملا، فقال له :

ما بالك؟

فقال : أبو دكرك جرى على منه كذا وكذا.

فقال له : ومن هو أبو دكرك، دكرك الله به الأرض؟

ثم قال لمن حوله:

إن صاحبكم مضطر فاقصدوا فيه باب الملك الجبار .

وأقبل على الدعاء، ومن حضر يؤمن ثم قال :

اللهم دكرك بأبى دكرك الأرض؟

فلما كان الغد أتانا الخبر فعرفنا أن أبا دكرك قتله عبيد والى البلد وأخفوه، فاجتهد فى طلب جسده، وبذل السلطان عليه مالا، فما وُجِد له أثر.

لقد دكرك الله تعالى به الأرض، وسلم السنى .

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٢٣٥)

مشهد سكير دعا عليه أبو إسحاق فمات

قال التسترى :

وصل إلينا (حمى الترجمان) وطلب من أهل موضعنا خمرا، فقالوا له :

ما بهذا البلد أحد يشربها، لأننا بجوار هذا العابد، يعنون الشيخ أبا إسحاق إبراهيم الجبنيانى ، فقال :

مَنِ العَابِد؟ أنا أخرِج قَلْبَه عَلَى رُمْحِى، مَا يَعْرِف هوَ غَيْرَ مَوْلاه، يعنى السلطانَ.

فمضى أهل القرية يبكون إلى أبى إسحاق فعرفوه، وقالوا إنا خائفون على أنفسنا وحريمنا، وقد تركوا معه أحدهم يلاطفه.

فوجدوا أبا إسحاق مستقبل القبلة، فدعا بدعاء عظيم ثم قال :

تُكفَوْنَ مَؤونَتَه إن شاء الله تعالى لا يَدْخل إِلَيْكمْ أبَداً .

قال أبو القاسم :

فرجعوا ورجعت معهم ، فوجدناه قد شد على خيله متوجها إلى الجبل، فسقط فى جُرُفٍ، وسقط عليه فرسه فمات.

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٢٣٦)

مشهد من هدد السبائى فدعا عليه فأماته الله

دخل إلى السبائى رجل من حاشية السلطان فتجهمه الشيخ، فخرج من عنده ، فلقى بعض أصحاب الشيخ، فذكر له قصته معه، ثم قال له :

ليس ثم إلا الخير، قل له سوف ترى أنت .

قال فخرجت من عنده إلى دارى، فبعد ساعة خرجت، فإذا الناس يقولون :

مات فلان، فجئت إلى الشيخ فأخبرته، فقال قد كفينا ما نحذر والحمد لله.

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٦٦)

مشهد ظالم دعا عليه السبائى فمات

قال محمد بن إدريس :

خرجت أريد الحانوت، فلقيت أبا العباس بن غانم، فقال لى : وأنتم هنا ؟ والله لا سكنتم هذا الدرب معى، فاعملوا على الانتقال، لأنكم من حزب السبائى، وهددنى وخوفنى، فجئت إلى السبائى فأخبرته وبكيت، فقال لى :

ليس عليك منه شىء، إنما هو كلب ينبح، اللهم عاجله ولا تمهله.

فلما خرجت من عنده وقربت من دارى إذا هو قد أوتى به ميتاً من الحمام.

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٦٦)

مشهد من سقط فانتثر دماغه وقد دعا عليه القابسى

كان بالمهدية رجل نصرانى - وكان عمه من خاصة باديس بن حبوس صاحب القيروان - قد افتض صبية شريفة .

فلما سمعت بذلك العامة رجعوا إليه فقتلوه، وبلغ ذلك باديس فعظم عليه أمر

ذلك، وأرسل قائداً بعسكر إلى المهدية فقال لـهم اقتلوا من هو قد السيف إلى مـا فوق (يعنى من كانت قامته تساوى طول السيف فأكثر) .

وبلغ ذلك أبا الحسن القابسى، فدخل المحراب وأقبل على الدعاء فى كشف هذا الأمر.

فلما وصل القائد إلى قصر مسور قرب المهدية مات فيه، قام بالليل وهو سكران يمشى على السطح فمشى فى الهواء، وسقط على رأسه، وانتثر دماغه. وجاء البريد بذلك إلى باديس، وأعلم بدعاء أبى الحسن، فَرُعِبَ لذلك، وقال لأبي العرب وكبراء رجاله تمشون للشيخ .... ألخ

تمشون للشيخ(يعنى لتخفيف وقع الحدث) فمشوا له.

فلما ضربوا عليه الباب وأعلم بهم، قال لهم:

تمضون إلى الجامع حتى يأتيكم العلماء، ولم يدخلهم داره، ووجه إلى أصحابه أبى بكر بن عبد الرحمن، وأبى عمران الفاسى، وأبى القاسم بن الكاتب، وأبى محمد اللوبى، وأبى عمرو بن العتاب، والخواص، وابن سفيان، وأبى عبد الله المالكى، ومكى القرشى، وابنى الأجدابى والربعى، وابن سمحان وغيرهم، وأملى عليهم رسالة فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم بالله أستعين، وعليه أتوكل، الغوث، الغوث بما حل بالمسلمين من الافتيات عليهم ثم ينادى بمثل هذا .

وفى فصل منها :

كيف يحل لمن يعتقد الإسلام أن يقوم فى دم كافر اغتصب صبية من سلالة المصطفى عليه السلام؟ ولو انطبقت السموات والأرض من أجل هذا الفعل كان قليلا.

وهى رسالة طويلة، وقال لأصحابه إذا وصلتم إلى الجامع فليقرأها واحد منكم على المنبر ممن له صوت، ففعلوا ذلك، فجعل القواد يقول بعضهم لبعض :

والله ما السلطان إلا هذا الشيخ .

من (ترتيب المدارك ج٧ ص٩٧)

مشهد من طيرت دماغه سارية وقد دعا عليه ابن المضاء

قال أحد الناس :

كنت فى مسجد إبراهيم بن المضاء الأسدى القيروانى أحد تلاميذ سحنون، والقراء والناس مجتمعون، إذ أتى رجل فقال :

يا معشر المسلمين إنى رجل فقير ذو بنات، ولى دار جوار دار عامر بن عمرو بن

زرارة من أصحاب السلطان، وإنه بنى عُلَيَة، وفتح أبوابا مطلة على دارى، وبناتى فدعا إبراهيم ودعا الناس .

قال من سمع الدعاء : فما برحت حتى أتى رجل فقال :

تفرقوا لا ينالكم من السلطان مكروه، أو نحو هذا ، فقد انهدمت عُلية عامر، ضربته سارية طيرت دماغه، فتفرق الناس.

مات ابن المضاء سنة خمسين ومائتين.

من (ترتيب المدارك ج٤ ص٢٣٦)

مشهد هلاك مفترٍ دعا عليه ابن التبان

قال اللبيدى إن أبا محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبان ذكر يوما - فى المنستير - كراهية مالك بن أنس الاجتماع على قراءة القرآن وأن ذلك بدعة .

فقال له رجل :

كيف تقول إن قراءة القرآن بدعة ؟

فقال أبو محمد : لم أقل هذا .

فخرج الرجل وصاح : إن ابن التبان قال : قراءة القرآن بدعة، فزحف الناس من كل جهة منكرين لهذا، وأتوا حجرته، فجعل يرفق بهم ويلين لهم، فمنهم من يفهم ومنهم من لا يفهم .

ثم حول أبو محمد وجهه للذى شنع عليه وقال له :

أفجعت قلبى ، أفجع الله قلبك، أفجعك الله بنفسك وولدك ومالك.

قال اللبيدى : فأجيبت دعوة الشيخ فيه، تهوس ولده فصار من جملة المجانين، وذهب ماله، وابتلى بداء البطن، فكان منه موته.

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٢٥١)

مشهد من ضربته حية فمات وقد دعا عليه أبو جعفر

أتى رجل إلى أبى الحسن الكانشى رضى الله عنه بالمنستير يسأله الدعاء ، فقال له :

امض إلى مدينة سوسة إلى أبى جعفر القمودى، وذلك فى شهر رمضان، فإذا قرعت بابه ولم يفتح لك فأعد القرع ، وقل : نأتى مضطرين، وقد أقرحنا، ونزلت النوازل بنا إلى قوم رغبة فى دعائهم، فغلقوا أبوابهم فى وجوهنا، اللهم لا تغلق أبواب رحمتك عنا، وارفع بذلك صوتك حتى يسمعك.

قال : فلما وصل الرجل فعل كما أمره أبو الحسن .

فلما سمعه أبو جعفر نزل إليه، فقال له بخفض صوت:
أى يوم هذا ؟
فقال له : يوم الجمعة.
فقال له : وأى شهر هذا ؟
فقال له : شهر رمضان .
فقال له : فى يوم جمعة ، فى شهر رمضان يكلم الناس الناس ويرفعون أصواتهم؟
فقال له : أنا رجل مضطر.
فقال : ما خبرك ؟
فقال له :
غلام ابن أبى سعيد الضيف وكيل المنزل الذى أنا فيه حل علىّ منه كذا وكذا، فهربت منه بروحى، وأسلمت أهلى وولدى ومالى فى يديه، فقال له أبو جعفر:
كفاك الله مؤونته، وأقلبك بمغفرة .
فمضى الرجل، فلجأ إلى جامع سوسة، فهو فى اليوم الثانى جالس فى الجامع رأى رجلا من أهل منزله يدور عليه، فلما التقى معه قال له :
أبشر فقد مات الوكيل.
فقال له : وكيف ذاك ؟
فقال : هو بالأمس فى أحسن ما مر به حتى ضربته حية، فهو فى النزع إلى البارحة، فلما كانت البارحة مات .
فقال له : أى وقت ضربته الحية بالأمس؟
فوصف له الوقت، فإذا هو الوقت الذى مضى هو فيه إلى أبى جعفر ودعا له فيه.
.... ومن أحوال أبى جعفر أنه قال مرة لأبى جعفر الأربسى : ماتريد بجلوسك مع هؤلاء الذين يدخلون إليك ويشغلونك؟
فقال له : أستأنس بهم .
فقال له أبو جعفر القمودى :

لو ذقت حلاوة الأنس بالخالق ما احتجت إلى مؤانسة المخلوقين، فقد جاء فى الحديث القدسى: (أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِى).

ودخل أبو عبد الله بن دارة المتعبد على أبى جعفر القمودى فأقبل يحدثه فأكثر عليه فى حديثه، فقال له أبو جعفر:

يا أبا عبد الله أَبَعْدَ الْمَوْتِ عَمَل ؟

فقال : لا.

فقال : سلام عليك .

واستقبل القبلة وأحرم للصلاة .

من (رياض النفوس ج٢ ص٢١٥ - ٢٢٥ وما بعدها)

مشهد من تلا القرآن تعريضا بيحيى بن عمر فدعا عليه فمات

قال أبو بكر الزويلى :

أَلفَ يحيى بن عمر كتابا فى النهى عن حضور (مَسْجِدِ السَّبْت) فدسوا عليه رجلا أندلسيا كان حسن الصوت بالقراءة، فأتى إلى مسجد يحيى بن عمر وهو المسجد الذى بحذاء (حَمَّامِ النّعْمَانِ) فلما فرغ يحيى بن عمر من صلاة الظهر وسلم استفتح الأندلسى بصوت حسن وقرأ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة - ١١٤ .فبكى يحيى بن عمر حتى سالت دموعه على لحيته ثم قال :

اللَّهمَّ إنّ هذا القَارِئَ مَا أَرَادَ بِقِرَاءَتِه رِضَاكَ وَلاَ ما عندك، وإنّما أراد بذلك، نَقْصِى وَعَيْبِى، اللَّهمَّ فَلاَ تمهله بعد ثلاث.

فيقال : إنه ما بلغ ثلاثة أيام حتى مات فيها، واستجاب الله فيها دعوته .

من (رياض النفوس ج١ ص٤٩٣)

من أضواء هذا المشهد وقضية مسجد السبت

كان مسجد السبت يقع فى الجنوب الشرقى لمقام أبى زمعة البلوى رضى الله عنه على نحو مائتى متر، وكان يحضره جمع من الشيوخ، ويحضر معهم الزهاد وأهل الصلاح، وتقرأ فيه بعض الآيات والأشعار الواعظة وأخبار العباد والزهاد.

وكان ثلاثة من علماء القيروان لا يحضرونه ، وهم أبو الحسن القابسى ، وأبو عمران الفاسى، ويحيى بن عمر، حتى أن ابن عمر ألف تأليفا دعا فيه إلى عدم حضوره لكونه يرى ذلك بدعة، وشدد النكير على من يحضره.

وكان من شأن ابن عمر أنه يتصدى إلى كل ظاهرة تطرأ على خلاف ما كان عليه السلف فيبادر إلى وضع تأليف فيها، ومن تأليفه فى هذا الشأن رسالة فيمن تأخذه عند تلاوة القرآن والذكر حركة.

ومع أن ابن عمر دعا إلى عدم حضور (مَسْجِدِ السَّبْتِ) فإن أبا بكر بن اللباد كان لا ينقطع عن التردد عليه، حتى أنه ذهب إليه فى يوم مطير، فكان يخوض فى الطين ، متوجهاً إليه ، فلقيه رجل فسلم عليه، وقال له :

أصلحك الله، فى هذا الطين؟ يعز على يحيى بن عمر لو رآك، فقال له الشيخ أبو بكر:

ليس أنا غلام ابن عمر (أى حتى لا أقدر أنْ أخَالفَه) قال الله تعالى :

﴿ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِينَ ﴾ التوبة - ١٢٠ وحضور هذا المسجد يغيظ بنى عبيد.

من (معالم الايمان ج٣ ص٢٧)

وزاد المالكى :

ثم قال أبو بكر : نحن قوم محبوسون نأتى إلى هذا المسجد للراحة والفرجة، ونقترح عليهم أشعار أبى معدان، فإن فيها الزهد، فسكت الرجل .

من (رياض النفوس ج٢ ص٢٨٦)

مشاهد من جرى القدر بموتهم عند الدعاء على أنفسهم

إذا استوفى المرء ما حدد الله من عمره، فقد حان أجله، فيتوفاه الله سبحانه، وقد يقترن انتهاء عمره بأمر ما ، فيقال : أنه مات عند كذا وكذا، كأن يقال : مات عندما دعا عليه بعض الناس.

ولعل من الناس من يأتون - فى آخر حياتهم - بأعمال سيئة تحمل أناساً على الدعاء عليهم بالموت، فيقترن صعود الدعاء بنزول الموت، ويشفى الله بذلك الاقتران صدور قوم مؤمنين، وكم لله من تصرف فى أمر يربطه بأمر آخر، وله فى ذلك عجائب الحكم البالغة.

والعبد الصالح قد يتبرم - فى آخر عمره - بالحياة لسبب ما فيدعو على نفسه بالموت ويقترن دعاؤه بوفاته، وقد تكرر هذا الأمر فى حياة الناس .

إن أعمار الناس معلومة المقادير عند الله، فإنه سبحانه قد علم كل شىء قبل كونه فقدره تقديرا، وكتب الأعمار عنده، وقال : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فاطر - ١١ . أماً تعمير الإنسان فهو تجاوزه السبعين سنة، وأما التنقيص من عمره فقيل هو ما يمضى منه، كأن يمضى يوم، يومان، ثلاثة.... الخ وعلى هذا المعنى ورد قول القائل :

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدّ فَكُلَّمَا ... مَضَى نَفَس منهَا انْتَقَصْتَ بِهِ جزءا

هذا وجه فى تفسير الآية، ويؤيده ما رواه مسلم والنسائى، وابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود أن أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها لما قالت : اللَّهمَّ متّعنِى بزَوْجِى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال لها : إِنَّك سَأَلْت اللَّهَ لآجَال مَضْروبَة، وآثار مَوْطوءَة، وأرزاق مَقْسومَة، لا يعجل شَيْئاً منْهَا قَبْلَ حله، ولا يؤخر منْهاَ شَيْئًا بَعْدَ حله، ولَوْ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يعافيَكِ مِنْ عَذَابِ النَّار، وعَذَابٍ فِى القَبْرِ لكَانَ خَيْراً لَك)

وفى تفسير الآية وجه آخر ذكره الشيخ ابن عاشور رحمه الله قائلا:

(فَكَيْفَ يَثْبت فى هذه الآية للأعمار زيادة ونقص مع كون الأعمار فى كِتَابٍ وعِلْمٍ لا يَقْبَلِ التَّغْيِيرَ؟)

وكيف يرغب فى الصدقة مثلا بأنها تزيد فى العمر؟ وأن صلة الرحم تزيد فى العمر؟

ثم قال :

والمخلص من هذا ونحوه، هو القاعدة الأصلية الفارقة بين كون الشيء معلوماً لله تعالى، وبين كونه مراداً، فإن العلم يتعلق بالأشياء الموجودة والمعدومة، والإرادة تتعلق بإيجاد الأشياء على وفق العلم بأنها توجد.

فالناس مخاطبون بالسعى لما تتعلق به الإرادة، فإذا تعلقت الإرادة بالشيء علمنا أن الله علم وقوعه وما تصرفات الناس، ومساعيهم إلا أمارات على ما عَلمه الله لهم ، فصدقة المتصدق أمارة على أن الله علم تعميره، والله تعالى يظهر معلوماته فى مظاهر تكريم أو تحقير، ليتم النظام الذى أسس الله عليه هذا العالم، ويلتئم جميع ما أراده الله من هذا التكوين على وجوه لا يُخِل بعضها ببعض، وكل ذلك مقتضى الحكمة العالية.

ثم قال :

ولا مخلص من هذا الإشكال إلا هذا الجواب، وجميع ما سواه- وإن أقنع ابتداء - فمآله إلى حيث ابتدأ الإشكال .

(التحرير والتنوير ج٢٢ ص٢٧٨)

إن انتهاء عمر الإنسان معلوم عند الله مذ كان فى بطن أمه، فإذا توفى الله عبده عند انقضاء أجله، وكانت الوفاة من غير مرض سابق، فإنها تفاجئ الناس، فيربطونها بأى سبب آخر غير المرض، كتناول الميت لبعض المواد السامة، أو إصابته بصدمة عنيفة فى حادث، أو استجابة الدعاء عليه، وكم فى الحياة من أناسٍ جرى القدر بموتهم عند دعائهم على أنفسهم، أو عند الدعاء عليهم.

وإليك طائفة من تلك المشاهد :

مشهد من دعا على نفسه أن يموت بالطاعون

روى شهر بن حوشب عن رابة - رجل من قومه كان شهد طاعون عمواس [1]أنه قال:

لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة عامر بن الجراح فى الناس خطيبا فقال :

---

(١) عمواس بليدة فى فلسطين بين الرملة وبيت المقدس.

أيهـا الناس إن هذا الوجع رحـمـة ر بكم، ودعـوة نبيـكم صلى الله عليـه وسلم ، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه.

قال : فطعن أبو عبيدة فمات - رحمه الله - واستخلف على الناس معاذ بن جبل.

من (صفة الصفوة ج١ ص٤٩٨)

مشهد من دعا أن يموت هو وأهله بالطاعون

قال عبد الله بن رافع :

لما أصيب أبو عبيـدة فى طاعون عمواس استخلف على الناس مـعاذ بن جبل، فلما اشتد الوجع بالناس قالوا لمعاذ : ادع الله أن يرفع عنا هذا الرجز فقال :

إنه ليس برجز، ولكنه دعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يختص بها الله من يشاء من عباده منكم.

أيها الناس أربعُ خـلال من استطاع أن لا يدركـه شيء منها فلا يدركـه شيء منها ، قالوا:

وما هن ؟

قال : - يأتى زمان يظهر فيه الباطل.

- ويصبح الرجل على دين، ويمسى على آخر.

- ويقول الرجل والله لا أدرى على ما أنا؟ لا يعـيش على بصيرة، ولا يموت على بصيرة.

- ويُعْطَى الرجل من المال مال اللَّه على أن يتكلم بكلام الزور الذى يسخط الله.

اللَّهمَّ آت آلَ معَاذ نَصيبَهم الأوفَى منْ هذه الرَّحْمَة.

فطعنَ ابنَاه، ثم طَعَنت امرأتاه، وطعنَ هو فى إبهامه، فجعل يمسحها بفيه ويقول :

اللَّهمَّ إنّها صَغِيرَة فبارك فيـها، فإنّك تبـارك فى الصغيـرة، حتى هَلَكَ رحـمه الله ورضى عنه .

من (صفة الصفوة ج١ ص٤٩٩)

مشهد من دعا على نفسه مخافة الفتنة فمات

روى ابن الجوزى عن عبد الله بن عامر أنه قال :

قـام عـامـر بن ربيـعـة يصلى مـن الليل، وذلك حـين نشب الناس فـى الطعن على عثـمان، فـصلى من الليل، ثم نام فأتى فى المنام، فقيل له: قـم فَسَلِ اللَّهَ أنْ يعـيذَكَ من الفتنةِ التـى أعاذ منها صـالح عِبَادِهِ، فـقام فصلّى - يعنى وسـأل الله - ثم اشتكَى، فـما خرجَ إلا على جنازة.

قال ابن سعد قال الواقدى:

كان موت عامر بن ربيعة بعد قتل عثمان بأيام ، وكان قد لزم بيته فلم يشعر الناس إلا بجنازته قد أخرجت رضى الله عنه.

من (صفة الصفوة ج١ ص٤٤٩)

مشهد من أحب لقاء الله فدعا على نفسه فمات

قال حميد بن عبد الرحمن:

كان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له حُممة خرج إلى أصبهان غازيا (وفتحت فى خلافة عمر رضى الله عنه) فقال :

اللَّهُمَّ إِنَّ حممَةَ يزعم أنّه يُحِب لقاءَك، فإِن كان صادقا فَاعْزِمْ له عليه بصدقه، وإن كان كاذبا فاعزم له عليه وإن كره، اللهم لا ترد حُممة من سفره هذا.

فمات رضى الله عنه بأصبهان.

من (صفة الصفوة ج١ ص٧٤٢)

مشهد من دعا الله أن يخرجه من دار الفتن

قال يونس:

ما رأيت أحداً سُرَّ بالموت من أبى الفضل يوسف بن مسرور مولى نجم الصيرفى، كان يقول :

والله لو أعلم أن أحداً تجاب دعوته لسألته أن يسأل الله تعالى لى الموت:

فقلت له :

أصلحك الله أو تحب أن تموت ؟

فقال :

وكيف لا أحب الخروج من دار فيها الفتن وإبليس وكذا وكذا إلى دار أرجو فيها الاجتماع مع محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وتحدث أبو على الحسن بن فتحون فقال :

كنت يوما جالسا عند أبى محمد البرقى حتى دخل عليه أبو الفضل فقال له :

إِن شئتَ تدعو ونؤمِّن، أَوْ نَدْعو وتؤَمِّن .

فَقال أبو الفضل :

أَيَّ ذلك شئتَ .

وأخذ أبو الفضل فى الدعاء وأخذ الآخر يؤمِّن على دعائه يسألان الله تعالى

الموت، فما أتى بعد ذلك شهر حتى مات أبو الفضل، ثم شهر آخر بعده حتى مات أبو محمد البرقى - رحمهما الله تعالى.

من (رياض النفوس ج٢ ص٢٣٦)

كان من دعاء أبى محمد عبد الله بن محمد العتمى :

اللهم لا تمتنى حتى تزهدنى فى الدنيا وأترك الدكان والعيال.

فكان كذلك، ترك الدكان، وفرق ما فيه على أهله وجيرانه، وخير زوجته، ودفع إليها حقها يوم الخميس، وعزم على سكنى بعض الثغور والرحلة إليه يوم السبت فتوفى يوم الجمعة قبله.

وكان من دعائه :

رَبِّ أمتنى بَغْتَةً، وَلا تَفوتنى صَلاة .

فأجاب الله دعاءه، صلى المغرب ودخل ليفطر، فما غاب الشفق إلا وهو من أهل الآخرة.

من (ترتيب المدارك ج٥ ص١٣٣)

مشهد قاض دعا على نفسه فمات

قال أبو الحسن النباهى :

ومن باب التمنع عن المسارعة إلى الأمور التى يخاف من الدخول فيها السقوط فى الفتنة ما جرى لجعفر بن الحسن الآمدى قاضى بلنسية آخر أيام قضائه بها، وذلك أنه بويع لمروان بن عبدالعزيز ببلنسية فى صفر سنة أربعين وخمسمائة، وطلب من القاضى جعفر أن يشهد على بيعته، فقال :

والله لا أفعل وبيعة تاشفين فى عنقى ، ثم قال :

اللهم اقْبِضْنى إلَيْكَ.

قال ابن الأَبَّارِ صاحب (كتاب التكملة) فتوفى فى ليلته، ودفن فى الغد .

من (كتاب المرقبة العليا ص ١٦)

مشهد من خشى الإكراه على تولى القضاء فدعا فمات

قال أبو الحسن النباهى :

ومن أهل (سَرَقُسْطَةَ) قاسم بن ثابت بن عبد العزيز الفهرى صاحب كتاب (الدلائل فى شرح غريب الحديث) دُعى للقضاء ببلده فامتنع من ذلك و (سرقسطة) هى إحدى مدن جزيرة صقلية الواقعة بالشمال الشرقى للبلاد التونسية.

فلما اضطره الأمير وعزم عليه استمهله ثلاثة أيام يستخير فيها الله عز وجل ، فمات خلال تلك المدة، فكان الناس يرون أنه دعا الله عز وجل فى الاستكفاء، فكفاه وستره، وصار حديثه موعظة فى زمانه .

توفى - رحمه الله تعالى - سنة اثنتين وثلاثمائة .

من (المرقبة العليا ص١٣)

مشهد من فزع إلى الله مخافة تولى القضاء فمات

قال أبو الحسن النباهى :

وممن عرض عليه القضاء بأفريقية فامتنع منه أبو ميسرة أحمد بن نزار، فلما عُرض عليه قال :

اللهم إنك تعلم أنى انقطعت إليك وأنا ابن ثَمَانى عَشْرَةَ سنةً، فلا تمكّنْهمْ منى، فما جاء العصر إلا وقد تُوفِّى يوم الاثنين منتصف ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

من (المرقبة العليا ص١٦ - ورياض النفوس ج٢ ص٣٦٢ - وترتيب المدارك ج٥ ص٢٤٩ - ومعالم الإيمان ج٣ ص٥٠)

مشهد من فر من تولى القضاء فتوفاه الله بعد ثلاث

كان أبو بكر بن أحمد بن على دعسين فقيها كثير الفنون، قانعا من الدنيا باليسير، متواضعا باذلاً نفسه للطلبة، انتفع به جمع كثير من أهل التهائم والجبال، وكان رئيس المفتين بمدينة زبيد، وشرح سنن أبى داود فى نحو أربعة مجلدات.

أراد الملك المجاهد أن يوليه القضاء بمدينة زبيد، فكره ولم يساعد إلى ذلك، فلم يقبل منه السلطان ولا عذره، فلما رأى الإلزام من السلطان امتهل منه ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الثالث توفى إلى رحمة الله تعالى ، وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقبرة باب سهام.

من (كتاب جامع الكرامات ج١ ص٢٦٠)

مشهد من ثبت على تمنعه من تولى القضاء إلى أن مات

قريب من المشاهد السابقة مشهد من ثبت على تمنعه من تولى القضاء، لكنه لم يحمل عليه بما يجعله يدعو الله أن يجيره منه، وهو أبو عبد الله بن عتاب بن محسن.

كان له صندوق مقفل قد وصّى أن لا يفتح إلا بعد موته، فلما مات فتح، فإذا فيه أربعة كتب من أربعة رؤساء :

- ابن عبَّاد .

- وابن الأفطَسِ.
- وابن صُمَادِحٍ .
- وابن هود .

كل منهم يدّعوه إلى نفسه، وإلى تقلد القضاء ببلده، وقد كتب على كل كتاب منها: (تركته لله).

توفى رحمه الله تعالى ليلة الثلاثاء لعشر بقين من صفر سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

من (ترتيب المدارك ج٨ ص١٣٤)

أضواء على التمنع من ولاية القضاء

الفزع من تولى القضاء.

دَأَبَ الخلَفَاء - فى جميع مراحل التاريخ - على إسناد القضاء إلى غيرهم ولكنَّ كثيراً من المدعوين إلى القضاء كانوا يفزعون منه فزعا عظيما، ويمتنعون من تقلده مهما تكن الضغوط المسلطة عليهم.

وأول من بلغنا من المتنعين من تولى القضاء عبد الله بن عمر رضى الله عنه، دعاه عثمان بن عفان رضى الله عنه، فقال له :

- اقْضِ بينَ الناسِ .
- قال عبد الله : لاَ أَقْضِى بين رجلين ما بَقيتُ.
- قال عثمان : لَتَفعَلَنَّ
- قال عبد الله : لا أَفْعَلَ .
- قال عثمان : فَإِنَّ أَبَاكَ كان يَقْضى
- قال عبد الله : كان أعْلَمَ مِنِىّ وأَتْقَى

من (المرقبة العليا ص ١١)

وممن فزعوا من تولى القضاء

ابن فروخ :

فقد نقل أبو الحسن النباهى عن ترتيب المدارك للقاضى عياض أن الأمير روح بن حاتم أرسل إلى ابن فروخ ليوليه القضاء فامتنع، فأمر به أن يربط، ويصعد به على سقف الجامع (فَفُعِلَ به ذلك) وقيل له : تَقْبَل ؟ فقال : لا، فأُخذَ ليطرَحَ، فَلَمَّا رأى العَزْمَ قال قَبِلت، فَأجْلسَ فى الجامع ومعه حرس، فتقدم إليه خَصمان، فنظر إليهما وبكى طويلاً، ثم رفع رأسه فقال لهما : سألتكما بالله إلا أعفيتمانى من أنفسكما، ولا

تكونا أول مشوش عليَّ فرحماه وقاما عنه، فأعلم الحرس بذلك روحا، فقال اذهبوا إليه فقولوا له يشير علينا بمن نولى، إذ ما قبل.

فقال إن يكن فعبد الله بن غانم، فإنى رأيته شابا له صبابة ، يعنى بمسائل القضاء، فعليك به فإنه يعرف مقدار القضاء، فولى ابن غانم فكان يشاوره فى كثير من أموره وأحكامه، فأشفق ابن فروخ من ذلك، وقال له يا ابن أخى لم أَقْبَلْهَا أَمِيراً أَقْبَلُهَا وَزِيراً، وخرج إلى مصر هَرَباً من ذلك وَوَرَعاً ومات هنالك .

من (المرقبة العليا ص.١٦)

آراء العلماء فى الأكفاء الممتنعين من تولى القضاء

لما كانت ظاهرة الامتناع من تولى القضاء قد غمرت المشارق والمغارب من بلاد المسلمين، كانت الأسئلة ترفع إلى علماء تلك القرون المشهود لها بالخيرية، فيسألهم الأمراء وغيرهم عن الحكم الشرعى فى الرجل الكفء الممتنع من تولى القضاء .

فقد سئل ابن وهب عن ذلك، فروى عن مالك فى الرجل يدعى للعمل فيكره أن يجيب إليه، وخاف على دمه وجلد ظهره وهدم داره، كيف ترى فى ذلك؟ فقال: أما هدم داره، وجلد ظهره وسجنه، فإنه يصبر على ذلك ويترك العمل خير له، وأما أن يباح دمه، ولا أدرى ما حد ذلك، ولعله فى سعة من ذلك إن عمل .

وقال الأبهرى : أما الضرب والسجن فإن صبر فهو أفضل، وأما دمه فإن عمل فلعله فى سعة أن يجرى العدل والإنصاف، وإن لم يمكنه لم يجز له أن يتعدى الحق، ويصبر على ما يلحقه من المكروه، إذ لا يجوز له أن يبطل حق المسلمين وحريمهم لنفسه.

ونقل عن سحنون أنه قال : إذا كان الرجل أهلاً لخطة القضاء فاستعفى منها عوفى إن وُجِد لها عوض منه، وإن لم يوجد أجبر عليها ، فإن أبى سُجن، فإن أبى ضُرب.

وفصّل بعض أهل العلم بين أن يكون الداعى إلى العمل غير عدل فلا يجوز إعانته على أموره لأنه متعد فى فعله ويجب على المدعو أن يصبر على المكروه ويدع العمل معه، وبين أن يكون الدّاعى إلى العمل عدلاً فتستحب إعانته فى ذلك .

سبب خوف العلماء من تولى القضاء

لقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم خطر هذه المهمة، فمن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم عن بريدة رضى الله عنه، أنه صلى الله

عليه وسلم قال : (الْقُضَاة ثَلاثَةٌ، اثْنَان فى النَّارِ وَوَاحدٌ فى الْجَنَّة، رَجل عَلمَ الْحَقَّ فَقَضَى به فَهُوَ فِى الْجَنَّة، ورَجل قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِى النَّارِ، ورَجل عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِى الْحكْمِ فَهُوَ فِى النَّارِ).

ولقد راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه المهمة من دقائق إقامة العدل مالم تبلغه قوانين البشرية جمعاء لا ماضيا ولا حاضرا، ألم يقل صلى الله عليه وسلم (مَنِ ابْتُلِيَ بِالْقَضَاءِ بَيْنَ الْمسْلمينَ فَلْيَعْدِلْ بَيْنَهمَ فِى لَحْظِهِ وَإِشَارَته ومَقْعَده ومَجْلسه رواه البيهقى فى الشعب والطبرانى فى الكبير عن أم مسلمة رضى الله عنها، كما رويا عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنِ ابْتلِىَ بِالْقَضَاءِ بَيْنَ الْمسْلمِينَ فَلا يَرْفَع صَوْتَه عَلَى أَحَدِ الخَصْمَيْنِ مَا لا يَرْفَع عَلَى الاخَرِ) وإن مراعاة الدقة فى تلك الأمور كلها ليس من السهل أن يلتزم بها كل أحد.

وما أروع تصوير رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلية القضاء فيما رواه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه صلى الله عليه وسلم إذ قال :

(مَنْ وَلِىَ الْقَضَاءَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ) .

ومن تحذيره صلى الله عليه وسلم من عواقب هذه الخطة وما إليها ما رواه عنه أبو أمامة فى مسند أحمد : (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِى أَمْرَ عَشَرَة فَمَا فَوْقَ ذَلكَ إلا أَتَى اللَّهَ مَغْلولاً يَدُهُ إِلَى عُنقه، فَكَّه بِرّهُ، أو أوبقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزى يوم القيامة).

(وقال يحيى بن سعيد: وليت قضاء الكوفة وأنا أرى أنه ليس على الأرض شىء من العلم إلا وقد سمعته، فأول مجلس جلست للقضاء اختصم إلىّ رجلان فى أمر ما سمعت فيه شيئا).

من (المرقبة العليا ص ١٠)

وفى المستخرجة قال مالك قال عمر بن الحسين ما أدركت قاضيا استقضى بالمدينة إلا رأيت كآبة القضاء وكراهيته فى وجهه.

من (المرقبة العليا ص١٠)

ومن أغرب ما وقفت عليه من عواقب أمر القضاء ما روى عن مسلمة بن زرعة أنه قال رأيت فى الأندلس قاضيا يدعى مهاجر بن نوفل القرشى، ما رأيت مثله فى العبادة والورع، ولقد بلغنى فى موته أعظم العَجَب أخبرنى به ثقات من أهل بلده، وذلك أنه لما دفن فى مقبرتهم ليلاً ،وأظنه عهد بذلك فلما أهيل عليه التراب سمعوا من القبر كلاماً فاستمعوا له فسمعوه ينادى :أنذركم ضيق القبر وعاقبة القضاء، فكشفوا عنه وظنوه حيا، فوجدوه مكشوف الوجه ميتا بحالته التى قبر عليها - رحمه الله تعالى .

من (المرقبة العليا ص ١١ - ١٢)

ومن العلماء من كان يتولى القضاء وبعد فترة يمتنع من مواصلة عمله لسبب ما.

ومن هؤلاء عافية بن يزيد كان يلى القضاء ببغداد للمهدى،فجاء فى بعض الأيام وقت الظهر للمهدى وهو خال، فاستأذن عليه فلما دخل استأذنه فيمن يسلم إليه القمطر الذى فيه قضايا مجلسِ الحكم واستعفاه من القضاء وطلب منه أن يقيله من ولايته، فظن المهدى أن بعض الأولياء قد عارضه فى حكمه، فقال له: إن كان عارضك أحد لننكرن عليه، فقال القاضى: لم يكن شىء من ذلك، قال: فما سبب استعفائك من القضاء؟ قال : يا أمير المؤمنين كان تقدم إلىّ خصمان منذ شهر فى قضية مشكلة، وكل يدعى بينة وشهودا، ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتثبت، فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما ، فسمع أحدهما أنى أحب الرطب، فعمد فى وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب، فجمع رطباً لا يتهيأ فى وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين، وما رأيت أحسن منه ورشا بوابى بدراهم على أن يدخل الطبق علىّ، ولا يبالى أن يرد عليه، فلما أدخله علىّ أنكرت ذلك وطردت بوابى وأمرت برد الطبق فرد عليه، فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلىّ، فما تساويا فى عينى ولا قلبى، فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل فكيف يكون حالي لو قبلت ؟ ولا آمن أن تقع علىّ حيلة فى دينى فأهلك وقد فسد الناس، فأقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله واعفنى عفا الله عنك ، فأقاله.

من (العقد الفريد ص ١٧٠)

مشاهد من موت بعض المبتلين بالمعاصي

يقول النبى عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام أحمد والترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه :

(كلُّ بَنى آدَمَ خَطَّاءْ، وَخَيْرُ الخَطَّائينَ التَّوَّابونَ)

والله سبحانه قد ربط فلاح الجميع بالمتاب فقال : ﴿ وَتوبوا إلَى اللَّهِ جَميعاً أَيُّهَا المؤْمنونَ لَعَلَّكمْ تفْلِحونَ﴾ سورة النور - ٣١ .

كما تفضل بقبول توبة كل تائب فقال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَه ثمَّ يَسْتَغفِر اللَّهَ يَجِد اللهَ غَفُوراً رَحيماً ﴾ النساء - ١١٠ .

وقال : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَل التَّوْبَةَ عَنْ عِبَاده وَيَعْفو عَنِ السَّيِّئَات وَيَعْلَم مَا يَفْعَلونَ. وَيَسْتَجيب الذين آمنوا وَعَملوا الصَّالِحَات وَيَزيدهمْ مِنْ فَضْلِه ﴾ الشورى - ٢٥-٢٦ .

والتوبة المقبولة هى التى يقوم بها الآثم من قريب، كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَة عَلَى الله للَّذينَ يَعْمَلونَ السّوءَ بِجَهَالَة ثمَّ يَتوبونَ مِنْ قَريب، فَأولَئكَ يَتوب الله عَلَيْهِمْ، وكَانَ الله عليما حكيما، وَلَيْسَت التَّوْبَة للَّذينَ يَعْمَلونَ السَّيِّئَات حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهم الْمَوْت قَالَ إِنِّي تبْت الآن، وَلا الذينَ يَموتونَ وَهمْ كفَّارْ ﴾ سورة النساء -١٧ - ١٨ .

لكن من الآثمين من يسوف ويماطل بالمتاب، ولا يستفيق من غشية الآثام إلا عندما تأخذه سكرة الموت بالحق، فيرى ما سلف من سيئاته، وتشتد به آلام الندامة على ما فرط فى جنب الله ، بل إن منهم من تكون معصيته سببا لوفاته.

فمن هؤلاء إبراهيم المعروف بابن هرمة

هو إبراهيم بن على بن سلمة الفهرى ، وهو من شعراء الدولتين (الأموية والعباسية)وكان شيخ الشعراء فى زمانه وكان منهوما فى الشراب، لا يكاد يصبر عنه، وقد حده والى المدينة أكثر من مرة .

ومر يوما على جيرانه وهو ميت سكراً حتى دخل منزله، فلما كان من الغد عاتبوه على الحالة التى كان عليها ورأوه فيها، فقال : أنا فى طلب مثلها منذ دهر، أما سمعتم قولى :

أَسْأَل اللهَ سَكْرَةً قَبْلَ مَوْتِى ... وَصِيَاحَ الصِبْيَانِ يَا سَكْرَانُ

فنهضوا من عنده، ونفضوا ثيابهم، وقالوا: ما يفلح هذا أبدا.

وكان قد أَدْرَكَ أنّه إذا مات لا يَشْهَد الناس جنازته. فقال :

مَا أظنّ الزّمَانَ يَا أمَّ عَمْرِو تَارِكًا إنْ هَلَكْت مَنْ يَبْكِينى

وكذلك كان، لقد مات، وما يحمل جنازته إلا أربعة نفر، لا يتبعهم أحد، حتى دفن بالبقيع، وكانت وفاته سنة خمسين ومائة.

من (فوات الوفيات ج١ ص٣٤)

ومنهم أبو الهندى غالب بن عبد القدوس

قال صدقة بن إبراهيم البكرى :

كان أبو الهندى يشرب معنا، وكان إذا سكر يتقلب تقلبا قبيحا، فى نومه، فكنا كثيرا ما نشد رجله لئلا يسقط، فسكرنا ليلة فى سطح، وشددنا رجله بحبل طويل، ليهتدى عند القيام لبوله، فتقلب، فسقط من السطح فأمسكه الحبل، فبقى معلقا منكسا، فأصبحنا فوجدناه ميتا.

فمررت على قبره بعد حين، فوجدت عليه مكتوبا:

اجْعَلوا إنْ متّ يَوْماً كَفَنى وَرَقَ الْكَرْمِ وقبرى الْمَعْصَرَةْ

إنّنى أرجو من الله غَداً - بَعْدَ شرْبِ الرَّاحِ - حسْنَ الْمَغْفَرهْ

وكان الفتيان يجيئون إلى قبره فيشربون، ويصبون القدح إذا وصل إليه على قبره.

من (فوات الوفيات ج٣ ص١٧١)

ومنهم يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس :

لما ولى يحيى أساء السيرة، وخالف طريق سلفه، فدخل الحمام المقصور على النساء بسبب امرأة جميلة من اليهود يقال اسمها حَنَّة، فأنكر الناس ذلك وثاروا به مع عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى، واعتصم منهم بإحدى العدوتين عدوة الأندلس.

فذُكر أنه مات فى ليلته أسفا على ما جناه على نفسه .

من (القسم الثالث من أعمال الأعلام ص ٢٠٧)

ومنهم فناخسرو بن بويه:

هو عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن الحسن بن بويه ركن الدولة.

قال السيوطى : كان فاضلا نحويا شيعيا، وكان حسن السياسة شديد الهيبة، له فى الأدب يد متمكنة، تولى مُلك فارس، ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة (جزيرة ابن عمر)

وهو أول من خُطب له على المنابر بعد الخليفة، وأول من لُقب فى الإسلام بشاهنشاه، ومن شعره قوله:

لَيسَ شُرْب الراحِ إلا فى المَطَرْ وَغنَاء مِنْ جَوَارٍ فى السَّحَرْ
غَانيَاتٍ سَالبَات للنّهَى نَاعمَاتَ في تَضَاعيف الْوَتَرْ
مُبْرِزَات الكَأس مِنْ مَطْلَعهَا سَاقيَاتَ الرَّاحِ مَنْ فَاقَ الْبَشَرْ
عَضُدَ الدّوْلَة وَابْنَ رُكْنهَا مَلكَ الأمْلاك غَلاَّبَ القَدَرْ

قال السيوطى : فلم يُفلحْ بعد هذا البيت، ومات بعلة الصرع يوم الاثنين ثامن شوال سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

ولما احتضر لم ينطق إلا بتلاوة ﴿مَا أَغنَى عَنّي مَاليَهْ هَلَكَ عَنيّ سلْطَانيَهْ ﴾ سورة الحاقة - ٢٨ - ٢٩ .

من (بغية الوعاة ص ٣٧٤)

وزاد ابن خلكان على ما تقدم :

أنه ما عاش بعد تلك الأبيات إلا قليلا ومات ببغداد ثم نقل إلى الكوفة، ودفن بمشهد(١) أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، وعمره سبع وأربعون سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة أيام.

من (وفيات الأعيان ج٤ ص٥٤)

ومنهم محمد بن مغيث :

قال ابن رشيق :

كان محمد بن مغيث مفتونا بالخمر متبذلاً فيها، مدمنا عليها، لا يفيق منها، مولعا ببيت الخمار ومخالطة العامة، فطار اسمه لذلك واشتهر به.

سأله بعض إخوانه - ليختبر قوة نفسه فى المرض الذى مات فيه - هل تقدر على النهوض لو رمته؟ فقال : لو شئت من هاهنا إلى حانوت أبى زكريا الخمار.

فقال له : أفلا قلت إلى الجامع؟

فقال : لكل امْرِىء مِنْ دَهْرِه مَا تَعَوّدَا، ولَمْ تَجْرِ العادة بذلك.

توفى ابن مغيث آخر سنة ثلاث وأربعمائة وقد بلغ الخمسين والسن ظاهرة عليه.

---

(١) يعني بالمشهد المكان الذى دفن فيه أمير المؤمنين

من (أنموذج الزمان ص٤٠٤)

مشاهد من اشتهوا شيئا عند وفاتهم

قال ابن خلكان :

لما حضرت الوفاة أبا العتاهية قال أشتهى أن يجئ مخارق المغنى ويغنى عند رأسى، والبيتان له من جملة أبيات :

إذا ما انقضتْ عنّى من الدهر مدّتى   فإنّ عـــزاءَ الباكيات قليل

سيُعرَض عن ذكرى وتُنْسَى مَودّتى   ويَحدث بعدى للخليل خليل

مات يوم الاثنين لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة ومائتين ببغداد رحمه الله .

من (وفيات الأعيان ج١ ص٢٢٢)

وتحدث ابن خلكان عن المعتضد بالله أبى عمرو عباد اللخمى فقال :

لما أحس بتدانى حمامه استدعى مغنيا يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألا، فأول ما غنى :

نَطوِى الليالىَ علما أنْ ستَطْوينا   فَشَعْشِعيها بماء المزن واسقينا

فتطير من ذلك، ولم يعش سوى خمسة أيام، وتوفى يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة، ودفن ثانى يوم بأشبيلية .

من (وفيات الأعيان ج٥ ص٢٤)

ونظر عبد الملك بن مروان - عند موته - من قصره إلى قَصَّارٍ يضرب بالثوب المغسلة فقال :

يا ليتنى كنت قَصَّارا، ولم أتقلد الخلافة .

فبلغ كلامه أبا حازم فقال :

الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ماهم فيه.

من (الكشكول للعاملى ج١ ص١١)

ولما مرض ذو النون المصرى مَرَضَهُ الذى مات فيه قيل له :

ما تشتهى ؟

قال : أن أعرفه قبل موتى بلحظة .

من (طبقة الأولياء ص٢٢٢)

وقال الحسين بن الفضيل :

حضرت أبا الحسن النورى وهو فى الموت، فقلت ألك حاجة؟ أو: أفى نفسك شهوة؟

فرفع رأسه، وقد انكسر لسانه وقال :

إى والله أشتهى شهوة كبيرة.

قلت : وما هى ؟

قال : أشتهى أن أرى الله .

ثم تنفس ثلاثا عالياً كالواجد بحاله وفارق الدنيا .

من (طبقات الأولياء ص ٦٩)

مشاهد الناطقين بالشعر عند الموت

اللغة هى أداة التعبير عما يجرى بين الناس فيما ألفوه فى الحياة، وجميع الأحياء لم يألفوا الاحتضار، ولم يذوقوا طعمه، ومن هنا كانت اللغة لا تحتوى على عبارة تصف لحظات الاحتضار بدقة.

فهل نقول : إنها لحظات (عجيبة) ؟ ربما أمكن ذلك.

فلنكتف إذن بوصف تلك اللحظات بأنها لحظات (عجيبة) ولنعترف - مع هذا - بالعجز عن تصورنا لحالة هى أعظم من أنها عجيبة، فإن مشاهدة أحوال المحتضرين تبعث على الاندهاش.

إن الإنسان عند احتضاره ينزل به كرب عظيم، وهول شديد، بصورة لم يسمع قط بمثلها، ولم يشهد لها فى حياته مثيلا.

ففى ساعة احتضاره يؤمن بأن بقاءه فى الدنيا قد انتهى، وبأن ارتحاله إلى العالم الآخر وشيك، إنه عالم مجهول لديه بكل محتوياته، ويُدرك أنه مفارق لكل مألوفاته حتما، ولا يصحبه فى رحلته المحتومة لا الأصدقاء، ولا الأهل، ولا الولد، ولا ما جمع وأوعى، ويعلم أنه - فى هذه السفرة - قد تقدّمته حقائب حسناته وسيئاته، فتتوزع مشاعره بين ما قدم وما أخر.

فمن المحتضرين من يذعرون لذلك، فتتوقف ألسنتهم عن الكلام، فيخرجون من الدنيا صامتين .

ومنهم من يكاشفه الله - فى تلك اللحضات - ببعض المشـاهد المغيَّبة عن الأحياء ، فيتكلم معربا عن بعض مكاشفاته، ومن هؤلاء من قال فى حال احتضاره:

الحمـد لله ثـمّ الحمـد لله كم ذا على الموت من ساه ومن لاهِ
ماذا يشاهد ذو العينين من عـجب عـند الخـروج من الدنيا إلى الله

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول :

(احضُروا أمواتكم وذكّروهم، فإنّهم يرون ما لا ترون)

وفى رواية عنه أنه قال :

(لَقِّنُوا أمواتكم لا إله إلا الله، واعقـلوا ما تسمعون من المطيعـين منكم، فإنّه تُجلى لهم أمور صادقة [1]

إنّ بوادر الاحتضار كثيرا مـا تحمل بعض الشعراء على تصوير القليل مما شغلهم فى تلك اللحظات، فيـرسُمُون بعض مشـاعرهم بآخر مـا ينظمون، ويطوون بها الصفـحة الأخيرة من حيـاتهم، وهم - وقتئذ - بين فكر مندهش، وقول مـتلجلج ، ولسان ثقيل، لا يسعف إلا بالقليل. ولكن منهم من يُثبّتهْ الله فيُفصِح غيرَ متلجلج.

(١) من شفاء الصدور ص٣٣ .

وإليك نماذج من خواطر المحتضرين

مشهد من عُذّب ثمّ قتل، ولم يرتد عن الاسلام

كان خُبيب بن عدى رضى الله عنه قد عزم المشركون على قتله بمن قُتل منهم يوم بدر، فلما رفعوه على الخشبة ليقتلوه قال :

لقد جمع الأحزاب حولى وألّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
فقد جمعوا أبناءهم و نساءهم [1] ... وقُرِّبتُ من جذع طويل مُمَنّع
إلى الله أشكو غربتى ثم كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
فذا العرش صبّرنى على ما يراد بى ... فقد بَضَعوا لحمى[2] وقد بان[3] مطمعى
وذلك فى ذات الإله، وإن يَشأ ... يبارك على أوصال شلو[4] مُمَزّع
وقد خيّرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزع
ولست بمُبد للعدوّ تخشّعا ... ولا جَزَعاً إنّى إلى الله مرجعى
وما بى حذَارَ الموت إنّى لَميّتٌ ... ولكن حذارى جَحْمَ نَار مُلَفّع[5]
ولستُ أبَالى حين أُقتَل مسلما ... على أىّ جنب كان فى الله مضجعى

ولما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب نَادَوْه وناشدوه :

يا خُبيب أتحب أن محمدا مكانك ؟

فقال : لا ، والله العظيم ما أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه.

فضحكوا من كلامه ...

من (كتاب حياة الصحابة ج١ ص٧٨٦)

مشهد من شكا تبريح الموت ورأى عمره الطويل كلمحة

قال ابن بسام كان أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار...

وكان قديرا على فنون الهزل، إلا أنه غلبت عليه البطالة، فلم يحفل فى إيثارها بضياع دينٍ أو مُروءة، وكان منهمكا فى الجود، حتى شارف الإملاق عند موته....

وقاسى فى مرضه شدة، فقال عند موته:

---

(١) يشير إلى أبناء ونساء من قتلوا يوم بدر .

(٢) بضعوا أى قطعوا . (٣) بان : ذهب .

(٤) الشلو : العضو جمعه أشلاء . (٥) ملفع : من قولهم لفعته النار إذا أحاطت به.

خليليّ من ذاق المنـــيّة مَـرّة　　فقـد ذقتـها خـمسـين قَوْلَةَ صَادق

وكان مـوته من فالج أقـام به مدة، ورام أن يقتل نفـسه لشـدة الآلام، وقال فى تلك العلّة :

تأملـــتُ ما أفنــيت من طول مدّتى　　فَلَــــمْ أرَه إلا كلمحة ناظر

وحصّـــلت ما أدركت من طول لذّتى　　فلم ألفـــه إلا كصفقة خاسر

ومــــا أنا إلا أهلُ ما قدّمـــت يدى　　إذَا أخْلَـــفُونى بين أهل المقابر

سقـــــــى اللهُ فتْياناً كأنَّ وجوهَهم　　وجوه مصابيحِ النجومِ الزواهر

يقـــــــولون قد أودى أبو عامرِ العُلا　　أَقلّوا فَقــــدْماً مات آباء عامر

هو الموت لم يخْرَسْ بأسجاع خاطب　　بليغ ولم يَعْـطفْ بأنفاس شاعر

توفـى يوم الجـمـعة آخـر جمـادى الأولى سنة ست وعـشرين وأربعـمائة رحـمه الله.

من (المغرب فى حلى المغرب ص٨٤)

مشهد من شقة الاغتراب والاوصاب

حكى الصولى عمن أخبره أنه قال :

خرجنا للحج، فعرجنا عن الطريق للصلاة، فجاءنا غلام فقال :

هل فيكم أحد من أهل البصرة ؟

فقلنا :كلنا منها .

فقال : إن مولاى منها، وهو مريض يدعوكم .

قال : فقمنا إليه، فإذا هـو نازل على عين ماء، فلما أحس بنا رفع رأسه وهو لا يكاد يرفعه ضعفا، وأنشأ يقول :

يا بعـــــيدَ الدار عن وَطَـنهْ　　مُفــردا يبــكى على شَجَـــنهْ

كلّمـــــا جــدّ الرحيل به　　زادت الأسـقـــــــام فى بدنَهْ

ثم أغمى عليه طويلا، فجاء طائر فوقع على شجـرة كان مستظلا بها، وجعل يغرد ، ففتح عينيه ، وجعل يسمع التغريد ثم أنشد :

ولـــقد زاد الفـــؤادَ شَـجى　　طـــــائرٌ يبــكى على فننهْ

شفّـــه ما شـافنى فبـــكى　　كلّـــــنا يبـكى عـلى سكنهْ

ثم تنفس الصعداء ففاضت نفسه .

قال فغسلناه وكفناه ودفناه، وسألنا الغلام عنه فقال هذا العباس بن الأحنف التميمى وكانت وفاته سنة ١٩٣

من (الكشكول ج٢ ص٢٢٤)

مشهد من أنشد أبياتا واعظة ثم مات

قال أبو عمر أحمد بن الحباب:

خرجت مع يحيى بن مالك بن عائذ المحدث من صلاة العتمة ليلا من المسجد، فشيعته إلى داره، فقعد معى فى دهليزه، وقال أنشدنى ابن المنجم ببغداد لعمه :

تَغَنَّمْ بعضَ ما فاتَكْ ولا تأسى لمَا فاتَكْ

ولا تَرْكَنْ إلى الدنيا أَمَا تذكر أَمواتكْ

قال : فدعوت له بطولِ البقاء، والنَّسَإِ (١)فى الأجل، وسلَّمت عليه وانصرفت، فما بلغت طرف الشارع حتى سمعت الصراخ عليه وقد مات.

توفى - رحمه الله - فى شعبان سنة ست وسبعين وثلاثمائة .

من (جذوة المقتبس ص ٣٥٧)

مشهد من حذّر من مثل أمره

قال القاسم بن عُبيد الله عند موته:

فلا تأمَنَنَّ الدهرَ إنّى أمنته فلم يُبْقِ لى حالاً ولم يَرْعَ لى حقًّا

قَتَلت صناديدَ الرجال فلمَ أَدَعْ عَدُواً ولم أترك على ظهرها خلقا

وأفنيت دار الملك من كلّ بارع فَشَتَّتُّهم غربا وشرَّدتهم شرقا

رَمَانِي الرَّدَى سَهْماً فأخمدَ جَمْرتى فهأنذا فى حفرتى ميِّتا ألقى

ولم يُغن عنى ما جمعتُ ولم أجِدْ لدى قابض الأرواح فى فعله رِفْقا

من (المحاسن والمساوئ ص ٣٤٨)

ولما مات القاسم بن عبيد الله شمت به بعضهم وقال :

خَرَجْتَ من الدنيا ذميماً إلى القبر فلا أحدٌ يأسى ولا دمعةٌ تجرى

وَتِرْتَ رسولَ الله فى أهلِ بيته فكيف رأيتَ الله طالبَ بالوتر

مشهد من استسلم لمرضه فلم يتداو منه

قال القاضى عياض :

يقال إنّ أحمد بن محمد الأشعرى المعروف بابن حمديس القطان من ولد

(١) النسأ : التأخير

الصحابى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وكان من أصحاب سحنون رضى الله عنه.

وروى عياض عن أبى سعيد بن محمد بن سحنون أنه قال :

لما اعتلّ حمديس أحضرنا له طبيبا، فتبسم وقال : ما أقبح المخالفة بعد الموافقة، من أراد الله به حالا وأراد هو غيره أليس قد خالف؟

ثم قال :

بيَد اللـــــه دوائى الذى يعـــــلم دائى

إنّما أظـــــلم نفسى باتبـــــاعى لهوائى

كلّما داويـــت نفسى غَلب الـــــداء دوائى

توفى - رحمه الله - سنة تسع وثمانين ومائتين، وصلى عليه محمد بن سحنون

من (ترتيب المدارك ج٤ ص٣٧٩)

مشهد من أمر الباكية بادخار الدمع لما بعد فقده

كان أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح ينعت بالمعتصم التجيبى، وكان صاحب المرية، وبجاية والصمادحية من بلاد الأندلس.

ونقل ابن خلكان عن ابن بسام فى (الذخيرة) أنه كان بين المعتصم وبين الله سريرة، أسلفت عند الحمام يدا مشكورة، فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة، فى سلطانه وبلده وبين أهله وولده.

حدثنى من لا أرد خبره عن أروَى (وهى بعض حسَان حظايا أبيه) قالت :

إنّى لَعنْدهَ وهو يوصى بشأنه، وقد غُلب عَلى أَكثر لسانه ويده، ومعسكَر ابن تاشفين يومئذ بحيث نعد خيامهم، ونسمع اختلاط أصواتهم، إذ سمع وجبة من وجباتهم فقال: لا إله إلا الله نغص علينا كل شىء حتى الموت.

قالت أرْوَى: فدمعت عيناى، فلا أنسى طَرْفاً إلىّ يرفعه، وإنشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه:

ترفّق بدمـــعك لا تُفنه فَـــبَــيْن يديك بكاء طويل

مات على إثر ذلك عندَ طلوع الشمس يوم الخميس لثمان بقيَن من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالمرية رحمه الله.

من (وفيات الأعيان ج٥ ص٤٤)

مشهد من جابهته سكرة الموت بالحق

كان محمد بن يحيى بن باجة المعروف بابن الصائغ الأندلسى قد قيل إنه سم فى باذنجان بفاس .

ولمّا حضرته الوفاة كان يُنْشد :

أقول لنفسى حين قابلها الردى فَرَاغَتْ فرارا منه يُسْرَى إلى يُمنى
قِفِى تَحْمِلى بعضَ الذى تكرهينه فقد طالما اعتدت الفرار إلى هنَّا (١)

توفى - رحمه الله - فى شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. وقيل سنة خمس وعشرين.

ولمّا مات وقف على قبره أبو بكر بن الحمارة وأنشد :

يا صاحب القبر القريب ودونه هَمٌّ تبيت له الكواكب تسهر
قم إن أطقتَ وهات عن صور الردى خَبَراً فقد عاينتَ كيف تصوّر
واخبرْ عن الملكوتِ كيف رأيتَه إنّ الغريب عن الغرائب يخبر

من (الوافى بالوفيات ج٢ ص٢٤١)

مشاهد من عبروا عن اقتراب أجلهم

كان القاضى أبو محمد محمد بن يعقوب البصرى حسن السيرة... صالحا ورعا عفيفا، حاكما بالحق.

ولما احتضر قيل له : كيف تجدك؟ قال :

أَرَانِى فى انتقاصٍ كلَّ يوم ولا يبقى مع النُّقصان شىّ
طوى العصرانِ ما نشراه منى فأخلقَ جِدّتى نشر وطىّ

مات -رحمه الله - مصروفًا عن القضاء فى شهر رمضان سنة سبع وتسعين ومائتين غير مطعون عليه فى شىء عن تسع وثمانين سنة .

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص٢٢١)

قال عبد الملك العوانى القيروانى :

دخلت على أبى عبد الله محمد بن يوسف العوانى الحسينى عائداً له فى مرضه الذى مات فيه، فسألته عن حاله، فاستند وأنشدنى :

عشنا الثمانين وعمر طويل لم يُبْقِ للصحبة إلا القليلْ
لا تحسبونى ثاوياً بينكم فقد دنا الموت وآن الرحيلْ

---

(١) هنَّا بنون مضاعفة مشددة لغة فصيحة فى كلمة هُنا

توفى - رحمه الله - سنة ستين وستمائة

من (معالم الإيمان ج٤ ص١٩)

روى أبو عبد محمد الحميدى عن أبى الوليد بن حريش أنه قال : لمّا احتُضر أبو العباس بن جهور قال :

أأرجو لى الحياة وقد نأيتم   تقضّى النَّحْب وانقطع الكلام

ثم مات على إثر ذلك.

من (جذوة المقتبس ص٣٧٨)

مشهد من عبّر عن أن كلّ حىّ ميّت

قال أحد الشعراء فى مرض موته :

نَمْضِى كما مضت الأوائل قبلنا   لسنا بأول من دعاه الداعى

تبقى النجوم دوائراً أفلاكها   والأرض فيها كلّ يوم ناعى

وزخارف الدنيا يجوز خِداعها   أبداً على الأبصار والأسماع

من (كتاب الكشكول ج٢ ص٦)

مشهد من عبر عن فواجع مآسيه القاتلة

قال تاج الدين بن السبكى :

روى ابن السمعانى بسنده أن أبا الحسن على بن زريق البغدادى قصد أبا عبدالرحمن الأندلسى وتقرب إليه بنسبه، فأراد أبو عبد الرحمن أن يبلوه، ويختبره فأعطاه شيئا نزرا.

فقال ابن زريق : إنّا للّه وإنّا إليه راجعون .

سلكت البرارى والقفار، والمهامه والبحار إلى هذا الرجل فأعطانى هذا العطاء النزر.

فانكسرت إليه نفسه ، فاعتل ومات.

وشُغل عنه الأندلسى أياماً، ثم سأل عنه، فخرجوا يطلبونه، فانتهوا إلى الخان الذى هو فيه، وسألوا الخانية عنه، فقالت إنّه كان فى هذا البيت، ومنذ أمس لم أبصره، فصعدوا، فدفعوا الباب، فإذا هو ميت وعند رأسه رقعة مكتوب فيها:

لا تَعْذليه فإنّ العذْلَ يولعه   قد قلتِ حقّا ولكن ليس يسمعه

جاوزتِ فى لَوْمِه حداً يَضُرّ به   مِن حيث قدّرتِ أن اللوم ينفعه

فاستعمِلِي الرفْق فى تأنيبه بدلا   من عنْفِه فهو مضْنَى القلب موجَعه

قد كـان مضطـلعا بالبين يحـمله ... فضلّعت بخـطوب البين أضلعه
يكفيه من روعة التفنـيد أن لـه ... من النوى كـل يوم مـا يروّعـه
ما آب من سفر إلا وأزعـجه ... رأى الى سـفر بالعزم يجمعه
كـأنما هو من حـلّ ومـرتحل ... موكَّل بفـضاء الأرض يـذرعه
إذا الـزّمـاع أراه فى الرحيل غنـى ... ولو إلى السِّنْـد أضحى وهو يَزْمَعـه
تأبى المطامع إلا أن تُجَـشمـه ... للرزق كـدًا وكـم ممن يودعـه
وما مـجاهدة الإنسـان واصلة ... رزقا ولا دَعَـة الإنسان تقطـعه
والله قسـم بين الخـلق رزقهم ... لم يخـلق الله مخـلوقا يضيّـعه
لكنهم مُلئوا حرصا فلسـت ترى ... مسـترزقا وسـوى الفاقات تقنعه
والحرص فى الرزق والأرزاق قد قسِمَتْ ... بَغْى ألا إنْ بَـغْىَ المرءِ يصـرعه
والدهر يعطى الفتى ما ليس يـطـلبه ... يومـا ويطعمـه من حيـث يمنعه
أستـودع اللهَ فى بغداد لى قمـراً ... بالكرخ من فلـك الأزرار مطلعه
ودّعته وبِـوُدِّى أن يُودِّعَـنى ... صفـو الحيـاة وأنّى لاَ أودِّعـه
وكم تشـفّع بـى أن لا أفـارقَه ... وللضـرورات حـال لا تشفّعه
وكم تشبَّـث بى يوم الرحيل ضحى ... وأدمعـى مستـهلات وأدمعـه
لا أكْـذِبُ اللهَ ثوب العذر منخرق ... عنّى بـفرقتـه لكـن أرقّعـه
إنّى أوسّـع عذرى فى جنايته ... بالبيـن عنّى وقـلبى لا يوسّعه
أعْطِيـت ملكاً فَلَمْ أحسن سياسته ... وكلّ من لا يَسـوس الملْكَ يخلعه
ومن غدا لابسـاً ثوبَ النعيم بلا ... شكْرٍ علـيه فعـنه اللـه ينزعه
اعتضت من وجـه خلّى بعدَ فرقته ... كأسـاً تجـرّع منها مـا أجَـرّعه
كم قائلٍ لىَ ذقـتَ البـين قلت له ... الذنـب والله ذنبـى لست أرقـعه
إنّى لأقطـع أيـامى وأنفـذها ... بحـسرة منـه فى قلـبى تُقَطّعه
بِمَـنْ إذا هجـعَ النوّام أبْتُ له ... بلوعة منـه ليـلى لست أهجعه
لا يطمـئن بجنبى مضـجع وكذا ... لا يطـمئن له مـذ بِنْـتُ مضـجعه
ما كنـت أحسب ريب الدهر يفجعنى ... به وَلا أنَّ بِـى الأيـام تفـجعه

حتى جـــــرى البين فيما بيننا بيَد | عَشْـراءَ تمنعـنى حظّـى وتمنـعه
بالله يا منــــزلَ القصر الذى دَرَسَتْ | آثـاره وَعَفَـتْ مــذ بنـت أربـعه
هل الـــــزمان معـيد فيك لذّتنا | أم الليـالى التى أمضــت ترجّعه
فى ذّمة اللــــــه من أصبحت منزله | وجـاد غيـث على مغنـاك يمرعه
مَن عـنده لى عهـــــد لا يضيّعه | كمـا له عـهد صـدق لا أضـيّعه
وَمَن يصـــــدّع قلبى ذكـره وإذا | جـرى على قلبـه ذكرى يصـدّعه
لأصـبرنّ لِـــدَهرٍ لا يمتّـــعنـــى | به كـما أنّـه بـى لا يـمتّـعـه
علماً بأن اصطـبارى معْقــبٌ فرجا | فأضيَـق الأمــر إن فكّرت أوسعه
عسى اللــيالى التى أضْنَـتْ بفرقتنا | جِـسمى تجمّـعنى يـوما وتَجْمَعَه
وإن ينـــل أحــــد منّــا منـيّتَه | فـما الـذى فى قـضاء الـله يصنعه

قـال ابن السمـعـانى : فلما وقف أبو عـبـد الرحمن على هـذه الأبيات بكى حـتى خضب لحيته ، وقال : وددت أن هذا الرجل حى، وأشاطره نصف ملكى.

وكان فى الرقعة :

(منزلى ببغداد فى الموضع الفلانى المعروف بكذا، والقوم يعرفون بكذا).

فحمل إليهم خمسة آلاف دينار، وعرفهم موت الرجل.

من (طبقات الشافعية الكبرى ج١ ص٣٠٨ - ٣١٢)

مشهد من أوصى أن يدفن حذاء حليلته

كان أبو زكريا يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبى من شيوخ الوزير لسان الدين بن الخطيب، وكان شاعرا بليغا، ويُعد أعجوبة زمانه فى الاطلاع على علوم الأوائل .

قال لسان الدين :

ولما فلُج لزم منزلى لمكان فضله، ووجوب حقه، وقد كـانت زوجه توفيت، وصحبه عليها وَجْدُ، فلما ثقل وقربت وفاته، وكاد لسانه لا يبين أوصانى قائلا :

إذا مــــتّ فـادفنى حذَاء حليلتى | يخَالط عَظْمى فى التراب عظامَهَا
ولا تــــدفننّى فى البقـــيع فإنّنى | أريـــد إلى يوم الحساب الْتزامَهَا
ورَتِّب ضريحى كيفما شاءَه الهوى | تكـــون أمامى أو أكون أمَامَها
لعلّ إِله العـــرش يجبر صدعتى | فيُعْــلِى مَقامى عنده ومقامَها

مات - رحمه الله - فى الخامس والعشرين من ذى القعدة عام ثلاث وخمسين وسبعمائة، ودفن بحذاء زوجه كما عهد.

من (نفح الطيب ج٨ ص١٢)

مشهد من قدِّمَ ليُقتل فجعل يصبر أبويه

كان هدبة بن خشرم العذرى قد قتل ابن عمه زياد بن زيد العذرى، وكان هدبة شاعرا فصيحا من أهل بادية الحجاز، فلما قدِّم ليُقتل بابن عمه قصاصا كان أبواه حاضرين فجعلا يبكيان، فقال :

أَبْلِيَانى اليوم صبْراً منكما ... إنّ حزْناً منكما باد بِشَرّ
لا أرى ذا الموتَ إلا هيّنا ... إنّ بعد الموت دار المستقرّ
اصبراَ اليوم فإنّى صابر ... كلّ حىّ لفناء وقدر

وقتل هدبة سنة خمسين للهجرة.

من (كتاب المحن ص ٢٦٣)

مشهد من طلب أن يودعه العواد ويدعوا له

قال ياقوت الحموى :

لمّا احتُضر أبو بكر محمد بن داود غشى عليه ساعة. ثم أفاق وفتح عينيه ، فقيل له: أرى قلبَك قد سكن، وعرقَ جبينِك قد انقطع، وهذه أمارة العافية.

فأنشأ يقول :

أقول لصاحبىّ وسلّيانى : ... وغرهما سكون حمى جبينى
تسلَّوْا بالتعزى عن أخيكم ... وخوضوا فى الدعاء وودّعونى
فلم أَدَعِ الأنينَ لضعف سُقْمٍ ... ولكنى ضَعفْت عن الأنين

ثم مات من ليلته وذلك فى سنة سبع وتسعين ومائتين .

من (معجم الأدباء ج١ ص١١٦)

مشاهد من أوصوا أن تكتب أبيات على قبورهم

من المحْتَضَرين مَن نَظَموا ما أوصوا به أن يكتب على قبورهم، وغالب ما نَظَموا يدور حولَ التَّبَرُّؤ مما أسلفوا من معاصٍ، ونراهم فَزِعين من أثقالِ ذنوبهم، ولكنهم يستدركون أنها لا وزن لها فى جنب عفو الله سبحانه.

ومنهم من يستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَذَرِعاً بحبه، وكثير منهم

يطلب من الواقف على قبره أن يدعو له، لكن منهم من قصر نظره على أن الموت منغص للعيش.

وبعضهم أغرب فنبه الشامتين بموته إلى أنهم سيصيرون إلى ما صار إليه وبادر - بذلك - إلى مقابلة الشماتة بالشماتة..

وأغرَب منه مَن اعتبر الحياةَ جنايةً يقترفها الآباء إذا أنجبوا، وأنه قد تبرأ منها.

قال ابن خلكان :

لما حضرت أبا الصلت الأديب الحكيم الوفاة نظم أبياتا وأوصى أن تكتب على قبره، وهى آخر شيء قاله :

سكَنْتكَ يا دارَ الفناءِ مصدِّقاً ... بأنّي إلى دارِ البقاء أصيرُ
وأعلم أنى راجع بعد موتتي ... إلى عادلٍ فى الحكْمِ ليس يَجورُ
فياليتَ شعرى كيفَ ألْقاه عندها ... وزَادى قليل والذنوب كثيرُ
فإنْ أكُ مَجْزِياً بذَنْبِى فإنَّنى ... بشَرِّ عقَابِ المجرمين جَدِيرُ
وإنْ يَكُ عَفْو منه عنِّى ورَحْمَة ... فَثَمَّ نَعيم دائم وَسُرورُ

مات - رحمه الله - يوم الاثنين مستهل سنة تسع وعشرين وخمسمائة بالمهدية ودفن بالمنستير.

من (وفيات الأعيان ج١ ص٢٤٦)

عندما قربت منية عبد الرحمن بن الجوزى أوصى أن يكتبوا الأبيات التالية على شاهد قبره :

يا كثيرَ العفْوِ عمّن ... كثُر الذنب لديه
جاءك المذنبُ يرجو ... الصّفح عن جُرْمٍ يديه
أنا ضيف وجزاءُ ... الضيف إحسان إليه

من (جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٨ / ٦ / ١٩٩٢)

قال ابن خلكان :

كان أبو القاسم الحسين المعروف بالوزير المغربى قد توفى فى ميّا فَارقين ، وحمل إلى الكوفة بوصية منه، ودفن فى تربة مجاورة لمشهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وأوصى أن يكتب على قبره ما يلى :

كنت فى سَفْرَة الغوايةِ والجهـ ... ـل مقيما فحانَ منى قُدوم

تبْت مِن كلّ مَأثَمٍ فَعَسَى يُمـــ ـــحَى بهذا الحديثِ ذاكَ القديم

بعد خمس وأربعين لَقَـــدْ مَا طَلَت إلا أن الغَـــــريمَ كريم

توفى يوم الثالث عشر من شهر رمضان سنة ثمانى عشرة وأربعمائة - رحمه الله .

من (وفيات الأعيان ج٢ ص١٧٦)

كان عبـد الله بن محمد بن إبراهيم بن باق الأموى مُـرسىّ الأصل غرناطى النشأة، وقد أعد لنفسه قبرا بين شيخيه الخطيبين أبى عبد الله الطنجالى وأبى عثمان بن عيسى ثم أوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات :

تَرَحَّـــمْ على قبرِ ابنِ بَاقِ وحَــيِّه فمِن حَقّ مَيْـــتِ الحَىّ تسليم حيِّهِ

وقلْ أمَّنَ الرحـــمن رَوْعَةَ خائف لتفريطه فى الواجـــبات وغَيِّه

قد اختار هذا القبْرَ فى الأرض راجياً من الله تخــفيفاً بقـــدر وَلِـيِّه

فقد يشفع الجار الكـــريم لجاره ويشمَل بالمعروف أهـــلَ نَدِيّه

وإنى بفضل الله أوثـــقَ وَاثـــق وَحَسْبِى - وَإنْ أذْنبْت - حبّ نبـيّه

توفى - رحـمـه الله - بمالقـه فى اليـوم الثامن والعشرين من محـرم عـام اثنين وخمسين وسبعمائة .

من (نفح الطيب ج٨ ص٣٧٢)

قال ابن خلكان :

أوصي أبو العتاهية أن يكتب على قبره :

إنَّ عــيشــاً يكون آخـرَه المو تُ لَعَـيْش مـعجَّل التنغـيصِ

من (وفيات الأعيان ج١ ص٢٢٢)

قال ابن خلكان :

بلغنى أن أبا العلاء المعرى أوصى أن يكتب على قبره البيت الآتى:

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد

وهو متعلّق باعتـقاد الحكماء ، فإنّهم يقولون: ايجاد الولـد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث والآفات .

وكان مرض المعرى ثلاثة أيام، ومات فى اليوم الرابع، ولم يكن عنده غير بنى عمه، فقال لهم فى اليوم الثالث:

اكتبوا عنى، فتناولوا الدوى والأقلام فأملى عليهم غير الصواب.

فقال القاضى أبو محمد عبد الله التنوخى أحسن الله عزاءكم فى الشيخ فإنه ميت.

توفى يوم الجمعة ثانى أو ثالث ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة عن ست وثمانين سنة ودفن بالمعرة .

من (وفيات الأعيان ج١ ص١١٥)

نقل السيوطى عن ابن الخطيب أن محمد بن أحمد النميرى الوادياشى كان صدرا فى أهل الأحساب والمعارف والمروءات جميل الخلق، مليح البزة، خرج عن بلده إلى سبتة فى الفتنة ثم رجع إلى الأندلس، فولى القضاء على حداثة سنه إلى أن مات قاضيا ببسطة فى يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى القعدة، سنة أربع وتسعين وستمائة وأوصى أن يكتب على قبره من شعره ما يلى :

أتيتُ إلى خالقى خاضعاً ... ومَنْ خدّه فى الثّرى يَخْضَع

وإن كنت وافيته مجرما ... فإنّى فى عفوه أطمع

وكيف أخاف ذنوبا مَضَتْ ... وأحمد فى زلّتى يَشفَع

من (بغية الوعاة ص ١٧)

وأورد ابن الأبار قول ابن خفاجة فيما كتبه (هكذا) على قبره :

خليلىّ هل من وقفةٍ بتألمٍ ... على جدثى أو نظرةٍ بترحمِ

خليلىّ هل بعدَ الرّدَى من ثَنِيَّةٍ ... وهل بعد بطنِ الأرض دار مخيّم

وَإنّا حَيِينَا أوْ رَدِينَا لإخوَةٌ ... فمن مر بى من مسلم فَليسَلّم

وماذا عليه أن يقولَ مُحَيِياً ... ألاعِم صباحاً أو يقول ألا اسلم

وفاء لأشلاءٍ كَرُمْنَ على البِلَى ... فعاجَ عليها من رُفَات وأعظم

يُرَدِد طَوْراً آهةَ الحزنِ عندها ... ويَذْرِف طَوْراً دمعةً المُتَرَحِّم

من (الوافى بالوفيات ج٢ ص٢٠)

قال السيوطى :

إن محمد بن إبراهيم القرشى العامرى ذكره الصفدى وقال : أوصى أن تكتب على قبره الأبيات التالية :

لئن نفذ القدرُ السابق ... بموتى كما حكم الخالق

فقد مات وَالِدُنَا آدم ... ومات محمد الصادق

وماتَ الملوكُ وأشــياعهم ولم يبق من جَمْــعهم ناطق

فقل للذى سَرَّه مَهْــلَكِى تَأهبْ فإنّك بى لاحـــــق

من (بغية الوعاة ص ٧)

كان أبو على أحـمد بن بقاء بزازاً، وكان مـتدينا صالحـا ذا أمانة، وأوصى أن يُكتب على قبره :

يا خير منـــــــزول به إنّنى ضيف وحقّ الضيف أن يُقْرَى

واجعل قِراىَ منك ياَ سيدى غفـــرانَ ما فى صحيفتى يقْرَا

من (الوافى بالوفيات ج٦ ص٢٦)

مشهد من أوصى أن توضع أبيات على كفْنه

كان مـحمـد بن إبراهيم أصيل الدين العـوفى قد أوصى - رحمـه الله - أن توضَع الأبيات التالية فى كفنه، وهى من نظمه :

إذا مـــا جـاء قوم فى المَعَاد بصـــوم معْ صلاة واجتـهاد

ومـــعروف وإحســانٍ جزيل وحجّ واعتمـــارٍ مَعْ جهاد

أتيت بحبـــــــكم ياَ آل طه وما أعددت من صِدق الوداد

فذاك ذخيرتى فى يوم حَشْرى وحسن الظن مـن ربّ العـباد

كان - رحمه الله - الخطيب بجامع دمشق إلى أن توفى سنة ثـمان وستين وستمائة فى بيت الخطابة قبل الصـلاة، وقد لبس ثياب الخطابة ليخرج إلى الصـلاة ،فجاء رئيس المؤذنين فوجده لابِسَهَـا، وقد سجد وهو ميت، فأحضـروا ولَدَه فخطب عوَضه وصلى بالناس.

من (الوافى بالوفيات ج٢ ص٢)

كان محمد بن محمود المروزى من بيت مشهور بالعلم والدين والرواية والفضل .

أوصى أن يُكتب على كَفَنِه بيت العباس بن الأحنف التميمى وهو :

يكون أجَاجاً دونكم فإذا انتهى إليكم تلقّى طِيبكم فَيَطيب

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص٧)

قال ابن النجار :

اجتمع أحمد بن على بن المقرئ الحاجب البغدادى، اجتمع بصبى من جيرانه، من أولاد آصف بيهْ أمير الحاج ، وجرت بينهما معاتبة وموافقة أدت إلى أن ضرب ابن المقرىء ابن آصف بيه بسِكين فجرحه جراحا أثخنته، وحمل وَقيذاً إلى منزله، وهَرَب ابن المقرئ، واختفى، ومات المجروح من ليلته نصف جمادى الأولى سنة ثلاث وستمائة، واشتد الطلب على ابن المقرئ إلى أن وُجد تاسع عشر جمادى الأول فقبض عليه وحمل إلى حَبس الجرائم، فلما كان من الغد وقت صلاة العصر سلم إلى أولياء المقتول فحملوه إلى الموضع الذى جَرَح فيه، وقَتَلوه ضرباً بالسيوف ووطئوه بخيلهم، وبقى مُلقىً على وجه الأرض على حاله إلى ليلة ثلاث وعشرين جمادى الأولى، فحمل إلى منزله وغسل وكفن وما أظنه بلغ الثلاثين، سامحه الله وإيانا، وعمل بيتين قبل أن يقتل بساعة فى الحبس، وقال لوالده اجعلهما فى كفنى وهما :

قَدِمْت على الكريم بغير زاد … من الأعمال بل قلبٍ سليم

وســـوءُ الظنّ أن يعْتَدَّ زاد … إذا كـان القدوم على كريم

من (الوافى بالوفيات ج٧ ص٢١٠)

مشاهد أموات نطقوا بالشعر فى المنام

كان الملك بهرام شاه صاحب بعلبك قدم إلى دمشق واتفق أنه كان له غلام محبوس فى خزانة فى الدار (التى نزلها) ولما جلس يلهو بالنَّرْد ولع الغلام برزّة الباب ففكها، وهجم على بهرام فقتله ثانى وعشرين شوال وهرب الغلام، ورمى بنفسه من السطح فمات.

وقيل : لحقه المماليك عند وقعته فقطعوه.

ويقال أنه رآه بعض أصحابه فى المنام، فقال له : ما فعل الله بك؟

فقال :

كنت من ذنبى على وَجَل … زال عـنى ذلك الوَجَـل

أمِنَــتْ نفسى بَوَائِقَها … عِشْت لما متّ يا رجـل

من (الوافى بالوفيات ج١٠ ص٣٠٤)

مشاهد من ماتوا غرباء

لقد علم الله أن العبد إذا مات فى الغربة شق الأمر عليه كثيرا فأجزل له العطاء الكريم من أجل ما ناله من حرارة الغربة وحرقتها .

روى ابن ماجه عن عبد الله بن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَوْت الغَرِيب شهَادَة)

ولو أن هذه الشَهادة لا تبلغ به مرتبة مَن قاتل لإعلاء كلمة الله فاستشهد فى المعركة.

وروى ابن حبان عن أبى عبد الرحمن الحُبُلِىِّ دفين القيروان عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أنه قال : توفى رجل بالمدينة فصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : (يَا لَيْتَه مَاتَ فِى غَيْرِ مَوْلده) فقال رجل : لم يا رسول الله ؟ قال :

(إِنَّ الرَّجلَ إِذَا مَاتَ فِى غَيْرِ مَوْلِدِه قِيسَ لَه مِنْ مَوْلِده إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِه فِى الْجَنَّة)(١)

يعنى من مكان ولادته إلى الموضع الذى مات فيه.

وممن ماتوا فى الغربة أبو على إبراهيم بن محمد بن محمد الشريف الحسينى .

قال أبو البركات عمر النحوى صاحب شرح اللمع : مَرِضَ أبى إِمّا بدمشق أو بحلب ، فرأيته يبكى ويجزع، فقلت له :

يا سيدى، ما هذا الجزع والموت لا بد منه؟

فقال : أعرف، ولكن أشتهى أن أموت بالكوفة، وأدفن بها، حتى إذا نُشرت يوم القيامة أخرِج رأسى من التراب، فأرى بنى عمى ووجوها أعرفها .

مات رحمه الله بالكوفة - فى ما ذكر السمعانى - سنة ست وستين وأربعمائة.

من (الوافى بالوفيات ج ٦ ص١٢٠).

ومنهم أبو الحسن على بن حمزة الكسائى أحد القراء السبعة :

روى ابن الجزرى أن الكسائى خرج صحبة هارون الرشيد إلى خراسان، فمرض بقرية (رنبويه) من عمل الرى ومات بها سنة تسع وثمانين ومائة .

كما روى عن نصير أنه قال : دخلت على الكسائى فى مرضه الذى مات فيه، فأنشأ يقول :

قَدَر أَحلّكَ (ذاَ النَّخيلِ) وَقَدْ أَرَى   وأَبِى ، ومَالكَ (ذو النخيلِ) بِدَارِ

---

(١) من موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للحافظ نور الدين الهيثمى ص ١٨٩ .

إِلا كَدَارِكمو بِذى بَقَرِ اللوَى		هَيْهَاتَ دَارِكمو مِنَ الْمِزْوَارِ

قال نصير : فقلت كلا ويمتعَ الله الجميع بك .

قال الكسائى : أنا قلت ذلك ؟

من (غاية النهاية ج١ ص٥٣٧)

ومنهم أبو الحسن على بن الجهم القرشى :

قال ابن خلكان : نفاه المتوكل إلى خراسان سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، لأنه هجا المتوكل، وكتب إلى طاهر بن الحسين أنه إذا ورد عليه أن يَصْلُبَه يوما .

فوصل إلى (شاذياخ نيسابور) فحبسه طاهر، ثم أخرجه فصلبه مجرداً نهارا كاملا، فقال ابن الجهم فى ذلك :

لَمْ يَنْصِبوا بِالشَّاذِيَاخِ صَبِيحَةَ الـ		ـإِثْنَيْنِ مَسْبوقاً وَلَا مَجْهولا

نَصَبوا - بِحَمْدِ اللَّه - مِلْءَ قلوبِهِمْ		شَرَفاً وَمِلْءَ صدورِهِمْ تَبْجِيلا

ثم خرج إلى العراق ثم إلى الشام .

بعد ذلك ورد على المستعين كتاب من صاحب البريد بحلب أن ابن الجهم خرج من حلب متوجها إلى العراق فخرج عليه وعلى جماعة معه أناس من بنى كلب فقاتلهم قتالا شديدا، ولحقه الناس وهو جريح بآخر رمق، فكان مما قال :

أَزِيدَ فِى اللَّيْلِ لَيْلُ ؟		أَمْ سَالَ بِالصبْحِ سَيْلُ؟

ذَكَرْتُ أَهْلَ دُجَيْلٍ		وَأَيْنَ مِنِّى دُجَيْلُ؟(١)

وتوفى فى وقته -رحمه الله- ولما نُزعت ثيابه بعد موته وجدت فيها رقعة وقد كتب فيها:

يَا رَحْمَةً لِلْغَرِيبِ فِى الْبَلَدِ النَّا		زِحِ مَاذَا بِنَفْسِه صَنَعَا

فَارَقَ أَحْبَابَهُ فَمَا انْتَفَعُوا		بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا انْتَفَعَا

وكان الكتاب الذى ورد على الخليفة المستعين فى شعبان سنة تسع وأربعين ومائتين.

من (وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٥٥)

---

(١)دُجيل: نهر بأعلى بغداد، مخرجه من دجلة مقابل القادسية في الجانب الغربي بين تكريت وبغداد.

ومنهم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المالحى.

قال ابن الجزرى: هو أديب زمانه بالمغرب، وإمام وقته، توفى -رحمه الله -عن خمس وتسعين سنة، ولم يُختَلَّ عليه من علم ولا نظم حتى مات.

وكان آخر ما قال يوم موته، وأمر أن يُكتب على قبره:

زُرْ غَـريباً بِمَغْـرِبِ   نَـازِحاً مَـالَهُ وَلِى
تَـرَكُوهُ مُجَـدَّلاً   بَيْـنَ تُـرْبِ وَجَنْدلِ
وَلْتَـقُلْ عِنْـدَ قَبْرِه   بِلِسَـانِ التَّـذَلُّلِ
رَحِـمَ اللَّهُ عَبْدَهُ   مَـالِكَ بْنَ الْمُرَحَّلِ

وكانت وفاته سنة تسع وتسعين وستمائة.

من (غاية النهاية ج٢ ص ٣٦)

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان الكلبى الغزى الشاعر:

ولد بغزة، وكان قد خرج من مرو إلى بلخ فمات فى الطريق، وحمل إلى بلخ فدفن بها.

وكان يقول لما حضرته الوفاة: أرجو أن يغفر لى ربى لثلاثة أشياء: كونى من بلد الإمام الشافعى، وأنى شيخ كبير، وأنى غريب.

توفى سنة أربع وعشرين وخمسمائة رحمه الله وحقق رجاءه

من(الوافى بالوفيات ج٦ ص ٥٢)

مشاهد من ماتوا منتحرين

كل الأنفس ملك لله تعالى، فله سبحانه ملك السموات والأرض وما بينهما، ومع أن الله قضى فى سابق علمه ما أخبرنا به فى قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (١) فقد قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (٢)

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

(٢) سورة النساء الآيتان ٢٩-٣٠ .

ومن هنا تتبين رعاية الله لصيانة حياة الإنسان، ويتضح عقابه لمن يتجرأ فيعتدى على نفسه بالانتحار.

إن الإنسان العادى لا يتجرأ على قتل غيره، بل يستعظم ذلك أيما استعظام.

غير أن الشاذ من الناس كثيراً ما تدفعه نزوات الطيش إلى أعظم المكاره بكل استهانة واستخفاف، وربما تجره رعونة الطيش إلى قتل نفسه على اعتبار أن ذاته تخصه هو وحده فله - بهذا الاعتبار الخاطئ - أن يتصرف فيها بما يشاء، وكما يشاء.

والقاتلون لأنفسهم لا يلجأون إلى الانتحار إلا ظنا منهم أن ذلك سينتهى به ما يتجرعون من الآلام الجسدية أو النفسية، معتقدين أن الموت هو النهاية التامة للإنسان، مع أن الواقع الحق هو أن الموت نهاية جانب من الإنسان، وليس نهاية لجميع مكوناته، لأن الهيكل الجسمانى يتوقف نموه بالموت، فتتبدد عناصره وتبلى، أما الروح فلا يلحقها بالموت إلا صورة من التحول والانتقال من عالم إلى عالم مصحوبة بما كانت عليه فى عالمها الدنيوى، فتتنعم أو تتعذب قبل يوم الحساب، ثم تتبوأ منزلها بعد الحساب.

ويخطئ كثير من الناس حين يرون أن كل من مات قد استراح، ويتبين خطؤهم بما رواه أحمد وأبو نعيم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: لما قام بلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ماتت فلانة واستراحت، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال: (إِنَّمَا اسْتَرَاحَ مَنْ غُفِرَ لَهُ).

ولقد سجل هذه الحقيقة من قال:

فَلَوْ أَنَّا إِذَا مُتْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيٍّ

وَلَكِنَّا إِذَا مُتْنَا بُعِثْنَا ... وَنُسْأَلُ بَعْدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيٍّ

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفنا بما يلقى المنتحر من غضب الله وعقابه وذلك فى ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال:

(مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا، خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَحَسَّى سُمّاً فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِى يَدِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِى يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً).

كما روى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال:

(... وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَىْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وروى البخارى ومسلم أيضاً عن الحسن البصرى أنه قال: حدثنا جندب ابن عبد الله فى هذا المسجد، فما نسينا منه حديثا، وما نخاف أن يكون جندب كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كَانَ - فِيمَنْ قَبْلَكُمْ - رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فقال الله: بَدَرَنِى عَبْدِى بِنَفْسِه فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ).

وليس العقاب الإلهى خاصا بمن يقدم على الانتحار قصداً، بل يتناول أيضاً كل من يفعل بنفسه ما يفضى به إلى الموت من غير تحفظ، ولا نظر فى عواقب ما يفعل.

روى البخارى ومسلم عن جندب البجلى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَتْ بِه قُرْحَةٌ[1] فَلَمَّا آذَتْهُ انْتَزَعَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِه فَنَكَأَهَا[2] فَلَمْ يَرْقَإِ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، فَقَالَ اللَّهُ: عَبْدِى بَادَرَنِى بِنَفْسِه فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ).

وقد كان من المنتحرين من روى البخارى فى شأنه عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ممن معه - يدعى الإسلام - هذا من أهل النار، فلما حضر القتال، قاتل الرجل أشد القتال، وكثرت به الجراح، فجاء رجل، فقال يا رسول الله: أرأيت الذى تحدث أنه من أهل النار، قد قاتل فى سبيل الله أشد القتال فكثرت به الجراح، فقال صلى الله عليه وسلم أما أنه من أهل النار، فكاد بعض الناس يرتاب، فبينما هو على ذلك، إذ وجد الرجل ألم الجراح، فأهوى بيده إلى كنانته، فانتزع سهماً فانتحر بها، فاشتد رجل من المسلمين (يجرى) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: صدق الله حديثك، قد انتحر فلان، وقتل نفسه. فقال صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، أشهد أنى عبد الله ورسوله. يا بلال قم فأذن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

ومن المنتحرين أبو القاسم محمود بن عزيز العارضى الخوارزمى:

نقل السيوطى عن ياقوت الحموى أنه كان من أفضل الناس فى عصره فى اللغة والآداب، لكنه تخطى إلى علم الفلاسفة فصار مفتونا به بين المسلمين، وكان سكوتاً وقوراً.

---

(١) خُرَّاج .

(٢) قشرها فجرها .

وكان الزمخشرى يدعوه الجاحظ الثانى لكثرة حفظه، وفصاحة لفظه.

أقام مدة بخوارزم فى خدمة خوارزم شاه، ثم ارتحل إلى مرو، فذبح نفسه بيده، فى أوائل سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، ووجد بخطه رقعة كتب فيها:

هذا ما عملته أيدينا، فلا يؤاخذ به غيرنا.

من (بغية الوعاة ص ٣٨٨)

إن أبا القاسم الخوارزمى - عفا الله عنا وعنه - قد أحسن فى دفع التهمة عمن سيشتبه بهم فى ذبحه، وأساء فى قتله لنفسه، نسأل الله سبحانه أن يجعل عواقب أمورنا كلها إلى خير، وأن يمن علينا من فضله بحسن الخاتمة.

مشهد من قتل وصلب لادعائه النبوة

شهد تاريخ أمتنا أناسا مصابين فى عقولهم بحماقة حادة، وقد تفاقمت إصابتهم بسكراتها إلى درجة أن الواحد منهم يجن فيزعم أنه رسول الله.

لكن من لا ينطق عن الهوى قد أخبرنا بأنهم سيظهرون فى الأمة بكثرة.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(... ولا تَقُوُم السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُون كَذَّابُونَ - قَرِيباً مِنْ ثلاثين - كُلُّهُمْ يَزْعَمَ أَنَهُ رَسُولُ اللَّه).

وروى الترمذى والحاكم عن ثوبان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(... وَإِنَّهُ سَيَكُوُن فِى أُمَّتِى ثَلاثُونَ كَذَّاباً كُلّهُـمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِى، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيينَ، لا نبى بعدى)

والله سبحانه قد بين لنا كذلك أنه لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْء عَليماً﴾ (١)

وادعاء الأفاكين للرسالة حدث فى بعض الأقاليم الإسلامية عدة مرات، فكانوا بخداع الحيل يستهوون البله والمغفلين من جهلة الناس، حتى يصير لهم أتباع من أولئك البسطاء.

وكان ممن ادعوا النبوة رجل مؤذن بناحية تلمسان.قال على بن أبى زرع الفاسى: إنه

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

فى سنة سبع وثلاثين ومائتين قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعى النبوة، ويتأول القرآن على غير وجهه وتأويله، فاتبعه خلق كثير من الغوغاء.

وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الأظافر، ونتف الإبطين، والاستحداد «حلق العانة» وأخذ الزينة، ويقول: لا تبديل، ولا تغيير لخلق الله.

فأمر أمير تلمسان بالقبض عليه، فهرب وركب البحر من مرسى هنين إلى بلاد الأندلس، فشاع بها خبره وأمره، فتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة، فبعث إليه ملك الأندلس فاستتابه، فلم يتب، فقتله وصلبه، وهو يقول عند قتله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾(١).

من (الأنيس المطرب ص ٩٦)

مشهد موت يزعم أنه موت رحيم

إن بعض المرضى يبلغ بهم المرض إلى درجة اليأس من حياتهم، وقد تستمر بهم آلام المرض المستعصى عن العلاج زمناً ليس بالقصير، حتى يشفق عليهم كل من له صلة بهم من أقاربهم وأطبائهم، إلى أن يظلوا ينتظرون موتهم لحظة بلحظة، ويتمنون لهم فى كل لحظة أن يموتوا حيث لا أمل فى شفائهم ولا صبر للأصحاء على تحمل ما يرون من تبريح الألم بأولئك المرضى وشدته عليهم.

ولقد سجلت مسيرة التاريخ أن هناك من استعصى مرضهم الطويل عن العلاج، فتولى أناس تعجيل الموت لأولئك المرضى بوسيلة أو بأخرى ليخلصوهم من معاناة الآلام التى دونها ألم الموت كما يزعمون.

وربما دفعت شدة الألم بعض المرضى إلى الانتحار، لكن كلا من هذا وذاك كان يحدث نادراً بين الناس، ويعتبر من التصرفات الشاذة عبر مراحل التاريخ.

وأما فى النصف الثانى من القرن العشرين فقد أصبحت قضية التعجيل بقتل من لا أمل فى شفائه من المرضى قضية تشغل كثيراً من الناس، وهم فيها ما بين داع إليها، ومعترض عليها، وطال اصطراعهم بشأنها كاصطراع أولئك المرضى مع آلامهم، ولم يلتق الأصحاء فى نقطة يتم عليها الاتفاق وسوف لن يلتقوا أبداً ما دام للبشر منهجان فى الأرض: منهج يتقيد به المؤمنون ويقفون فيه عند حدود الله، معتقدين أن تدبير الله

---

(١) سورة غافر الآية ٢٨ .

لكل مَا فى الكون لحكمة تفوق مدارك البشر. ومنهج يقوم فيه أصحابه على الجحود لسلطان الله وقدرته التى هى فوق كل قدرة.

أما الداعون لقتل الميئوس من شفائه فقد سموا ذلك القتل بعدة أسماء، منها:

- القتل الرحيم، أو الموت الرحيم.
- القتل يأساً من الشفاء.
- القتل من أجل الشفقة والرحمة.

واستندوا - فيما دعوه بالقتل الرحيم - إلى ما اعتبروه من المبررات الداعية إلى التعجيل بقتل أولئك المرضى، فقالوا:

- إننا نرحمهم من عذاب لا نهاية له.
- إننا نريحهم من وخز الإبر الذى يؤذيهم بلا انقطاع.
- إننا نساعدهم على مفارقة الحياة بموت رحيم.
- إننا بذلك القتل نتوقف عن علاج لا جدوى له، ونوفر جهودنا لمن يتوقع شفاؤهم من المرضى الآخرين.
- إننا بذلك القتل نريح أسرهم من ثقل الأعباء النفسية والمادية التى يتحملونها من أجل أقارب لهم، ليسوا من الأحياء ولا من الأموات.

وأما المعترضون على قتل أولئك المرضى فيقولون:

- على كل من الطبيب والمريض ألا ييأس من رحمة الله مهما تكن حالة المريض.
- إن من المرضى من يبلغ اليأس من حياتهم مبلغ اليقين، ومع ذلك يمن الله بالشفاء على ذلك المريض من غير سبب ظاهر، فيحتار الأطباء فى أمره، ولكنها إرادة الله ومشيئته.
- إن الأمراض المستعصية كالسيدا (الإيدز) ليس من الحكمة أن نعجل بقتل المصاب بها، وإنما نعالجه حتى يستوفى آخر أيامه، فيموت، ولعله فى أثناء تلك الأيام يسعف بما عسى أن يكتشفه الباحثون من دواء ناجع لمرضه القاتل، ولذلك يكون التعجيل بقتله نافيا لهذا الأمل السعيد.
- إذا وقع التفويض للأطباء فى قتل من يرون أنه لا شفاء له، فإن هذا التفويض قد يفضى إلى مخاطر لا حد لها، وكم ظهر فى العالم من تجاوزات بشعة قام بها من يتاجرون بأعضاء الآدميين، فإن فتح باب القتل لمن يتوقع ألا شفاء لهم قد يغرى أناساً بالإكثار مما يدعونه (القتل الرحيم) لاستغلال أعضاء المقتولين.

-إن قتل المريض بحجة التخفيف من آلامه جريمة فى حقه وإركاس لكرامة الإنسان.

تلك خلاصة حجج الفريقين فى هذه القضية.

وإذا نظرنا إليها فى ضوء تعاليم الإسلام فإننا نجد التعجيل بقتل الميئوس من شفائه أمراً محرماً، ولا رخصة فيه بأى وجه، سواء طلبه المريض أو أقاربه، أو قام به الطبيب حسب نظره الخاص.

يقول شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق على جاد الحق:

إن كل إنسان صاحب إرادة فيما يتعلق بشخصه، وإن كانت إرادة مقيدة بالنطاق المستفاد من قول الله تعالى فى سورة البقرة من الآية رقم ١٩٥ ﴿ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقوله سبحانه فى الآية رقم ٢٩ من سورة النساء ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[١]

ويقول الشيخ جاد الحق:

ويمنع تعذيب المريض المحتضر باستعمال أية أدوات أو أدوية متى بان للطبيب أن هذا كله لا جدوى منه، وأن الحياة فى البدن هى فى سبيل التوقف.[٢]

أما إيقاف الأجهزة المساعدة على التنفس وعلى النبض فإن ذلك مباح عند الاقتضاء، كما جاء فى قرارات مجمع الفقه الإسلامى التابع لمنظّمة المؤتمر الإسلامى فى دورة مؤتمره الثالث المنعقد بالأردن بين ٨ -١٣ صفر سنة ١٤٠٧ الموافقة لأيام ١١- ١٦ أكتوبر ١٩٨٧ حول أجهزة الإنعاش، وهو ما يلى:

يعتبر شرعاً أن الشخص قد مات، وتترتب جميع الأحكام المقررة شرعاً للوفاة عند ذلك إذا تبينت فيه إحدى العلامتين التاليتين:

- إذا توقف قلبه وتنفسه توقفاً تاماً، وحكم الأطباء بأن هذا التوقف لا رجعة فيه.
- إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلاً نهائياً، وحكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بأن هذا التعطل لا رجعة فيه، وأخذ دماغه فى التحلل.

وفى هذه الحالة يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص وإن كان بعض الأعضاء كالقلب مثلاً لا يزال يعمل آلياً بفعل الأجهزة المركبة.

---

(١) الفتاوي الإسلامية (المجلد العاشر) ص ٣٧٠٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧١٤ .

وإذا تعجب الإنســان المؤمن مما دعاه بعض الناس فى هذا العصــر بـ(الموت الرحيم) فقد ظهر ما هو أعجب منه، وهو (تيسير الانتحار) على كل من يريد ذلك من الأصحاء والمرضى على حد سواء.

ففى شهر أبريل سنة ١٩٩١نشرت جمعية (هيملوك) كتاباً بعنوان (المخرج الأخير) تأليف (ديريك همـفـرى) يصف فيـه أكـثر من طريقـة للانتـحار، ويقـدم بيـاناً كامـلاً بالأقراص التى يستطيع الشخص تناولها للانتحار وعددها.

وسرعان ما أصبح ذلك الكـتاب فى مقدمة أكثر الكتب مبيـعاً فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد امتدح مـؤيدو الكتاب مضمونه، واعتـبروه مادة قيمة لمساعـدة المرضى الميئوس من شفائهم...

ويخشى الكثـيرون من أن يؤدى انتشـار الكتاب على هذا النحو إلى دفع أصـحاب الأمراض العصبية نحو هوة الانتحار.(١)

مشاهد تلقين المحتضرين وتنوع ردودهم

الإنسان فى حاجة أكيـدة إلى من يساعده على اجتياز صعـوبات الحياة، وفى حاجة أوكد إلى من يُنجده إذا أحاطت به المكاره، ومهما تكن شدة آلام المكاره فإن الإنسان لا يلقى ألماً أشد عليه من غمرات الموت.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مـالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(لَمْ يلْقَ ابن آدمَ شَـيئـاً قَطُّ منذ خَلَقَهُ الـلهُ أشدَّ عليـه من الموت، ثمّ إنّه لأهْوَنُ مّمـا بَعْدَهُ).

وروى أبو نعـيم فى الحلية عـن واثلة بن الأسقع رضى الله عـنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(والذى نفسى بيده لَمُعايَنَةُ مَلَكِ المـوت أشدُّ من ألف ضربة بالسيف، والذى نفسى بيده لاَ تَخرُجُ نفسُ عَبْدٍ من الدنيا حتى يَتَألَّمَ كُلُّ عِرْقٍ منه على حِيَاله).

والناس يهـولهـم جِداً مـشـهـد من يأخـذ فى النّزع وهو يـعـالج سكرات الموت،

---

(١) صحيفة (العالم الإسلامي) عدد ١٣٧٩ بتاريخ ١٩ جمادى الأولى ١٤١٥هـ الموافق ٢٤ أكتوبر ١٩٩٤م.

فيأخذهم الإشفاق عليه أخذاً عظيماً ، ولكن جانباً خطيراً من معاناته لا يشعر به الناس، ولا يأبه له كثير منهم، مع أن النبى صلى الله عليه وسلم عرف الأمة به ونبهها إليه، وهو فتنة الشيطان للمحتضر عند النزع.

إن أكمل الناس عقلاً يتحير عند الاحتضار، وتلك الحال من أنسب الفرص التى يستغلها الشيطان ليفتن المؤمن فى عقيدته، فيسول له أن يخرج من الدنيا على غير دين الإسلام والعياذ بالله.

وقد نبه الله المؤمنين إلى أن يدعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذهَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾ (١) .ومن تنبيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تلك الفتنة ما رواه النسائى والحاكم عن أبى اليسر من أنه صلى الله عليه وسلم توجه إلى الله داعياً ولأمته معلماً، فقال: (... وأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِى الشيطانُ عِنْدَ الموت).

كما ذكر القرآن أن يوسف عليه السلام دعا قائلا: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ المُلْك وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث فَاطِرَ السَّمَاوات والأَرضِ أَنْتَ وَلِيِى فِى الدُّنيا والآخِرَةَ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالحِين﴾ (٢) .

قال عمرو العتابى كان سفيان الثورى رضى الله عنه، قد قال: ما من موطن من المواطن أشد على من سكرة الموت، أخاف أن يشدد على فأسأل التخفيف فلا أجاب فأفتن.

وقال عبد الرحمن بن مهدى: مات سفيان عندى، فلما اشتد به الأمر جعل يبكى، فقال له رجل:

يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب.

فرفع شيئا من الأرض فقال:

(والله لذنوبى أهون عندى من ذا، إنى أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت).

من (صفة الصفوة ج٣ ص ١٤٨)

فمن أجل ما يلاقى المحتضر من شدة سكرة الموت ومحاربة الشيطان له فى تلك الحال ورد الترغيب فى إعانته، حتى يفارق الدنيا وهو على أكمل الحالات إن شاء الله.

---

(١) سورة آل عمران آية ٨ .

(٢) سورة يوسف آية ١٠١ .

روى أبو نعيم فى الحلية عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(احْضُرُوا مَوْتَاكُمْ، وَلَقِّنُوهُمْ لا إله إلا اللهُ وَبَشِّرُوهم بالجنة، فَإِنَّ الحليم من الرجال والنساء يَتَحَيَّرُ عند ذلك المَصرَع، وَإِنَّ الشيطانَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنِ ابْنِ آدمَ عند ذلك المصرع).

وهناك أمور وردت الآثار باتخاذها لمساعدته حتى يثبت - بمشيئة الله -على الإيمان، وحتى يجد بعض التخفيف من حدَّة النزع، وهى الستة التالية:

١) تعطير المحل الذى فيه المحتضر لاقتبال الملائكة الموكلين بقبض الأرواح :

فقد أمر سلمان الفارسى رضى الله عنه زوجته بأن تنضح حول فراشه خليط ماء ومسك، وقال لها: إنه يأتينى الآن من يجدون الريح، ولا يأكلون الطعام.

٢) تنزيه المحل من كل مؤذ للملائكة الكرام كالروائح الكريهة من تبغ وغيره، وكالتماثيل والتصاوير والكلاب، ومن هم على جنابة رجالاً كانوا أو نساء :

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(لا تَدْخل الملائكة بيتاً فيه تَمَاثيل أو تصاوير).

وروى كل من البخارى ومسلم عن أبى طلحة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة، إلا رَقْم فى ثوب).

كما روى أبوداود والنسائى عن على رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولاجنب).

قال الشيخ المناوى فى شرحه للجامع الصغير (والمراد بالملائكة هنا، ملائكة الرحمة، لا عموم الملائكةِ، فإن الحَفَظَةَ منهم لا يفارقون العبدَ، وذكْر الملائكةِ فى الحديث مِنَ العامِّ الذى أريد به الخاص) .

وإذا لَم تحضر ملائكة الرحمة من كان فى النزع لوجود ما ينفرها فى المحل فقد فات المحتضر ما فاته من الخير .

٣) تنوير المحل بقراءة القرآن :

فقد وردت بعض الآثار باستحباب قراءة سورة يس عند نزع الميت وورد بعضها بقراءة سورة الرعد، وبعضها بقراءة سورة البقرة.

روى ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وابن حبان عن معقل بن يسار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(اقْرأوا عَلَى مَوْتَاكمْ يس) .

وروى أحمد عن أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا مِنْ مَيت يُقْرَأ عند رَأسه يس إلا هَوَّنَ الله عليه)

وروى ابن أبى شيبة عن جابر بن زيد أنه قال : كان يسْتَحبُّ إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد، فإن ذلك يخفف عن الميت، وإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه.

وروى ابن أبى شيبة أيضا عن الشعبى أنه قال : كانت الأنصار يقرءون عند الميت سورة البقرة.

٤) تَرْك التكلم عنده إلا بخير :

روى الطبرانى فى المعجم الأوسط عن أبى بكرة أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(إنّ الملائكة تَحضر الميت، فَيؤمِّنون على ما يقول أهل البيت)

وروى أحمد وابن حبان والحاكم عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إذا حَضَرْتم الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤَمّنون على ما تَقولون).

وروى الحاكم عن شداد بن أوس أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(إذا حَضَرْتم الميت فَأَغْمضوا البصر - يعنى بصر الميت - فَإن البَصَرَ يَتْبَع الروح، وقولوا خيرا، فإنّ الملائكةَ تؤمِّن على دعاء أهل البيت) .

٥) الدعاء له بما قد ينفعه فى تلك المرحلة إن شاء الله :

روى ابن أبى شيبة عن جابر بن زيد أيضا أنه قال : كان يقال قبل أن يموت الميت بساعة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لفلان بن فلان، وبرد عليه مضجعه، ووسع عليه قبره، وأعطه الراحة بعد الموت وألحقة بنبيه صلى الله عليه وسلم، وتول نفسه، وصعّد روحه فى أرواح الصالحين، واجمع بيننا وبينه فى دار تبقى فيها الصحة، ويذهب عنا فيها النصب واللغوب.

ويصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكرر ذلك حتى يقبض .

٦) تلقينه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حتى ينطق بها فتكون آخر ما تختم به حياته :

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(لَقِّنوا مَوْتَاكمْ لا إله إلا الله)

وروى الطبـرانى فى المعـجـم الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنـه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله، وقولوا الثَّبَاتَ الثبات ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وروى أحمـد وأبو داود والحاكم عن مـعاذ رضى الله عنه أن النبى صلى اللـه عليه وسلم قال :

(مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) .

وروى ابن حبان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله، فإنّه من كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنةَ يوماً من الدهر، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه).

من (مورد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ١٨٤)

وروى ابن ماجه بسنده إلى يحيى بن طلحة عن أمه سُعدى المرية أنها قالت :

مَرَّ عمر بطلحة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

مالك كئيبا؟ أساءتك إمرة ابن عمك؟

قال : لا، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنِّى لأعلم كلمة لا يقـولها أحد عند مـوته إلا كانت نورا لصحـيفته، وإن جـسده وَروحه ليجدان لها روحاً عند الموت) فلم أسأله حتى توفى.

قال عـمر : أنا أعلمـها، هى التى أراد عـمه عليـها، ولو علم أن شـيئا أنجى لـه منها لأمره.

وروى أيضا عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا مِنْ نفسٍ تموت تـشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسـول الله يرجع ذلك الى قَلْب موقِنٍ إلاَ غَفَرَ اللهُ لَهَا) .

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حـبان عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر .

قال الله : صدق عبدى لا إله إلا أنا، وأنا أكبر .
فإذا قال : لا إله إلا الله وحده .
قال الله : صدق عبدى لا إله إلا أنا وأنا وحدى .
فإذا قال : لا إله إلا الله لا شريك له .
قال الله : صدق عبدى لا إله إلا أنا ولا شريك لى .
فإذا قال : لا إله إلا الله له الملك وله الحمد .
قال الله : صدق عبدى لا إله إلا أنا لى الملك ولى الحمد .
فإذا قال : لا إله إلا الله ولاحول ولا قوة إلا بالله .
قال الله : صدق عبدى لا إله إلا أنا ولاحول ولا قوة إلا بى .
ثم قال صلى الله عليه وسلم : مَنْ رُزِقَهنّ عند الموت لم تمسه النار)
نسأل الله أن يرزقنا إياهن عند الموت .
قال تاج الدين ابن السبكى رحمه الله:

فإن قلتَ : إذا كنتم معاشر أهل السنة تقولون : إنَّ مَن مات مؤمنا يدخل الجنةَ لا محالةَ، وإنه لا بد من دخول من لم يعف الله عنه من عصاة المسلمين النار، ثم يخرج منها، فهذا الذى تلقنونه عند الموت كلمة التوحيد إذا كان مؤمنا ماذا ينفعه كونها آخر كلامه؟

قلت: لعل كونها آخر كلامه قرينة أنه ممن يعفو الله عن جرائمه فلا يدخل النار أصلا كما جاء فى اللفظ الآخر (حَرَّمَ الله عليه النار) وإذا كنا لا نمنع أن يعفو الله عن بعض عصاة المسلمين ولا يؤاخذه بذنوبه، فضلا منه وإحسانا، فلا يستبعد أن ينصب الله النطق بكلمة التوحيد آخر حياة المسلم أمارة دالة على أنه من أولئك الذين يُتجاوز عن سيئاتهم.

من (طبقات الشافعية الكبرى ج١ ص٦٥)

على الملقن أن يراعى أدب التلقين :

إن من يكون فى سياق الموت تحضره مخلوقات عجيبة لا يراها إلا هو، يخاطبونه ويرد عليهم بصوت ضعيف أو شديد واضح، والحاضرون عنده من الناس يسمعون كلامه ولا يسمعون كلام تلك المخلوقات.

وكلام المحتضر قد يكون متوجها به إلى تلك المخلوقات وقد يكون متوجها به إلى من عنده من الناس، ويظن المستمعون إليه أنه لا يخاطب سواهم، أو أن الوجع غلبه فصار يهذى.

والمرء إذا كـان فى سياق المـوت قد تحضـره أرواح بعض من سـبقوه بـالوفاة. كـما تحضره الشياطين الذين يشاغبـونه أو يفتنونه، فيكون مشغولا بهؤلاء وهؤلاء وبالملائكة الذين جاءوا يتوفونه، وبمن يلقنونه كلمة التـوحيد من الأحياء. فعلى الملقن له أن يراعى الآداب التالية :

١) أنه يلقنه كلمة التوحيد، فيقول له : قل لا إله إلا الله.

قال الشيخ المناوى- رحمه الله - فى شرحه للجامع الصغير :

لا يقول له قل لا إله إلا الله، وإنما يذكرها عنده، لينبهه إلى النطق بها.

ولعل هذا الاختـيار من الشـيخ المناوى لئلا يرد المحتـضر على الشـيطان بقوله (لا) فيظن الملقن أنه امتنع من النطق بكلمة التوحيد.

غيـر أن من سلف الأمة من كـانوا يلقنون المحتـضر بقـولهم قل لا إله إلا الله والله يتولى الجميع باللطف والثبات.

٢) أن يعيد تلقينه إذا تكلم بشىء آخر بعد النطق بكلمة التوحيد .

قال الحسن بن الربيع :

سمعت ابن المبارك حين حضرته الوفاة وأقبل نصير يقول له :

يا أبا عبد الرحمن قل لا إله إلا الله.

فقال له:

يا نصـير ، قـد ترى شـدة الكلام علىّ، فإذا سـمـعتنى قلتـهـا فلا تردها علىّ حـتى تسمعنى قد أحدثت بعدها كلاما .

من (صفة الصفوة ج٤ ص١٤٦)

٣) أن لا يلحّ عليه بتكرارها، إذا نطق بها وكانت آخر كلامه حتى لا يضجره.

قال القرطبى :

وينبغى أن ينبه الميت على ما يدفع به الشيطان، فإنه يتعرض للمـحتضر فيفسد عليه عقيدته.

فإذا تلقنها الميت وقالها مرة واحدة فلاتعاد عليه لئلا يضجر.

٤) أن لا يظن به سوء إذا ظهـر منه - عند التلقين - ما يدل على التـمنع بقوله (لا) أو بإشارة تدل على التمنع .

٥) أن يكون الملقن غير مكروه من المحـتضر كعدوٍ له أو حاسـدٍ، أو وارث مبغض

مشاهد من فتنة الشيطان للمحتضر:

قال صالح بن أحمد بن حنبل :

حضرت أبى الوفاة، فجلست عنده، وبيدى الخرقة لأشد بها لحيته، فجعل يعرق ثم يفيق ويفتح عينيه ويقول بيده هكذا لا، بعد ، لا ، بعد ،لا ،بعد.فقلت يا أبت، أى شيء هذا الذى قد لهجت به فى هذا الوقت ؟

قال : يا بنى ما تدرى ؟

قلت : لا

قال : إبليس لعنه الله قائم بحذائى عاضا على أنامله، يقول يا أحمد فُتَّنى (يعنى نجوت منى) فأقول : لا، حتى أموت.

من (طبقات الحنابلة ج١ ص١٧٥)

وكان أبو الحسن حسن بن محمد الخولانى الكانشى قد سُمع عند احتضاره يقول :

لا يا عدو الله حتى يردوا الرداء.

فقيل له : ما هذا ؟

قال إبليس عند رأسى يقول : نجوت منى

كما سُمع يقرأ عند خروج نفسه ﴿ إِنَّ المتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ ونَهَرٍ فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيك مقْتَدِرٍ ﴾ (١) .

توفى رَحمه الله سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وهو ابن تسع وتسعين

من (ترتيب المدارك ج٦ ص٥٠)

قال القرطبى :

سمعت شيخنا أبا العباس أحمد بن عمر القرطبى بثغر الإسكندرية يقول :

حَضَرْتُ أخا شيخنا أحمد بن محمد القرطبى بقرطبة وقد احتضر، فقيل له:

قل لا إله إلا الله، فكان يقول : لا ، لا ، فلما أفاق ذكرنا ذلك له، فقال :

أتانى شيطانان عن يمينى وعن يسارى يقول أحدهما مت نصرانيا فإنه خير الأديان، والآخر يقول مت يهوديا فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما لا،لا، أى لا تقولا، وقد كتبت بيدى كتاب الترمذى والنسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(إنّ الشيطانَ يأتى أحَدَكم عند الموت ، فيقول له : مُتْ يهوديًا ، متْ نصرانيا) فكان الجوابَ لهما، لا لكم.

---

(١) سورة القمر آية ٥٤ .

قال القـرطبى : وقد تصفحت كـتاب الترمذى والـنسائى فلم أقف فيهـما على هذا الحديث، فإن كان فى بعض النسخ فالله أعلم.

وذكر المناوى فى شرحه للجامع الصغير أن ابن عربى رضى الله عنه قال :

إنى أعلم بشخص بتـونس لقن عند احتضاره، وقـد شخص بصره، فـقال لا، وكان صالحا، فخيف عليه، فاتفق أنه رد إليهم فقال :

جاءنى الشياطين بصورة من سلف من آبائى، فقالوا إياك والإسلام، مُتْ يهوديا، أو نصرانيا فهو ألجى، فكنت أقول لا ، فعصمنى الله منهم.

من (فيض القدير ج٥ ص٢٨٢)

تنوع ردود المحتضرين عند التلقين :

رأينا الناس - عند الاحتضار - تتنوع أحوالهم إلى أربع :

١) منهم من يثبـته الله عند النـزع، فينطق بالشـهـادة من تلقاء نـفسـه وتكون تلك الكلمة الطيبة آخر ما يلفظ به فى حياته.

٢) منهم من ينطق بها متى لقنها .

٣) منهم من يلقنها فلا يستطيع النطق بها، بل يحال بينه وبينها، رغم أنه يتكلم عند الاحتضار ، وكان ممن يقولونها فيما سلف من أيام الحياة.

٤) منهم من يلقنها، فيرد بكلام آخر يتضمن ماكان يشغله حينما كان متمتعا بالحياة.

فما هو السر الخفى فى تنوع أحوال المحتضرين؟

لعل السر فى تنوعها يكمن فيما رواه ابن أبى شيبة عن يزيد بن عجرة أنه رضى الله عنه قال :

(ما منْ مَيت يَمـوت حتى تَمَثَّلَ له جلَسَاؤه عند مَوْته ،إن كانوا أهلَ لَهْـوٍ فَأَهْل لَهْوٍ، وإن كانوا أهلَ ذكْرٍ فأهل ذكر).

قال ابن رشيق القيروانى فى كتابه أنموذج الزمان :

كان محمد بن مغيث المغربى مفتونا بالخمر، متبذلا فيها، مدمنا عليها، لا يفيق منها.

سأله بعض إخوانه فى مرضه الذى مات فيه ليختبر قواه فقال له :

هل تقدر على النهوض لو رمته؟

فقال : لو شئت مشيت من هاهنا إلى حانوت أبى زكريا النباذ.

فقال : فألا قلت إلى الجامع.....

فقال : لكل امرئ من دهره ما تعودا، ولم تجر العادة بذلك .

قال ابن رشيق توفى ابن مغيث آخر سنة ثلاث وأربعمائة وقد بلغ الخمسين والسن ظاهرة عليه.

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص٤٨)

سبحان الله لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

(يُبْعَثُ كلُّ عَبدٍ على ما مات عليه) رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه كما قال صلى الله عليه وسلمَ :

(مَنْ مَاتَ على شيء بَعَثَه الله عليه) رواه أحمد والحاكم عن جابر أيضا.

رحم الله ابن مُغيث وَغفر لنا وله ولجميع المؤمنين.

مشاهد من نطقوا بالشهادة تلقائيا عند مماتهم:

هذا النوع من المشاهد قد ذكر فى قسم من ختمت أعمارهم بإحدى الطاعات، فليطالع هناك.

مشاهد من لقنوا الشهادة فردوا رداً حسنا:

دخل الشعبى على رجل مريض يعوده، فوجد عنده رجلا يلقنه لا إله إلا الله وهو يكثر عليه .

فقال له الشعبى : أرفق به.

فتكلم المريض وقال : يلقننى أو لا يلقننى ، فإنى لا أدعها ، ثم قرأ ﴿ وَأَلْزَمَهمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وكَانوا أَحَقّ بها وَأَهْلَهَا﴾ (١)

فقال الشعبى : الحمد لله الذى نجى صاحبنا هذا .

من (جمع الشتيت على التثبيت ص٧٧)

قال محمد بن ثابت البنانى :

ذهبت ألقن أبى وهو فى الموت لا إله إلا الله، فقال : يا بنى دعنى، فإنى فى وردى السادس أو السابع.

من (الحلية ج٢ ص٣٢٢)

وروى أن الجنيد لما حضره الموت قيل له : قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته حتى أذكره.

من (جمع الشتيت ص٧٧)

---

(١) سورة الفتح آية ٢٦ .

وقال محمد بن إسماعيل الصنعانى : قيل لبعض الصالحين وهو فى السياق:
قل لا إله إلا الله، ففتح عينيه وأنشد:

وَغَدًا يذَكِّرُنى عهوداً بِالحِمَى   ومَتَى نَسِيتُ العَهْدَ حَتَّى أذْكرا

من (جمع الشتيت ص٧٧)

ولما كان أبو بكر محمد بن وسيم بن سعدون الطليطلى الضرير فى النزع دخل عليه بعض أصحابه فناداه فلم يجبه فقال الآخر: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهم وبَيْنَ مَا يَشْتَهون﴾ (١)

فقال أبو بكر حين ذاك :
نزلت الآية فى الكفار، وفيها ﴿ إِنَّهُمْ كَانوا فِى شَكٍ مُرِيبٍ﴾ (٢)

من (ترتيب المدارك ج٦ ص١٧٦)

دخل المُزَيِّنُ على أبى يعقوب إسحاق بن محمد النهرجورى وهو فى النزع.
فقال له : قل لا إله إلا الله.
فتبسم وقال : إياى تعنى، وعزة من لا يذوق الموت، ما بينى وبينه إلا حجاب العزة ، ومات فورا.
فكان المُزَيِّنُ يأخذ بلحيته نفسه ويقول : حجام مثلى يلقن الأولياء الشهادة، واخَجْلتاه منه، وكان يبكى كلما ذكر ذلك.
توفى النهرجورى - رحمه الله - سنة ثلاثين وثلاثمائة.

من (الوافى بالوفيات ج٨ ص٤٢٤)

ولما احتضر أبو بكر الشبلى قيل له : قل لا إله إلا الله، فأنشد:

إنَّ بَيْتاً أنْتَ سَاكنه   غَيْرُ محتَاجٍ إلَى السُّرُجِ
وَجْهكَ المَأمول حجّتُنَا   يَوْمَ يَأتِى النَّاس بِالحُجَجِ
لا أرَانِى الله مِنْ فَرَجٍ   يَوْمَ أدْعو منك بالفَرَجِ

مات -رحمه الله -فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة .

من (ترتيب المدارك ج٥ ص٤٨)

---

(١) سورة سبأ آية ٥٤ .
(٢) سورة سبأ آية ٥٤ .

مشهد من لقن الشهادة فلم يستطع أن ينطق بها :

روى الطبرانى والبيهقى فى شعب الإيمان ودلائل النبوة عن عبد الله بن أبى أوفى أنه قال :

جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إن هاهنا غلاما قد احتُضر، فيقال له قل لا إله إلا الله، فلا يستطيع أن يقولها، فقال صلى الله عليه وسلم :

أليس كان يقولها فى حياته؟

قالوا : بلى .

قال : فما منعه منها عند موته؟

فنهض النبى صلى الله عليه وسلم ونهضنا معه حتى أتى الغلام فقال :

يا غلام قل لا إله إلا الله .

قال : لا أستطيع أن أقولها.

قال : وَلِمَ ؟

قال : لعقوقِى والدتى .

قال : أَحية هى ؟

قال : نعم .

قال : أرسلوا إليها .

فجاءته، فقال لها صلى الله عليه وسلم :

ابنك هو ؟

قالت : نعم .

قال : أرأَيتِ لو أنّ ناراً أجِّجَت فقيل لكِ إنْ لَمْ تَشْفَعِى فيه دَفَنَّاه فى هذه النار.

فقالت : إذَنْ كنت أَشْفَع له.

قال : فأشْهِدِى اللهَ وأَشْهِدِينَا بِأنكِ قد رَضِيت عنه.

فقالت : قد رَضيت عن ابنى .

فقال : يا غلام، قل لا إله إلا الله.

فقال الغلام: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى أنقذه بى من النار.

مشاهد من لقنوا الشهادة فردوا ردا سيئا

إن شؤم الخطيئة قد يمنع من النطق بالشهادة حتى مع التلقين، وهذه نماذج منها.

روى السيوطى فى شرح الصدور أن رجلا بالبصرة قيل له عند النزع، يا فلان قل لا إله إلا الله، فجعل يقول :

يَا رُبَّ قائلة يوما وقد تَعِبَتْ ... كيفَ الطريق إلى حمّام مِنْجَاب

وروى هذا المشهد بهاء الدين العاملى بصورة أوسع فقال :

احتُضِر بعض المتْرَفينَ، وكان كلما قيل له:قل لا إله إلا الله يقول :

يا رُبّ سائلة يوما وقد تَعِـبَتْ ... أينَ الطريق إلى حمّام منجَاب

وسبب ذلك أن امرأةً عفيفة حسنَاءَ خرجت إلى حمام معروف بحمامِ منجاب ، فلم تعرف طريقه، وتعبت من المشى، فرأت رجلا على باب داره، فسألته عن الحمام ، فقال: هو هذا .وأشـار إلى باب داره، فلمـا دخلت أغلق البـاب عليـهـا، فلمـا عـرفت مكره أظهرت كمـال الرغبة والسرور، وقالت : اشتـر لنا شيئا من الطيب، وشيـئا من الطعام، وعجل بالعودة إلينا.

فلما خـرج واثقا بها وبرغـبتهـا، خرجت وتخلصت منه، فـبقى مبـهوتا حائرا بقـية حياته، وتـعلقت بها نفسه أعظم التـعلق، حتى منعته خطيـئته من الإقرار بالشـهادة عند الموت .

من (الكشكول ج١ ص٢٤٥)

ونقل السيوطى فى شرح الصدور عن البيهقى أن عابدا من أهل البصرة قال :

أدركت الناس بالشام يقولون: قيل لرجل قل لا إله إلا الله، فقال : اشْرَبْ وَاسْقنى.

وكان إسمـاعيل بن محمد المعـروف بالسيد الحميـرى شاعرا محسنا مـجيدا إلاَّ أنه رافضى. (١)

قال أبو ريحانة المتصوف الورع: حدثنى رجل كان أبوه من جوار السيد أنه قال :

لما حضرت السيد الوفاة جاءنا وليه فقال :

هذا الرجل وإن كـان مخطئـا فهـو من أهل التوحـيد، وهو جـاركم، فادخلوا إلـيه، فلقنوه الشهادة.

---

(١) الرافضى منسوب إلى الرافضة،و هي فرقة من غلاة الشيعة

قال : فدخلنا إليه وهو يجود بنفسه، فقلنا له قل لا إله إلا الله فاسود وجهه وفتح عينيه ثم قال لنا (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) (١)

قال: وخرجنا فمات من ساعته .

من (الوافى بالوفيات ج٩ ص٢٠٢)

ولما احتضر الحطيئة قيل له : قل لا إله إلا الله فقال :

قالت - وفيها حَيْدَة وذُعْر - عَوْذ بربِّى منكمو وَحِجْر

والعرب يقولون عن الأمر ينكرونه : (حجر له) أى دفع له، وهو استعاذة من الأمر.

من (فوات الوفيات ج١ ص٢٧٩)

مشاهد مختلفة من أحوال المحتضرين

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يكون لكل إنسان ملامح خاصة، تميزه عن غيره من الناس، حتى أن الملامح إذا تشابهت بين اثنين، فإنها لا تكون متماثلة كل التماثل بنسبة مائة فى المائة، وإنما تتقارب بعض التقارب فقط، وكل ما يبدو من تماثل بين اثنين فإنه ناشئ عن نظرة غير فاحصة، ولا متأملة، ولا بد - عند التأمل - من وجود الفوارق المميزة لكل منهما ولو بين التوأمين أو التوائم .

والحكمة الإلهية فى هذا الأمر واضحة، لأن الحياة لا تستقيم بدون تلك الفوارق المميزة للشخص عن كل من سواه، ولو لم يخلق الله عباده على هذه الدقة من التمييز لعمت الفوضى جميع شئون الحياة، فيصبح المرء إذا تعامل مع شخص فى أمر واعترضه من يماثل ذلك الشخص كل التماثل فلا يبعد أن يحاوره فى ذلك الأمر، اعتقادا منه أن الثانى هو الأول، ما دامت صورة الثانى هى صورة الأول بكل تفاصيلها، إلى آخر ما يتفاقم من مشاكل الالتباس بين الناس، ومن هنا يدخل البشر فى متاهات لا يعلم مداها إلا ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثم سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٢)

وكما اختلفت ملامح الذوات بين كافة أفراد البشر فى الدنيا، فإن أحوالهم عند

---

(١) سورة سبأ - آية ٥٤ .

(٢) سورة السجدة الآيات ٧ -٨ - ٩ .

مفارقتهم للدنيا تختلف اختلافـا بيّنا، ولو أنها- أحيانا - تتشابه بعض التشابه، إلا أنها لا تتماثل كل التماثل.

وإليك بعض النماذج لأحوال المحتضرين المختلفة مما لم تشمله المشاهد السابقة.

مشهد من غلب عليه الرجاء

كان أبوعبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمى الضرير قد ولد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، وأخـذ قراءة القرآن عرضـا عن عثمان بن عـفان، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبى بن كعب رضى الله عنهم.

وهو الراوى عن عثمان قول النبى صلى الله عليه وسلم :

(خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقرآنَ وَعَلَّمَه) رواه البخارى فى صحيحه.

وكان عبد الله السلمى الضرير - رحمه الله - يروى الحديث المذكور ويقول :

هذا الذى أقعدنى هذ المـقعد، ولا يزال يُقرئ الناس من زمن عثـمان رضى الله عنه إلى أن توفى سنة أربع وسبعين .

وقال قبل موته : (أنا أرجو ربى وقد صمت ثمانين رمضانا) .

من (غاية النهاية ج١ ص٤١٣)

مشهد من لا يستريح إلا إذا وضع المصحف على صدره

نقل القاضى عياض عن يونس أنه قال :

دخلت على أبى عمرو أشهب بن عبد العزيز القـيسى تلميذ الإمام مالك فى مرضه الذى مات فيه، فقال لى : يا يونس. قلت : لبيك. قال :

انظر ما هاهنا - وأشار إلى كتبه- ما جـمعت من الحجج على هذا البدن الضعيف، ما أستريح إلا أن آخذ المصحف فأضعه على صدرى.

قال يونس : وكانت كتبه فى زنبيل كبير .

من (ترتيب المدارك ج٣ ص٢٧١)

وممن غلب عليهم الرجاء من أجل تلاوة القرآن :

عبد الله بن إدريس الأودى .

قال الإمـام أحمـد بن حنبل كان ابن إدريس نسـيجَ وَحْده. وقال الحـسن بن الربيع البورانى : أتى كـتاب الرشيد إلى ابن إدريـس وأنا شاهد، فقرئ : من عـبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى محمد بن إدريس. قال فشهق وغشى عليه، فلما أفاق قال : إنّا لله، صار يعرفنى حتى يكتب إلىّ ، أى ذنب بلغ بى هذا ؟

ولما حضـرته الوفاة بكت ابنته، فـقال : لا تبكى، فقـد ختمت القـرآن فى هذا البيت أربعة آلاف ختمة .

توفى - رحمه الله - آخر سنة اثنتين وتسعين ومائة.

من (غاية النهاية ج١ ص٤٠٩)

ومنهم أبو بكر شعبة بن عياش :

قال ابن الجزرى :

لما حضرت أبا بكر بن عـياش الوفاة بكت أخته، فقـال لها : ما يبكيك؟ انظرى إلى تلك الزاوية، فقد ختمت فيها ثمانى عشرة ألف ختمة .

توفى - رحمـه الله ـ فى جمـادى الأولى سنة ثلاث وتسعـين وقيل أربع وتسـعين ومائة .

من (غاية النهاية ج ١ ص ٣٢٧)

ومنهم أحمد بن على المنجور الفاسى :

كان رحـمه الله لا يفتر عن قـراءة القرآن إلا زمن المطالعة أو التـأليف أو الإقراء أو ضروريـاته، ولما حضـرته الوفاة كـان يقول : مَـوْتٌ بحبِّ الله ورسوله صلى الله علـيه وسلم.

من (درة الحجال ج١ ص١٦٣)

ومنهم من بشره الله بالمغفرة قُبيل موته:

كان أبو العباس أحمد بن سريج الفقيـه الشافعى رأى فى مرضه الذى مات فيه كأن القيامة قد قامت .

وإذا الجبار سبـحانه يقول : أين العلماء؟ فجـاءوا، فقال : ماذا عَملتم فيـما عَلِمْتُمْ؟ فقالوا : يا ربنا قصَّرنا وأسأنا، فأعاد السؤال، كأنه لم يرض به، وأرادَ جوابا آخر.

فقلت: أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك، وقد وعدت أن تغفر ما دونه.

فقال : اذهبوا فقد غفرت لكم .

ثم مات ابن سريج - رحمه الله - بعد ثلاثة أيام.

من (وفيات الأعيان ج١ ص٦٧)

ومنهم من جمع بين الاستبشار والوعظ :

نقل السيوطى عن الزبيدى وابن الفرضى أن محمد بن عبد الله بن الغازى القرطبى رحل من الأندلس إلى البـصرة، فأخـذ عن علمائها، ثم عـاد إلى الأندلس فأدخل مـعه علما كثـيرا، مات -رحمه الله- بطنجة (لما خـرج من الأندلس ثانية وهو يريد المشرق)

كما قال ابن الجزرى فى غاية النهاية ج١ ص٤٤١) وذلك سنة ست وتسعين ومائتين، وقال عند احتضاره :

الحمدُ للَّه ثُمّ الحمدُ لله ... كَمْ ذَا على الموت منْ سَاه وَمَنْ لاه

مَاذَا يُشَاهدُ ذو العَيْنَيْنِ منْ عَجَبَ ... عنْدَ الخروجِ مِنَ الدّنْيَا إِلَى اللّه

يَا ذَا الذِى هوَ فى لَهْوٍ وفى لَعبٍ ... طُوبَى لِعَبْدٍ مُنِيبِ القَلْبِ أَوّاهَ

من (بَغية الوعاة ص٥٨)

ومنهم من رجا المغفرة لما كان عليه من اتباع رضا الله :

قال ابن خلكان:

سئل الحسن البصرى عن عمرو بن عُبيد فقال :

لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن، ولا باطنا أشبه بظاهر منه.

قال ابن خلكان :

ولما حضرته الوفاة قال لصاحبه : نزل بى الموت ولم أتأهب له، ثم قال :

اللهم إنك تعلم أنه لم يُسنح لى أمران فى أحدهما رضى لك، وفى الآخر هوى لى إلا اخترت رضاك على هواى فاغفر لى .

توفى - رحمه الله - وهو راجع من مكة إلى البصرة بموضع يقال له مُرّان سنة أربع وأربعين ومائة.

من (وفيات الأعيان ج٣ ص٣٦٢)

ومنهم من رجا عفو الله لمحبته أهل الطاعة فى الله :

قال أبوجعفر الربعى لما حضرت الوفاة محمد بن صبيح بن السماك قال :

اللهم إنى وإن كنت أعصيك، لقد أحببت فيك من يُطيعك.

ومن كلامه ما رواه أبو الحسين على بن الحسين الفقيه، وهو أنه قال :

إن استطعت أن تكون كرجل ذاق الموت، وعاش ما بعده، فسأل الرجعة فأسعف بطلبه، وأعطى حاجته، فهو متأهب مبادر فافعل، فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئا، ومن نفسه لنفسه.

توفى - رحمه الله - بالكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة.

من (صفة الصفوة ج٣ ص١٧٦)

ومنهم من حاول ألا يموت إلا وهو حسن الظن بربه:

قال سوّار بن عبد الله :

سمعت المعتمر بن سليمان بن طرخان التيمى يقول : قال لى أبى لما حضره الموت : يا معتمر، حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به.

من (صفة الصفوة ج٣ ص٢٩٩)

ومنهم من غُلب عليه حسن الظن بربه:

قال ثابت البنانى التابعى رضى الله عنه :

كان شاب به زهو، فكانت أمه تعظه : يا بنى إن لك يوما، فاذكر يومك. فلما نزل به أمر الله أكبت عليه أمه فجعلت تقول : قد كنت أحذرك مصرعك هذا يا بنى، فأقول أن لك يوما، فاذكر يومك.

فقال : يا أُمَّه إن لى ربا كثير المعروف، وإنى لأرجو ألا يُعَذِّبنى اليوم بفضل معروفه، ويلى إن لم يغفر لى .

قال ثابت : حَسَّنَ ظنه بالله عز وجل فى حالته تلك.

من (الحلية ج٢ ص٣٢٦)

ومنهم من غلب عليه الرجاء لعفته :

قال ابن خلكان :

ذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل أنه قال :

بينما أنا بالشام إذا لقينى رجل من أصحابى، فقال هل لك فى جميل فإنه يعتل نعوده؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه، فنظر إلىّ وقال: يا ابن سهل: ما تقول فى رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يزن، ولم يقتل النفس، ولم يسرق، يشهد أن لا إله إلا الله؟

قلت: أظنه قد نجا، وأرجو له الجنة، فمن هذا الرجل؟

قال: أنا .

قلت له : والله ما أحسبك سَلِمْتَ وأنتَ تُشَبِّب منذ عشرين سنة ببُثَيْنَة.

قال : لا نالتنى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنى لفى أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدى عنها لريبة.

قال ابن سهل: فما برحنا حتى مات.

توفى بمصر سنة اثنتين وثمانين - رحمه الله.

من (وفيات الأعيان ج١ ص٣٧٠)

ومنهم من أعد عفو الله لساعة احتضاره :

ذكر تاج الدين عبد الوهاب السبكى أن أبا القاسم عبد الصمد بن عمر الدينورى تفقه على أبى سعيد الاصطخرى ، وكان يُضرب به المثل فى مجاهدة النفس، واستعمال الصدق والتقشف، والأمر بالمعروف.

وكان يدق السعد للعطارين بالأجرة، ويقتات من ذلك (والسعد نوع من الطيب).

ولما حضرته الوفاة جعل يقول :

سيدى لهذه الساعة خَبَأْتُكَ (يعنى أعددت لهذه الساعة عفوك ومغفرتك).

توفى - رحمه الله - ببغداد يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

من (طبقات الشافعية ج٣ ص١٢٩)

ومنهم من كان قد رجا الله لكبر سنه :

نقل ابن خلكان عن ابن مناذر أنه قال :

سألت أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟

قال : ما دامت الحياة تحسن به.

ثم قال ابن خلكان :

كان أبو عمرو إذا دخل شهر رمضان لم ينشد بيت شعر حتى ينقضى .

وقال أبو عبيدة: دخل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن علىّ ، وهو عم السفاح، فسأله عن شىء فصدقه أبو عمرو، فلم يعجبه ما قاله، فوجد أبو عمرو فى نفسه، وخرج وهو يقول :

أَنفتُ منَ الذُّلِّ عندَ المُلوك ... وَإِنْ أَكْرَمُونى وَإِنْ قَرَّبوا
إِذَا مَا صَدَقْتُهمُو خِفْتُهمْ ... وَيَرْضَوْنَ منِّى بِأَنْ يُكذَبوا

قال ابن خلكان :

لما حضرت أبا عمرو الوفاة كان يُغشى عليه ويُفيق، فأفاق من غشية له، فإذا ابنه بشر يبكى، فقال: مايبكيك وقد أتت علىّ أربع وثمانون سنة، توفى - رحمه الله - بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة، وهو الثالث فى ترتيب القراء السبعة.

من (وفيات الأعيان ج٩ ص٤٦٩)

ومنهم من مات يرجو عفو الله رغم إراقته للدماء :

قال ابن خلكان :

مرض الحجاج بالأكلة، وقعت فى بطنه، ودعا بالطبيب لينظر إليها، فأخذ لَحماً وَعَلَّقَه فى خيط، وَسَرَّحَه فى حلقه، وتركه ساعة، ثم أخرجه، وقد لصق به دود كثير، وسلط الله عليه الزمهرير، فكانت الكوانين تُجعل حوله مملوءة نارا وتُدنى منه، حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها.

وشكا ما يجده إلى الحسن البصرى رضى الله عنه فقال له : قد كنت نهيتك ألا تتعرض إلى الصالحين فَلَجَجْتَ.

فقال له يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفَرِّج عنى، ولكنى أسألك أن يعجل قبض روحى، ولا يُطيل عذابى .

فبكى الحسن بكاء شديدا .

وأقام الحجاج (فى رمضان) على هذه الحالة بهذه العلة خمسة عشر يوما.

وكتب إلى الوليد بن عبد الملك كتابا يخبره فيه بمرضه وكتب فى آخره:

إذا ما لقيت اللهَ عَنى رَاضياً ... فإنَّ سرورَ النفسِ فيها هنَالكَ
فَحَسْبِى حَيَاة الله مِنْ كُلِّ مَيِّت ... وحسبى بَقَاءُ اللهِ إن صرت هَالِك
لقد ذاق هذا الموت من كان قَبلَنَا ... ونحن نذوق الموت مِن بعد ذَلِكَ

قال ابن خلكان :

وكان ينشد فى مرض موته هذين البيتين وهما لعبيد بن سفيان العكلى :

يا رب قد حَلَفَ الأعداء واجتهدوا ... أيمانَهُمْ أَنَّنِى من سَاكِنِى النَّارِ
أيحلفون على عَمْيَاءَ وَيْحَهُمو ... مَا ظَنُّهمْ بِقديمِ العَفْوِ غَفَّارِ

وقال الطبرى فى تاريخه: توفى الحجاج يوم الجمعة لتسع بقين من شهر رمضان سنة خمس وتسعين وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها وعفى قبره، وأجرى عليه الماء رحمه الله وسامحه.

قال ابن خلكان :

ويقال : أن الحجاج لما حضرته الوفاة كان يغوص ثم يُفيق ويقول : مالى ولسعيد بن جبير؟

وقيل أنه فى مدة مرضه كان إذا نام رأى سعيد بن جبير آخذا بمجامع ثوبه يقول له: يا عدو الله فيم قتلتنى؟ فيستيقظ مذعورا، ويقول مالى ولسعيد بن جبير:

ويقال أنه رىء فى النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال :

قتلنى بكل قتيل قتلته قتلة، وقتلنى بسعيد بن جُبير سبعين قتلة.

من (وفيات الأعيان ج٢ ص٣٧٤)

من أضواء هذه المشاهد:

من فضل الله سبحانه أنه يوفق من يشاء من عباده ليحسنوا الظن به عند موتهم، فيخرجوا من الدنيا على قدر عظيم من إكرام الله لهم بهذا الظن الجميل .

إن حسن الظن بالله عند الموت هو مما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته، فقد أرشدها إلى ما ينبغى أن يكون عليه المسلم عند الاحتضار، وذلك فيما رواه عنه جابر بن عبد الله رضى الله عنه حيث قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته بثلاث:

(لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاوَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّه) .

رواه البخارى ومسلم.

وروى أحمد والترمذى وابن ماجه عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى الموت فقال :

(كَيْفَ تَجِدُكَ ؟)

قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يَجْتَمِعَانِ فِى قَلْبِ عَبْدٍ فِى مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إلا أَعْطَاه الله مَا يَرْجوه، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ)

وروى أحمد والبيهقى أن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه دخل على مريض فقال له: أخبرنى كيف ظنك بالله؟ قال : أغْرقَتْنِى ذنوب لى، وأشرفت على هلكة، ولكنى أرجو رحمة ربى، فكبر واثلة، وكبر أهل البيت تكبيرة، وقال : الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(يَقول اللَّه تَعَالى : أَنَا عِنْدَ ظَنّ عَبْدِى، فَلْيَظُنَّ بِى مَا شَاءَ).

وروى ابن المبارك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إِذَا رَأَيْتمْ بالرجل المَوْتَ فَبَشِّروه لِيَلْقَى ربَّه وَهُوَ حَسَن الظَّنّ بِاللَّهِ، وَإِذا كَانَ حَيّاً فَخَوفوه.

أما من بشره الله بالمغفرة فى رؤيا رآها قُبيل موته فذلك من عظيم الفضل الإلهى على صاحب الرؤيا، وهى تندرج فى قول الله تعالى : ﴿ألاَ إنَّ أولياءَ اللَّه لا خَوْف عَلَيْهِمْ، وَلا هُمْ يَحْزَنونَ. الذينَ آمَنوا وكَانوا يتَّقونَ. لَهم البُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَفِى الآخِرَة ﴾(١)

وَفيما رواه الطبرانى عن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(ذَهَبَتِ النّبوَّة، فَلا نبوَّة بَعْدِى إلا المبَشِّرَاتِ: الرؤيَا الصَّالِحَة يرَاهَا الرَّجل، أوْ تُرَى لَه) .

وفيما رواه ابن ماجه عن أم كُرْزٍ رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(ذَهَبَتِ النُّبوَّة، وبَقِيَتِ الْمبَشِّرَات).

وأما من قتل نفسا مؤمنة متعمدا بغير نفس، ومات تائبا، راجيا لرحمة ربه فهل تقبل توبته؟ أو هو من المخلدين فى النار؟

ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الله سبحانه يقبل توبته إذا شاء لقوله تعالى :﴿إنَّ اللَّهَ لا يَغْفرُ أَنْ يُشْرك بِه ويَغْفرُ مَا دُون ذَلك لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٢)

وذهب آخرون إلى أنه مُخلد فى النار، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ موْمناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤه جهَنَّمُ خَالداً فيها وَغضِبَ اللَّهُ عَلَيْه ولَعَنَه وأَعَدَّ لَه عَذَاباً عَظِيماً﴾ (٣)

وكل ما فهمه الفريقان من الآيتين وغيرهما من الأدلة الأخرى قد بسطه وناقشه شيخ الاسلام محمد الطاهر بن عاشور فى الجزء الخامس من كتابه (التحرير والتنوير) عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مؤمناً متَعَمِّداً ... ﴾وذهب رحمه الله إلى جواز شموله بقبول المتاب إذا شاء الله ذلك، وذكر أن الخلود الوارد فى الآية محمول- عند جمهور علماء السنة- على طول المكث فى النار، لأجل قتل المؤمن عمدا، ولا خلود فى النار إلا لأهل الكفر، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وانظر (التحرير والتنوير) إذا شئت المزيد من البيان فى هذه المسألة.

---

(١) سورة يونس الآيات ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٣) سورة النساء الاية ٩٣ .

ما ينبغي فعله بالمحتضرين

لقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يحضُر المؤمنون من يكون منهم فى سياق الموت، ليساعدوه على المرور بتلك المرحلة العصيبة من وجوده، لأن أخطر وأشد ما يمر به الآدمى فى الحياة الدنيا هى لحظات وفاته.

والحاضرُ لمن يكون فى سياق الموت قد يتأثر كثيرا بما يرى من شدة نزع الروح، وأكثر الناس لا يدركون السر فى تلك الشدة المؤثرة.

غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حكمة الله فيما ينزل بالإنسان المؤمن من شدة النزع، وذلك فيما رواه ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها حميم لها يخنقه الموت، فلما رأى ما بها قال لها: لا تبتئسى على حميمك، فإن ذلك من حسناته [١] يعنى أن الله يثيبه على ما ينزل به عند النزع .

أمّا الأمور التى ينبغى مراعاتها بشأن المحتضر فهى كثيرة وأهمها ما يلى: [٢]

١) أن يجلس عنده أحسن أهله، وأفضلهم قولا وفعلا، أو أخص أصدقائه به.

٢) ألا يكون بين من يحضرونه جنب ولا حائض، ولا صارخ ولا مهذار ولا صبى يعبث.

٣) ألا يكون فى المحل كلب ولا صورة مجسمة، ولا رائحة كريهة تتأذى منها الملائكة من آنية نجاسة أو رائحة تبغ ونحوها.

٤) ألا يُتكلم عنده إلا بخير.

٥) أن يلقن الشهادة برفق، بأن يقول الملقن : لا إله إلا الله محمد رسول الله، فيسمعها المحتضر، فيقولها.

فإن قالها ثم تكلم بعدها بكلام فَيُلَقَّنْ مرة أخرى، حتى تكون آخر ما ينطق به فى حياته.

وقد حدث أن عبد الله بن المبارك لما حضره الموت جعل رجل يُلقنه لا إله إلا الله، وأكثر عليه، فقال عبد الله : إذا قلت مرة فأنا على ذلك ما لم أتكلّم.

٦) ألا يضجر الملقن من عدم نطق المحتضر بالشهادة أو من عدم قبوله لها، لأنه قد

---

(١) الحميم : القريب، لا تبتئسى : لا تحزنى .

(٢) ذكرت تفاصيل بعض هذه الأمور فى (مشاهد تلقين المحتضرين) فلتنظر هناك بصفحة ٢٥٨ وما بعدها .

يكون مشتغلا فى ذلك الحين بمخلوقات أخرى تحضره، يراها هو ويخاطبها، ولا يراها الحاضرون ولا يسمعونها لأن روحه بدأت تتخلص من حجاب الجسم، وأخذت تتكشف عن عالم آخر عجيب.

فقد كان أبو القاسم عبد الخالق بن شبلون لما حضرته الوفاة شَخُص ببصره نحو الباب وقال:

هذا ملك الموت، ادخل يا ملك الموت، سألتك بالله إلا ما رفقت بى .

ثم قُضى رحمه الله .ذكر هذا ابن ابنته عبد الله، وكانت وفاته ليلة الأربعاء الثامن عشر من ربيع الأول سنة تسعين وثلاثمائة . (١)

وكان الخليفة أبو القاسم عبد الله بن محمد الملقب بالمقتدى بأمر الله لما أحضر إليه تقليد السلطان (بركياروق) ليعلِّم عليه، قرأه وعلَّم عليه، ثم تغدى وغسل يديه، وعنده جاريته شمس النهار فقال لها :

هؤلاء الأشخاص قد دخلوا بغير إذن !

قالت : فالتفت فلم أر شيئا، ورأيته قد تغير حاله، واسترخت يداه، فظننت أنه قد غشى عليه، فقلت لجارية عندى ليس هذا وقت البكاء، واستحضرتُ الوزير وأخبرته الخبر فأخذ البيعة لولده أحمد.

توفى - رحمه الله - فجأة فى التاسع من محرم لسنة تسع وثمانين وأربعمائة . (٢)

٧) أن يقع توجيهه إلى القبلة مضطجعاً على شقه الأيمن إذا تيسر ذلك، وإلا فعلى ظهره ورجلاه إلى القبلة .

روى الحاكم فى المستدرك عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة سأل عن البراء بن معرور رضى الله عنه، فقالوا توفى وأوصى أن يوجّه إلى القبلة، فقال صلى الله عليه وسلم : أَصَابَ الفطْرَةَ .

٨) أن تُقرأ عنده سورة (يس)، فقد روى أحمد عن أبى الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا مِنْ مَيِّت يُقْرَأ عنْدَ رَأسه (يس) إلاهَوَّنَ اللَّه عَلَيْه).

وقد حدث أَنّ غضيف بن حَارث لما حضره الموت حضره إخوانه فقال :

هل فيكم من يقرأ سورة (يس) ؟

---

(١) معالم الإيمان ج٣ ص١٥٥ .

(٢) فوات الوفيات ج٢ ص٢١٩ .

قال رجل من القوم : نعم.

قال غضيف : اقرأ ورتل وأنصتوا.

فقرأ ورتل وأسمع القوم، فلما بلغ ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ خرجت روحه. [1]

٩) أن يُدعى له بالتهوين والتثبيت ونحو ذلك

١٠) أن تغمض عيناه إذا بقيتا مفتوحتين بعد أن تظهر عليه علامات الموت.

ومن تلك العلامات استرخاء رجليه وانفصال كفيه، وميلُ أنفه، وامتداد جلدة وجهه، وانخساف صُدغيه.

روى ابن ماجه عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : دخلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سلمة، وقد شق بصره [2] فأغمضه ثم قال :

(إنَّ الرّوحَ إذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ).

وكيفية تغميض العينين هى أن يأخذ شخص بعضديه، وآخر بإبهامَىْ رجليه، ويجذبانهما قليلا فإن العينين تُغمضان.

وليحذر الإنسان من تغميض المحتضر قبل التأكد من موته.

قال أبو ميسرة :

غمضت جعفر المعلم - وكان رجلا عابدا - فى حالة الموت، فرأيته فى منامى ليلة يقول :

أعظم ما كان علىَّ هو تغميضك لى قبل أن أموت أو قال قبل الموت.[3]

١١) أن يُشدَ لحْيُهُ الأسفل بعصابة تربط فوق رأسه، مخافة أن يبقى فاه منفتحا بشكل يشوه صورته .

١٢) أن يقع تليين مفاصله برفق، وتمديد يديه، وكذلك ركبتاه إثر خروج الروح، ولا يؤخر ذلك لئلا يتعذر مدُّ أعضائه إذا مضى على موته بعض الوقت .

١٣) أن يُسَرع بتجهيزه ودفنه.

روى أبو داود فى سننه عن الحصين بن وحوح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) المغنى لابن قدامة ج٢ ص٤٥٠ .

(٢) شق بصره: انفتح.

(٣) مواهب الجليل ج٢ ص٢٢٠ .

(لا يَنْبَغِى لِجِيفَةِ المسْلِمِ أَنْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ أَهْلِهِ)

قال أبو عبد الله العبدرى المعروف بابن الحاج:

يؤخذ فى تجهيزه على الفور، لأن من إكرام الميت الاستعجال بدفنه، اللهم إلا أن يكون موته فجأة، أو بصعق ، أو بغرق، أو ما أشبه ذلك، فلا يُستعجل عليه، ويمهل حتى يتحقق موته، ولو أتى عليه اليومان أو الثلاثة أو يظهر تغيره فيحصل اليقين بموته، حتى لا يدفن حيا، فيحتاط له، وقد وقع ذلك لكثير فيحتفظ من هذا . (١)

غسل الميت :

الأصل فى غسل الميت أن يقوم به أقرب الناس إليه إن كان يعرف كيفية الغسل ، وإلا فليغسله الإنسان الورع الأمين.

روى الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ غَسَّلَ مَيْتاً فَأَدىَ فِيهِ الأَمَانَةَ، وَلَمْ يُفْشِ عَلَيْهِ مَا يكون مِنه عِنْدَ ذَلِكَ، خَرَجَ مِنْ ذنوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدتْه أمّه).

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

(لِيَلِه أَقْرَبكمْ مِنه إِنْ كَانَ يَعْلَمُ، فَإِنْ كَانَ لا يَعْلَم فَمَنْ تَرَوْنَ أَنَّ عِنْدَه حَظًّا مِنْ وَرَعٍ وَأَمَانَة) .

روى ابن أبى شيبة أن امرأة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ماتت، فقال لأهلها أنا كنتُ أولى بها إذا كانت حية، أما الآن فأنتم أولى بها.

ولذا قال الأحناف: لا يجوز للرجل غسل زوجته فإن لم يوجد إلا الزوج يَمَّمَهَا، وأجاز جمهور العلماء غسل الرجل زوجته. (٢)

وينبغى - فى غسل الميت - مراعاة ما يلى :

١) أن لا يحضره إلا الغاسل ومن يساعده فقط .

٢) أن يوضع على شيء مرتفع، ويقف الغاسل ومساعده على الأرض.

٣) أن يجرد من ثيابه ، ويتحفظ على عورته من أن تنكشف . وإنما يحجبها بغطاء ساتر كثيف، لا تظهر من تحته عند ابتلال الغطاء بالماء.

---

(١) المدخل ج٣ ص٢٣٦ .

(٢) فتاوى وأقضية عمر ص ٧٤ .

٤) أن يُبدأ بغسل النجاسة عنه، فيباشر الغاسل ذلك بخرقة، ويصب الماء من يعينه، ويعيد الغسل ، حتى يرى أن المحل تنظف.

٥) أن يعصر بطنه برفق، ليخرج ما فيه من أذى، فإن خرج شيء غسله حتى تتم نظافته.

ويحسن أن يقعده عند عصر بطنه إذا تيسر ذلك.

٦) أن يكون غسل مخرجه بخرقة أو بأكثر من خرقة إذا لزم ذلك، وأما بقية بدنه فيغسله بيده إذا شاء، أو بقفاز طاهر ونحوه، فإن استعمل الخرق لغسل البدن، فلتكن واحدة لأعلى البدن وواحدة لفرجه وبين رجليه ثم يطرحها.

٧) أن ينظر في بدنه، فمهما لاحظ نجاسة في أي موضع غسلها.

٨) ألا يباشر بيده غسل فرج الميت بأي حال .

٩) أن يبدأ بأعضاء وضوئه فيغسلها أولا، ثم يفيض الماء على رأسه، ويخلل شعر رأسه بيده، ثم يغسل الشق الأيمن فالأيسر، من الأعلى إلى الأسفل، يقلبه يمينا ويسارا وبطنا لظهر، حتى يرى أنه قد عمه بالغسل، وبهذا تكون الغسلة الأولى قد تمت وبها يحصل الفرض الذى لا يجوز دفن المسلم إلا به.

١٠) أن يغسله - على وجه السنة - مرتين أخريين، فإن حصلت النظافة بالثلاث فذلك أمر كاف، وقد جمع بين الفرض والسنة، وإلا زاد اثنتين حتى تصير خمسا وإلا زاد على الخمسً اثنتين حتى تصير سبعا. وفي كل ذلك يكون العدد وترا.

١١) أن تكون الغسلة الأولى بالماء فقط، والثانية بالماء والسدر، وهو ورق النبق يُطحن ويحرك في الماء حتى تصير له رغوة، فإن لم يوجد السدر فيعوض بأي نوع من الغاسول، والثالثة بالماء والكافور إن وجد (١) وإلا فبالماء وأي طيب كان كماء الزهر والورد والياسمين.

١٢) أن ينظف ما تحت أظفاره ولا يقلمها، وأن يسرح شعر رأسه ولحيته بمشط واسع الأسنان، فإن خرج في المشط شعر جمعه وألقاه في الكفن يدفن معه.

١٣) أن يتفقد فمه وأنفه ، لاحتمال أن يكون قد دخل فيهما شيء من الماء، فيُميل رأسه قليلا ليخرج ما فيهما من الماء.

١٤) أن ينشفه بعد الانتهاء من غسله.

---

(١) الكافور مادة تستخرج من شجر عظيم ينبت بجبال الهند والصين، وخشبه أبيض، ويوجد في أجوافه الكافور وهو طيب الرائحة .

أما قـراءة القرآن عند غسل الميت فـقد سئـل أبو إسحاق الشـاطبى عن قراءة (يس) عند غسل الميت فقال :

إنّ فى تلك القراءة ما فى قراءة الحزب.[1] وتزيد بأنها قراءة للقرآن فى مواضع إزالة الأقذار والأوساخ التى ينزه القرآن عنها.

ويكفى المؤمن أنه لم يكن من عـمل السلف،وإنما جاء فى قراءة (يس) مـا جاء عند الاحتضار،لا عند الغسل، ولا عند الدفن ولا غيرهما .[2]

ما ورد فى غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال ابن عباس:

لما أجـمع القوم على غـسل رسول الله صلى الـله عليه وسلم وليس فى البـيت إلا أهله : عـمه العـبـاس، وعلى بن أبى طالب، والفـضل بن العبـاس، وقُـثَمُ بن العبـاس وأسامة بن زيد، وصالح مولاه، فلما أجمعوا على غسله نادى من وراء الباب أوس بن خولىّ الأنصارى - وكان بدريا - على بن أبى طالب، فقال :

يا على حظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال له علىّ - عليه السلام - ادخل.

فدخل، فحضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يل من غسله شيئا.

قال ابن عـباس: فأسنده على إلى صدره وعليـه قميصـه، وكان العباس والفـضل وقثم يقلبونه مع على وكان أسامة وصالح يصـبان الماءوجعل على يغسله، ولـم يُر من رسول الله صلى الله علـيه وسلم شيء مما يُرى مـن الميت، وهو يقول: بأبـى وأمى ما أطيـبك حيا، ومـيتا، حتى إذا فرغـوا من غسـل رسول الله صلى الله عليـه وسلم- وكان يغسل بالماء والسـدر- جفـفوه، ثم صـنع به ما يصنع بالميـت، ثم أدرج فى ثلاثة اثواب، ثوبين أبيضين، وبُرد حبرة. [3]

وروى الحَاكم عن عـبد الله بن الحـارث أنه قال: غسل النبى صلى اللـه عليه وسلم على وعلى يد على خرقة يغسله فأدخل يده تحت القميص يغسله والقميص عليه.

أما أبو بكر رضى الله عنه فقد أوصى أن تغسله أسماء زوجته فغسلته. [4]

---

(١) يشير إلى أن قراءة القرآن من جماعة بصوت واحد كرهها مالك رضى الله عنه.

(٢) فتاوى الإمام الشاطبى ص ٢٠٩ .

(٣) صفة الصفوة ج١ ص ٢٢٩ .

(٤) صفة الصفوة ج١ ص ٢٦٧ .

ما ورد فى غسل ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم:

روى مالك فى الموطأ عن أم عطية الأنصارية رضى الله عنها أنها قالت : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفيت ابنته فقال : اغسلنها ثلاثا أو خمسا، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن فى الآخرة كافورا أو شيئا من كافور، فإذا فرغتن فآذننى.

قالت: فلما فرغنا آذناه، فأعطانا حقوه (تعنى إزاره)

فقال : أشعرنها إياه. (١)

ما ورد فى غسل المحرم وكفنه:

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :

بينما رجل واقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة إذ وقع من راحلته فأقصعته، أو قال فأقعصته، فقال صلى الله عليه وسلم :

اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه فى ثوبين ولا تحنطوه ، ولا تخمِّروا رأسه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيا.

كيف يجهز الميت إثر غسله ؟

١) أول ما يبدأ به بعد التنشيف أن يأخذ قطنة يجعل عليها شيئا من الطيب ويجعلها على فمه، وأخرى يسد بها شقى أنفه، وثالثة يشدّها على الفم والأنف، ويربطها من خلف عنقه، فتكون كاللثام.

ثم يضع قطنا معطراً على عينيه وأذنيه، ويشد ذلك بقطعة قماش فيربطها على القطن، وتكون كالعصابة.

٢) ثم يجعل طيب الحنوط فى رأسه ولحيته، وفى أعضاء سجوده السبعة من جبهته وكفيه وركبتيه وقدميه.

ويجعل من ذلك الحنوط فى عينيه وفمه وأذنيه ومرفقيه، وإبطيه ورفغيه، وعلى القطن الذى يجعل بين فخذيه لئلا يسيلَ منه شىء، ويشدّ ذلك بقطعة قماش يربطها فى مئزره.(٢)

وقال سحنون : ويشد دبره بقطنة فيها ذريرة ويبالغ فيها بِرفق. (٣)

ويُزاد للمرأة سَدُّ القُبُل بقطنة معطَّرة أخرى.

---

(١) اجعلنه شعارها، والشعار هو الثوب الذى يلى الجسد مباشرة. وفعل بها ذلك تبركا بازاره صلى الله عليه وسلم.

(٢) المنزر: ما يستر النصف الأسفل من الإنسان.

(٣) مواهب الجليل ج٢ ص ٢٢٦ .

كل ذلك حسب ما يتوفر من الطيب وإلا فيقتصر على أعضاء السجود السبعة والأرفاغ. ثم يشرع فى تكفينه.

٣) أن يكفنه بما يستره ، وأقل الكفن ثوب واحد. والأفضل ثلاثة أثواب والاثنان أفضل من الواحد.

روى مالك فى الموطأ عن عبد الله بن عمرو أنه رضى الله عنه قال : الميت يُقمص ويؤزر ويلف فى الثوب الثالث، فإن لم يكن إلا ثوب واحد كفن فيه

واستحب كثير من الفقهاء - لتكفين الرجل - خمسة أثواب هى :

١) قميص (ثوب يلبس على الجسم مباشرة).

٢) إزار (يستر النصف الأسفل).

٣) عمامة (يحنكه بطرف منها، ويستوثق من ذلك لئلا يسترخى ذقنه فينفتح فاه، ويعممه بباقيها).

٤-٥) لفافتان يدرج فيهما.

ولا يزاد على هذه الخمسة، ويذرُّ من طيب الحنوط على ما يلى جسده ثم ما فوقه من اللفائف.

أما المرأة فالمستحب لها أن تكفن فى سبعة أثواب وهى :

١) درع.

٢) إزار.

٣) خمار.

وأربع لفائف تدرج فيها.

وحتى لا تتحرك أطراف الميت عند نقله وحمله للدفن ينبغى - قبل إدراجه فى اللفائف - أن يربط طرف كم قميصه بطرف الكم الآخر وتربط قطعة قماش فى ملتقى ربط الكمين ويمدها إلى إبهامى رجليه، فيربطها فيهما.

قال ابن الحاج فى المدخل :

وهذه الصفة إنما هى إذا ألبس الميت القميص، أما إذا أدرج فى الكفن إدراجا فلا حاجة تدعو إلى فعل ذلك لعدم تحرك أطرافه عندئذ. (١)

وأخيرا تربط اللفافة الأخيرة أو اللفافتان من فوق رأسه، ومن تحت رجليه. فإذا وضع فى لحده أزيل الرباط عنه.

---

(١) المدخل ج٣ ص ٢٤١ .

٤) يستحب أن يكون الكفن أبيض اللون لما رواه أحمد والترمذى عن سمرة أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(الْبَسُوا الثِّيَابَ البيضَ، فإنهَا أطهرُ وأطَيبُ، وكَفِّنُوا فيهَا مَوْتَاكُمْ).

٥) ويستحب أيضا أن يجمر الكفن بالبخور وترًا.

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتحسين الكفن فى عدة أحاديث. فقد روى مسلم عن جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا وَلِىَ أَحَدكُمْ أَخَاه فَلْيُحسنْ كَفَنَهُ).

وروى أحمد وابن حبان والحاكم عن أبى سعيد أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(الْمَيِّتُ يُبعَثُ فِى ثِيَابه التى يَمُوتُ فيهَا).

قال العلماء : يعنى الَتى كُفن فيها.

وروى البيهقى عن أبى قتادة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(إِذَا وَلِىَ أَحَدكُمْ أَخَاه فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ، فَإنَّهُمْ يَتَزَاوَرُون فِى قُبُورهِمْ) ثم قال البيهقى: وهذا لا يُخالف قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى الكفن: إنما هو لـلمُهْلَةِ يعنى الصديد، لأن ذلك يكون كذلك فى رؤيتنا، ويكون كما شاء الله فى علم الله كما قال تعالى فى الشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وهم كما تراهم يتشحطون فى الدماء.

قال العلماء : المراد بتحسين الكفن بياضه ونظافته وسبوغه وكثافته لا كونه ثميناً.

وروى ابن أبى شيبة عن عمر رضى الله عنه أنه قال :

يكَفَّنُ الرجلُ فى ثلاثة أثواب، ولا تعتدوا إنّ اللهَ لا يحب المعتدين، وتُكَفَّنُ المرأةُ فى خمسة أثواب : فى المنطقة ، وفى الدرع، وفى الخمار، وفى اللفافة التى تشد عليها.(١)

وروى أبو إسحاق أن صلة بن زفر حدثه أن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه بعثه وأبا مسعود، قال فابتعنا له كفنًا (حلة قصب) بثلاثمائة درهم.

فقال : أريانى ما ابتعتُما لى .

فأريناه.

فقال : ما هذا لى بكفن، إنما يكفينى ريطتان بيضاوان، ليس معهما قميص، فإنى لا أترك إلا قليلا حتى أبدل خيرا منهما .

قال: فابتعنا له ريطتين بيضاوين .

---

(١) فتاوى وأقضية عمر ص ٧٤ .

وعن أبى وائل أن حذيفة رضى الله عنه قال :

لا تُغالوا بأكفانى، فإنه إن يكن لصاحبكم عند الله خير، فإنه يبدل بكسوته خيرا منها وإلا سلب سلبا (١)

وروى أبو داود عن على رضى الله عنه أنه قال :

لا تُغَالوا لى فى كَفَن، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تُغَالُوا فِى الكَفَن، فَإِنَّهُ يُسلَبه سَلبًا سَرِيعاً)

وبالإضافة إلى كل ما تقدم فإن من المعلوم إسلاميا أن أول شخص من أموات البشر وقع تجهيزه بالغسل والتكفين قبل دفنه فى التراب هو أبونا آدم عليه السلام .

روى أبو عبد الله الحاكم عن أُبَىٍّ بن كعب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لَمَا تُوفِّىَ آدمُ غَسَلَتْه الملائكةُ بالماء وِتْراً، وألحدُوا لَهُ، وقالوا هذه سنة آدَمَ فِى وَلَده).

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن آدم غسلتْهُ الملائكةُ بماء وسدر، وكفَّنوه وألحَدُوا له ودَفَنُوهُ، وقالوا هذه سُنَّتُكُمْ يا بَنى آدَمَ فى موتاكم) يعنى قالوا ذلك لأبنائه.

البكاء على الأموات

المرء قد يبكى على الميت، لأنه مات ولم يتمتع بالحياة، كما كان يتوقع له محبوه، أو كما كان يتوقع هو لنفسه...

وهذا الطراز من البكاء هو ما أوصى به أبو فراس الحمدانى ابنته قائلا :

أَبُنَيَّتى لاَ تَجزَعى ... كُلُّ الأنَامِ إلَى ذَهَابْ
نُوحى عَلَىَّ بحَسرَةَ ... مِنْ خَلْف سِتْرِك وَالحجَابْ
قُولِى إذَا كَلَّمتنى ... وَعَيِيتُ عَنْ رَد الجَوَابْ :
زَيْنُ الشَّبَابِ أَبُو فِرَا ... سِ لَمْ يُمَتَّعْ بِالشَّبَابْ

وقد يبكى المرء لمجرد فراق حبيب يعز عليه فراقه.

وقد يبكى لأنه سيفقد بموت الفقيد منافع كانت تصله منه، فيكون عندئذ باكيا على نفسه لا على الميت.

---

(١) صفة الصفوة ج١ ص ٦١٥ .

وربما يبكى إشفاقا على الميت مما سيجابه بعد الموت من سؤال فى القبر، ومن مشاهدة مقعده الذى سيصير إليه، إلى آخر ما سيلقى.

وقد يتوقع - بموت الفقيد - أن أمة من الناس ستحل بها رزية عظيمة على حد ما قيل.

وَمَا كَانَ عَمْرٌو هُلْكُهُ هُلْكَ وَاحِدٍ   وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

أو كما قيل:

يَمُوتُ قَوْمٌ، وَلاَ يَأسَى لَهُمْ أَحَدٌ   وَوَاحِدٌ مَوْتُهُ رُزْءٌ لأَقْوَامِ

البكاء المحمود والبكاء المذموم

البكاء على الميت منه بكاء محمود، ومنه بكاء مذموم، أما المحمود فهو ما كان بفيضان الدمع، ولم يصحبه صوت، ولا خمش للوجه، ولا حلق للشعر، ولا تمزيق للثياب.

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان ابن مظعون وهو ميت، قال فرأيت دموع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسيل على خد عثمان بن مظعون.

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجهْ

وروى ابن سعد عن ابن عبّاس رضى الله عنهما أنه قال لنسوة : ابكين، وإياكن ونعيق الشيطان، فإنه مهما يكن من العين والقلب فمن الله، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان.

وروى البخارى عن عبد الله بن عمر أنه قال :

اشتكى سعد بنُ عبادة شكْوَى له، فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم يَعُوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم، فلمّا دخل عليه وجده فى غاشية أهله، فقال:

قد قضى؟ قالوا : لا يا رسول الله.

فبكى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى القوم بكاء النبى صلى الله عليه وسلم بكوا، فقال صلى الله عليه وسلم :

(ألا تَسْمَعُونَ؟، إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يُعذب بهذا أو يرحم، (وأشار إلى لسانه) وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه.

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال:

دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سيف القين، [1] وكان ظِـئْراً لإبراهيم [2] فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه.

ثم دخلنا عليه بعد ذلك - وإبـراهيم يجود بنفسه - فجعـلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف:

وأنت يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وسلم:

(يَا ابْنَ عَوْف، إِنَّهَا رَحْمَةٌ) ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بأخرى، فقال :

(إِنَّ الْعَـيْنَ تَـدْمَعُ، وَالقَلْـبَ يَحْـزَنُ، وَلاَ نَقُـولُ إِلاَ مَـا يُرْضِى رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِـرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزونُونَ).

وفى رواية أوفى من التى رواها البـخارى، وهى التى رواها ابن سـعد عن مكـحول فقد قال :

دخل رسول الـله صلى الله عليه وسلم وهو مـعتـمد على عـبد الرحمـن بن عوف رضى الله عنه، وإبراهيم يجود بنفسه، فلما مات دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عبد الرحمن:

أَىْ رَسُولَ اللَّه هَذاَ الذى تَنْهَى النَّاسَ عَنْهُ، مَتَى يَرَكَ الْمُسلمُونَ تَبْكِى يَبْكُوا.

قال : فلما سُرِيَتْ عنه عَبْـرَتُهُ قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّما هَذَا رُحْمٌ وَإِنَّ مَنْ لاَ يَرحَمُ لا يُرْحَمُ، إِنَّمَا نَـنْهَى النَّاسَ عَنِ النِيَاحَة، وأَنْ يُنْدَبَ الـرَّجُلُ بِمَا لَيْسَ فِيـه، ثمّ قال صلى الله عليه وسلم :

لَوْلاَ أَنَهُ وَعْدٌ جَامِعٌ، وَسَبِيلٌ مئتَـاةٌ، وَأَنَ آخِرَنَا لاَحقٌ بأولنَا لَوَجَدْنَا عَلَيْه وَجْـداً غَيْرَ هَذاَ، وإِنَّا عَلَيْـه لَمَحْزُونُونَ، تَـدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيحْزَنُ الـقَلْبُ، وَلاَ نَقُولُ مَا يُـسْخِطُ الرَّبَّ، وَفَضْلُ رَضَاعِه فِى الجَنَّة.)

من (حياة الصحابة ج٣ ص ٢٠٢)

وروى البخـارى عن أبى عثمان أنه قـال : حدثنى أسامـة بن زيد قال : أرسلت ابنة

---

(١) القين : الحداد.

(٢) الظئر : زوج المرضعة.

النبى صلى الله عليه وسلم أن ابناً لها قُبض فـأتنا، فأرسل صلى الله عليه وسلم يقرىء السلام، ويقول:

(إنَّ للَّه مـا أَخَذَ، ولَهَ مَـا أعطَى، وَكلٌ عِندَه بأجَلٍ مُسَمَّى، فلتَـصْبِرْ ولْـتَحْتَـسِبْ).

فأرسلت إليـه تقسم عليـه ليأتينهـا، فقام صلى الله عليـه وسلم ومعـه سعد بن عـبادة، ومعـاذ بن جبل، وأبىّ بن كـعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفع إلـى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبى، ونفسه تتقعقع - قال حسبته أنه قال : كأنها شنٌّ (١)

- ففاضت عيناه صلى الله عليه وسلم .فقال سعد يا رسول الله ما هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

(هَذه رَحْمَة جعَلَهَا الله فِى قُلُوب عبَاده، وإنَّمَا يَرحَمُ اللَّهُ منْ عبَاده الرُّحَمَاءَ).

وروَى البخارى عن أنسَ بن مـالكَ رضَى الله عنه أنه قالَ : شهدنا بـنتا لرسول الله صلى الله عليـه وسلم ورسـول الله صلى الله عليه وسـلم جالس على القـبر، فـرأيت عينيه تدمعان.

وأمّا البكاء المذموم فـهو ما كان يصحـبه صوت أو نواح (بتعـديد صفات الميت فى زعم النائحـة) أو يصـحبـه خمش للبـدن. أو لطم للخـدود، أو حلق للشـعر أو خـرق للثياب.

وهذه كلها من عوائد أهل الجاهلية على تفـاوت بينهم فيها، وربما يطول بهم النواح على الميت عاما كاملا أو أكثر، فقد أمر لبيد بن ربيعة ابنتيه أن تبكياه حولا كاملا فقال:

تَمَـــنَّى ابْنَتَـــاىَ أنْ يَعيشَ أَبُوهُمَا ... وَهَـــلْ أَنَـا إلاَّ مِـنْ رَبيعَة أو مُضَرْ
فَقُــــومَا، وَقُولاَ بالَّذى تَعْلَمَانه ... ولاَ تَخْمِـشَا وَجْهاً، وَلاَ تَحْلقَا شَعَرْ
وَقُولاَ هُوَ الْـــمَرْءُ الذى لاَ صَديقَهَ ... أَضَــاعَ وَلاَ خَانَ الْـخَليلَ وَلاَ غَدَرْ
إلى الحَوْل، ثُمَّ اسْمُ السَّلاَم عَلَيكُمَا ... وَمَنْ يَبْـــك حَوْلاً كاملاً فلقَدْ عُذرْ

من (الكشكول للعاملى ج١ ص ٤٤)

ومع أن الدين الإسـلامى حرّم النواح فـإن بعض الجـهات فى العـالم الإسلامى مـا زالت تحافظ على تلك العوائد المنكرة.

روى الطبرانى عن عمرو بن عوف أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(١) القربة اليابسة.

(ثَلاَثَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْجَاهِلِيةِ لاَ يَتركهنَّ النَّاس: الطَّعْنُ فِى الأنسابِ، وَالنِياحَةَ على المَيتِ، وَقَولُهُمْ مُطِرْنَا بِنَوءِ كَذَا وكَذَا [1] .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَيسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ).

وروى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن حكيم بن قيس بن عاصم أن أباه أوصى ولده عند موته، فذكر الحديث إلى أن قال :

وَإِذَا مُتُّ فَلاَ تَنُوحُوا عَلَيَّ، فإِنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُنح عليه .

على أن تعذيب الله للنائحات يوم القيامة تعذيب شديد كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد روى مسلم عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (النَائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يومَ القِيامة وعليها سِرْبَال مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرع مِنْ جَرَبٍ).

وروى ابن ماجه - بسند صحيح - عن أبى مالك الأشعرى أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(النِيَاحَةُ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَةِ، وَإِنَّ النَّائِحَةَ إِذَا مَاتَتْ ولم تَتُبْ قطَّعَ اللهُ لَهَا ثِيَابًا مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرعاً مِنْ لَهَبِ النَّارِ).

وروى أبو يعلى الموصلى فى مسنده، وابنُ عدى فى الكامل عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(أَيُّمَا نَائِحَةٍ مَاتتْ قَبْلَ أَن تَتُوبَ أَلبَسَهَا اللَّهُ سِرْبَالاً مِنْ نَارٍ، وأقَامَهَا لِلنَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ).

---

(١) أى بالنجم الفلانى، وكانوا يسمون بعض النجوم نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالغرب ناء الطالع بالمشرق، فيعتقدون أن المطر ينزل بفعل النجم لا بإرادة الله وصنعه.

هل يعذب الميت بالبكاء عليه ؟

لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بتعذيب الأموات بالبكاء، وأجمع العلماء على أن المراد بالبكاء الوارد النهى عنه هو ما كان بصوت ونياحة لا بمجرد دمع العين.

غير أن الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى فهمهم لما يريد الرسول صلى الله عليه وسلم بمن يعذبون بالبكاء المنهى عنه، هل يقصد الموتى من أهل الكفر خاصة، أو يقصد كلّ من يموت من الناس ؟

وفيما يلى بعض الآثار الواردة فى هذه المسألة:

روى البخارى أنه لما أصيب عمر دخل صُهيب يبكى، يقول وا أخاه واصحباه. فقال عمر رضى الله عنه:

يا صهيب أتبكى علىّ ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إنَّ الْمَيّتَ لَيُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِه عَلَيْه).

قال ابن عباس رضى الله عنهما : فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها فقالت يرحم الله عُمَرَ، والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله لَيُعَذبُ المؤمن ببكاء أهله عليه، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله ليزيدُ الكَافِرَ عَذَابًا ببكَاءِ أَهْلِه عَلَيْه) وقالت : حَسْبُكُمُ القرآنُ : ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرَى﴾.

وروى البخارى عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : (إنَّمَا مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على يَهُودِيَّةٍ يبْكِي عَلَيْهَا أَهْلُهَا فقال :

(إنّهُمْ يبْكُونَ عَلَيْهَا ، وإنَّهَا لَتُعَذبُ فِى قَبْرِهَا).

وروى ابن أبى شيبة عن صفية بنت مخرمة أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدا لها مات ثم بكت، فقال صلى الله عليه وسلم :

(أَيَغْلِبُ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصَاحِبَ صُوَيحِبَهُ فى الدنيا مَعْرُوفاً ؟ فَإِذَا مَاتَ استَرْجَعَ.[1] فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم) بيده، إن أَحَدَكُمْ لَيَبْكِى فَيَسْتَعْبِرُ إِليه صُويحبه، فيا عباد الله، لاَ تُعَذّبوا مَوتَاكم).

---

(١) أى قال : ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(مَا مِنْ مَيِّت يَمُوتُ فَيَقُومُ بَاكِيهم فيقول : وَاجَبَلاهُ، وَاسَنَداه، أو نَحْو ذَلِكَ إِلّا وُكِّلَ بِهِ مَلَكَانِ يَلهَزَانه [1] أهكَذَ كُنْتَ؟

وروى مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(إِن المَيتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الحَىّ)

قال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم:

واختلف العلماء فى هذه الأحاديث فتأولها الجمهور على من أوصى بأن يُبكى عليه ويُناح بعد موته.، فنُفذت وصيته.

فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم، لأنه بسببه ومنسوب إليه، فأما من بكى عليه أهله وناحوا من غير وصية منه، فلا يعذب، لقول الله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أخرَى﴾

قالوا: وكان من عادة العرب الوصية بذلك، ومنه قول طرفة بن العبد :

إِذَا متّ فَانعَيْنِى بِمَا أنَا أهْلُهُ وَشُقِى عَلَىَّ الجَيبَ يَا أبنَةَ مَعْبَدِ

فخرج الحديث مطلقا، حملاً على ما كان مُعتادا لهم .

وقالت طائفة من العلماء: الحديث محمول على من أوصى بالبكاء والنوح، أو لَمْ يُوصِ بتركهما.

فمَن أوصى بهما، أو أهمل الوصية بتركهما يعذب بهما لتفريطه بإهمال الوصية بتركهما.

فأما من أوصى بتركهما، فلا يعذب بهما، إذ لا صنع له فيهما، ولا تفريط منه. قال النووى: وحاصل هذا القول إيجَابُ الوصية بتركهما، ومن أهملها عذب بهما...

.... وقالت طائفة : معناه أنه يعذب بسماعه بكاء أهله، ويرق لهم.

ما أعجب أن يبكى المرء وهو فى غفلة

قال عبد الواحد بن بكر: سمعت بعض أصحابنا يقول :

حضرت مع أبى بكر بن طاهر جنازة، فرأى إخوان الميت يكثرون البكاء فنظر إلى أصحابه، وأنشد:

---

(١) يدفعانه ويضربانه.

وَيبْكى عَلَى المَوْتَى ويَتْركُ نَفسَهُ ويَزعُمَ أن قَدْ قَلَّ عنهم عزَاؤه
ولَوْ كَانَ ذَا عَقلٍ ورَأى وفطْنَة لكَانَ عَلَيْه - لاَ عَلَيهِم - بُكَاؤه

مّن (طبقّات الصّوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٣٩٥)

ووقف أعرابى على قبر هشام بن عبد الملك وإذا بعض خدامه يبكى على قبره ويقول:

مَاذَا لَقينَا بَعْدَكَ ؟ فقال الأعرابى :

أَمَا إنَّهُ لو نطق لأخبرك أنه لقى أشدَّ مما لقيتم .

من (الكشكول للعاملى ج١ ص ٢٥٩)

لعل بكاء العين يعقب راحة

ذكر أبو العباس المبرِّد فى كتاب (الكامل) أن أبا بكر بن عياش قال أصابتنى مصيبة اَلمتني فذكرت قول ذى الّرمة:

لَعَلَّ انحدَارَ الدّمْعِ يُعقِبُ رَاحَةً مِنَ الوَجدِ أو يَشفِى نَجىَّ البَلاَبِلِ

فخلوت بنفسى وبكيت فاسترحت.

وروى عنه أنه قال : لما كنت شابا وأصابتنى مصيبة تجلدت لها، ودفعت البكاء بالصبر، فكان ذلك يؤذينى ويؤلمنى، حتى رأيت أعرابيا بالكُناسة وهو واقف على نجيب له ينشد:

خَليلَىَّ عُوجَا منْ صُدَور الرَّوَاحل بمَهجُورِ حُزْوىَ فَابْكيا فى المَنَازِلِ
لَعَلَّ انحدَار الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنَ الوَجدِ أو يشفَى نَجِىَّ البَلاَبِلِ

فسألت عنه، فقيل لى: ذو الرمة.

فأصابتنى بعد ذلك مصائب فكنت أبكى فأجد لذلك راحة، فقلت قاتل الله الأعرابى ما كان أبصره .

بكاء سليمان بن عبد الملك على ابنه

ورد فى وفيات الأعيان أن أيوب بن سليمان بن عبد الملك كان ولى عهد أبيه سليمان ،ولما حضرت أيوب الوفاة دخل عليه أبوه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة، ورجاء بن حيوة، فجعل سليمان ينظر فى وجه ابنه أيوب، فخنقه العبرة ثم قال: إنه ما يملك العبد نفسه أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة، والناس فى ذلك أصناف، فمنهم المحتسب ومنهم من يغلب صبره جزعه، ومنهم من

يغلب جزعه صبره فذلك المغلوب الضعيف ،وإنى أجد فى قلبى لوعة إن انا لم ابردها خفت أن تتصدع كبدى كمدا. فقال له عمر يا أمير المؤمنين الصبر أولى بك فلا يُحبطن أجرك .

وقال سعيد بن عقبة: فنظر إلى وإلى رجاء بن حيوة نظر مستغيث، يرجو أن نساعده على ما أذرفه من البكاء، فأما أنا فكرهت ان آمره أو أنهاه، وأما رجاء فقال:

يا أمير المؤمنين إنى لا أرى بذلك بأساً ما لم يأت الأمر المفرط وإنى قد بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه فقال : (تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنَ الْقَلْبُ، وَلاَ نَقُولُ إلاَّ مـا يُرضِي الربَ، وإنّا بك يَا إبرَاهيمُ لَمَحْـزُونُون) فبكى سليمان حتى اشتد بكاؤه فظننا أن نياط قلبه قد انقطع.

فقال عمر بن عبد العزيز لرجاء بن حيوة: بئس ما صنعت بأمير المؤمنين. فقال رجاء: دعه يا أبا حفص يقضى من بكائه وطراً، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى خفت أن يأتى عليه.

ثمّ أمسك عن البكاء، ودعا بماء فغسل وجهه، وقضى الفتى فأمر بجهازه، وخرج يمشى أمام جنازته، فلمّا دُفن وقف ينظر إلى قبره ثم قال :

وَقَفْتُ على قَبْرِ مُقيم بقَفْرة ... مَتَاعٌ قَليلٌ مِنْ حبيبِ مُفَارِقِ

ثم قال السلام عليك يا أيوب وقال:

كُنتَ لنا أنسا ففَارَقْتَنَا ... فَالعَيْشُ مِنْ بَعْدكَ مُرّ المَذَاقِ

ثم قال يا غلام أدْنِ ذابتى منى، فركب وعطف دابته إلى القبر وقال :

فَإنْ صَبَرْتُ فَلَمْ أَلفظكَ مِنْ شِبَعِ ... وَإن جَزِعْتَ فَعلقٌ مُنْفسٌ ذَهَبَا

فقال عمر : بل الصبر أقرب إلى الله عز وجل ، قال صدقت ، وانصرف.

من (وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص (٣٠٢)

مشاهد الجزعين من فقد الأعزة عليهم

قيل : ان المصيبة واحدة ، فإن جزع صاحبها فاثنتان :

- تَجَرُّعُ الآمها
- والحرمان من الثواب.

والجزع هو من الجبلة التى خلق الله عليها الإنسان، ولكن المرء قد يتخلص من

الجزع إذا تأدب بما أرشد الله إليه فى قوله : ﴿ إن الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إذا مسَّه الشَّرُّ جَزُوعًا، وإذا مسَّه الخَيْر منوعاً. إلّا المصَلين. الذين هُم على صَلاتِهم دَائمُون والَّذينَ فى أمْوَالِهِم حَقٌّ مَّعْلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون. إن عذاب ربهم غير مأمون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك فى جنات مكرمون﴾ - المعارج - من ١٩ إلى ٣٥ .

وإن أكثر ما يشتد الجزع بالإنسان عندما يفقد بعض أحبائه، وإليك مشاهد من بعض الجزعين :

مشهد جزع من فقد والده

كان عبد الله بن عبد الأعلى من كبار أصحاب الحديث ببغداد، فلما مات صلى عليه ابنه عبد الله، وكبَّر عليه خمساً، فلما انصرف من الصلاة عليه قيل له :

قد أظهرت اليوم خلاف مذهبك ، فقال للناس :

اعلموا أنى لو تُركْتُ ورأيى لكنت أكبِّر عليه تكبيرة بعد تكبيرة، وأخصه بأدعية بعد أدعية من نية صادقة، وطوية صافية، فقد وقذنى فراقه، ولذعنى انطلاقه.

ثم بكى وأفرط، وشهق شهقة، وأنشأ يقول :

صحبتك قبل الروح إذْ أنا نطفة ... مصون، فلا يبدو لخلق مصونها.
فماذا بقاء الفرع من بعد أصله ؟ ... ستلقى الذى لاقى الأصول غصونه

من (الوافى بالوفيات ج١٧ ص٢٣٧)

مشهد جزع من فقد ولده

قال الحسن بن على بن العلاف البغدادى الضرير لما توفى ولده سعيد :

يا حسرتى بسعيد منذ فارقنى ... ويا حنينى إلى ما فات من أنسه
فلست أنسى وكفى تحت منخره ... وكان آخر ما أحسست من نفسه
وقد قضى الناس حقى فى جنازته ... وكنت آمل أن يقضوه فى عرسه

من (غاية النهاية لابن الجزرى ج١ ص٢٢٢)

مشهد جزع من فقد خليلته

قال محمد بن عبد الله الأمير المسبحى:

أَصَبْرٌ وقد حل الثرى من أوده فلله هـــم ما أشد وأوجعا
فيا ليتنى للموت قُدِّمْتُ قبلها وإلا فليت الموت أذهبنا معا

مشهد جزع من فقد مجموعة من الأقارب

قال حبيب بن جدرة الهلالى :

ما رأيت امـرأة أشد كمـدا من امرأة من بنى شـيبان، قـتل أبوها وأخوها، وزوجـها وأمها، وعمتها وخالتها مع الضحـاك بن قيس، فما رقأت لها عين، ولا رأيتها ضاحكة، ولا مبتسمة، وقالت :

من لقـــلب شفــه الحزن أو لنفــس ما لها ســكن
ظعــــن الأبرار فارتحلوا خيرهـــم من معشر ظعنوا
معشر قضـــوا نحوبهمو كل ما قـــد قدموا حسن
صبروا عند السيوف فلم ينكلوا عنـــها ولا جبنوا
فتـــية باعوا نفوسهمو لا ورب النــاس ما غُبِنُوا
تبـــعوا مرضاة ربهمو حين مــات الدين والسنن
فأصـــاب القوم ما طلبوا منّـــةً ما بـعــدهــا مـــنن

من (تاريخ خليفة بن خليط ج٢ ص٤٠١)

مشهد جزع من فقد إحدى الجوارى

كان يزيد بن عبد الملك شديد الاستهتار بجاريته حبابة، فقال يوما :

يقال إن الدنيا لم تصفُ لأحد يوما قط، فـإذا خلوت فاطووا عنى الأخبار، ودعونى ولذتى بما خلوت له .

ثم خلا بحبابة، فخلوا فى طيب عيش، فتناولت حبابة حـبة رمان فوضعتها فى فيها، فشرقت (وسـعلت بقوة) فماتت، فـجزع عليها يزيد جـزعا عظيما حـتى كاد يهلك، ومنع من دفنها حتى أروحت.

فاجـتمـعت مشـائخ قريش علـى لائمته، وقـالوا: إنما هى جيفـة، وتركها عـيب لا يستقال.

فأذن فى دفنها، ومشى فى جنازتهـا، وتولى إلحادها بنفسه، ثم قعد على شفـير القبر وقال :

كنت السـواد لناظرى　　فعمى علـــيك الناظر
من شاء بعدك فليمت　　فعليك كنـــت أحاذر

ولما انصرف أومأ نحو القبر وقال .

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا　　أجاب البكا طوعا و لم يجب الصبر
فإن ينقـــــطع منك الرجاء فإنه　　سيبـــقى عليك الحزن ما بقى الدهر .

فلم يبق بعدها الا خمس عشرة ليلة ومات

من (الكشكول للعاملى ج٣ ص٢٨١)

مشهد جزع أبى الحسن التهامى من موت طفل له

حكـــــم المنـــــية فى البرية جار　　ما هـــــذه الـــدنيا بـــدار قرار
بـــينا ترى الإنســـــان فيها مخبرا　　حـــتى يُرى خبرا من الأخبـــار
طبعــت على كدر وأنـــت ترومها　　صـــفوا من الأقذار والأكـــدار
ومكلِّف الأيـــام ضـــــد طبـاعها　　متطـــــلب فى الماء جذوة نـــار
والعيــــــــش نوم والمنية يقظة　　والمرء بينـــهما خيـــال ســـار
والنفس إن رضيت بـذلك أو أبت　　منقـــادة بـــأزِّمة الأقــــــدار
فاقـــضوا مـــآربكم عجالاً إنما　　أعمـــاركم سَفَرٌ من الأسفـــار
وتركّضـــوا خيل الشباب وبادروا　　أن تســـــترد فـــإنهـــن عـــوار
فالدهر يشرق إن سقى ويغص إن　　هنا ويهـــدم ما بنـــى بـــبـوار
ليـس الزمان وإن حرصت مسالماً　　خلق الزمـــان عداوة الأحـرار
يا كـــوكبا ما كان أقصر عـمره　　وكذاك عــمر كواكب الأسحـار
وهـــــلال أيام مضى لم يبـتدر　　بدراً ولـــم يمـهل لوقت سـرار
عجــل الخسوف عليه قبـــل أوانه　　فغطاه قبـــل مظـــنة الإبـــدار
فكـــأن قلبـــــى قبره وكـأنه　　فى طـــيه ســـر من الأســـرار
إن يحتـــــقر صغر فرب مفـخم　　يبدو ضئيل الشخـــص للنظار
إن الكـــواكب فى عـــلو محلها　　لترى صغاراً وهى غير صـــغـار
ولدُ المـــعزَّى بعضه، فإذا انقضى　　بعـــض الفتى فالكل فى الإدبـار

أبكـــــيه ثم أقـول معتذرا له ... وفقـــت حيث تركت ألأم دار
جاورت أعــــدائى وجاور ربه ... شــــتان بين جواره وجوارى
ولقد جــريت كما جريت لغاية ... فبلغتـــــها وأبوك فى المضمار
فإذا نطـــقت فأنت أول منطقى ... وإذا سكـــت فأنت فى إضمارى

وبعد زفرات الجزع الحرى أخذ يفتخر إلى آخر القصيدة، وهى تبلغ نحو مائة بيت.

من (الكشكول للعاملى ج٣ ص٤١٨)

مشهد من الجزع المضحك

مات ولد لصالح بن عبد القدوس المعتزلى، فكان شديد الجزع عليه فقال له أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف المعتزلى :

لا أرى لجزعك عليه وجها، إذ كان الإنسان عندك كالزرع، فقال صالح:

يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ (كتاب الشكوك) فقال أبو الهذيل :

وما كتاب الشكوك ؟

قال : كتاب وضعته ، من قرأه:

- يشك فيما كان، حتى يتوهم أنه لم يكن .
- ويشك فيما لم لم يكن، حتى يتوهم أنه كان.

فقال له أبو الهذيل :

- فشك أنت فى موته، واعمل على أنه لم يمت
- وشك فى قراءته للكتاب، واعمل على أنه قرأه، وإن لم يكن قرأه، فأخجله.

وقيل : إن الذى قال له ذلك (ابن أخته) إبراهيم النظام المعتزلى وهو الصحيح.

من (الوافى بالوفيات ج٥ ص١٦٢)

مشهد من حمله الجزع على إساءة الأدب مع الله

قال ابن الجوزى :

خُذِلَ كثير (من الناس) عند موت أحبابهم، فمنهم من خرق ثوبه، ومنهم من لطم، ومنهم من ألحد.

قال : ولهذا رأيت رجلا كبيرا قد قارب الثمانين، وكان يحافظ على الجماعة فمات ولد لابنته، فقال :

ما ينبغى لأحد أن يدعو، فإنه ما يستجيب، ثم قال : إن الله يعاند ..... فما يترك لنا ولدا .....

قال ابن الجوزى :

فعلمت أن صلاته، وفعله للخير عـادة، لأنه لا ينشأ عن معرفة وإيمان، وهؤلاء هم الذين يعبدون الله على حرف .

من (رسالة الثبات عند الممات ص٣٥)

من أضواء هذا المشهد

الدعاء عبادة لله، بل هو (مخ العبادة) كما روى ذلك الترمذى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه.

واستـجابة الله لعبده المؤمن مـضمونة بوعـد الله فى القرآن العظيم ﴿ وقـال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾ - غافر - ٦٠ .

غير أن استـجابته سبحـانه للداعى قد تكون بتحقيـق ما يريده الداعى وقد تكون بما هو خير له مما أراد، والله هو الذى يختـار لعبده المؤمن ما هو أولى به وأنفع له مما يظن، وقد بين الرسـول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيـقة فيما رواه التـرمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه من أن النبى صلى الـله عليه وسلم قـال : (ما من رجل يدعـو بدعاء إلا استجييب له، فإما أن يعجل له فى الدنيا، وإما أن يدخر له فى الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعـا، مالم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، أو يستعـجل، يقول دعوت ربى فما استجاب لى).

أمـا وصف ابن الجوزى للرجل المسـىء بأنه ممن يعبـدون الله على حـرف، فيـشيـر بذلك الى قـول الـله تعـالى : ﴿ومن الناس من يعـبد الله على حرف فـإن أصابه خـير اطمأن به وإن أصـابته فـتنة انقلب على وجهـه خسر الدنيـا والآخرة ذلك هو الخـسران المبين﴾ - الحج - ١١ .

مشاهد الصابرين على فقد الأعزة عليهم

مشهد صبر السيدة صفية بنت عبد المطلب

روى ابن إسحاق فـى السيرة عن الزهرى، وعاصم بن عـمر بن قتادة، ومـحمد بن يحيى وغـيرهـم عن قـتل حمـزة بن عبـد المطلب عم رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقال:

أقبلت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها لتنظر إلى أخيها حمزة رضى الله عنه فلقيها الزبير رضى الله عنه فقال:

أى أمه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعى.

قالت : ولـم وقد بلغنى أنه مُـثِّل بِأخي، وذلك فى الله، فمـا أرضانا بما كـان من ذلك، لأصبرن وأحتسبن إن شاء الله.

فجاء الزبير فأخبره، فقال صلى الله عليه وسلم :

خلِّ سبيلها :

فأتت إليه، واستغفرت له، ثم أمر به فدفن، كذا فى الاصابة فى تمييز الصحابة.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٢١٥)

مشهد صبر السيدة أم سلمة أم المؤمنين

روى أحمد عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت :

أتانى أبو سلمة رضى الله عنه يوما من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا سررت به، قال :

(لا يصـيب أحدا من المسـلمين مـصـيبـة فيـسترجع ثم يقـول : اللهم أجـرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيراً منها إلا فعل الله به).

قـالت أم سلمة : فـحـفظت ذلك منه، فلمـا توفى أبو سلمـة استـرجـعت وقلت اللهم أجرنى فى مـصيبتى، واخلف لى خـيرا منها، ثم رجعت إلى نفـسى فقلت : من أين لى خير من أبى سلمة ؟

فلما انقضت عدتى استأذن علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أدبغ إهابا[1] لى ، فـغسلت يدى من القـرظ، وأذنت له، فـوضعت له وسـادة من أدَمٍ [2] حـشـــوها ليف[3] فقعد عليها ، فخطبنى إلى نفسى فلما فرغ من مقالته قلت :

يا رسول الله ، ما بى أن لا تكون بك الرغبة، ولكنى امـرأة بى غيرة شديدة، فأخاف أن ترى منى شيئـا يعذبنى الله به، وأنا امرأة قد دخلت فى السن، وأنا ذات عيـال. فقال صلى الله عليه وسلم :

أما ما ذكرت من الغيـرة فسيذهبها الله عنك، وأما ما ذكـرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى، فقالت :

قد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قالت أم سلمة :

فقد أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رواه النسائى والترمذى وابن ماجه وابن سعد.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٢١٥)

---

(١) جلدا .

(٢) جلد ناعم .

(٣) رقيق قشر النخيل .

مشهد صبر السيدة أم سليم

قال أنس بن مالك :

مات ولد لأبى طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه، حتى أكون أنا أحدثه، قال فجاء، فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب، ثم تصنعت له بأحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما استعادوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟

قال : لا ، قالت: فاحتسب ابنك.

من (رسالة الثبات عند الممات لابن الجوزى ص٣٤)

وروى البخارى عن صبر أم سليم وما جزاها الله عن صبرها رواية أوسع، فعن أنس بن مالك (ربيب أبى طلحة) أنه قال :

كان ابن لأبى طلحة رضى الله عنه يشتكى، فخرج أبو طلحة فقبض الصبى، فلما رجع أبو طلحة قال :

ما فعل ابنى ؟ قالت أم سليم :

هو أسكن ما كان، فقربت إليه العشاء، فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت :

واروا الصبى.

فلما أصبح أتى أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال صلى الله عليه وسلم :

أعرستم الليلة؟

قال أبو طلحة :

نعم.

قال صلى الله عليه وسلم :

اللهم بارك لهما.

فولدت غلاما، قال أنس فقال لى أبو طلحة : احفظه حتى تأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، وأرسلت معه بتمرات، فأخذها النبى صلى الله عليه وسلم فمضغها، ثم أخذ من فيه فجعلها فى فم الصبى ، وحنكه بها، وسماه عبد الله.

وفى رواية أخرى عند البخارى: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعل الله أن يبارك لهما فى ليلتهما.

قال سفيان : فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن.

من (حياة الصحابة ج٣ ص٢١٠)

صبر المسلمين على موت عمر بن الخطاب

روى ابن سعد وابن منيع وابن عساكر عن الأحنف بن قيس رضى الله عنه أنه قال:
سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول:

إن قريشا رؤوس الناس لا يدخل أحد منهم فى باب إلا دخل معه فيه طائفة من الناس، فلم أدر ما تأويل قوله هذا حتى طعن. فلما احتضر رضى الله عنه أمر صهيبا رضى الله عنه أن يصلى بالناس ثلاثة أيام، وأمر أن يجعل للناس طعام، فيطعموا حتى يستخلفوا إنسانا.

فلما رجعوا من الجنازة جئ بالطعام، ووضعت الموائد فأمسك الناس عنها للحزن الذى هم فيه، فقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه:

يا أيها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات فأكلنا بعده وشربنا، ومات أبو بكر رضى الله عنه فأكلنا بعده وشربنا، وإنه لا بد من الأكل، فكلوا من هذا الطعام.

ثم مد العباس يده فأكل، ومد الناس أيديهم فأكلوا.

قال الأحنف : فعرفت قول عمر : إنهم رؤوس الناس.

من (حياة الصحابة ج١ ص٢١٩)

صبر معاذ بن جبل رضى الله عنه

روى أبو عبد الله الحاكم وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال :
طعن [1]معاذ وأبو عبيدة، وشُرَحْبيل بن حَسَنة وأبو مالك الأشعرى رضى الله عنهم فى يوم واحد فقال معاذ:

انه رحمة ربكم عز وجل ، ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم، وقبض الصالحين قبلكم، اللهم آت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة .

فما أمسى حتى طعن ابنه عبد الرحمن بكره الذى كان يكنى به، وأحب الخلق اليه، فرجع من المسجد فوجده مكروبا. فقال :

---

(١) الطاعون وباء وقع بالشام .

يا عبد الرحمن كيف أنت ؟

فاستجاب له فقال:

يا أبت ﴿ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ - البقرة - ١٤٧ .

فقال معاذ :

وأنا ﴿ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ - الصافات - ١٠٢ .

فأمسكه ليله ثم دفنه فى الغد .

فطعن معاذ، فقال حين اشتد به نزع الموت فنزع نزعا لم ينزعه أحد، وكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال :

رب اخنقنى خنقتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبى يحبك .

وأخرج هذا الحديث أحمد بن حنبل عن أبى منيب مختصرا.

من (حياة الصحابة ج٣ ص١٩٧)

مشهد صبر عروة بن الزبير على فقد ولده ورجله

قال مسلمة بن محارب :

قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك بن مروان، ومعه ابنه محمد ، فدخل محمد بن عروة دار الدواب، فضربته دابة فخر، فحمل ميتا.

ووقعت فى رجل عروة الأكلة، فقال له الوليد: (اقطعها) قال : لا ، فترقت إلى ساقه، فقال له الوليد: (اقطعها) وإلا أفسدت عليك جسدك .

فقطعت بالمنشار، وهو شيخ كبير، فلم يمسكه أحد، وقال : ﴿ لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾ - الكهف - ٦٢ .

وقال عبد الواحد مولى عروة : شهدت عروة بن الزبير قطعت رجله من المفصل وهو صائم .

وقال عبد الله بن محمد بن عبيد : لم يترك عروة بن الزبير ورده إلا فى الليلة التى قطعت فيها رجله ، وتمثل بأبيات معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
واعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

وقال مسلمة بن محارب :

لما شخص عـروة من عند الوليد إلى المدينـة أتته قريش والأنصـار يعزونه، فـقال له عيسى بن طلحة بن عبيد الله :

يا أبا عبـد الله قد صنع الله بك خيرا، والله مـا بك حاجة إلى المشى (يعـنى لكبر سنه) فقال :

ما أحسن ما صنع الله إلى وهب لى سبعة بنين، فمتعنى بهم ما شاء، ثم أخذ واحداً وأبقى ستة، وأخذ عضوا، وأبقى لى خمسا، يدين ورجلا وسمعا وبصراً.

من (الحلية لأبى نعيم ج٢ ص١٧٨ - ١٧٩)

مشهد صبر أسماء بنت أبى بكر على فقد ولدها

لما رأى عبد الله بن الزبـير تفرق عامة من كـان معه على إثر محاصـرة الحجاج لمكة مدة ثمانية أشهر دخل على أمه أسماء فقال :

يا أمه قـد خذلنى الـناس حتى ولدى وأهلى ولـم يبق إلا اليـسير ممن ليس عنده من الدفع إلا صبر ساعة، والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟

فقالت :

والله يا بنى أنت أعلم بنفسك :

إن كنت تعلم أنك على حق فامض له، فقد قتل عليه أصحابك.

وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك.

وإن قلت إنى على حق فلمـا وهن أصحابى ضعـفت، فهذا ليس فـعل الأحرار ولا أهل الدين.

فقبل رأسها، وقال: هذا رأيى، ولكن أحببت أن أعلم رأيك فزدتنى بصيرة، فانظرى يا أمـاه إنى مقـتول من يومى هذا، فـلا يشتـد حزنـك، وسلمى لأمر الله، فـإن ابنك لم يتعمـد إتيان منكر، ولا عمل بفاحـشة، ولـم يَجُرْ فى حكـم، ولم يتعـمد ظلم مسلم ولا معاهد.

اللهم إنى لا أقول هذا تزكية لنفسى ولا تعزية لأمى لتسلو عنى.

فخرج وقاتل حتى قتل .

وكان من دعاء السيدة أسماء أن قالت :

اللهم قـد أسلمـته لأمـرك فـيه، ورضـيت بما قـضيـت، فأثبنى فى عـبـد الله ثواب الشاكرين الصابرين.

من (وفيات الأعيان باختصار ج٣ ص٧٣)

من أضواء مشاهد الصابرين

الصبر نوعان : موهوب، ومكسوب.

فالأول: هو ما طلبه من الله داود وجيشه عند ملاقاة جالوت وجنوده قائلين:

﴿ربنا أفرغ علينا صبرا، وثبت أقدامنا. وانصرنا على القوم الكافرين ﴾- البقرة -٢٥ .

أما المكسوب فهو ما أشار إليه الخالق بقوله : ﴿ إن الإنسان لفى خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ - العصر ١-٢-٣ .

على أن الصبر المكسوب لا يناله المرء فى الحقيقة إلا بمعونة الله تعالى وتوفيقه، فقد قال سبحانه : ﴿واصبر. وما صبرك إلا بالله ﴾ - النحل - ١٢٧ .

ويتم اكتساب الصبر بالتدرج فى تحمل ما تكره النفس، حتى يصير كالطبيعة للإنسان، فتهون عليه المشاق، بل إن من الناس من يتلذذ بالمشاق والمتاعب، وماهونها عليه الا عدم الجزع عند ملاقاة أمثالها، والثقة بوعد الله على الجزاء على الصبر.

عثرت إحدى الصالحات فانقلع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع بما أصابك؟ فقالت : حلاوة لذة الثواب أزالت عنى مرارة الوجع.

روى الترمذى عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(وفى الصبر على ما تكره خير كثير).

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا وهم، ولا حزن ، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بِهَا من خطاياه).

والمصابون إذا صبروا واسترجعوا فان الله تعالى يبشرهم بأعظم البشائر، إذ قال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة. وأولئك هم المهتدون ﴾ البقرة - ١٥٥-١٥٦-١٥٧ .

فقد جمع لهم سبحانه صلواته، ورحمته وهداه. ومع ذلك فقد أكد أنه تعالى مع الصابرين فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ البقرة - ١٥٣ .

أما جـزاء الصابرين فى الآخرة فقـد قال عنه : ﴿ إنما يوفى الصـابرون أجرهـم بغـير حساب﴾ - الزمر - ٣٩ .

حتى أن الملائكة تحييهم فى الجنة، وتثنى على صبرهم فى الدنيا ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم. فنعم عقبى الدار ﴾ - الرعد - ٢٤ .

ويقـــول المولى جل شـــأنه : ﴿ إنى جـــزيتـهـــم اليـــوم بما صـــبـــروا أنهم هم الـــفائـــزون ﴾ المؤمنون-١١١ .

والصبر هو العلاج الوحيـد لتحمل ما لا حيلة للإنسان فى دفعه . كـما قال يعقوب عليه السـلام لبنيه: ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبـر جميل. والله المستعان على ما تصفون ﴾ يوسف - ١٨ .

إلا أن الصبر لا يقوى إلا بمقدار قوة اليقـين، فقد روى الترمذى عن ابن عمر أن من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم قوله : ﴿ وأسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا ﴾ صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه .

الصلاة على الأموات

الصلاة على الأمـوات فرضهـا الله على المسلمين فرض كـفاية إذا صلاها بعـضهم كانت كافية فى الامتثال للأمر الإلهى، وفى أداء ما يجب عليهم لأخيهم المسلم .

ولقد تفضل سبحانه فجازى من يصلون على الميت بالأجر العظيم، ولم يجعل - فى هذه الحال - من لم يـصل عليه من الآثمين، إلا إذا لـم يقم أحد من المسلمـين بالصلاة على الميت، وكانوا على علم بوفـاته، وبأنه لم يقم بالصلاة عليه أحد، وكـانوا متمكنين من أدائها فإنهم يأثمون جميعا.

أما مـا ورد عن النبى صلى الله عليـه وسلم فى أجـر من يصلى على الميت فمنـه ما رواه أحمـد والنسائى عن عـبد الله بن مُـغَفَّلٍ رضى الله عنه أنه صلى الله علـيه وسلم قال:

(من تبع جنازة حـتى يصلى عليـها فله قـيـراط، ومن انتظرها حتـى يُفرغ منهـا فله قيراطان) .

كمـا روى أحمـد ومسلم وابن مـاجه عن ثوبان رضى الـله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(من تبع جنازة - وفى رواية من صلى على جنازة - فله قيراط ومن شهد دفنها فله قيراطان .

قيل : وما القيراطان ؟

قال: أصغرهما مثل أحد).

ولعل الله يهب مزيد الفضل لمن يصلى على الأخيار من عباده، فقد قال سعيد الوراق حدثنى ابن ثعلبة وكان من العابدين قال رأيت ضيغما فى منامى بعد موته فقال لى :

يا ابن ثعلبة ما صليت علىَّ ؟

فذكرت علة كانت فقال أما لو كنت صليت علىَّ لقد ربحت رأسك(١)

وأما ما يرجى للميت من الخير بكثرة المصلين عليه، فقد روى فيه أحمد ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لا يموت أحد من المسلمين فيصلى عليه أمة من الناس، يبلغون أن يكونوا مائة فيشفعوا له إلا شفعوا فيه).

وروى أحمد عن كريب مولى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن ابن عباس مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال : يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس، قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له ، فأخبرته، قال: هم أربعون؟ قال : قلت نعم، قال أخرجوه، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه).

وروى أحمد وأبو عبد الله الحاكم وأبو داود عن مالك بن هبيرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(ما من مؤمن يموت فيصلى عليه أمة من المسلمين بلغوا أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له)(٢)

وكان مالك بن هبيرة يتحرى - إذا قل أهل الجنازة - أن يجعلهم ثلاثة صفوف .

كيفية الصلاة على الميت

الصلاة على الميت يطلب فيها ما يطلب فى سائر الصلوات من طهارة وستر عورة واستقبال للقبلة، إلا أنها لا ركوع فيها ولا سجود، وإنما هى تكبير ودعاء.

فيكبر المصلى أربع تكبيرات يرفع يديه فى الأولى ، ويقرأ الفاتحة، ثم يكبر التكبيرة

---

(١) من صفة الصفوة ج٣ ص٣٦٠ .

(٢) قال الإمام النووى فى الجمع بين الأحاديث الثلاثة : يحتمل أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بقبول شفاعة مائة، فأخبر به، ثم بقبول شفاعة أربعين، ثم بثلاثة صفوف وإن قل عددهم فأخبر به.

الثانية ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم كما يصلى عليه عند التشهد فى الصلوات الأخرى ، ثم يكبر الثالثة ويدعو لنفسه ولوالديه وللمسلمين وللميت، ثم يكبر الرابعة ويسأل الله أن يثبت الميت عند سؤاله فى القبر، وألا يبتليه فيه بما لا طاقة له به.

والقراءة والدعاء فى صلاة الجنازة يكونان سرا إلا ما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما حين جهر فيها بالقراءة لتعليم الناس، فقد روى البخارى عن طلحة بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال: صليت خلف ابن عباس على جنازة فقرأ فاتحة الكتاب فقال ليعلموا انها السنة .

ورواه النسائى بهذا اللفظ : فقرأ بفاتحة الكتاب وسورة وجهر، فلما فَرَغَ قال: سنة وحق.

أما الدعاء للميت فقد وردت فيه صيغ عديدة منها ما رواه مسلم عن عوف بن مالك رضى الله عنه أنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة، فحفظت من دعائه: اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الابيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله ، وزوجا خيرا من زوجه وأدخله الجنة وعذه من عذاب القبر، أو من عذاب النار.

قال عوف رضى الله عنه: حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت.

وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة فقال: اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، وشاهدنا وغائبنا، اللهم من أحييته منا فاحيه على الإيمان، ومن توفيته منا فتوفه على الإسلام اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تضلنا بعده.

وروى مالك والشافعى عن أبى سعيد المقبرى أنه قال:

سألت أبا هريرة رضى الله عنه كيف تصلى على الجنازة ؟ فقال : أنا لعمر الله أخبرك : أتبعها من أهلها، فإذا وضعت كبرت، وحمدت الله وصليت على نبيه، ثم أقول : اللهم انه عبدك وابن عبدك وابن امتك كان يشهد أن لا إله إلا انت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، وأنت أعلم به، اللهم إن كان محسنا فزد فى إحسانه، وإن كان مسيئا فتجاوز عن سيئاته، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده.

ومما أثر من الدعاء للميت:

الحمـد لله الذى أمات وأحيا، والحـمد لله الذى يحى الموتى، له العظمـة والكبرياء والملك والقدرة والسناء وهو على كل شىء قدير.

اللهم إنه عبدك ابن عـبدك ابن أمتك، أنت خلقتـه ورزقته، وأنت أمته وأنت تحـييه، وانت تعلم سره، جئناك شفـعاء له ، فشفعنا فيه اللهم إنا نستـجير بحبل جوارك له إنك ذو وفاء وذمة، اللهم وقه من فتنة القبر، ومن عـذابِ جهنم اللهم إن كان محسنا فجازه بإحسانه، وإن كان مسيئا فتـجاوز عنه، اللهم إنه قد نزل بك ، وأنت خير منزول به،فقير إلى رحـمتك وأنت غنى عن عـذابه، اللهم ثبت عند المسـألة منطقه ولا تَبْـتلِهِ فى قـبره اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده.

ويتضـح مما تـقدم أن صـلاة الجنازة لا يتحـتم فيهـا دعاء مخـصوص وكل من لا يقوم بشـىء من تلك الأدعية يـكفيه أن يدعـو بما فيـه خيـر للميت فى الحـال التى صار إليهـا، فإن عجـز عن هذا كفاه بين كل تكبـيرة وتكبـيرة أن يكرر قوله: اللهم اغـفر له، اللهم ارحمه.

والطفل الصـغيـر لا يصلى عليـه إلا إذا استـهل والاستـهلال يكون عند الولادة بالعطاس أو البكاء أو بحركة تدل على أنه ولد حيا.

ويقال فى الدعاء عند الصلاة عليه: اللهم اغفر لأبويه وارحمهما واجعله لهما فرطا وسلفا وأجـرا وذخرا، اللهم ثقل به موازينهـما، وأعظم به أجورهمـا، اللهم اجعله فى كفالة إبراهيم عليه السلام، وألحقـه بصالح سلف المؤمنين ، وأجره برحمتك من عذابِ الجحيم، وأبدله. دار اخـيرا من داره وأهلا خيرا من أهله اللهم اغفـر لأسلافنا وأفراطنا ومن سبقنا بالإيمان.

وحكم المأموم أنه يتابع بتكبيره تكبير الإمام فإن كان مسبوقا ولم يدرك مع الإمام إلا بعض التكبيـرات، وسلم الإمام فإنه بعد تسـليم الإمام يبادر بما فاته من التكبـير متتـابعا ويسلم .

وأولى الناس بالإمامة فى صلاة الجنازة أوليـاء الميت ويقدم الأقرب فالأقرب: الابن ثم الأب ثم أب الأب ثم الاخوة ثم العم ثم بنو العم ..... الخ.

وهل يقـــدم عليـــهم من أوصى له أن يصلى عليه؟ نعم وردت بـذلك آثار كثـيرة عن الصحـابة رضـى الله عنهـم فـأبو بكر أوْصَـى أن يـصلى عليـه عـمر، وعمر أوصى أن يصلى عليـه صهـيب، وأم سلـمـة أوصـت أن يـصلى عليـها سـعيد بن زيد.... الخ.

وهل يقدم من أوصى لـه حتى على الأميـر؟ نعم لقد أوصى أبو سـريحة أن يصلى عليه زيد بن أرقم، فجاء عمـرو بن حريث وهو أمير الكوفة ليتقدم فـيصلى عليه، فقال ابنه، أيها الأمير، إن أبى أوصى أن يصلى عليه زيد بن أرقم فقدم زيدا (١).

ومن صور التنازع على الإمامة فى صلاة الجنازة أن يحيى بن يحيى الليثى لما احتُضر أسند وصيته فى أداء دين وبيع مال إلى محمد بن زياد وكان ابن زياد هو القاضى يومئذ فكان وَصِىَّ يحيى فى ذلك الوقت.

ولما وضعت جنازة يحيى بن يحـيى (للصلاة) قال عبيد الله بن يحـيى- وهو يومئذ ابن سبع عشرة سنة- للقاضى محمد بن زياد : تقدم .

فتقـدم محمد بن زياد، وتقدم إسحـاق بن يحيى للصلاة على أبيه، فكبر مـحمد بن زياد، وكبـر إسحاق حـتى بلغوا إلى السـلام فسلم محـمد بن زياد، وسلم إسـحاق بن يحيى هكذا كانت الصلاة على يحيى بن يحيى.

فلما انقضت الصلاة نظر القاضى محمد بن زياد الى اسحاق بن يحيى ثم قال له :

من قدمك علىّ بهذا؟

فقال له إسحاق:

ومن قدمك أنت على أبى؟

فقال له ابن زياد:

حكم الصـلاة عليه إلىّ دونك، ومع هذا فـإن أخاك قـدمنى، وهو أرشد منـك ، أما والله لو لا حفظ هذا الميت لفعلت بك وفعلت (٢).

وكانت وفاة يحيى سنة أربع وثلاثين ومائتين.

ولا يصلّى على شهـيد المعركـة وهو الذى قاتل فى سبيل اللـه لتكون كلمة الله هى العليا، فقتله الكفرة فى المعركة بأى وجه كان القتل.

روى أحمد عن جابر بن عبـد الله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قتلى أحد:

(لاَ تُغَسلُوهُمْ، فَإنّ كُلّ جرْحٍ أو كُلَّ دَمٍ يَفُوحُ مِسكًا يَومَ القِيامَة، ولَمْ يُصَلِ عَلَيهِمْ)

قيل إنَ السر فى عَدم غسل الَدم هو أنّه دم طاعة كترك رائحة خَلوف فم الصائم لأنه

---

(١) من المغنى ج٢ ص ٤٨٠ .

(٢) من (قضاة قرطبة) ص ٨٧ .

عند الله اطيب من رائحة المسك، وإن السر فى عدم الصلاة على الشهداء هو أنهم أحياء عند ربهم، وإنما شرعت الصلاة على الأموات.

لعل من الأموات من يتحسر عند الصلاة عليه

ورد فى الخبر أن الميت يرى ويعرف ما يصنع به، فقد روى أحمد والطبرانى فى المعجم الأوسط عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(إِنَّ المَيْتَ يَعْرِفُ مَنْ يَغْسِلهُ وَيَحْمِلُهُ وَيكفِنه، وَمَنْ يُدَلِّيه فِى حُفْرَته).

ومن هنا نرى الناس يصلون على بعض الموتى، ونرى أبناءهم لا يصلون عليهم، وانما يقفون منتظرين فراغ الناس من الصلاة على أبيهم، لانهم نشأوا تاركين للصلوات الخمس وشبوا على ذلك.

ما من شك فى ان ذلك الميت سوف يتحسر على أنه لم ير أبناءه يساهمون مع الناس فى التوجه إلى الله بالصلاة على أبيهم، وبالدعاء له فى صلاة فرضها الله لصالح كل مسلم.

وما من شك فى أن حسرته تكون أشد عندما يدرك أن سبب جفوتهم له هوأنه لم يتق الله فى أبنائه، فلم يربهم على أداء حق الله فى حياته، ففرطوا فى حقه فى وفاته.

وهكذا تتوالى حسراته عندما تعرض عليه أعمالهم كل يوم جمعة، فيراهم مواصلين لترك الصلاة فتتجدد حسراته وتتكرر، إلى أن يمن الله عليهم بالمتاب.

ما شرع الله للبشر فى دفن الأموات

إن ما ابتدعه البشر فى ما يصنعون بأجسام الموتى من حرق، أو تحنيط أو شد الأرجل بالوثاق، أو حرق زوجة الميت حية مع حرق جثته، أو دفن بعض الأشياء مع الميت ،كل ذلك لم يكن مما شرع الله لعباده وإنما هى تخرصات من كهنة بعض الشعوب فى عصور ابتعدت فيها تلك الشعوب عن هداية الله، ولم يكن لأولئك الكهنة ولا لشعوبهم أى سند معصوم لا فيما فكروا ولا فيما اعتقدوا، ولكن الشيطان سول لهم وأملى لهم.

أما ما شرعه الله لعباده- من دفن أمواتهم فى التراب - فهو الذى ورد به الوحى فى القرآن العظيم، إذ يقول الله تعالى فى سورة المائدة :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ. قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِى أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ. انى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النار وَذَلك جَزاء الظالمِينَ. فَطَوَّعَتْ له نَفْسُه قَتلَ أخيه فَقَتَلَهُ فأصبحَ مِنَ الخَاسِرِينَ. فبعثَ اللهُ غُرابًا يبحثُ فى الأرضِ لِيُريه كيف يُوارِى سَوْءة أخيه. قال يا ويلَتَى أعجَزْتُ أن أكُونَ مثلَ هذا الغُراب فَأوارِى سَوْءَ ة أخى فأصْبَحَ مِنَ النَّادمينَ﴾ (١)

لقد كان ذلك القتيل أول من مات من ولد آدم وأول إنسان يدفن فى الأرض على صورة تعلمها من طير بعثه الله ليعلمه كيفية دفن جسد الميت فى الأرض.

ولقد تناول القرآن العظيم دفن الموتى وبعثهم من القبور ليحاسبوا على أعمالهم فى عدة آيات ، منها قول الله تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرى﴾ (٢) وقوله : ﴿يوم يَخْرجُونَ مِنَ الأجْدَاث سِرَاعًا كأنهُمْ إلى نُصُبٍ يوفضُونَ﴾(٣) وقوله : ﴿يَخرجُونَ مِنَ الأجْدَاث كَأَنَّهُمْ جرَاد مُنتَشر﴾(٤) وقوله : ﴿قُتِلَ الانسَانُ مَا أكفرهُ مِنْ أى شَىء خَلَقَهُ. مِنْ نَطُفَة خَلَقهُ فَقَدَّره. ثُمَّ السبيلَ يَسره. ثُم أَمَاتَه فأقبَرَه .ثمَّ إذاَ شَاءَ أَنْشَرهُ﴾ (٥) وقوله : ﴿ ذَلكَ بِأَنَ الله هُوَ الحَقُّ وأنَه يُحْيى المَوْتَى. وأنه عَلَى كُلِ شَىء قَدِيرٌ، وأن السَاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيبَ فِيهَا وأن الله يَبْعَثُ مَنْ فِى القُبُورِ﴾(٦)

كما ان السنة الواردة عمن لا ينطق عن الهوى كشفت عن أن آدم عليه السلام قد ألحدَ له الملائكة فى الأرض (٧) وقالوا هذه سنة آدم فى ولده.

(١) الآيات ٢٧ - ٣١ .

(٢) سورة طه الآية ٥٥ .

(٣) سورة المعارج الآية ٤٣ .

(٤) سورة القمر الآية ٧ .

(٥) سورة عبس الآيات ١٧- ٢٢ .

(٦) سورة الحج الآيتان ٦-٧ .

(٧) جعل له الملائكة لحدا، واللحد هو القبر، روى أبو عبد الله الحاكم عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لما توفى آدم غسلته الملائكة بالماء وترا، وقالوا هذه سنة آدم فى ولده).

ومن أيام آدم عليه السلام عرف البشر أن القبر هو ذلك الحفير الذى يدفن فيه الميت، وليس هو ما يشيد على تلك الحفرة من بـناء فى أى صوة من الصور التى ابتدعها ابناؤه من بعده.

ومع هذا وذاك نجـد أكثر الـناس لا ينظرون إلى حقيـقـة ما يجـرى فى القبـور، فإن نظروا فلا ينظروا إلا ما كان ذا صلة بالحياة الدنيا.

فبعضهم يقول :

يا حفرةً طولُها خمس إذا ذُرِعَتْ   فى خمسة قد دَفَنَّا عزنا فيها

ويقول اخر :

وما ينفع المقبور تشييـــد قبـره   إذا كـــان فيه جسمه يتهدم

ودخل داود الطائى مقبرة فسمع باكية على قبر تقول:

مقيم إلى أن يبعــث الله خلقه   لــقاؤك لاَ يُرْجَى وأنتَ قَرِيب

تَزيدُ بِلَىً (١) فى كل يوم وليلة   وتُسْلَى كما تَبْلَى وأنت حبيب

وهكذا يقـــف نظر الأحـــيـاء عـند هـــذا الحد، ولا يدركـون مـــا يجـرى على الأموات فى القبور، وأنى لهم أن يستطيـعوا ذلك؟ حتى أن مـــن يحـــاول أن يتـــصور مـا فى داخل القبــر من الحـقـــائق لا يـظـفـر إلا بصـــورة مبهـــمـة، وهـــى مـــع ذلـــك مزعجـــة لـــدى أناس، ومحـــزنة لـــدى اخـــرين، كـــما تبدو محـــيرة لمـــن فـــكـر فى أول نـــزوله بالقـــبـر كـــابـى القـــاسم الحـــسـين بـــن عـــلى المـــغـربى حيـــن قـــال:

إنى أُبثكَ مِنْ حَـــدِيثِى   والحــــديث له شُجُونْ

غَيَّرتُ موضعَ مَـــرقَدِى   لَيـــلاً فَفَارَقَنى السكُونْ

قُلْ لِى فَأول لَيــــلَةٍ فى   القـــبر كيف ترى أكون؟

نعم إن رسـول الله صلى الله عَليه وسلم وجـزاه عنا أعظم الجزاء عـرفنا بكثير مما يجرى على الأموات فى قبورهم.

فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عـبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال

---

(١) بلى : إبادة وفناء.

(إذاَ مَاتَ أَحَدكُمْ فَإنَهُ يُعْرضُ عَلَيْه مَقْعَدُهُ بالغَدَاة وَالعَشى، فإذا كَانَ منْ أَهْلِ الجَنَّة فَمنْ أَهْلِ الـجنَّة ، وإن كَانَ مِنْ أَهلِ النَّارِ فَـمِنْ أَهلِ النَّارِ، يُقَالُ لَهُ : هَذَا مَـقْعَـدُكَ حتى يَبْعَثَكَ الله إليه).

ونقل السيوطى فى شرح الصدور عـن ابن منده أنه روى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إنَمَا القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَو حُفرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ)

وروى الإمام أحمد والتـرمذى وابن ماجه والحاكم بأسانيدهم إلى عثـمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(القَبْرُ أَولُ مَنَازِلِ الآخرَة، فَإنْ نَجَا منه فَمَـا بَعْدَهُ أَيسَرُ مِنه، وإن لَمْ يَنْجُ مِنه فما بَعْدَهُ أَشدُّ مِنْه).

قال عثمان : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(وَالله مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً قَطُ إلا وَالقَبْرُ أَفظَعُ مِنْهُ).

وروى النسائى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(إنَّهُ أوحِيَ إلى أَنكُمْ تُفْتَنُونَ فِى القُبُورِ).

وروى الطبـرانى فى معجـمه الأوسط عن أبى هـريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا المَوْتُ فِى مَا بَعْدَهُ إلا كَنَطحَةِ عَنْزٍ).

إن هـذه الأحـاديث تكشف عن بعض أحـوال الموتى فى قـبـورهم، وبصـورة مجـملة، وقد وردت عن الـنبى صـلى الله عليه وسلـم أحـاديث أخرى فـصل فيـها بعض ما روى عنه مجمـلاً فى هذه الأحاديث وقد جاء التفصيل مبـينا للأحوال العشر التالية:

١ - سؤال الملكين للميت عند دفنه.

٢- استغفار الأحياء له ودعاؤهم ليثبته الله عندئذ.

٣- من لا يسألون فى القبور.

٤- ضغطه القبر للميت، وما يلقى منها.

٥- ما يلاقى بعض الموتى من العذاب فى القبر.

٦- ما يدفع الله به عذاب القبر.

٧- من لم تقبل الأرض جسده من الاموات.

٨- آداب دفن الأموات فى الإسلام.

٩- محذورات القبور.

١٠- زيارة المقابر.

وإليك ما ورد فى تلك الأحوال العشر

أولا سؤال الملكين للميت عند دفنه

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه ، فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم؟

فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبد الله ورسوله، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار، قد ابدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا .

واما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقوله الناس، فيقال له لا دريت ولا تليت. (١)

ويضرب بمطراق من حديد فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه.

كما روى الترمذى حديث السؤال عن أبى هريرة أيضا وجاء فى روايته بيان اسم الملكين وبعض أوصافهما، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟

فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله ، اشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا.

ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له: نم فيقول أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقولان: نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون: فقلت مثله لا أدرى فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك .

فيقال : للارض التئمى عليه، فتلتئم عليه، فتختلف فيها أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

وفى موضوع السؤال روى ابن أبى شيبة عن أبى هريرة أيضا، وجاء فى روايته أن

---

(١) كلمة تليت اصلها تلوت وإنما قلبت لتشاكل دريت.

الأعمال الصالحة للميت تحيط به عند السؤال تأنيسا له، وتلطيفا للحالة التى يجرى فيها السؤال والجواب، ونص ما روى ابن ابى شيبة عن أبى هريرة رضى الله عنه هو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الميت إذا وضع فى قبره إنه يسمع خفق نعالهم حينَ يولون عنه فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه.

فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام ما قبلى مدخل ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس ما قبلى مدخل.

فيقال له: اجلس وقد مثلت له الشمس وقد أدنيت للغروب فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وما تشهد به عليه؟

فيقول : دعونى حتى أصلى.

فيقولون : إنك ستفعل أخبرنا عما نسألك عنه، أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد عليه؟

فيقول : محمد أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق من عند الله .

فيقال له : على ذلك حييت وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله.

ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له هذا مقعدك منها وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسرورا.

ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له هذا مقعدك منها وما أعد الله لك فيها لو عصيته فيزداد غبطة وسرورا.

ثم يفتح له فى قبره سبعون ذراعا وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدا منه فتجعل نسمته [1] فى النسم الطيب وهو طير يعلق فى شجر الجنة.

قال فذلك قوله تعالى : ﴿يثبتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثَابتِ فى الحياةِ الدُّنيا وفى الآخِرَة﴾ [2]

---

(١) نسمته روحه.

(٢) سورة إبراهيم عليه السلام الآية ٢٧ .

وإن الكافر إذا أتى من قبل رأسه لم يوجد شيء ثم أتى عن يمينه فلا يوجد شيء ثم أتى عن شماله فلايوجد شيء ثم أتى من قبل رجليه فلا يوجد شيء.

فيقال له: اجلس فيجلس خائفا مرعوبا.

فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه ؟ وماذا تشهد به عليه؟

فيقول : أى رجل؟

فيقال له : الذى كان فيكم.

فلا يهتدى إلى اسمه حتى يقال له : محمد.

فيقول : ما أدرى سمعت الناس قالوا قولا فقلت كما قال الناس .

فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله.

ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له : هذا مقعدك من النار وما أعد الله لك فيها ، فيزداد حسرة وثبورا.

ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له: ذلك مقعدك من الجنة وما أعد الله لك فيه لو أطعته فيزداد حسرة وثبورا.

ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.

فتلك المعيشة الضنك التى قال الله : ﴿فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ (١)

كما روى ابن ماجه حديث السؤال، وجاء فيه أن الرجل الصالح لا يفزع عند السؤال وهذا نصه: عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الميت يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فى قبره غير فزع ولا مشعوف(٢) ثم يقال له : فيم كنت؟ فيقول : كنت فى الإسلام، فيقال له : ما هذا الرجل ؟

فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه .

فيقال له : هل رأيت الله ؟

فيقول : ما ينبغى لأحد أن يرى الله .

فيفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضا .

---

(١) سورة طه الآية ١٢٤ .

(٢) المشعوف هو من يشتد فزعه حتى يذهب بلبه .

فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله .
ثم يفرج له قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها فيقال له :
هذا مقعدك، ويقال له : على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله .
ويجلس الرجل السوء فى قبره فزعا مشعوفا،، فيقال له : فيم كنت؟
فيقول : لا أدرى .
فيقال له : ما هذا الرجل ؟
فيقول : سمعت الناس يقولون قولاً فقلته.
فيفرج له قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له : انظر إلى ما صرف الله عنك.
ثم يفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له : هذا مقعدك، على الشك كنت وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى.

وإليك ثماني نقط تتصل بسؤال الملكين

الأولى : قال الجلال السيوطى فى باب فتنة القبر وسؤال الملكين من كتابه شرح الصدور:

(قد تواترت الأحاديث بذلك مؤكدة من رواية أنس، والبراء، وتميم الدارى، وبشير ابن الكمال وثوبان، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن رواحة، وعبادة بن الصامت، وحذيفة بن اليمان، وضمرة بن حبيب وابن عباس وابن عمرو، وابن مسعود، وعثمان ابن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل، وأبى أمامة، وأبى الدرداء، وأبى رافع، وأبى سعيد الخدرى، وأبى قتادة، وأبى هريرة، وأبى موسى وأسماء بنت أبى بكر، وعائشة أم المؤمنين وميمونة رضى الله عنهم أجمعين)

الثانية : قال القرطبى:

(فإن قال قائل فلم يسمى فَتَّانَا القبر بمنكر ونكير؟ فالجواب أنهما سميا بذلك لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين، ولا خلق الملائكة، ولا خلق الدواب، ولا خلق الهوام، بل هما خلق بديع لا يأنس بهما أحد من الناظرين) .

الثالثة: أن قول الملكين فى السؤال : ما كنت تقول فى هذا الرجل يريدان النبى محمد صلى الله عليه وسلم، لكنهما لم يصفاه بالرسالة، ولا بأى وصف دال على التعظيم، حتى لا يكون ذلك الوصف تلقينا للجواب، والتلقين لا يناسب الامتحان.

الرابعة : روى البزار بسند رواته ثقات عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

قلت يا رسول الله تُبْتَلَى هذه الأمة فى قبورها، فكيف بى وأنا امرأة ضعيفة؟
فقال صلى الله عليه وسلم :
﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنُوا بالقَول الثَّابت فِى الحَيَاة الدُنيَا وفى الآخرة﴾ (١)
كماَ روى أحمد حديث السؤال عَن جَابر رضى الله عنه، جاء فى آخر قوله سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول :
(يُبعَثُ كلُّ عَبْد فى القَبر عَلَى مَا مَاتَ : المؤمنُ عَلَى إيمَانه والمنَافقُ عَلَى نفَاقه).
الخامسة : وردَ عَن النبى صلى الله عليه وسلَم أن الميت عَنَد السؤال يكونَ مَعَه عقله فى ذلك الجو الرهيب. فقد روى أحمد والطبرانى وابن عدى بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتّانى القبر، فقال عمر أترد إلينا عقولنا يا رسول الله .
فقال صلى الله عليه وسلم :
(نَعَمْ، كهَيئتكُم اليَوْمَ) .
ويؤيد هذا مَا رواه أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(فتْنَةُ القَبْر فىَّ فَإذا سُئلتمْ عنى فَلاَ تَشكُّوا) .
فلَو لم يكَن الميتَ عقلُه معه لما كانت هناك فائدة فى قوله صلى الله عليه وسلم لا تشكُّوا.
السادسة : نقل السيوطى فى شرح الصدور عن الحكيم الترمذى أنه روى عن سفيان الثورى أنه قال:
إذا سُئل المَيتُ : مَنْ ربك؟ تراءى له الشيطان، فيشير إلى نفسه، إنى أنا ربك.
ثم قالَ الحكيم : ويؤيده قول الرسول صلى الله عليه وسلم عند دفن الميت : (اللَّهُم أَجره من الشيْطَانِ) فلو لم يكن للشيطان هناك سبيل ما دعا صلى الله عليه وسلم بذلك.
كما روى ابن ماجه عن ابن المسيب أنه قال : حضرت ابن عمر رضى الله عنهما فى جنازة ابنة له، فلما وضعها فى اللحد قال : باسم الله ، وفى سبيل الله، فلما أُخذَ فى تسوية اللحد قال : اللهم أجرها من الشيطان ومن عذاب القبر. فلما سوى الكثيب عليها قام إلى جانب القبر ثم قال : اللهم جاف الأرض عن جنبيها وصعد روحها

(١) سورة إبراهيم - عليه السلام الآية ٢٧ .

ولقها منك رضوانا، ثم قال سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى ابن أبى شيبة فى المصنف عن خيثمة أنه قال : كانوا يستحبون إذا دفنوا الميت أن يقولوا : باسم الله، وفى سبيل الله، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أجره من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن شر الشيطان الرجيم.

السابعة : من أحداث السؤال ما رواه البزار والطبرانى والبيهقى عن أبى رافع رضى الله عنه أنه قال :

بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بقيع الغرقد [1] وأنا أمشى خلفه إذ قال :

لا هديت ولا اهتديت

قلت مالى يا رسول الله؟

قال : لَسْتُ إيَّاكَ أريدُ، وَلَكنْ أُريدُ صَاحبَ هَذَا الْقَبر، سُئلَ عَنى فَزَعَمَ أنه لاَ يَعْرفُنى وفى روايةَ لأبى نعيم فى دلائل النبوة عن أبى رافع أنه صلى الله عليه وسلم قال : فشك فىّ .

قال أبو رافع فإذا قبر مرشوش عليه ماء، حين دفن صاحبه.

الثامنه : هل تعاد روح الميت إلى جسده عند السؤال؟

قال ابن القيم :

الأحاديث مصرحة بإعادة الروح إلى البدن عند السؤال. لكن تلك الإعادة لا تحصل بها الحياة المعهودة التى تقوم بها الروح بالبدن وتدبره، ويحتاج معها إلى الطعام والشراب، وإنما يحصل بها للبدن حياة أخرى يحصل بها الامتحان بالسؤال.

وكما أن حياة النائم - وهو حى - غير حياة المستيقظ، فإن النوم أخو الموت، ولا ينفى عن النائم إطلاق الحياة، فكذلك حياة الميت عند إعادة روحه غير حياة الحى وهى حياة لا تنفى عنه اسم الموت بل أمر متوسط بين الموت والحياة .

ثانيا: الاستغفار للميت وسؤال الله أن يثبته عند السؤال

عندما يموت الإنسان يمر بمراحل لم يألفها طول حياته، وتكون ليلته الأولى فى قبره أعجب وأغرب ليلة تمر به فى أول منازل الآخرة، حتى أن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه عبر عن هذه الحقيقة - فيما رواه البيهقى عنه فى شعب الإيمان - حين قال :

---

(١) بقيع الغرقد هو مقبرة المدينة المنورة.

ألا أخبركم بيومين وليلتين لم يسمع الخلائق بمثلهما؟

أول يوم يجيئك البشير من الله إما برضا الله وإما بسخطه.

ويوم تقف بين يدى الله تأخذ فيه كتابك إما بيمينك وإما بشمالك.

وليلة يبيت الميت فى قبره لم يبت ليلة قبلها مثلها.

وليلة صبيحتها يوم القيامة، ليس بعدها ليلة.

ولما كان سؤال الملكين هو أول من يجابه الميت على إثر دفنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه الأحياء إلى الله بالاستغفار للميت وبأن يثبته الله عند السؤال.

فقد روى أبو داود والحاكم والبيهقى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بجنازة عند قبر وصاحبه يدفن، فقال استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل.

ثالثا: من لا يُسألون فى القبور

من الأموات من لا يسألهم الملكان وقد بلغنا أن من لا يسألون هم :

- من مات شهيدا مقاتلا لإعلاء كلمة الله.
- من مات مرابطا فى سبيل الله [١]
- من مات يوم الجمعة.
- من مات ليلة الجمعة .
- من يموت من مرض بطنه كالاستسقاء والإسهال .

روى النسائى عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

(كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأسِه فِتْنَةً) .

وروى النسائى والطبرانى فى معجمه الأوسط عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَبَرَ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْيَغْلِبَ لَمْ يُفْتَنْ فِي قَبْرِهِ).

وروى مسلم عن سلمان رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(١) الرباط ملازمة الرجال لأحد ثغور المسلمين ليقوم بالدفاع عنهم .

(رِبَاطُ يومٍ ولَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صيَـامِ شَهْرٍ وقِيَامِه، وإنْ مَاتَ جَـرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الذى كَانَ يَعْمَلُهُ وأُجْرِيَ عَليهِ رِزْقُهُ، وأَمِنَ مِنَ الفَتَّانَيْنِ) .

وروى الطبرانى عن أبى أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً فى سبيل الله أمنه الله مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ) .

وروى الترمذى عن فضالة بن عبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(كُلُ مَيّت يُختَمُ عَلَى عَمَلِه إلا الذى مَاتَ مَرابِطًا فى سبيل الله، فَإنهُ ينمو عَمَلُهُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ويَأْمَنُ فِتْنَةَ القَبْرِ) .

وروى أحمـد والترمذى والبـيهقى عن ابن عـمرو رضى الله عنهـما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الجُمُعَةِ أو ليلة الجُمُعةِ إلا وَقَاهُ اللهُ فِتْنَةَ القَبْرِ) .

وروى أحمد عن عبد الله بن يسار أنه قال :

كنت جالسا مع سليمان بن صُرد وخالد بن عُرفطة رضى الله عنهما، فذكروا رجلا مات من بطنه، فكأنما اشتهيا أن يصليا علـيه، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم :

(مَنْ قَتَلَهَ بَطْنُهُ فَإنه لَنْ يُعَذَّبَ فِى قَبْرِهِ؟).

قال الآخر: بلى.

رابعا: ضغطة القبر للميت وما يلقى منها

وردت عدة أحاديث تتضمن أن الميت يضغط فى قبره ضغطة قد يستريح بعدها وقد يتصل بهـا عذاب القبـر، فمن تلك الأحاديث مـا رواه أحمد فى المسـند والطبرانى فى معـجمـه الكبير بـسند جيد عن جـابر بن عبـد الله رضى الله عنه أنه قال : خـرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى سعد بن معاذ رضى الله عنه حين توفى فلما صلى عليه رسول الله صلـى الله عليه وسلم ووضع فى قبره وسوى علـيـه سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبحنا طويلاً، ثم كبر فكبرنا، فقيل يا رسول الله لم سبحت ثم كبرت؟

قال :

(لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا العَبْدِ الصَالِحِ قَبْرهُ حَتى فرَّجَهُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ) .

وروى النسائى والبيـهقى عن عبد الله بن عمر رضى الـله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(هذا الذى تَحَـرَّكَ لَهُ العَرْشُ[(١)] وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاء وَشَـهِدَهُ سَبْعُونَ أَلفاً مِنَ المَلائكَة قَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِجَ عَنْهُ) .

يَعَنى سعد بن معاذ، وقيل فى تفسير تحرك العرش لسعد، استبشار العرش بروحه.

قال الشاعر فى ذلك :

وما اهْتَزَّ عَرْشُ اللهِ مِنْ أَجلِ هَالِكِ   سَمِعْنَا به إلا لسَعدِ أَبى عَمْرو

وروى أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن للقَبْرِ ضَغْطَةَ، ولَوْ كَانَ أَحد نَاجيًا منْهَا نَجَا منْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذ)

وروى البيـهقى من طريق ابن إسـحاق أن بعضَ أهل سـعد رضىً الله عنه سـئل ما بلغكم من قول رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا؟ قالوا ذُكـر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال : كان يقصِّر فى بعض الطهور من البول.

وروى الطبرانـى فى معجـمه الكبـير بسند رجـاله رجال الصحـيح عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لَوْ أَفْلَتَ أَحَد منْ ضَمَّة القَبْرِ لأفلَتَ هَذَا الصبىُّ)

ونقل السيوطى فى شرحَ الصدور عن أبى القاسم السعدى أنه قال :

لا ينجو من ضـمة القـبر صالح ولا طالح، غـير أن الفرق بين المـسلم والكافر دوام الضـغطة للكافر، وحـصـول هذه الحالة للمـؤمن فى أول نزوله إلى قـبره ثم يعـود إلى الانفساح له . [(٢)]

وتحدث الشيخ عبد الرءوف المناوى فى كتابه (فـيض القدير) عن ضمة القبر للميت فقال رحمه الله :

المؤمن أشرق نور الإيمان فى صدره، وبـاشر اللذات والشهوات وهى من الأرض، والأرض مطيعة لله وخلق الآدمى منهـا، وهو قد أُخِذَ عليه العهـد والميثاق فى أن يكون عبداً لله.

---

(١) ورد فى الصحـيحين أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال :(اهتز عـرش الرحمن لموت سعد بن مـعاذ، وكان ممن أسلم من أهل المدينة قـبل الهجرة على يد مصعب بن عـمير، وقد شهـد بدرا وأحدا والخندق، ومات رضى الله عنه عام الخندق.

(٢) شرح الصدور ص ٤٦ .

فلما نقص من وفاء العبودية صارت الأرض عليه واجدة (غاضبة) فإذا وجدته في بطنها ضمته ضمة، ثم تدركه الرحمة فترحب به، وعلى قدر سرعة مجيء الرحمة يتخلص من الضمة، فإن كان محسنا فإن رحمة الله قريب من المحسنين، وإذا كانت قريبا من المحسنين لم يكن الضم كثيرا، وإذا كان خارجا عن حد المحسنين لبث حتى تدركه الرحمة.

ولاينافى الضم اهتزاز العرش لموت سعد، لأن دون البعث زلازل وأهوالا، لا يسلم منها ولى ولا غيره، ولهذا قال عمر : لو كان لى طلاع الأرض ذهبا لافتديت به من هول المطلع.

ثم قال المناوى : وفى الحديث إشارة إلى أن جميع ما يحصل للمؤمن من أنواع البلايا حتى فى أول منازل الآخرة وهو القبر وعذابه وأهواله إنما هو لما اقتضته الحكمة الإلهية من التطهيرات ورفع الدرجات . (١)

خامسا: ما يلاقى بعض الموتى من العذاب فى القبر

عذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة، وهو واقع على الكفار وعلى من شاء الله من الموحدين.

أما الكتاب فقد قال الله سبحانه : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا، وَيَوْمَ تَقُومُ الساعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٢)

وأما السنة فقد رويت منها فى عذاب القبر أحاديث بلغت حد التواتر منها ما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(عَذَابُ الْقَبْرِ حَقّ)

وروى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(إنَّ أهْلَ القُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِى قُبُورِهِمْ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ).

وروى الطبرانى فى معجمه الأوسط عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر وهو يسير على راحلته فنفرت، فقلت يا رسول الله ما شأن راحلتك نفرت؟ (قال: إنهاسمعت صوت رجل يعذب فى قبره) .

---

(١) فيض القدير ج٥ ص ٣٣٢ .

(٢) سورة غافر الآية ٤٦ .

وروى ابن أبى شيبة ومسلم عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حائط [1] لِبَنِى النَّجارِ على بَغَلةٍ لَهُ، وَنَحْنُ مَعَهُ إذ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلقيه، وإِذَا أَقْبُر ستَّة أو خَمسةٌ أو أَرْبَعَةٌ ، فقال من يعرف أَصحَابَ هَذِهِ الأقبر؟ فقال رجل: أنا ، فقال : متى مات هؤلاء؟ قال ماتوا فى الإشراك . فقال صلى الله عليه وسلم :

(إنَّ هَذه الأمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَولاَ أنْ لا تَدافنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعكُمْ مِنْ عَذَاب القَبْر الَّذى أَسْمَعُ)

من أسباب عذاب القبر:

بينت الأحاديث بعض أسباب عذاب القبر، وهى الكفر والصلاة بغير طهور وعدم نصرة المظلوم والنميمة والغيبة، وعدم التنزه من البول.

فقد روى أحمد عن أنس رضى الله عنه أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نخل لأبى طلحة وبلال يمشى وراءه، فمر بقبر، فقال :

(يَا بِلاَل هَل تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ؟ صَاحِبُ هَذَا القَبْرِ يُعذبُ) فسأل عنه فوجده يهوديا.

وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(أُمرَ بعبد مِنْ عباد الله أَن يُضربَ فِى قَبْره مائَةَ جَلْدَة، فَلَمْ يَزَلْ يَسأَلُ الله وَيَدْعُوهُ، حَتَى صَارَتْ وَاحدةَ، فَامْتَلأَ قَبْرهُ عَلَيْه نَاراً، فَلَمَّا ارْتَفع عَنْهُ أَفَاق فَقَالَ :

عَلاَمَ جَلَدْتُمُونِى؟ قَالُوا إِنَكَ صَلَّيْتَ صَلاَةً بِغَيْر طُهُورٍ، وَمَرَرْتَ عَلى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنصُرْهُ) .

وروى البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إنَّ عَذَابَ القَبرِ مِنْ ثَلاثَة مِنَ الغيبَة وَالنَميمة، وَالبَولِ، فإيّاكُمْ وَذَلكَ)

كما روى الطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(اتقُوا البَوْلَ، فَإنَه أول مَا يُحاسَبُ به العَبْدُ فى القبر) .

وروى أحمد عن أبى أمامة رضى الله عنه أنه قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد، قال أبو أمامة فكان الناس يمشون خلفه فلما

---

(١) الحائط هو الحديقة المسورة بما يحيط بها .

سمع صوت النعـال وقر ذلك فى نفسه، فجلس حـتى قدمهم أمامه، لئـلا يقع فى نفسه من الكبر[1] فلما مر ببقيع الغرقد إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين، فوقف النبى صلى الله عليه وسلم وقـال من دفنتم ها هنا اليوم ؟ قالوا يا نبى الله فـلان وفلان ، قال صلى الله عليه وسلم :

(إِنّهُمَا لَيُعَذَّبَان الآن، وَيُفتنَان فِى قَبْرِيهِمَا)

قالوا: يا رسول الله فيم ذاك؟

قال : أَمَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنزه مِنَ البَوْل، وَأَما الآخر فَكَانَ يَمشِى بالنَّميمَة) .

وأخذ صلى الله عليه وسلم جريدة رطبة فشقها، ثم جعلها على القبرين قالوا يا نبى الله : ولم فعلت ؟

قال : (لِيُخَفَّفَنَّ عَنهُمَا) .

قالوا يا نبى الله : ،وحتى متى يعذبهما الله ؟

قال : (غَيْب، لاَ يَعْلَمُهُ إِلا اللَّهُ، وَلَوْلاَ تَمْرِيغُ قُلُوبكُمْ [2] أوقال تزَيُّدُكُم فِى الحَدِيث - لَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ) .

وروى كل من ابن أبى شـيبة والبـخارى ومـسلم مرور النبى صلى الله علـيه وسلم على القبرين بصورة أخصر عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال:

(إِنَّهُما ليُـعَذبَانِ، وَما يُعَذبَانِ فِى كَبِـير، أما أحَدهُمَا فَكَانَ لاَ يَسـتنْزِه مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمشى بالنّميمَة).

ثم أخذ جرِيدة رطبـة فشقها باثنتيـن، فجعل على كل قبر واحدة، فـقالوا : يا رسول الله لم فعلت هذا ؟ قال :

(لَعَلّه يُخَفَّفُ عَنهُمَا مَالَمْ تيْبسَا) .

قد يسـتغرب بعض الناس عـذاب القبر من أجل الـبول ، ويتسـاءل كيف سلط الله العذاب من أجله على الميت قبل يوم القيامة ولكن استغراب بعض الناس لذلك ناشىء عن انغماسهم فى الغفلات المطبقة .

---

(١) الرسول صلى الله عليـه وسلم مع إنه معصـوم من مساوىء الأخلاق، إنما فـعل ذلك تعليما للأمـة، وليقع التأسى به

أفـلا يرى الإنسـان أن الكلب الذى هو من أخس الحيـوانات وأقـذرها، والذى لا يتورع عن أكل الجيف المنتنة، هذا الذى مرتبتـه من أحط مراتب الخساسة يراه الناس إذا تبول يرفع إحدى رجلـيه، ويرش بوله فيدفعـه بعيداً عنه، إما على حـائط أو صخرة أو أصل شجرة أو نحو ما ذكر، كل ذلك يكون منه توقيا من أن يصيبه بوله.

بينما الإنسان الذى جمل الله صورته وكرم ذاته لا يقـوم بتكريم ذاته فيجنبها نجاسة البول، ولا يصون ثيابه منها، بل يرضى أن تتدنى نفسه إلى مرتبة تترفع عنها الكلاب.

وما أكثـر الذين لا يتوقون رش البول أو بـقية بعض قطراته عند الفراغ منه فـتتلطخ بها ثيابهم إذا لم يكونوا من المصلين المحافظين على طهارة البدن والثياب .

وهكذا يرضى تارك الصلاة لنفسه حطة تنزهت عنها الكلاب، فكيف يتـساءل عن السر فى استـحقاق ابن آدم للعذاب فى قـبره قبل البعث للحـساب؟ أفلم يدرك أن الله قد كرمه، وأنه هو الذى رضى الإهانة لنفسه بنفسه؟

ولقد قلت فى معنى ما تقدم :

الكَـــلبُ يَخْـشَى بَوْلَهُ	منْ طَبـعه ، لاَ عَـنْ دراسَـةْ
إنْ بَـــالَ، بَـالَ بحِكْمَة	يَعْلُو بهَا، ويَفُـوقُ نَـاسَـهْ
فَتَرَاهُ يَــرْفَعُ رِجْـــلَهُ	حَذَرَ التَلطـخ بالـــرِّجَاسَـهْ
مَعَ أنـهَ لاَ يَرْعَــــوى	عَنْ أكْله جِيَـفَ الكُنَـاسَـهْ
(فَالكَـــلبَ أشْرَفُ حَالَةً	وَهْوَ النـــهَايَةُ فى الخَسَاسَـهْ)
ممَّـــنْ يَبُـــولُ ولَم يكُنْ	مُـتَوَقِيًا أثَــرَ النــجَاسَــهْ
مَنْ لَـــمْ يُصَـلِّ فبَــولُهُ	لاَ بـــدَّ أنْ يَغْــشَى لبَاسَهْ
وَمنَ التَــعَوّد ثَــوبُــهُ	يَشْكُو التَّــعَفُّنَ وَالدنَـاسَـهْ
كَمْ مثْله تَمْــضى الحَيَا	ةُ به ولَم يفْـــقدْ نُعَـــاسَهْ
فَاعْجَبْ لكَـلب فَاقَ بَعْــ	ضَ النَّاسِ فى أدَب الكيَاسَهْ

وحتى يسهل الفهم لنعيم القبر وعذابه أنقل إليك كلام الشيخ ابن القيم رحمه الله، وكلامه هذا فى غاية الدقة والإحكام، قال رحمه الله ورضى عنه:

إن الله جعل الدور ثلاثا:

- دار الدنيا .

- ودار البرزخ.

- ودار القرار.

وجعل لكل دار أحكاما تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، ولهذا جعل الأحكام الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه.

وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا فتألمت بألمها، والتذت براحتها، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح فى القبور فى نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم.

فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها، والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها.

وتجرى أحكام البرزخ فى الأرواح، فتسرى إلى أبدانها نعيماً وعذاباً، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى الأرواح كذلك.

وجعل أحكام الدار الآخرة على الأرواح والأبدان معاً .

ثم قال : فأحط بهذا الموضع علما يَزُلْ عنك كل إشكال.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يتعوذوا بالله من عذاب القبر كما كان هو يتعوذ بالله منه.

فقد روى أحمد والبزار عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل نخلا لبنى النجار، فسمع أصوات رجال من بنى النجار ماتوا فى الجاهلية يعذبون فى قبورهم فخرج فزعاً، فأمر أصحابه أن يتعوذوا من عذاب القبر.

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو:

(اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَات، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدجَّال)

سادسا : ما يدفع الله به عذاب القبر

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

إن عذاب القبر ونعيمه عبارة عن عذاب البرزخ ونعيمه.

والبرزخ هو ما بين الدنيا والآخرة، وإنما أضيف العذاب والنعيم إلى القبر باعتبار الغالب.

فالمصلوب والغريق والحريق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه، حتى لو عُلِق العاصى على رؤوس الأشجار فى مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه، ولو ألقى الصالح فى أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه، فتجعل النار على هذا بردا وسلاما، والهواء على ذلك ناراً وسموما.

فعناصر العالم ومواده منقادة لربهايصرفها كيف يشاء، كما صرفها فيما نشاهد بخلق هذه القوى فيها بعد أن لم تكن.

تبارك اسمه، وعزت مشيئته، وتعالت قدرته، وجلت قوته .(١)

أما من ترجى لهم النجاة من عذاب القبر إن شاء الله فهم الممتازون بإحدى الخصال الأربع التالية:

١- من يلتزم- فى السر والعلن- بتقوى الله فيمتثل لأمره، ويقف عند نهيه، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاته وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ (٢)

٢- من يتجنب الأسباب المفضية إلى عذاب القبر، وقد تقدمت.

٣- من يكثر الصدقات ابتغاء وجه الله إذا كانت سرية خفية، ومن كسب طيب، فقد روى الطبرانى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(إنّ الصَّدقَة لَتُطفِىء عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ القُبُور)

وروى البيهقى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(صَدَقَةُ السّرّ تُطفِىء غَضَبَ الرَّب).

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لاَ يَقْبَلُ اللّهُ إلاَ الطَّيِّبَ) .

٤- من يحفظ سورة الملك ، ويواظب على تلاوتها كل ليلة وحبذا أن يقوم بها فى تهجده.

---

(١) من بلوغ الأمانى للشيخ البناء رحمه الله ج٨ ص ١٤٣ .

(٢) سورة الطلاق الآية ٥ .

روى الترمـذى عن ابن عبـاس رضى الله عنهما أنه قـال : ضرب بعض أصـحاب النبى صلى الله عليه وسلم خبـاءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر فإذا فـيه إنسان يقرأ سورة تبارك الذى بيده الملك حتى ختمها.

فأتى النبى صلى الله عليه وسـلم فقال : يا رسول الله إنى ضربت خبـائى على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبـر، فإذا فيه إنسان يقرأ سـورة تبارك الذى بيده الملك حتى ختـمها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(هِيَ الْمَانِعَةُ هِيَ الْمُنجية، تُنْجيه مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ) .

وروى أبو عبد الله الحاكم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال :

(سُورَةَ الملك هِيَ الْمَانِعَةُ، تَمنَعُ صَاحِبَهَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، يُؤْتَى صَاحِبُهَا - فى قبره - من قِبَلِ رأسه، فَيَقُولُ رأسُهُ لاَ سبَيل عَلَيَّ، فإنه وَعَى فِيَّ سُورةَ الملك، ثمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْه، فَتَقُول رجْلاه لَيسَ لَكَ عَلَيَّ سَبيل، إنهُ كَان يَقُومُ بِى) .

وروى النسائى عن ابن مـسعود رضى اللـه عنه أنه قال : (مَنْ قَرَأَ تَبَـارَكَ الذى بِيَدِه الْمُلك كُلَّ لَيْلَة مَنَعَهُ اللهُ بها مِن عَذَابِ الْقَبْـرِ، وَكُنَّا فِى عَهْدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم نُسَميهاَ الْمَانعَة) .

وروى أحمد والترمذى والنسـائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إِنّ سُورَةً مِنَ الْقُـرآنِ ثَلاَثُونَ آيَةَ شَفَعَتْ لِرجُلٍ حَـتى غُفِرَ لَهُ وَهْىَ تَبَـارَكَ الذى بِيَدِه الملك).

وروى الطبـرانى فى المعـجم الأوسط عن أنس رضى الله عنه أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(سُورة من القـرآن ما هى إلا ثلاثون آيةً خاصمت عن صـاحبها حـتى أدخلته الجنة، وهى تبارك الذى بيده الملك).

وروى ابن حجر رحمه الله فى أماليه عن عكرمة مولى ابن عباس رضى الله عنه أنه قال لرجل: ألا أطرفك بحديث تفرح به؟ اقرأ تبـارك الذى بيده الملك، احفظها وعلمها أهلك وولدك وجيران بيـتك، فإنها المنجيـة والمجادلة ، تجادل وتخاصم يوم القـيامة عند ربها، وتطلب إليـه أن ينجيه من النار إذا كانت فى جـوفه، وينجى الله بها صاحـبها من عذاب القبر.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(وَدِدْت أَنها فِى قَلْب كُل إِنسَان مِنْ أُمَّتى) . (١)

ونقَل السيوطى عن الحافظ زَين الدين بن رجب أنه قال حدثنى أبو الحجاج السريرى أن على بن الحسين خطيب سَامَرًا - وكان رجلا صالحا - أرانى موضعا من قبور سامرا، فقال هذا الموضع لا نزال نسمع منه سورة (تبارك الذى بيده الملك) (٢)

وروى أحمد وأبو عبد الله الحاكم والترمذى عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة، وتبارك الذى بيده الملك.

سابعا: من لم تقبل الأرض جسده من الأموات

روى ابن ماجه فى سننه عن عمران بن الحصين رضى الله عنه أنه قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث جيشا من المسلمين إلى المشركين، فلما لقوهم قاتلوهم قتالا شديدا، فمنحوهم أكتافهم ، فحمل رجل من لحمتى على رجل من المشركين بالرمح، فلما غشيه قال أشهد أن لا إله إلا الله إِني مسلم ، فطعنه فقتله، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت، قال صلى الله عليه وسلم (وَما الذِى صَنَعْت؟) قال ذلك مرة أو مرتين.

فأخبره الرجل بالذى صنع، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(فَهَلاَّ شَقَقْتَ عَلَى بَطْنه فَعَلَمْتَ ما فِى قَلْبه) .

قال الرجل: يا رسول الله ،يا رسولَ الله لو شققت على بطنه لكنت أعلم ما فى قلبه. فقال صلى الله عليه وسلم :

(فَلاَ أَنْتَ قَبِلْتَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ، وَلاَ أَنْتَ تَعْلَمُ ما فِى قَلْبِه) .

قال عمران بن الحصين : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلبث الرجل إلا يسيرا حتى مات. فدفناه فأصبح على ظهر الأرض، فقالوا: لعل عدوا نبشه، فدفناه ثم أمرنا غلماننا يحرسونه، فأصبح على ظهر الأرض فألقيناه فى بعض تلك الشعاب.

وفى رواية أخرى لابن ماجه، عن عمران بن الحصين أنه قال : بعثنا رسول الله

---

(١) فيض القدير ج٢ ص ٤٥٣ .

(١) شرح الصدور ص ٧٩ .

صلى الله عليه وسلم فى سرية فحمل رجل من المسلمين على رجل من المشركين فذكر الحديث إلى أن قال : فنبذته الأرض، فأُخبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال:

(إِنَّ الأَرضَ لَتَقْبَلُ مَنْ هُو شَرّ منه، ولَكن اللهَ أحَبَّ أن يُرِيكُم تَعظيمَ حُرْمةِ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ).

وروى البيهقى وابن جرير عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على مُحلَّم بن جثَّامة الكنانى الليثى ، فمات بعد سبع ليال من دعائه صلى الله عليه وسلم .

ولما دفنوه لفظته الأرض، ثم دفنوه فلفظته، وهكذا مرات، فألقوه فى شعب، ورضموا عليه الحجارة.

وسبب دعائه عليه أنه صلى الله عليه وسلم بعثه فى سرية أمر عليها عامر بن الأضبط، فبلغوا بطن واد فقتل محلَّم عامر غدراً، لأمر كان بينهما فلما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك دعا عليه، ولما أخبروه صلى الله عليه وسلم بأن الأرض لفظته قال :

(إِنّ الأَرضَ لَتَقَبَلُ مَن هُوَ شَرّ منه، ولَكَن اللهَ أراد أن يَجْعَلَهُ لَكمْ عِبْرةَ) .(١)

وروى البيهقى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً، فكذب عليه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، فُوجِدَ ميتا قد انشق بطنه ولم تقبله الأرض. (٢)

ثامنا :آداب دفن الأموات فى الإسلام

إعداد القبر:

قال صلى الله عليه وسلم : (اللَّحدُ لَنَا، وَالشَّقُّ لِغَيرِنَا) رواه أبو داود والترمذى والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

فقد تَبَيَّن أن القبر نوعان : إما لحد ، واما شق .

أما اللحد فهو خاص بالأرض الصَّلبة، وكيفيته هى أن يحفر فى الأرض حفير مستطيل، فإذا بلغ الحافر أرض القبر حفر فى جداره مما يلى القبلة مقدرا ما يسع الميت ليوضع فيه، وبعد وضعه يسد عليه بلبن أو ألواح أوخشب، ويصب التراب بين ما وقع السد به وبين الجدار الآخر حتى يسوى بالأرض.

وأما الشق فهو خاص بالأرض الرخوة، وكيفيته هى أن يحفر فى الأرض شق

(١) حجة الله على العالمين ص ٥٩٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠٠ .

مستطيل، تبنى جوانبه بالحجارة أو اللبن، بحيث يبقى الفراغ المحصور بين الجدران المبنية كافيا لوضع الميت فيه، ثم يجعل له سقف من الأخشاب أو ألواح من الصخر أو الأسمنت تكون معدة من قبل بحجم القبر.

وقبور الشق هى المألوفة فى مقابر القيروان منذ الفتح الإسلامى لرخاوة أرضها.

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم :(اللَّحْدُ لَنَا وَالشَّقّ لغَيْرنَا) هو أن اللحد من خصائص المسلمين، وأن الشق - فى الأصل - من خصائص أهل الكتاب.

ولكن الشق ليس محرما على المسلمين بدليل تردد الصحابة عند وفاته صلى الله عليه وسلم فى أى النوعين يجعلونه له قبرا كما سترى ذلك فيما يلى .

كيف كان قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

روى أحمد وابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رجل يلحد وآخر يضرح، فقالوا نستخير ربنا فنبعث إليهما، فأيهما سبق تركناه، فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللحد فلحدوا له.

وروى أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما حديثا طويلا فيما جرى من غسل الرسول صلى الله عليه وسلم وكفنه ودفنه جاء فيه قول ابن عباس.

ثم دعا العباس رجلين ، فقال ليذهب أحدكما إلى أبى عبيدة بن الجراح، وكان أبو عبيدة يضرح [1] لأهل مكة، وليذهب الآخر إلى أبى طلحة بن سهل الأنصارى، وكان أبو طلحة يلحد [2] لأهل المدينة، ثم قال العباس لهما حين سرحهما، اللهم خَرْ لرسولك، فذهبا فلم يجد صاحب أبى عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة، فجاء به فلحد لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو عبد الله الحاكم من طريق القاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : دخلت على عائشة فقلت يا أمة اكشفى لى عن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، فكشفت له عن ثلاثة قبور، لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء [3]فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدما، وأبا بكر رأسه بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم وعمر رأسه عند رجلى النبى صلى الله عليه وسلم.

---

(١) يعنى يصنع الضريح وهو الشق المبنى جوانبه.

(٢) يعنى يصنع اللحد وهو الحفير المتخذ فى الجدار القبلى للقبر.

(٣) أى مفروشة بالحصى الدقيق المأخوذ من مكان يعر ف بالعرصة الحمراء.

فدل هذا الحديث على أن القبور الثلاثة كانت مسنمة لقوله : لا مشرفة ولا لاطئة، فهى ليست مرتفعة كثيرا، ولا مساوية للأرض، بل هى مرتفعة نحو شبر، وروى البخارى أن سفيان التمار رأى قبر النبى صلى الله عليه وسلم مسنما.

وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم سنم قبر ولده إبراهيم، وذلك فيما رواه البيهقى عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رش على قبر ابنه إبراهيم ، ووضع عليه حصباء ورفعه شبراً.

وقد استحب كل من أبى حنيفة ومالك وأحمد تسنيم القبر. واختار جمهور الشافعية التسطيح.

اختيار مكان القبر :

روى أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَنِ استطَاع أَنْ يَمُوتَ بالمَدِينةِ فَلْيَمُتْ بِهَا، فَإِنّى أشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا) .

وروى أبو نعيم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(ادفنوا مَوْتَاكُمْ وَسْطَ قَوْمٍ صَالِحِين، فإنّ المَيْتَ يَتَأذَّى بِجَار السَّوء، كما يَتَأذى الحَى بجار السوء) .

تعميق القبر والبناء عليه:

قال صلى الله عليه وسلم يوم أحد لمن يحفرون قبور الشهداء رضى الله عنهم : (احفِرُوا وأوسِعوا، وأعْمِقُوا، وَاجعَلُوا الرَجُلَيْنِ وَالثَلاثَةَ فِى القَبْرِ، وَقَدّمُوا أَكْثَرَهُمْ قُرْآناً). رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن هشام بن عامر رضى الله عنه.

وقال من شرح الحديث أن التعميق يمنع من انتشار روائح الموتى - غير الشهداء - ويحميهم من أن تنالهم السباع، أو النباشون للقبور.

والحديث لم يرد فيه تحديد مقدار العمق، ولذلك اختلفت الآراء فى تحديده، فيقول مالك: لا حد لتعميق القبر، والشافعى يقول مقدار قامة. وأحمد يستحب تعميقه إلى مستوى صدر الإنسان.

وضع العلامة المميزة للقبر:

روى أبو داود عن كثير بن زيد المدنى عن المطلب أنه قال: لما مات عثمان بن مظعون رضى الله عنه أخرج بجنازته فدفن، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم رجلا أن يأتيه بحجر فلم يستطع حمله، فقام إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسر عن ذراعيه - قال المطلب قال الذى يخبرنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كأنى أنظر إلى بياض ذراعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حسر عنهما، ثم حملها فوضعها عند رأسه وقال:

(أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيْهَا مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي) .

وفى البخارى أن خارجة بن زيد رضى الله عنهما قال: رأيتنى ونحن شبان فى زمن عثمان، وأن أشدنا وثبة هو الذى يثب قبر عثمان بن مظعون حتى يجاوزه.

أما الكتابة على الرخام ونحوه مما يجعل قائماً على القبر فقد اختلفت فيها المذاهب، فالحنفية قالوا بكراهتها على وجه التحريم، إلا إذا خيف ذهاب أثر القبر، فلا تكره، والمالكية قالوا إنّها حرام إذا كانت قرآنا، وهى مكروهة إذا لم تكن قرآنا بأن كانت تحمل اسم الميت أو تاريخ وفاته، والشافعية قالوا كل كتابة مكروهة إلا إذا كان الميت رجلا صالحا فلا بأس أن يكتب اسمه ليعرف، بل اعتبر بعضهم ذلك مستحبا لتمييز الصالحين، أما الحنابلة فيكرهون الكتابة على القبر مهما تكن الكتابة ومهما يكن صاحب القبر.

وأما البناء على القبر فقد روى فيه الإمام احمد فى مسنده عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يبنى على القبر، وأن يجصص أى يطلى بالجص.

قيل : إن النهى عن ذلك من أجل أن القبر للبلى، وما يشيد عليه أو يجصص هو من زينة الحياة الدنيا.

أما تطيين القبر بأن يكسى بالطين فمباح، وخلاصة ما ذهب إليه الأئمة فى التجصيص والبناء هو أن تجصيص القبور مكروه، وأن البناء عليها حرام، وتشتد الحرمة إذا كان ذلك للمفاخرة والمباهاة.

الأدب المطلوب عند الدفن، وكيفية وضع الميت فى مدفنه:

إذا كان المدفن لحدا فيوضع النعش من جهة رجلى اللحد ثم يسل الميت من جهة رأسه سلا خفيفا، ثم يتناوله من نزلوا الحفير، فيأخذونه من أيدى من سلوه من النعش،

ويضعونه فى اللحد برفق على جنبه الأيمن مستقبلا القبلة قائلين : باسم الله وعلى سنة رسول الله، ويحل رباط الكفن من جهة رأسه ورجليه .(١)

ثم يسد عليه بلبن أو ألواح أو خشب، ويصب التراب حتى يسد ما بين الألواح وجدار اللحد الذى خلف الميت، ثم يدعى له بنحو (اللهُمَ إنّهُ قَدْ نَزَلَ بكَ، وَخلَّفَ الدُّنْيَا ورَاءَ ظَهْرِه، وَافْتَقَر إلَى ما عِنْدَكَ كَمَا كان فِى الدنيا، اللَّهُمَّ ثَبّتْ عِنْدَ المسَأَلَة مَنْطقَهُ وَلاَ تَبْتلِه فِى قَبْرِهِ بما لاطَاقَـة لَه بِه، وتَقَبَّلهُ بِأَحْسَنِ قَبُول، وألْحِقْهُ بِنَبِيـهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم .

وكان أنس بن مالك رضى الله عنه إذا سوى على الميت قبره وقف عنده وقال :

اللهم عبدك رُدَّ إليك فارأف به وارحمه، اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح أبواب السماء لروحه، وتقبله منك بقبول حسن، اللهم إن كان محسناً فزد فى إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه.

وإن كان مدفنه شقا، فإن النعش يوضع خلف القبر، بحيث يصير القبر قبلى النعش، ويسل الميت سلا خفيفا من جهة رأسه، ثم يتناوله من نزلوا الضريح فيضعونه برفق على جنبه الأيمن مستقبل القبلة ، وظهره إلى جدار الحفير، قائلين - عند وضعه - باسم الله، وعلى سنة رسول الله، ويجعل رأسه مرتفعاً على نحو مخدة من التراب، ثم يصب أمام جسده بعض التراب حتى لا ينقلب الجسد على ظهره، فإذا وضع سقف القبر دعى له بنحو ما تقدم .

ولا ينسوا أن يستغفروا له، ويسألوا الله أن يثبته عند سؤال الملكين.

روى أبو داود وأبو عبد الله الحاكم عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال :

(اسْتَغْفِروا لأخيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَثْبيتَ، فَإنَه الآنَ يُسْأَلُ) .

وإذا كان الميت امرأة، فقد استحب جميع أهل العلم من أيام الصحابة رضى الله عنهم إلى يومنا هذا أن يغطى الضريح بثوب ساتر للضريح عند إنزالها فيه.

وتكره التغطية إذا كان الميت رجلا .

والمرأة يدخلها فى القبر محارمها من أب أو ابن أو أخ، أو عم أو خال أو ابن أخ.(٢)

---

(١) إنما كانت الأربطة خشية من تلقلق أعضاء الميت واضطرابها عند حمله، أما بعد وضعه فى القبر فقد زالت خشية ذلك.

(٢) محارم المرأة هم الذين يحرم عليهم أن يتزوجوها.

فإن لم توجد المحارم فالزوج ، فإن لم يوجد لها محرم ولا زوج، فيتولى ذلك الرجال الكبار السن، إذا كانوا قادرين على ذلك، وإلا فأهل الفضل والخشية لله.

ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دفن ابنته أم كلثوم

روى البخارى وأحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : شهدنا ابنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على القبر فرأيت عينيه تدمعان، ثم قال :

(هَلْ مِنْكُمْ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يُقَارِف (١) اللَّيْلَةَ؟)

فقال أبو طلحة : أنا يا رسول الله ، قال صلى الله عليه وسلم :

(فانْزِلْ) .

فنزل فى قبرها.

وروى أحمد عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ منها خلَقْنَاكُمْ وَفيها نُعيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجكُمْ تَارةً أُخْرَى﴾ (٢) فلما بنى عليها لحدها طفق يطرح لهم الجبوب. (٣) ويقول : (سدوا خلل اللبن) ثم قال : أما إن هذا ليس بشىء (٤) ولكنه يطيب بنفس الحى) .

وما كان منه عند دفنه لذى البجادين

كان عبد الله ذو البجادين ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه، ويضيقون عليه حتى تركوه فى بجاد - وهو الكساء الغليظ - ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان قريبا منه شق بجاده باثنين ، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : (ذو البجادين) .

ولما مات فى (تبوك) شيعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فى ظلام الليل، وفى يد بعضهم مشعل يسيرون فى ضوئه، وقد حفروا له ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، فلما هيأه لشقه قال:

(اللَّهمَّ إِنى أَمْسَيتُ رَاضيا عَنْهُ فَارضَ عَنْهُ) .

قال عبد الله بن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة.

---

(١) لم يجامع، وقد جاء فى رواية أخرى (لم يقارف أهله) .

(٢) سورة طه الآية ٥٥ .

(٣) هى جمع جبوبة وهى الحجرة .

(٤) يعنى ليس ضروريا للميت .

كيف يدفن أكثر من واحد فى قبر واحد ؟

فى بعض الأحوال يتعدد الأموات، فيضطر إلى دفن أكثر من واحد فى قبر واحد يتسع لهم جميعا، وفى هذه الحال ينبغى أن يوضع الرجل من جهة القبلة والمرأة خلفه والصبى خلفها، فإن كان الأموات رجالا فقط أو نساء فقط فيوضع من جهة القبلة من كان منهم أكثر حفظا للقرآن، والآخر وراءه كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أوقات الدفن

روى أحمد ومسلم عن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه أنه قال : ثلاث ساعات كان ينهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى فيها، أو أن نقبر فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تضيف للغروب حتى تغرب . يعنى حين تجنح للغروب.

وروى مسلم عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب يوما فذكر رجلا من أصحابه قبض فكفن فى كفن غير طائل، وقبر ليلا، فزجر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقبر الرجل بالليل حتى يصلى عليه، إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك.

قال النووى لأن الدفن نهارا يحضره كثير من الناس فيصلون عليه، ولايحضره فى الليل إلا أفراد قليلون.

بقاء المشيعين تأنيسا للميت

استحب كثير من علماء الإسلام أن يبقى المشيعون حتى يفرغ من دفن الميت كما استحبوا انتظارهم بعد الدفن قدر ساعة لحديث عمرو بن العاص رضى الله عنه إذْ قال إذا واريتمونى فاقعدوا عند قبرى قدر ما تنحر جزور [١] ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأعلم ماذا أراجع رسل ربى.

تجهيز الميت ودفنه واجب المسلمين

اتفق علماء الأمة على أن تجهيز الميت ودفنه فرض كفاية على المسلمين يكفى أن يقوم بذلك بعضهم، وإلا أثم كل من علموا موته إذا لم يقوموا بذلك وهم قادرون عليه.

روى عبد الرازق فى الجامع أنه ذكر لعمر بن الخطاب أن امرأة توفيت فى البيداء، فجعل الناس يمرون عليها ولا يدفنونها، حتى مر عليها كليب بن بكر الليثى فدفنها.

---

(١) ناقة.

فقال عـمر : إنى لأرجو لكليب بها خيراً، ثم سـأل عنها ابنه عبد الله فقـال عبد الله لم أرها.

فقال عمر : لو رأيتها ولم تدفنها لجعلتُك نكالاً .

وفى رواية للبيهقى : ثم قام عمر بين ظهرانى الناس فتغيظ عليهم فيها. [1]

تاسعا: محذورات القبور

أ - نقل الميت قبل الدفن وبعده:

إن نقل الميت قبل دفنه ، منه ما هو جائز، ومنه ما هو ممنوع.

فـإذا مات الإنسـان فى مكان وأريد نقله ليـدفن فى مكان آخـر، وكـان نقله لمقصـد صالح، فإن ذلك النقل جائز.

روى مالك فى الموطأ أنه سمع غير واحد يقول : إن سعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد رضى الله عنهما ماتا بالعقيق فحملا إلى المدينة ودفنا بها.

وهذا إذا لم يكن الميت شهـيدا، أما (شهيـد المعركة) فلا يدفن إلا فى مـصرعه، لأن فى دفنه بمصرعه مـزية لا يعلمها إلا الله، وقد روى ابن ماجـه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بقـتلى أحد أن يردوا إلى مـصارعهم،قـال ذلك لما شرع أقرباء الشـهداء فى نقلهم إثر استشهادهم.

وروى أحمد عن جـابر بن عبد الله رضى الله عنهمـا أنه قال: استشـهد أبى بأُحد، فـأرسلتنى أخواتى إليـه بناضح [2]لهن ، فقلن اذهب فـاحتمـل أباك على هذا الجمل، فادفنه فى مقبرة بنى سلمة، فجـئته وأعوان لى، فبلغ ذلك نبى الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس بأُحد فدعانى وقال :

(وَالذِى نَفْسِى بِيَدِه لاَ يُدفَنُ إلاَّ مَعَ إِخْوَتِه) .

فدفنَ مع أصحَابه بأحد .

أما نقل الميت بعـد دفنه فلا يجوز، لأن للميت حـرمة تمنع من إخراجه مـن قبره، إلا فى حالة واحدة وهى ما إذا لم يفعل به ما يستحقه الميت المسلم من غسل وحنوط وكفن وصلاة.

روى سعيـد بن منصور عن شريح بن عبيـد الحضرمى أن رجالا قبروا صـاحبا لهم لم يغسلوه، ولم يجدوا له كفنا، ثم لقوا معـاذ بن جبل رضى الله عنه فأخبروه، فأمرهم

---

(١) فتاوى وأقضية عمر لمحمد الهلاوى ص ٧٥ .

(٢) الناضح هو البعير الذى يحمل الماء لسقى الزرع.

أن يخرجوه من قبره، فأخرجوه، ثم غسل وكفن وحنط ثم صُلّى عليه .

فإن دفن من غير صلاة عليه، صلوا على قبره، ولا يخرجونه.

ومما ينبغى أن يعلم هو أن ما يجوز من النقل قبل الدفن أو الإخراج من القبر مشروط بأن لا يتعرض الميت إلى التغيير، وبأن لا يلحقه فساد فى ذلك وإلا فيحرم نقله وإخراجه.

وذكر ابن قتيبة فى (المعارف) أن طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة رضى الله عنهم دفن فرأته ابنته عائشة بعد وفاته بثلاثين سنة فى المنام فشكا إليها النز،[1] فأمرت به فاستخرج طريا، فدفن فى داره بالبصرة.

وقال غير ابن قتيبة قال راوى القصة: كأنى أنظر إلى الكافور فى عينيه ولم يتغير إلا عقيصته [2] مالت عن موضعها، واخضر شقه الذى يلى النز رضى الله عنه.

إن عدم تغير طلحة بعد ثلاثين سنة من دفنه قلما يحدث ذلك لغيره، وإنما تلك إحدى الفضائل التى كرمه الله بها رضى الله عنه.

ب- اتخاذ القبور مساجد:

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضى الله عنهما ذكرتا كنيسة رأينها [3] بالحبشة فيها تصاوير (ذكرنها) لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسجِداً وَصَوَّروا فيه تلك الصُّوَرَ ، أُولَئك شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ القِيَامَة) .

وروى مسلم عَن عَائشَةَ وَعبدَ الله بنَ عباسَ أنهَما قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة على وجهه [4] فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال - وهو كذلك -:

(لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائهِمْ مَسَاجِدَ) يحذر مثل ما صنعوا.

وروى مسلم أيضا عن جندب رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول :

---

(١) تسرب رشح الماء .

(٢) العقيصة شعر الرأس المضفور .

(٣) ورد بنون الجمع باعتبار أن غيرهما رأت ذلك أيضا .

(٤) الخميصة كساء له أعلام .

(إنى أبرأُ إلَى اللَّه أن يكُونَ لِى منكُمْ خَلِيلٌ، فإن الله قَد اتّخَذَنى خَليلاً كما اتَّخذَ إبرَاهيمَ خَليلا، ولَو كُنْتُ مُتَّخذاً مِنْ أمَتي خَليلا لاَتَّخذتُ أبَا بكر خَليلاً ألاَ وإنَ منْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخذُونَ قُبُورَ أنبيَائهمْ وَصَالحيهمْ مَسَاجِدَ، فَلاَ تتخذواُ القُبُورَ مَسَاجدَ إِنِى أنهاكُمْ عَنْ ذَلكَ) .

وروى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(اللهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِى وثَنًا، لَعَنَ الله قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُور أنبيائهمْ مَسَاجِدَ) .

وروى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال

(لاَ تُصَلُّوا إِلَى قَبْرٍ، ولاَ تُصلوا عَلَى قَبْرٍ) (١)

وذكر النووى أن العلماء قالوا، إنما نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا خوفا من المبالغة فى تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى للكثير من الأمم الخالية.

وقال الشيخ البناء رحمه الله فى (الفتح الربانى) كان اليهود والنصارى يسجدون لقبورالأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون إليها فى الصلاة فاتخذوها أوثانا، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ألا يكون قبره كذلك، ولعن من فعله، وحذر منه سدا للذريعة المؤدية إلى فعله.

وقال : الأصل فى عبادة الأوثان تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، ومسحها والصلاة عندها، كما يستفاد من حديث ابن عباس وغيره عند البخارى وغيره: (إن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً) التى اتخذها قوم نوح أصناما كانت أسماء رجال صالحين اتخذ الناس لهم صوراً بعد موتهم ليستأنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أحوالهم الصالحة ليجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فاعبدوها ، فعبدوها.

---

(١) اتخاذ المساجد على القبور حرام، وكذلك الصلاة عليها، وذهب بعض المالكية إلى أن الصلاة فى المقبرة مكروهة إذا كانت مأمونة النجاسة بحيث لم يكن ترابهامختلطا برميم الأموات، وإلاحُرمت الصلاة فيها، ولكن الجماهير من علماء الإسلام ذهبوا إلى تحريم الصلاة فيها مطلقا.

ج- الجلوس على القبر:

نهى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم عن الجلوس على القبـر، فقـد روى أحمـد ومسلم وأبو داود وغيـرهـم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(لأن يَجْلسَ أَحَدُكُمْ على جَمْرَة فتحرق ثِيَابَهَ حتى تُفضىَ إلى جِلْدِهِ خير له مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبر. (وفى لفظ) خَيْرٌ لَهُ مِنْ أن يطأَ عَلَى قَبْر رَجُلٍ مَسْلِمٍ) .

وروى أحمد عن أبى مرثد الغنوى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لاَتَجْلِسُوا عَلَى القُبُورِ وَلاَ تُصَلوا عَلَيْهَا) .

وقـد اخـتلف العلـمـاء فى المراد بالجلوس المنهى عنـه، فـذهب مـالك إلى أن المراد بالجلوس المنهى عنه هو الجلوس للبـول والغائط وذلك محـرم، وأما الجلوس لغيـرهـما فلا كراهة فيه.

وذهب أبو حنيفة وأحمد والشافعى إلى أن الجلوس لقـضاء الحاجة محرم، ولغيرها مكروه كراهة تنزيه.

وذهب ابن حزم إلى تحريم الجلوس مطلقا.

د- كسر عظام الموتى:

الحفـارون للقبور لإعـدادها لمن مات قـد لا يتحرون عند الحـفر، فـيكسرون بعض عظام الأموات السابقين وذلك حرام، وفاعله آثم.

فقـد روى أبو داود وابن ماجه عن عـائشة رضى الله عنها أن النبـى صلى الله عليه وسلم قال :

(إِن كَسْرَ عَظْمِ المُسلِمِ مَيْتا كَكَسْرِهِ حَياً) .

والمراد أنهما سواء فى الإثم، لا فى القصاص.

وذكر الإمام السـيوطى سبب هذا الحديث فى (درجـات الصعود) فقـال : قال جابر رضى الله عنه : خـرجنا مع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فى جنازة فـجلس النبى صلى الله عليه وسـلم على شفير الـقبر وجلسنا مـعه، فأخرج الحـفار عظما : سـاقا أو عضداً، فذهب ليكسره فقال صلى الله عليه وسلم :

(لاَ تَكْسِرهُ، فإن كَسْرَكَ إِيّاهُ مَيْتًا كَكَسرِكَ إِياهُ حيّا، وَلَكِنْ دُسَّهُ بِجَانِبِ القَبرِ) .

قال أبو عبد الله محمد بن سهل الصوفي: رث عليّ النوال [1]

فنزلت إلى حفرة بالقرب من النوال أحفر فيها ترابا أصلحه به، إذ أصابت المسحاة عظم ساق ميت فكسرته اثنتين فداخلني هم شديد، فتركت العمل وانصرفت حزينا، وكانت ليلة شاتية، فأدخلت تحت عباءتي كانوناً، وبقيت مفكرا إذ غفوت فإذا بامرأة كأنها أجمل من رأيت من النساء وأحسنهن فقالت لي :

يا هذا ما كفاك أن سكنت بين أظهرنا وآذيتنا بالنجاسات والتكشف حتى كسرت ساقي، لي معك موقف بين يدي الله عز وجل.

قال أبو عبد الله : فاستيقظت وأنا مذعور، فهدمت النوال، ومحوت أثره، وأنا خائف من قولها حتى ألقى الله عز وجل. [2]

هـ - دفن الكتابية الحامل من مسلم :

روى البيهقي والدارقطني أن امرأة نصرانية ماتت وفي بطنها ولد من مسلم، فأمر عمر رضي الله عنه أن تدفن مع المسلمين من أجل ولدها.

قال السبكي في الدين الخالص:

لو ماتت نصرانية حامل من مسلم دفنت في قبر وحدها وظهرها إلى القبلة على جانبها الأيسر- على المختار عند أحمد - ليكون وجه الجنين إلى القبلة على جانبه الأيمن ، لأن وجهه إلى ظهرها، وهي كافرة، فلا تدفن في مقابر المسلمين ، وولدها محكوم بإسلامه، فلا يدفن في مقابر الكفار . [3]

وقال ابن حزم في المحلى :

من تزوج امرأة كافرة فحملت منه وهو مسلم: وماتت حاملا ، فإن كانت قبل أربعة أشهر لم ينفخ فيه الروح بعد، دفنت مع أهل دينها، وإن كان بعد أربعة أشهر والروح قد نفخت فيه، دفنت في طرف مقبرة المسلمين، لأن عمل أهل الإسلام من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يدفن مسلم مع مشرك.

---

(١) النوال هو غرفة في المسكن يكون جزء منها محجورا لقضاء الحاجة.

(٢) رياض النفوس ج٢ ص ٣٠٥ .

(٣) فتاوى وأقضية عمر ص ٧٨

وقال : الحمل ما لم ينفخ فيه الروح فإنما هو بعض جسم أمه، ومن حشوة بطنها، وهى مدفونة مع المشركين، فإذا نفخ فيه الروح فهو خلق آخر.(١)

و- فتح الأبواب على المقبرة:

سئل أبان بن عيسى بن دينار القرطبى عمن له غرفة، وأراد أن يفتح لها بابا على مقبرة.

فقال : لا يجوز أن يفتحه على مقبرة المسلمين . (٢)

عاشرا زيارة المقابر

فى زيارة المقابر خير كثير للأحياء وللأموات.

أما الخير الذى يجتنيه الأحياء فهو ما تضمنته الأحاديث التالية:

روى أبو عبد الله الحاكم عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :(كُنْتُ نَهَيتُكُمْ عَنْ زِيَارَةَ القُبُور، ألاَ فَزُورُوهَا، فإِنَّهَا تُرِقُّ القَلبَ، وتُدْمِع العَيْنَ، وتُذَكِّرُ الآخِرَةَ، ولاَ تَقُولُوا هُجْراً) . (٣)

وروى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةَ القُبُورِ، فَزُورُوا القُبُورَ، فَإِنَّهَا تُزهِّدُ فِى الدُنْيَا وتُذَكِّرُ الآخِرَةَ).

وروى الطبرانى فى المعجم الكبير عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارةِ القُبُورِ، فَزُورُوهَا ، فإِن لَكُمْ فِيها عِبْرةً) .

وروى أبو عبد الله الحاكم عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارةَ القُبُورِ، فَزُورُوهَا ، فإِنَّهَا تُذَكِّرُكُم المَوتَ) .

إن هذه الأحاديث تفيدنا عدة حقائق:

- الحقيقة الأولى هى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور فى

---

(١) المحلى ج٥ ص ٢١١ .

(٢) ترتيب المدارك ج٤ ص ٢٦٠ .

(٣) يقال : أهجر فى الكلام إذا أفحش فيه، وكذلك إذا أكثر الكلام فيما لا ينبغى .

أول الإسلام، ثم دعا إليها فى آخر الأمر، وهو ما استقر عليه الحكم الشرعى .

- الحقيقة الثانية هى أن زيارة القبور توقظ الزائر لها من غفلاته، وتنبهه إلى تقدير قيمة أوقاته، فيصرفها فى العمل الصالح فيما بقى من حياته، كما قال سليمان الباجى الأندلسى :

إذا كُنْتُ أَعْلَمُ علمًا يَقينًا بأن جَميعَ حَيَاتى كَسَاعه
فَلِمْ لاَ أَكُونُ شَحيحًا بِهَا وأَصرفُهَا فِى صَلاَحٍ وَطَاعه

- الحقيقة الثالثة هى أن تلك النتائج وغيرها لا تثمرها أى زيارة إذا كان فكر الزائر لا يجول إلا فى ظواهر القبور، ولا ينفذ إلى ما فى بواطنها من حقائق يغفل عنها الزائرون، ومن الخير للزائر أن يفكر فى أحوال الموتى، وما كانوا عليه فى الدنيا، فإن منهم الحاكم والمحكوم ، ومنهم الظالم والمظلوم، ومنهم الفاجر والتقى، ومنهم الفقير والغنى، ومنهم من استراح الخلق من شره، ومنهم من فقد الناس نفحات خيره، إلى آخر ما يموج به بحر الحياة الذى يصطرع فيه الناس قبل أن تصرعهم الوفاة.

كما أن على الزائر أن يفكر فى ما صار إليه أمرهم الآن، فكم فيهم من هو بندمه مغموم، ومن هو مما لاقى مكروب ومهموم، وكم فيهم من يتقلب فى العذاب الأليم، ومن هو مستمتع برؤية مقعده فى جنات النعيم، فهذا فتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها، وذاك فُتح له باب إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها ، وكم فيهم من ميت فُزع من عمله لما تمثل له عند نزوله فى القبر، وكم من ميت يروح ويغدو مع إخوانه فى حواصل طير خضر إلى آخر تلك الحقائق المفضية إلى إدراك عظمة رب قامت بقدرته الموجودات على ما لا يحصى من تنوع أفرادها، وتفاوت أبعادها، (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون)(١)

إن هذه الخواطر وأشباهها لها فى نفس الزائر أطيب الثمرات، ولكنها لا تغنى عنه شيئا إذا صدر منه للأموات فعل يؤذيهم أو قول يسيء إليهم، كما نسبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فى قوله:

(فَزُورُوهَا وَلاَ تَقُولُوا هُجْراً) .

---

(١) سورة الروم الآية ٢٥ .

وفيما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
(لاَ تَسبُّوا الأَمْواتَ فَإنَّهُمْ أَفْضَوْا إلى مَا قَدَّمُوا) .
وفيما رواه الديملى عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال :
(إنّ المَيْتَ يُؤذِيه فِى قَبْره مَا يُؤذِيه فِى بَيته) .
وفيما رواه أبو داود عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال :
(اذْكُرُوا مَحاسِن مَوْتَاكُمْ وَكُفُوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ) .
أما الخيرات التى ينالها الأموات من زيارة الأحياء فقد كشفت الآثار عن شىء منها، كاغتباطهم بزيارة الأحياء،وأنسهم بالزائر، وفرحهم بالسلام عليهم، وارتياحهم إلى الدعاء والاستغفار لهم.
فمن تلك الآثار ما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
(مَا مِنْ رَجَل يَزُورُ قَبْرَ أخيه ويَجْلس عِندَه إلا استأنَس ورَد عَلَيه حَتى يَقُوم).
وأورد السيوطى فى شرح الصدور من (الأربعين حديثا الطائية) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(آنَسُ مَا يكُونُ الْمَيْتُ فِى قَبره إذا زَارهَ مَنْ كَانَ يُحبهُ فِى دَارِ الدنْيَا)
وروى البيهقى فى شعب الإيمان أن ابن عمر رضى الله عنهما كان إذا شهد جنازة مر على أهله فى المقابر فدعا لهم واستغفر لهم.
وروى ابن عبد البر فى التمهيد عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال:
(مَا مِنْ أحَدٍ يَمُرّ بِقَبْرِ أخِيه الْمؤمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِى الدنيا فَيُسلِّم عَلَيه إلاَّ عرفَهُ وَرَدَ عَلَيه السَلاَمَ).
وروى البيهقى فى شعب الإيمان أيضا عن محمد بن واسع أنه قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده.
وروى البيهقى عن سفيان بن عيينة رضى الله عنه أنه قال : لما مات أبى جزعت جزعا شديداً، فكنت آتى قبره فى كل يوم، ثم إنى قصرت عن ذلك فرأيته فى النوم، فقال : يا بنى ما أبطأ بك عنى؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال ما جئت مرة إلا

علمتـها، وقد كنت تأتينى فـأسر بك، ،ويسر من حـولى بدعائك قال : فكنت آتيـه بعد ذلك كثيرا .

ونقل السيوطى فى (شرح الصدور) عن السلفى أنه قال : سـمعت أبا البركات عبد الواحد بن عـبد الرحمن بن غـلاب بالإسكندرية يقول : سمـعت والدتى تقول : رأيت أمى فى المنام بعد موتها وهى تقـول : يا بنيتى إذا جئتنى زائرة فاقعدى عند قـبرى ساعة أتملى من النظر إليك، ثم ترحـمى علىَّ ، فإنك إذا ترحـمت على صارت الرحـمة بينى وبينك كالحجاب ثم شغلتنى عنك. (١)

وروى البيـهقى بسنده إلى هاشم بن محـمد أنه قال: سمـعت رجلا من أهل العلم يقول : إنه كـان يزور قبر أبيـه فطال عليه ذلك فـقلت أزور التراب؟ فأريتـه فى منـامى فقال : يا بنى مالك لا تـفعل كما كنت تفعل؟ فقلت أزور التـراب ؟ فقال : لا تفعل يا بنى ، فوالله لقد كنت تشرف على فيبشـرنى بك جيرانى ، ولقد كنت تنصرف فما أزال أراك حتى تدخل الكوفة. (٢)

وروى الحافظ بن رجب بسنده إلى الأسد بن موسى أنه قال : كان لى صديق فمات فـرأيته فى الـنوم وهو يقول سـبحان اللـه جئت إلى قـبـر فلان صـديقك قـرأت عنده وترحمت عليه، وأنا ما جئت إلىّ ولا قربت. قلت : وما يدريك؟ قال: لما جئت إلى قبر صديقك فلان رأيتك ، قلت: وكيف رأيتنى والتـراب عليك؟ قال أما رأيت إذا كان فى الزجاج مايتبين. قلت: بلى قال: فكذلك نحن نرى من يزورنا .(٣)

أما ما يحسن من الدعاء للأموات فقد روى النسائى وابن ماجه عن بريدة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الـله عليه وسلم كان يعلمـهم إذا خرجوا إلى المقـابر : السلام عليكم أهل الديار من المسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحـقون، أنتم لنا فَرَطٌ ونحن لكم تبع ، أسأل الله لنا ولكم العافية.

كمـا روى مسـلم عـن عـائشـة رضـى الله عـنها أنــهـا قالت : قلت كـيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال :

(قـولى : السـلام عَلَى أَهل الديَار مـنَ المـسلمـينَ، وَيَرحَمُ الله المُسْـتَـقْـدمـينَ منَّا وَالْمسْتأخرِينَ، وَإنَّا إن شَاءَ الله بكُمْ لاَحَقُونَ).

وروى الطبـرانى عن على بن أبى طَالـب أنه دنا من القبـور فقال : السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنيـن والمسلمين، أنتم لـنا سلف فارط، ونحن لكـم تبع عمـا قليل لاحق، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم .

(١-٢-٣) من شرح الصدور ص ٩٥ .

إن زيارة المقابر مـأمور بها بالنـسبة إلى الرجـال على ما تقدم من أحـاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما زيارة النساء لها فإن كانت للاعتبار فقد اختلف فيها العلماء .

مدافن الموتى فى عقائد البشر

إن مناهج البشر فيما يصنعون بالموتى قـد اختلفت من شعب إلى آخر فيما تبين من أعمـاق التاريخ البعيـد، ولـم يكن كثيـر من تلك المناهج مما شرع الله أن يعمله الأحـياء بأجساد الأموات، وإنما كانت مبنية علـى ما تتوهمه بعض الشعوب من أحوال الأرواح بعد مفارقتها للأجساد.

وإليك بعض المناهج المتبعة من غير ما شرع الله.

يقول الأستاذ ت . ايريك بيث:

إن قدماء المصريين كانت ديانتهم مجموعة من الخرافات والأساطير وكان النظر فى كنه الوجـود أو الحـياة أو الموت أو الأخـلاق غـريبا كل الغـرابة عليـهم، ولا يلتـئم مع طبائعهم، فقد كانوا قوما محافظين أشد المحافظة لا ينزلون عن شيء من أفكارهـم مهما يكن تافهـا، وفى مقـدورهم أن يؤمنوا بعقـيدتين مخـتلفتـين فى آن واحد. من غـير أن يفطنوا إلى ما فيهما من خلاف. (١)

وكان المألوف فى قبور عظمـاء المصريين أن توضع فيها تماثيل صغيـرة لخدمتهم، إذ كانوا يعتقدون أن أرواح الخدم تخدم سيدها فيما بعد هذه الحياة. (٢)

وكان الموتى يزوَّدون بطائفة كـبيرة من التعاويذ السحرية التى تكـتب فوق توابيتهم، ثم كـانت بعد ذلك تـكتب فوق نعـوشـهم، أو على ورق من البـردى، وذلك ليتـغلب الموتى على كافة المهالك التى يمكن أن يتعرض لها حتى الأخيار منهم فى الآخرة أو فى طريقهم إليها. (٣)

ويقول ف. جوردن تشايلد الأستاذ بجامعة أدنبره :

كان الناس جـميعهم يعـملون على إعداد منزل للميت. وأن يزودوا الراحل بمتـاعه

---

(١) الفصل السابع عشر من (تاريخ العالم) بقلم ت. ايريك بيث الأستاذ بجامعة أدنبره ج ١ ص ٥٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٩١ .

الشخصى والطعام والشراب، وكان يظن أن الروح تحيا حياة ناقصة فى عالم تحت الأرض ، وأنها ربما صارت مصدر خطر.

وكانت تقام الطقوس لالتماس خيرها، ودفع غضبها، وكانت الأرض أو الغطاء الحجرى بمثابة حاجز يفصلها عن الأحياء، وفى العصر البرنزى كانت تقيد سيقان الجثث فى بعض الأحيان زيادة فى الاحتياط.

وحتى فى العصر الحجرى كان يحرق الجسد أحيانا، والأرجح أن ذلك كان لمنع عودة الروح الشريرة منعا تاما.

كما كانت تحرق أو تشوه فى العصور الوسطى أجساد من كانوا يظنونهم من مصاصى الدماء.

ثم حدث فجأة فى ١٥٠٠ قبل الميلاد أن أصبح حرق الأجساد عادة متبعة فى أكثر نواحى أوروبا الوسطى والشمالية، وفى إيطاليا وبريطانيا وذلك بدون أن تهمل مراسم دفن الموتى إهمالا تاما.

وقد كان حرق الجسد فى ذلك الوقت - على ما يلوح - قد أصبح متصلا بتصور جديد للروح، مقتضاه أنها تقيم بعد الموت فى قصر سماوى بعيد تصعد إليه مع دخان الحطب المحروق مع الجثة. (١)

أما فى الهند فهناك تقليد غابر، وبمقتضاه تلحق أرملة الميت بزوجها فى محرقة الجنازة فتحرق حية وقد كانت الزوجة فى تلك الحضارة القديمة تعتبر إحدى مقتنيات زوجها المألوفة التى ترافقه إلى العالم الآخر.

وربما كان يفترض أيضا أن الحياة للزوجة قد لا تطاق من بعده. (٢)

والهندوس يعتقدون أن الروح بعد الموت يدخل فى جسد آخر، ويكون الجسد الجديد إما من عالم سماوى أعلى ، وإما من عالم أرضى أسفل، وذلك حسب العمل الذى قام به الروح فى كل مرحلة، وهكذا يستمر تناسخ الأرواح فى تسلسل متواصل حسب اعتقادهم.

أما أجسام الموتى فهى - عندهم - لا قيمة لها ولا يدفنونها فى التراب، وإنما يحرقونها حرقا حتى تصير رمادا.

---

(١) نشأة الثقافة فى أوروبا الهمجية (الفصل الثلاثون) من تاريخ العالم ج٢ ص ٢٠٦ .

(٢) الموت والأسى من الموسوعة العلمية (بهجة المعرفة) المجموعة الثانية ص ٧٧ .

ولما حرقت جثة بوذا أعطى بعض رماد الجنازة لقبيلتـه، وقد حفظتها القبيلة فى مزار عظيم ما يزال قائم الذات فى (سانكلى). (١)

أما الصينيون فهم من الشعـوب الذين يدفنون موتاهم فى التراب وكان قدماؤهم لا يعتـقدون بخلود الأرواح، وإنما يذهبون إلى أن الأرواح تتـحول إلى تراب كما يتـحول الجسم إلى تراب.

وتحت تأثير البوذية طور الصينيون بعض تصوراتهم لما بعد هذه الحياة.

كما أن أتباع (كونفوشيوس) تطورت نظرتهم إلى مصائر الأرواح.

ومع أن من تعـاليم (كـونفوشـيوس) تـقديس أرواح الجـدود، فقـد كـان يتحـاشى الحديث عن مـصائر أرواح الموتى، ويسـتمسك بأن من الحكـمة أن يقدر الإنسـان مدى جهله، إذ كيف يـستطيع الإنسان أن يعرف شيـئا عن السماء على حـين أنه من الصعب عليه أن يعرف ما يحدث فى الأرض ؟

وكان يرفض الإجابة عن الأسئلة التى توجه إليه عن الحياة بعد الموت .

ومن أقـواله : إذا قلت لكم أن الموتى يعون ويشـعرون فـإن الأبناء الذين يحبـونهم سيقضون على أنفسهم لكى يجتمعوا بأبائهم الموتى).

وإذا قلت لكم : انهم لا يعون ولا يشعرون فإن الأبناء العـاصين سوف لا يقدمون على دفن موتاهم. (٢)

أضواء الإسلام الكاشفة عن شعور الموتى وسماعهم الخطاب:

إن المسلمين يعلمون أن الموتى يشعرون، ويسمعون من يخاطبهم وقد علم المسلمون ذلك من رسول الله صلى الـله عليه وسلم الذى ﴿ما ينطق عـن الهوى إن هو إلا وحى يوحى﴾(٣)

فقد روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يُلقِى جثث المشركين فى قليب بدر جعل يقول :

(هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُكمْ حَقّاً).

قال عبد الله بن مسعود: فقال ناس من أصحابه : يا رسول الله تنادى ناسا أمواتا

---

(١) الفصل الأربعون من تاريخ العالم بقلم أ. بريديل كيث الأستاذ بجامعة أدنبره ج٢ ص ٥٣٣ .

(٢) الفصل الأربعون من (تاريخ العالم) بقلم أ. بريديل كيث الأستاذ بجامعة أدنبره ج٢ ص ٥٤٧ .

(٣) سورة والنجم . آية ٣ - ٤

قال صلى الله عليه وسلم : (مَا أَنْتُمْ بأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنهم).

وروى مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال:

(يَا أَبَا جَهْلِ بن هشَام، يَا أمَيَّةُ بن خَلَف، يَا عُتْبَة بن ربيعةَ يا شَيْبَةُ بن رَبِيعَة، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حقًا؟ فَإنّى قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِى رَبِّى حقًا).

فسمع عمر رضى الله عنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا، وأنى يجيبوا، وقد جيفوا؟

قال صلى الله عليه وسلم: (وَالذِى نَفْسى بِيَدِه مَا أَنْتُم بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ولَكنَّهمْ لاَ يَقْدِرون أن يجيبُوا).

ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر.

كما روى مسلم أيضا عن أبى طلحة بمثل ما روى أنس بن مالك.

وروى احمد فى مسنده بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القليب يوم بدر فقال : يا فلان، يا فلانُ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ أما والله إنهم الآن يسمعون كلامى .

وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور أهل المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال:

(السلام عليكم يَا أَهْلَ القُبُور، يَغْفِرُ الله لَنَا وَلَكُم، أَنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحْنُ بالأثرِ)

وروى أحمد والطبرانى فى الأوسط عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(إن الَمَيِّتَ يَعْرِفُ مَنْ يغسلهُ وَيَحْمِلُهُ وَيُكفنُهُ وَمن يدلّيه فى قبره).

وروى ابن عبد البر فى كل من التمهيد والاستذكار عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيه المُؤمنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِى الدُّنْيَا فَيُسلّمُ عليه إلاَ عَرَفَهُ ورد عليه السلام).

وروى ابن أبى شيبة أن عبد الله بن عمر كان لا يمر بليل ولا نهار بقبر إلا سلم عليه.

وروى أحمد وأبو عبد الله الحاكم عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت:

كنت أدخل البيت فأضع ثوبي وأقول إنما هو أبي وزوجي، فلما دفن عمر معهم ما دخلته إلا وأنا مشدودة على ثيابي حياء من عمر.

ومما ورد في شعور الميت، وفي توصيته - وهو ميت - بتنفيذ بعض ما يريد ما رواه ابن حبان في كتاب الوصايا، وأبو عبد الله الحاكم في المستدرك والبيهقي في دلائل النبوة عن عطاء الخراساني أنه قال :

(حدثتني ابنة ثابت بن قيس بن شماس أن ثابتا رضي الله عنه قتل يوم اليمامة، وعليه درع نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فأخذها.

فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستن في طوله ، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل فأت خالد بن الوليد (١) فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى عليه وسلم يعني أبا بكر رضي الله عنه فقل إن علي من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقي عتيق وفلان.

فأتى الرجل خالداً فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتي بها، وحدث أبا بكر الصديق برؤياه فأجاز وصيته.

ولا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه).

ومما حدث لبعض أقاربي أن ابن خالتي والد زوجتي رحمه الله كان عضوا في إحدى الشركات بالقيروان وكان عليه مال للشركة، ولما توفاه الله جاء أحد أعضاء الشركة إلى زوجته يطلب منها ذلك المال وكان مقداره ذا أهمية، فقالت المرأة: إني على علم بالمال، كما أني على علم بأن زوجي قد أدى ما عليه للشركة وتسلم وثائق تثبت دفعه لأقساط ذلك المال.

قال الرجل هات تلك الوثائق.

فما كان من المرأة إلا أن أخذت تبحث في ما خلف الميت من أوراق فلم تعثر على أي أثر للوثائق مع أنها متأكدة من رؤية تلك الوثائق قبل وفاة زوجها.

بكت المرأة كثيرا، وجزعت من أنها ستغرم ذلك المال من تركته فألهمها الله أن تزور القاضي الشرعي بالقيروان في منزله وهو الشيخ محمد العلاني رحمه الله

---

(١) كان خالد رضي الله عنه قائد معركة اليمامة وهي التي قضى فيها على مدعي النبوة مسيلمة الكذاب واستشهد فيها كثير من حفاظ القرآن.

الموصـوف لدى أهل القـيروان بقـاضى الجنة، وعرضت عليـه أطوار الحادثـة فقال لـها -رحمه الله- :

زورى قبـره صبـاح يوم السبت قـبل شروق الشـمس، وقصى عـليه كل مـا حدث وانتظرى .

فعلت المرأة ما أشار به الشيخ القاضى فرأت زوجها فى المنام يقول لها :

الوثائق فى البـيت، وضـعتـهـا فوق الدولاب فـتسللت وسـقطت خلف الدولاب وستجدينها بين الحائط والدولاب.

فاسـتيقظت المرأة من نومـها، وأيقظت أخت الميت وقصت علـيها ما رأت ومـا قال أخوها ثم تعـاونت معهـا لزحزحة الدولاب وإبعـاده عن الحائط فسـقطت كل الوثائق وأبرأ الله ذمتها ولله المنة والحمد.

قال ابن القيم قد شرع رسول اللـه صلى الله عليه وسلم لأمته أن يسلموا على أهل القبور سلام من يخاطبون من يسمع ويعقل.

وقال رحمه الله :

الأحاديث والآثار تدل على أن الزائر متى جـاء علم به المزور، وسمع كلامه، وأنس به ورد سلامه عليه.

وقال الشيخ محمد حسنين مخلوف رحمه الله :

اعلم أن للأرواح فى عالم البرزخ مع أبدانها نشأة أخرى غير هذه النشأة المحسوسة، فـقد ورد أن الروح قـد تكون فى الرفيق الأعلى فى أعـلى عليين ولهـا اتصال بالبـدن، بحيث إذا سلم المسلم على الميت رُدَّ عليه روحـه، فترد على المسلم السلام وهى فى الملأ الأعلى أو تحضر إلى القـبر إما بذاتها أو بمثالهـا أسرع من البرق والضوء حسـبما يؤذن لها.

وقـد علمــت أن الـروح فى عـالمهـــا ليســت من جنـس مـا يعـهـد فى عـالم الأجسام بحـيث إذا شغلت مكانا لا يمكن أن تتصل بغيـره على أى نحـو من أنــحاء الاتصـال، بل الروح تكـون فـوق السـمـاوات وتتـصل بأبدانهـا فى القـــبـور وتــرد الســلام، وتعلم بالمسلم، وتسـمع كلامه، ولا يحجـــبهـا حاجـب فى عـــالم الملك أو

عـالـم الملكــوت، كــما ورد بذلــك صــحيح الأخبـار فـيجب الإيمـان به ومعناه مـا علمت.[1]

مشاهد من التعازى

التعزية مـواساة لأقارب الميت، وتذكير لهم بعزة سلطـان الله، وبقدرته المطلقة على التصرف فى ملكه، وترغيبهم فى الصبر للفوز بعظيم الأجر، ولاستحـضار كون البقاء لله وحده، إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2]

ومما قيل فى شأن التعزية:

كُنِ الْمُعَزَّى لا الْمُعَزَّى بِهِ   إذ كـــان لابُـــدّ من الواحد

لابد من فقد ومن فاقد   هيهاتَ ما فى الناس من خالد

والتـعزية من عنـاصر التـراحم والتـلاحم بين المسلمـين، وقد رغـبت السنة فـيهـا، وبشرت المعزين بالثواب الجزيل.

روى الترمـذى وابن ماجه عن عـبد الله بن مـسعود أن النبى صلى اللـه عليه وسلم قال :

(مَن عَزَّى مُصَابًا فَلَهُ مِثلُ أَجْرِهِ).

كما روى ابن ماجه عن عمرو بن حزم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(مَا مِن مؤمن يُعَزى أخاهُ بِمصيبَة إلا كَسَاه الله من حَلَل الكَرَامَة يَوَمَ القيامة).

وقد استحب العلماء أن يعزى جَميع أهل الميت وأقاربه الكبار والصغار من الرجال والنساء، إلا أن تكون المرأة شابة فلا يعزيها إلا محارمـها، وتعزية الضعفاء عن احتمال المصيبة أوكد.

ويبدأ وقت التـعزية عند الموت، وينتـهى بعد ثلاثة أيام، حتى لا يجـدد الحزن لأهل الميت بعـد ثلاثة، إلا إذا كـان المعزِّى أو المُعَـزَّى غـائباً ورجع بعـد الثـلاثة وقد قـيل أن التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة .

ومما ينبغى فى التعزية أن تكون مختصـرة الكلمات، حاثة على الصبر مذكرة بعظيم الأجر والرضـا بقدر الله والتسليم لأمـره، مشتـملة على الدعاء للميت والمصـاب وقد تتضمن - عند الاقتضاء - أن الجزع لا يرد القضاء.

---

(١) من المطالب القدسية فى أحكام الروح وآثارها ص ٩٥ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

وإليك نماذج من تعازى السلف:

أحسن التعازى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها :

(آجَرَكُمُ الله فى مصيبتكُم، وأَعقَبَكُم الله خيراً منها، إنا لله وإنَّا إليه راجعوَن).

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما توفاه الله سمعوا صوتا من جانب البيت يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك، وعوضا من كل فائت فبالله فثقوا وإليه فارجعوا فإن المصاب من حرم الثواب.

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا عزى رجلا قال :

ليس مع العزاء مصيبة، وليس مع الجزع فائدة، الموت أهون ما بعده وأشد ما قبله اذكروا فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم تصغره مصيبتكم وأعظم الله أجركم (١).

وعزى على بن أبى طالب رضى الله عنه الأشعث بن قيس فى ولده فقال:

ان تحزن فقد استُحقت منك الرحم ، وإن تصبر ففى الله خلف من ابنك، إنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور.(٢)

وكان محمد بن سيرين إذا عزى قال :

أعظم الله أجرك، وجبر مصيبتك وأحسن عزاءك عنها، وأعقبك عقبا نافعا لدنياك وأخراك. (٣)

وكان مكحول يقول:

أعظم الله أجرك وأحسن عقباك وغفر لمتوفاك. (٤)

وعزى الإمام الشافعى عبد الرحمن بن مهدى لما مات ولده وجزع عليه جزعا شديدا بعث إليه قائلا:

يا أخى عز نفسك بما تُعزى به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أن آخر المصائب فقد سرور، وحرمان أجر، فكيف إذا اجْتَمَعَا مع اكتساب وزر، فتناول حظك يا أخى إذا قرب منك، قبل أن تطلبه وقد نأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبرا، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً وكتب إليه :

إِنِّى مُعَزِيكَ لاَ أَنِى عَلَى ثِقَةٍ   مِنَ الخُلودِ ولَكِن سُنَّةُ الدِينِ

(١-٢) من حياة الصحابة ج٣ ص ٢٢٠ ومعنى مأزور آثم.

(٣-٤) من مواهب الجليل ج ٢ ص ٢٢٩ .

فَمَا المُعَزَّى بِبَاقٍ بَعْدَ مَيِّتِه   وَلا المُعَزِى وَلَوْ عَاشَا إلى حِينِ (١)

ولما مات ابن لعياض بن عقبة الفهرى يقال له يحيى، قال رجل عندما أنزل يحيى في قبره:

والله إن كان لسيد الجيش فعليك باحتسابه.

فقال عياض: وما يمنعنى أن أحتسبه، وقد كان أمس من زينة الحياة الدنيا وهو اليوم من الباقيات الصالحات. (٢)

ولما احتضر عبد الله ولد الشيخ أبى إسحاق الجبنيانى كان أبوه يلقنه حتى مات فأغمضه، ثم استرجع على المصيبة ودعا له ، ثم قال لوالدة عبد الله:

احمدى الله واشكريه فقد مات عبد الله على الإسلام وجُعل فى صحيفتك فإن كان عندك طيب فتطيبى وتجملى لنعم الله. وأخرج الشيخ مئزرا عنده تجمل به وركع، ثم جلس للناس، والبشر ظاهر عليه. (٣)

واستحسن ابن حبيب أن يقال فى التعزية:

أعظم الله أجرك على مصيبتك، وأحسن عزاءك عنها وعقباك منها، غفر الله لميتك ورحمه، وجعل ما خرج إليه خيرا مما خرج منه. (٤)

وعزى بعضهم رجلا فى زوجته فقال :

إن أحكام الله تعالى لا تجرى على مراد المخلوقين لكنه سبحانه يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم فى العاجلة، وما هو أبقى لهم فى الآجلة.

اختار الله لك - فى قبضها إليه ، وقدومها عليه- ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كفؤا لها.

وكتب بعضهم لصديق يعزيه بابنه قائلا:

أما بعد، فإن الولد على والده - ما عاش - حزن وفتنة، فإذا قدمه فصلاة ورحمة، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته، ولا تضيع ما عوضك الله عز وجل من صلاته ورحمته. (٥)

---

(١) الفتح الربانى ج٨ ص ٩٢ وقوله (سنة الدين) يريد أن التعزية سنة الإسلام.

(٢) رياض النفوس ج٢ ص ١٣٣ .

(٣) ترتيب المدارك ج٦ ص ٢٤٧ .

(٤) مواهب الجليل ج٢ ص ٢٢٩ .

(٥) الفتح الربانى ج٨ص ٩٢ .

ومن ألفاظ التعازى:

لا جرعك الله مصيبة غيرها، ولا أنالك قارعة سواها.

جعل الله مصيبتك أدبا، ولا جعلها غضبا.

لقاك الله الصبر، ووقاك ما يحبط الأجر.

لا أنساك الله المصيبة بأعظم منها، ووهب لك عمراً طويلا، وأجرا جزيلا ، وصبراً جميلاً. (١)

وقال بعضهم:

تأمَلْ إذا الأحزَانُ فيك تكَاثفَتْ ... أعَاشَ رَسُوُل الله أم ضَمَّهُ القَبْرُ؟

الجمع بين التهنئة والتعزية :

لما مات هارون الرشيد دخل الشعراء على ولده الأمين ليعزوه بالرشيد ويهنئوه بالخلافة، وكان أول من فتح الباب للشعراء فى الجمع بين التعزية والتهنئة أبو نواس، بحيث أنشد بين يدى الأمين قوله:

جَرَتْ جوَار بالسَّعْد وَالنَّحْس ... فَالنَّاسُ فى وحْشَة وفى أنسِ

وَالعَيْنُ تَبكى وَالسن ضَاحكةَ ... فَنَحْنُ فى مَأتَم وَفى عُرس

يُضْحِكُها القَائم الأمِين ... ويبكيهَا وَفَاة الرَّشيد بالأمس (٢)

تعزية النفس

ووقفت أعرابية على قبر أبيها فعزت نفسها ودعت له بكلام بليغ قائلة يا أبت إن فى الله عوضا عن فقدك وفى رسول الله أسوة فى مصيبتك. اللهم نزل بك عبدك خاليا، مقفراً من الزاد، محشوش المهاد، غنيا عما فى أيدى العباد، فقير إلى ما فى يدك يا جواد وأنت أى رب خير من نزل به المرملون، واستغنى بفضله المقلون، وولج فى سعة رحمته المذنبون، اللهم فليكن قِرَى عبدك منك رحمتك ، ومهاده جنتك ثم بكت وانصرفت. (٣)

روى أبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إذا أصابَ أحَدَكُمْ مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أَحْتَسبُ مِصيبتى فَآجرنى فيها، وأبدلنى خَيْراً منهَا).

---

(١) محاضرات الادباء ج٤ ص ٥١٤ .

(٢) الكشكول ج٢ ص ٢٤١ .

(٣) الكشكول ج١ ص ٩٤ .

ونظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال :

ما رأيت مثل هذه النضارة : وما ذلك إلا من قلة الحزن.

فقالت : ما حزن كحزني ذبح زوجى شاة، ولى صبيان يلعبان فقال أحدهما للآخر تعال أريك كيف ذبح أبى الشاة، فذبحه ثم خاف فهرب إلى الجبل فرهقه ذئب فافترسه وخرج زوجى فى طلبه فاشتد عليه الحر فمات عطشا.

فقال لها الرجل: كيف صبرت؟

فقالت : لو وجدت فى الحزن دركا ما اخترت عليه .(١)

من تعازى الحمقاء :

أصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة وعنده رسول عبد الملك بن مروان فقال ليت أنى وجدت إنسانا يخفف عنى مصيبتى .

فقال الرجل : أقول ؟

قال الحجاج : قل.

فقال الرجل : كل إنسان يفارق صاحبه يموت أو يصلب أو يقع من فوق البيت، أو يقع البيت عليه، أو يسقط فى بئر أو يغشى عليه ، أو يكون شىء آخر لا يعرفه.

فضحك الحجاج وقال : مصيبتى فى أمير المؤمنين أعظم، حيث وجه بمثلك رسولاً.(٢)

ولما مات ولد صغير لعبد الملك بن مروان جاءه ابنه الوليد فعزاه، فقال له يا بنى مصيبتى فيك أفدح فى بدنى من مصيبتى بأخيك ومتى رأيت ابناً عزى أباه.

فقال : يا أمير المؤمنين أمى أمرتنى بذلك .

فقال عبد الملك : والله لتعزيتك إياى أهون على من قبولك مشورة النساء. (٣)

ولما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جزع عليه عمر جزعا شديداً فقال ذات يوم لمن حضره:

هل من منشد شعرا أتعزى به، أو واعظ يخفف عنى فأتعزى وأتسلى ؟

فقال رجل من أهل الشام:

---

(١) محاضرات الأدباء ج٤ ص ٥١٠ .

(٢) المحاسن والمساوىء ص ٣٤٥ .

(٣) مما ألف الناس أن الأقارب الأقربين من الميت لا يعزى بعضهم بعضا لاشتراكهم فى الإحساس بالمصاب إحساسا متساويا أو متقاربا.

يا أمير المؤمنين : كل خليل مفارق خليله بأن يموت أو بأن يذهب إلى مكان .

فتبسم عمر رحمه الله وقال:

مصيبتى فيك زادتنى مصيبة. (١)

مشاهد رؤى الاحياء لبعض الأموات

كثيرا ما يرى الأحياء فى المنام بعض الأحوال التى صار إليها الأموات بعد انتقالهم إلى العالم الآخر:

وفى تلك الرؤى تلتقى أرواح الأحياء بأرواح الأموات فيتحادث الحى مع الميت، ويتذاكران أو يتساءلان .

ولا تخلو تلك اللقاءات الروحية من عبر، ومن إرشاد، ومن بشائر مختلفة الأنواع.

ولقد تواطأت رؤى الأحياء الصادقين لكثير من الأموات فكانوا ينقلون عنهم - أحيانا - من الأخبار ما لا يعلمه الأحياء ، ثم يتبين الأمر كما أخبروا.

فمن ذلك أن الصحابيين الجليلين : الصعب بن جثامة وعوف بن مالك رضى الله عنهما كانا متواخيين وقال الصعب لعوف:

أى أخى أيّنا مات قبل صاحبه فليتراءى له.

قال عوف : أو يكون ذلك ؟

قال : نعم.

فمات الصعب فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه ، قال :

قلت: أى أخى .

قال : نعم.

قلت : ما فعل الله بكم؟

قال : غفر لنا بعد المصاعب.

قال عوف: ورأيت لمعة سوداء فى عنقه ، قلت أى أخى ما هذا؟

قال : عشرة دنانير استلفتها من فلان اليهودى فهن فى قرنى. (٢)

فأعطوه إياها، واعلم أى أخى أنه لم يحدث فى أهلى حدث بعد موتى إلا قد لحق بى خبره، حتى هرة لنا ماتت منذ أيام، واعلم أن بنتى تموت إلى ستة أيام ، فاستوصوا بها معروفا.

---

(١) المحاسن والمساوىء ص ٣٤٥ .

(٢) القرن بفتح الراء جعبة من جلد ، وفيها يضع المحارب السهام.

قال عوف : فلما أصبحت قلت إن فى هذا لمعلماً فأتيت أهله.

فقالوا: مرحبا بعوف، أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم ؟ لم تقربنا منذ مات صعب.

قال : فاعتللت بما يعتل به الناس، فنظرت إلى القرن فأنزلته ، فانتثلت ما فيه ، فوجدت الصرة التى فيها الدنانير، فبعثت بها إلى اليهودى فقلت: فهل كان لك على صعب شيء؟

قال: رحم الله صعبا كان من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له.

قلت: لتخبرننى .

قال : نعم أسلفته عشرة دنانير.

قال عوف : فنبذتها إليه.

فقال : هى والله بأعيانها.

قال عوف : قلت هذه واحدة ثم قلت لأهله : هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب؟

قالوا نعم : حدث فينا كذا ، حدث فينا كذا.

قلت اذكروا ، فمازالوا يذكرون وقالوا:

نعم هرة ماتت منذ ايام .

فقلت هاتان اثنتان، ثم قلت : أين ابنة أخى ؟ قالوا : هى تلعب فأتونى بها، فمسستها فإذا هى محمومة، فقلت استوصوا بها معروفا فماتت لستة أيام. (١).

إن رؤى الأحياء للأموات هى أكثر من أن تحصى لأنها لا تنقطع ما دام الأحياء أحياء.

وإن بعض الرؤى قد تكون مفزعة، وأكثرها يكون سارا ومبشرا.

وإليك نماذج منهما.

فمن الرؤى المفزعة : رؤيا تتعلق بأبى الحسين أحمد بن منير الطرابلسى.

هو من طرابلس لبنان، كان رافضيا، كثير الهجاء ، خبيث اللسان ولما كثر ذلك منه سجنه بورى أتابك طغتكين صاحب دمشق مدة وعزم على قطع لسانه، ثم شفع فيه يوسف بن فيروز الحاجب فنفاه.

ثم لما ولى إسماعيل بن بورى عزم على صلبه ففر، واستقر به التطواف فى حلب ، وبها مات.

---

(١) نقل السيوطى عن ابن الجوزى هذه الرؤيا فى شرح الصدور ص ١١٢ .

قال ابن عساكر فى تاريخ دمشق:

حدث الخطيب السديد عبد القاهر بن عبد العزيز خطيب حماه فقال :

رأيت أبا الحسن بن منير الطرابلسى فى المنام بعد موته وأنا على قرنة بستان مرتفعة، فسألته عن حاله ، وقلت له اصعد إلى عندى فقال : ما أقدر من رائحتى. فقلت : تشرب الخمر؟ فقال: شر من الخمر يا خطيب. فقلت : ما هو ؟ قال تدرى ما جرى على من هذه القصائد التى قلتها فى مثالب الناس ؟

فقلت: ما جرى عليك منها؟ فقال : لسانى قد طال ، وثخن وصار مد البصر، وكلما قرأت قصيدة منها قد صارت كلابا يتعلق فى لسانى.

قال : وأبصرته حافيا عليه ثياب رثة إلى الغاية، وسمعت قارئا يقرأ من فوقه ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ - سورة الزمر آية ١٦ - ثم انتبهت مرعوبا .

من (الوافى بالوفيات ج٨ ص ١٩٣)

ورؤيا تتعلق بإبراهيم بن همشك:

كان إبراهيم بن همشك رومى الأصل ملك فى الفتنة جيان وسقورة وكثيرا من أعمال غرب الأندلس.

قال ابن الأبّار:

كان إبراهيم يعذب خلق الله بالتعليق والتحريق، ولا يتناهى عن منكر فعله ، من رميهم بالمجانيق ودهدهتهم كالحجارة من أعالى النيق.

حكى ابن صاحب الصلاة عن بعض الصالحين أنه رآه فى النوم فقال له : كيف حالك؟ وما لقيت من ربك ؟ فأنشد بيتين لم يسمعهما من قبل :

مَنْ سَرهُ العَيْثُ فى الدنيا بخلقَة مَنْ ... يُصَورُ الخلقَ فى الأرحام كَيْفَ يَشَا
فَلْيَحْزَنِ اليَوْمَ حُزنًا قَبْلَ سَطْوته ... مُعلَّلا يَمْتطى جَمْرَ الغَضَا فُرشَا

من (الوافى بالوفيات ج١ ص ٢١٤)

ورؤيا تتعلق بكثير بن أفلح:

روى ابن أبى شيبة عن محمد بن سيرين أنه قال : رأيت أفلح أو قال كثير بن أفلح فى المنام، وكان قتل يوم الحرة، فقلت : ألست قد قتلت؟ قال : بلى، قلت: فما صنعت؟ قال : خيرا، قلت : الشهداء أنتم؟ قال : لا، إن المسلمين إذا اقتتلوا فقتل بينهم قتلى فليسوا بشهداء ، ولكننا ندماء.

أما رؤيا من لَقَّاهُم ربهم نضرة وسرورا فهى كثيرة جداً، وإليك مجموعة منها:

قال عبد الله بن مغيث اليشكرى: حدثتنى أمينة بنت أبى معاوية عمران بن مسلم أن أباها كان قد عاهد الله ألا ينام بليل أبدا إلا مستغلبا، وقال إنى حبب إلى طاعة الله تعالى طول الحياة، ولولا الركوع والسجود وقراءة القرآن ما باليت ألا أعيش فى الدنيا فواقا (يعنى زمنا قصيرا).

قلت: فلم يزل مجهودا على ذلك حتى مات رحمه الله، فرأيته فى منامى، فقلت : ياأبت إنه لا عهد لى بك منذ فارقتنا. قال : يا بنية، وكيف تعهدين من فارق الحياة وصار إلى ضيق القبور وظلمتها؟ فقلت: يا أبت كيف حالك منذ فارقتنا؟ قال: خير حال، بوئنا المنال، ومهدت لنا المضاجع، ونحن هاهنا يغدى علينا ويراح برزقنا من الجنة، قلت: فما الذى بلغك هذا؟ قال : الصبر الصالح وكثرة التلاوة لكتاب الله تعالى.

من (صفة الصفوة ج٣ ص ٣١٣)

وقال مسمع بن عاصم حدثنى رجل من آل عاصم الجحدرى فقال : رأيت عاصما الجحدرى بعد موته بسنتين فقلت : ألست قد مت ؟ قال : بلى، فقلت: أين أنت؟ قال : أنا والله فى روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابى، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى، فنتلاقى فى أخباركم .

قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟

قال : هيهات بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح.

قال إبراهيم بن عيسى: كان بكر بن عبد الله المزنى يقول: من مثلك يا ابن آدم؟ خُلى بينك وبين المحراب والماء، كلما شئت دخلت على الله عز وجل ، ليس بينك وبينه ترجمان.

من (صفة الصفوة ج٣ ص ٣٤٩)

وكان أبو نصر أحمد بن عبد الرحمن الواعظ الحنبلى قد مات شابا، وجاوز العشرين .

قال محب الدين بن النجار: رأيته فى المنام وعليه ثياب فاخرة، قميص فوط جديد، وبقيار أبيض مليح، فسألته ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى ، وقليل العمل ينفع عند الله.

وسألته عن عذاب القبر أحق هو؟ قال : لا. فقلت له مرة ثانية عذاب القبرحق؟ وجذبته جذبه شديدة كالمنكر عليه، فقال لى: أنا ما رأيته.

فقلت له: منكر ونكير؟ قال : أي والله حق ، نزلا علي وسألاني.
توفي -رحمه الله -سنة إحدى وستمائة.

من (الوافي بالوفيات ج٧ ص٤٥)

وكان محمد بن مصفى بن بهلول القرشي الحمصي قد روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجه ثم اعتل بالجحفة ومات بمنى.

قال: محمد بن عوف رأيته في المنام، فقلت :يا أبا عبد الله أليس قد مت؟ إلام صرت؟

قال : إلى خير، ومع ذلك فنحن نرى ربنا كل يوم مرتين.

فقلت يا أبا عبد الله ، صاحب سنة في الدنيا والآخرة، فتبسم لي .

توفي- رحمه الله -سنة ست وأربعين ومائتين.

من(الوافي بالوفيات ج٥ ص ٣٣)

قلت :وقول ابن عوف (صاحب سنة في الدنيا والآخرة) هو إشارة إلى عقيدة أهل السنة، وهي أن السعداء يرون ربهم بعد الموت، وقد خالفهم المعتزلة في اعتقاد الرؤية، وأوّلوا ماورد في شأنها من نصوص قطعية الثبوت.

وروى ابن خلكان عن الوزير أبي القاسم بن المغربي أنه قال:

رأيت الخطيب ابن نباتة صاحب الخطب المشهورة، رأيته بعد وفاته، فقلت له: ما فعل الله بك؟

فقال : دفع لي ورقة فيها سطران بالأحمر، وهما:

قد كان لك أمْن مِنْ قَبل ذَا ... واليومَ أضحي لك أمنان
والصفحُ لا يَحْسُنُ عنَ مُحْسِنٍ ... وانّما يَحْسُنُ عن جَانِ

قال : فانتبهت من النوم، وأنا أكررهما.

وقد توفي ابن نباتة الفارقي في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بميافارقين ودفن بها رحمه الله .

من (وفيات الأعيان ج .... ص......)

قال ابن خلكان:

ومن غرائب الأخبار أن زوجة المُحْسن ابن أبي الحسن بن الفرات أرادت أن تختن ابنها بعد قتل أبيه، فرأت المحسن في منامها، فذكرت له تعذر النفقة.

فقال لها: إن لي عند فلان عشرة آلاف دينار، أودعته اياها.

فانتبهت، وأخبرت أهلها، فسألوا الرجل فاعترف ، وحمل المال عن آخره.

من (وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٢٤)

ونقل السيوطى عن ابن أبى الدنيا أنه روى عن سفيان بن عيينة أنه قال :

رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته، فقلت أوصنى قال : أقلّ من مخالطة الناس، قلت : زدنى قال : سترد فتعلم.

من (شرح الصدور ص ١١٨)

كما نقل عنه أنه روى عن رجل من أهل الكوفة أنه قال :

رأيت سويد بن عمرو الكلبى فى النوم بعدما ماتْ فى حالة حسنة، قلت :يا سويد ما هذه الحالة الحسنة؟ قال :إنى كنت أكثر من قول لا إله إلا الله فأكْثرْ منها .

من (شرح الصدور ص ١١٦)

ونقل عن ابن عساكر أنه روى عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز أنه قال :

رأيت أبى فى المنام بعد موته فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل ؟

قال : الاستغفار يا بنى .

من (شرح الصدور ص ١٢٠)

ونقل عن ابن عساكر أنه روى عن أبى الفرج غيث بن على أنه قال :

رأيت أبا الحسن العاقولى المقرىء فى النوم فى هيئة صالحة ، فسألته عن حاله فذكر خيرا .قلت : أليس قد مت؟ قال : بلى ، قلت :كيف رأيت الموت؟ قال :حسن أو قال: :جيد ، وهو مستبشر . قلت : غُفر لك ودخلت الجنة؟ قال : نعم . قلت : فأى الأعمال أنفع؟

قال : ما ثم شىء أنفع من الاستغفار، أكثر منه.

من (شرح الصدور ص ١٢٢)

قال الحافظ أبو محمد:

ويذكر عن الفضل بن الموفق أنه قال : كنت آتى قبر أبى المرة بعد المرة، فأُكثر من ذلك ، فشهدت يوما جنازة فى المقبرة التى دفُن فيها، فتعجلت لحاجتى ولم آته، فلما كان من الليل رأيته فى المنام، فقال لى : يا بنى لم لا تأتينى؟ قلت له : يا أبت وإنك لتعلم بى إذا أتيتك ؟ قال : إى والله يا بنى، لا أزال أطلع عليك حين تطلع من القنطرة، حتى تصل إلىّ وتقعد عندى ثم تقوم ، فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة.

من (كتاب الروح ص ١٦)

قال يعقوب القارىء :

رأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه، قلت : من هذا ؟ قالوا : أويس

القرنى، فاتَّبعته فقلت : أوصنى يرحمك الله، فكلح فى وجهى. فقلت : مسترشد فأرشدنى رحمك الله ، فأقبل علىّ فقال : ابتغ رحمة الله عند محبته واحذر نقمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه خلال ذلك ثُمّ ولّى وتركنى .

من (كتاب الروح ص ٣٤)

وقال أبو بكر بن أبى مريم : رأيت وفاء بن بشر بعد موته فقلت : ما فعلت يا وفاء؟ قال : نجوت بعد كل جهد . قلت : فأى الأعمال وجدتموها أفضل ؟ قال : البكاء من خشية الله عز وجل.

من (كتاب الروح ص ٣٥)

وقال يزيد بن نعامة:

هلكت جارية فى طاعون الجارف، فلقيها أبوها بعد موتها فى النوم فقال لها :

يا بنية أخبرينى عن الآخرة ، قالت : ياأبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل، وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة عملى أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها.

من (كتاب الروح ص ٣٥)

وقال أبو عَمْرو هشام بن مسرور.

سافرت نحو المَغرب فلما صرت فى بعض المناهل ونام الناس طلبت النوم فلم يجئنى منه شيء، فلما تمادى بى السهر رأيت أن لا يذهب ليلى خسارة فتأهبت للصلاة، وقمت فأخذت فى الصلاة ، فطابت لى القراءة فختمت القرآن كله ،فلما حسن ذلك عندى جعلت ثواب تلك الختمة لأبى.

فلما قدمت أتانى ابن أبى حميد - وكان رجلا صالحا - فقال لى : رأيت أباك فى النوم فقال لى اشكر ابنى هاشما وقل له :جزاك الله عز وجل عنى من ولد خيرا فلقد أجزتنى بالختمة التى كانت فى سفرك عقبة عظيمة.

من (رياض النفوس ج ١ ص ١٥٠)

وكان أبو محمد عوان بن على الضرير المقرىء البغدادى من فضلاء القراء موصوفا بالديانة وحسن الطريقة، قرأ القرآن بالروايات على عدة من شيوخ القراء، وختَّم خلقا كثيرا كتاب الله تعالى .

توفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة.

ورىء بعد موته بخمس وعشرين سنة فى المنام، وعليه ثياب شديدة البياض وعمامة

بيضاء مليحة ووجهه عليه نور، فأخذ بيد الرائى ومشيا إلى صلاة الجمعة فقال له :

يا سيدى ما فعل الله بك ؟

قال : عرضت على الله خمسين مرة، فقال : ايش عملت؟

فقلت له : قرأت القرآن وأقرأته.

فقال لى : أنا أتولاك، أنا أتولاك.

من (الوافى بالوفيات ج ١٤ ص ١٨)

وكنت أنا رأيت فى المنام مؤدبى الشيخ على بن محمد بن غانم الحضرمى القيروانى، وهو الذى أقرأنى القرآن حتى حفظته بحمد الله على يديه، رأيته رحمه الله جالسا فى مدخل سوق الغرابلية فقلت له (كالمستغرب): أنت ها هنا ؟

فأجابنى : أنا عندما أريد أن آتى إلى الأرض آتيها.

وبعدما سمعت قوله هذا تبين لى أنى أمشى معه فى نهج المر أمام كتّاب الإمام الشاطبى.

فقلت له : ما هى حال سى محمد النجار؟

وكان الحاج محمد النجار بن محمود - رحمه الله - ممن متعهم الله بالورع والسخاء وحب القرآن وتعظيم جناب الرسول صلى الله عليه وسلم وكان صاحب كشوفات صادقة.

فقال لى مؤدبى : ذلك كلما يتمنى شيئا على الله يعطيه إياه.

فقلت له : أريد أن أسألك عن أشياء.

وعزمت فى نفسى أن أسأله عما يتعلق بما عليه الأمر من الموت وما بعده من دقائق الأحوال .

فقال لى : اسأل.

وقبل أن أتوجه اليه بالسؤال الأول التفت إليه ، وكنت أماشيه وأنا إلى جنبه، فما كان بأسرع من أنى لم أجده حين التفت إليه .

فانتبهت من الرؤيا ، وأدركت أن ما كنت سأسأله عنه من الدقائق ، ما هو إلا من أسرار الله التى لا تكشف للأحياء ، والله أعلم.

من أضواء مشاهد رؤى الأموات

إن المشاهد المتقدمة تنير السبيل إلى إدراك مجموعة من الحقائق ، وكان من تلك الحقائق ما يدعو إلى مزيد من البيان وهى الأربع التالية:

الحقيقة الأولى :

تتعلق بصحة تلك الرؤى:

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية - رحمه الله- فى كتاب الروح:

والرؤيا الصحيحة أقسام فذكر بعضها ثم ، قال : ومنها التقاء النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم.

وقال وهذا باب طويل جداً ، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت هذه منامات ، وهى غير معصومة فتأمل من رأى صاحبا له أو قريبا أو غيره فأخبره بمال دفنه أو حذره من أمر يقع ، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال ، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله الى كذا وكذا فيقع كما أخبر، وأخبره بخصب أو حدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له ، فوقع كما أخبره . والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله والناس مشتركون فيه وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب .

وأبطل (١) من قال أن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم، وهذا عين الباطل والمحال ، فإن النفس لم يكن فيهاقط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت ولاخطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما ونحن لا ننكر أن الأمر قد يقع كذلك . (٢)

الحقيقة الثانية :

هى أن الروح لا تفنى بالموت كما يفنى الجسد ، وقد دلت الآيات والأحاديث الصحيحة على نعيم بعض الأرواح وعلى عذاب بعضها فى البرزخ حتى يبعث الله عباده يوم القيامة، فيرجع بقدرته الأرواح فى الأجساد.

فالشهداء قد ذاقت أجسادهم الموت، ولكن الله تعالى قد قال : ﴿وَلاَ تَحسَبَنَّ الذين قُتِلُوا فِى سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِهِمْ يُرْزَقُون فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذين لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ (٣)

---

(١) أى قال قولا من الباطل .

٢) كتاب الروح ص ٤١ وقوله قد يقع كذلك أى يقع أحيانا كما قال المبطل .

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٦٩ - ١٧٠ .

وآل فرعـون قال الله فى شأن الرجل المؤمن منهم : ﴿ فَـوَقَاه الله سَيِّـئَـات مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بآل فرعَـوْنَ سُوء العَذَاب. النَّار يعْرضُونَ عَلَيـهَا غُدُوًّا وعَشيًا وَيَوم تَقُـومُ السَاعَة أدخِلُوا آل فِرعَونَ أشَدَّ العَذَاب ﴾ (١)

والأحاديث الصـحيحـة قد أكدت بقاء الأرواح بعـد الموت، منهاما رواه البـخارى ومسلم والنسـائى وابن ماجه عن ابن عـمر رضى الله عنهما أنـه صلى الله عليه وسلم قال :

(إذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُـرِضَ عَلَيه مَقْعَدُهُ بِالغَدَاة وَالعَـشِي، إن كَانَ مِنْ أهْلِ الجَنَّة فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّة، وَإِنْ كَانَ من أَهْلِ النّار فَمِنْ أَهلِ النّار، يُقَال له هَذا مَقْـعَدُكَ حَتَى يَبْعثَكَ الله إليه يَوْمَ القِيَامَة)

كما ورد أن هذا العرض يكون بعد ان يسأله الملكان.

الحقيقة الثالثة:

تتمثل فى تنوع أحوال الموتى .

لقد تبين فى كثـير من رؤى الأموات أن ما نالوه من كرم الله وفضله لـم يكن مترتبا على طاعة من نوع واحـد اشترك فيـه كل فرد منهم مع سائر الأموات، وإنمـا كان الأمر يختلف من شخص إلى آخر.

لقد كان شـأنهم فيما بعد الحـياة الدنيا كشأنـهم فى الحياة الدنيا ، إذ إنه سبـحانه قد جعل بفضله مرتزق عباده هنا متنوعا، هذا يرتزق من الفلاحة ، وذاك من الصناعة وآخر من التجـارة إلى غيـر ذلك من ميادين الارتزاق كـما جـعل بفضله سعـادتهم هناك من مغفـرته لهم ورضاه عنهم متنوع الأسباب تنوعـا شاسعا، فهذا سـعد بحسن الظن بالله وذاك بالبكاء من خشـية الله، وآخر بكثرة الاستـغفار ورابع بتلاوة القـرآن إلى غير هذه من أنواع العبادات الخالصة لله وحده.

وربما يتقـارب اثنان فى المرتبة الواحدة من ألوان السعـادة، ولكنهما يختلـفان فى ما يفيض اللـه من فضله على كل منهـما، كمـا يتقارب الرجـلان فى الدنيا من أصـحاب الصناعة الواحدة، ولا يتماثلان التماثل المطلق فيها .

فاذا أدخل الله عـباده الجنة برحمته كـانت درجاتهم هناك تبعا لما أسلـفوه هنا، وقد

---

(١) سورة غافر الآيتان ٤٥- ٤٦

وردت الإشارة إلى ذلك فيما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وابن حبان عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرآنِ إذا دَخَلَ الْجَنَّةَ: اقرأ وَارقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى دَارِ الدُّنْيَا ، فَإِن مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُهَا) .

الحقيقة الرابعة:

تتعلق بقراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت.

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية فى كتاب الروح :

وأما قراءة القرآن وإهداؤها (للميت) تطوعا بغير أجرة، فهذا يصل الثواب إليه كما يصل ثواب الصوم والحج.

فإن قيل فهذا لم يكن معروفا فى السلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ، ولا أرشدهم النبى صلى الله عليه وسلم إليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام ،فلو كان ثواب القراء يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه.

فالجواب هوأن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار، قيل له ما هذه الخاصية التى منعت وصول ثواب القرآن ، واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع.

... ثم يقال لهذا القائل : لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال : اللهم اجعل ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت ، فإن القوم كانوا أحرص شىء على كتمان أعمال البر فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم.

فإن قيل فرسول الله صلى الله عليه وسلم أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة.

قيل هو صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مَخْرَجَ الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته، فأذن له، وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك .

وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟

والقائل أن أحدا من السلف لم يفعل ذلك، قائل مالا علم له به ، فإن هذه شهادة

على نفى مالم يعلمه، فما يدرى أن السلف كانوا يفعلون ذلك، ولا يشهدونْ من حضرهم عليه، بل يكفى إطلاع علام الغيوب على نياتهم لا سيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط.

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل، فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذى خص من هذا الثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه، وهذا عمل سائر الناس حتى المنكرين فى سائر الأعصار والامصار من غير نكير من العلماء . [1]

قال ابن القيم :

وذكر الخلال عن الشعبى أنه قال : كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون عنده القرآن ، قال : وأخبرنى أبو يحيى الناقد أنه قال سمعت الحسن بن الجروى يقول : مررت على قبر أخت لى فقرأت عندها تبارك لما يذكر فيها ، فجاءنى رجل فقال : إنى رأيت أختك فى المنام تقول جزى الله أبا على خيرا، فقد انتفعت بما قرأ . [2]

ومع بيان ابن القيم فى هذه المسألة -رحمه الله- وقفت على بيتين لابن الرومى - عفا الله عنا وعنه - يهجو بهما شخصا كان طبيبا وكحالا [3] وقد تعرض ابن الرومى فى البيتين إلى قراءة القرآن على الأموات الذين قتلهم ذلك الطبيب حسب ادّعاء ابن الرومي وهما قوله :

أَفْنَى وَأَعمَى ذَا الطبيبُ بطبه ... وَبكُحْله الأَمْوَاتَ والأَحْيَاءَ
فَإذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ مَنْ عُمْيَانه ... أَمَّماً عَلَى أَموَاته قُرَاءَ

فقد سجل لنا فى هذين البيتين ان قَرَاءة القرآن على الأموات كانت متداولة فى أيامه ومنتشرة بين الناس والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

مشهد مرض وموت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [4].

وقال : ﴿إِنَّكَ مَيِّت، وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [5]

---

(١) من كتاب الروح صفحات ٢١١ - ٢١٣ .
(٢) من كتاب الروح ص ١٤ .
(٣) الكحال : طبيب العيون .
(٤) سورة الأنبياء الآية ٣٤ .
(٥) سورة الزمر الآيتان ٣٠- ٣١ .

وقال : ﴿وَمَا مُحَمد إلاَ رَسُول قَدْ خَلَتْ منْ قَبْله الرسُلُ أفإنْ مَاتَ أَو قُتلَ انْقَلَبْتمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلبْ عَلَى عَقبَيْه فَلنْ يَضرُ الله شَيْئًا وَسَيَجزِى الله الشاكرِينَ﴾ (١)

كان صلى الله عليه وسلم قد ابتدأ به صداع فى بيت عائشة رضى الله عنها وقالت - تتحدث عن ذلك - دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى بدىء فيه (وجعه) فقلت :

وارأساه .

فقال : بل أنا وارأساه .

ثم اشتد أمره فى بيت ميمونة، واستأذن نساءه أن يمرض فى بيت عائشة ، فأذن له (وكانت مدة علته إثنى عشر يوما، وقيل أربعة عشر) .

قال عبيد الله بن عبد الله :

دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثينى عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : بلى ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

أصلى الناس ؟

فقلت : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله.

فقال : ضعوا لى ماء فى المخضب (وهو إجَّانَة تغسل فيها الثياب) .

ففعلنا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء (ينهض) فأغمى عليه، ثم افاق ، فقال: أصلى الناس؟

فقلنا : لا، هم ينتظرونك يا رسول الله .

قالت: والناس عكوف فى المسجد ينتظرون رسول الله لصلاة العشاء فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر أن يصلى بالناس، وكان أبو بكر رجلا رقيقا، فقال : يا عمر صل بالناس ، فقال عمر : انت احق بذلك فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد خفة، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأوما إليه أن لا تتأخر وأمرهما فأجلساه إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلى قائما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

قال عبيد الله بن عبد الله:

فدخلت على ابـن عباس فـقلت : ألا أعرض عليك ما حـدثتني عائشـة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال هات.

فحدثته، فما أنكر منه شيئا ، غير أنه قال : سمت لك الرجل الذى كان مع العباس؟ قلت : لا ، قال هو على .[1]

قال ابن حبيب الهاشمى :

صلى أبو بكر بالناس فى مرض رسول الله صلى الله عليـه وسلم سبع عشرة صلاة ويقال ثلاثة أيام.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أبا بكر كـان يصلى بهم فى وجع النبى صلى الله علـيـه وسلـم الذى توفى فـيـه، حـتى إذا كـان يوم الاثنين وهـم صـفـوف فى الصلاة،فكشف النبى صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبى صلى الله عليه وسلم فنكص أبو بكر على عـقبيـه ليصل الصف وظن أن النبى صلى اللـه عليه وسلم خارج إلى الصـلاة، فأرشـار الينا النبى صلى الله عليه وسلم أن أتمـوا صلاتكم وأرخى الستر فتوفى فى يومه [2]

وعن عائشة رضى الله عنها كانت تقول :

إن من نعم الله على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى فى بيتى وفى يومى، وبين سحرى (فؤادى) ونحرى وإن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته دخل على عبد الرحـمن (بن أبى بكر) وبيـده سـواك وأنا مـسندة رسول الـله صلى الله عليـه وسلـم ، فرأيته ينظر إليه، فعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم فلينته فأخذه فأمره وبين يديه ركوة أو علبة - يشك أبو عمرو- فيها ماء فجعل يدخل يده فى الماء، فيمسح بها وجهـه ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده فجعل يقول فى الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده صلى الله عليه وسلم[3].

من (صفة صفوة ج١ ص ٢١٨ - ٢٢٣)

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى مختصرا فى باب (مرض الرسول ووفاته) وروى صلاة أبى بكر بالناس فى باب (حد المريض إن شهد الجماعة) .

(٢) هذا الحديث رواه الشيخان، وليس فى البخارى قوله (فتوفى فى يومه)

(٣)قال القسطلانى يريد بـقوله (فى الرفيق الأعلى) اللهم أدخلنى فى الرفيق الأعلى أى مـرافقة الملائكة أو الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين والحديث رواه البخارى.

وروى الطبرانى فى المعجم الكبير- ورجاله محتج بهم فى الصحيح عن سهل بن سعد رضى الله عنه أنه قال :

كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة دنانير وضعها عند عائشة رضى الله عنها، فلما كان عند مرضه قال :

يا عائشة ابعثى بالذهب إلى على .

ثم أغمى عليه، وشغل عائشة ما به، حتى قال ذلك مراراً، كل ذلك يغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشغل عائشة ما به، فبعث إلى على فتصدق بها، وأمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديد الموت ليلة الاثنين ، فأرسلت عائشة رضى الله عنها بمصباح لها إلى أمراة من نسائها فقالت: اهدى لنا فى مصباحنا من عُكَّتك السمن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسى فى حديد الموت.

ورَوَى احمد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه.

يا عائشة ما فعلت بالذهب؟ فجاءت بما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول :

ما ظن محمد بالله عز وجل لو لقيه وهذه عنده.. أنفقيها.

وروى أحمد عن أبى بردة رضى الله عنه أنه قال : أخرجت إلينا عائشة رضى الله عنها كساء ملبدا، وإزارا غليظا وقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين.

مشهد وفاة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه

تكرر فى الكتاب بعض هذا المشهد فى وصاياه، قصدا لا عن سهو.

روى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت:

كان أول بدء مرض أبى بكر أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوما باردا فحُمَّ خمسة عشر يوما لا يخرج إلى صلاة وتوفى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة.

وروى ابن سعد عن أبى السفر أنه قال:

دخلوا على أبى بكر فى مرضه ، فقالوا : يا خليفة رسول الله ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك ؟

قال : قد نظر إلىّ .

فقالوا : ما قال لك؟

قال : قال إنى فعال لما أريد.

وروى الواقدى من عدة طرق أن أبا بكر لما ثقل دعا عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرنى عن عمر بن الخطاب؟ فقال: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى . فقال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه. ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرنى عن عمر؟ فقال: أنت أخبرنا به. فقال على ذلك : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله وشاور معهما سعيد بن زيدوأسيد بن الحُضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار فقال أسيد: اللهم أعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذى يُسر خير من الذى يعلن. ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه ودخل عليه بعض الصحابة فقال له قائل منهم : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر : بالله تخوفنى أقول : اللهم انى استخلفت عليهم خير أهلك أبلغ عنى ما قلت من وراءك ثم دعا عثمان فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى واياكم خيرا ، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوما فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر عمر خاليا فأوصاه بما أوصاه ثم خرج من عنده فرفع أبو بكر يديه وقال : اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما ارشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك اصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته.

واخرج ابن سعد والحاكم عن ابن مسعود قال : أفرَس الناس ثلاثة أبو بكر حين استخلف عمر، وصاحبة موسى حين قالت لأبيها : استأجره. والعزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته :أكرمى مثواه.

وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حمزة قال: لما ثقل ابو بكر أشرف على الناس من كوة فقال: أيها الناس إنى قد عهدت عهدا أفترضون به؟ فقال الناس رضينا يا خليفة رسول الله فقام على فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر. قال : فإنه عمر.

وأخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنهـا قالت : إن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : أى يوم هذا؟ قالوا : يوم الاثنين . قال: فإن مت من ليلتى فلا تنتظروا بى لغد فإن أحب الأيام والليالى إلى أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج مالك عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر نحلها جداد [١] عشريـن وسقا من ماله بالغابة [٢] .

فلما حضرته الوفاة قال: يا بنية والله ما من الناس أحد أحب إلىَّ غنى منك ولا أعز على فـقـرا بعدى مـنك وانى كنت نحلتك جـداد عـشرين وسـقـا ، فلو كنت جـددته واحتـرزته كان لك وإنما هو اليـوم مال وَارِث وإنما هو أخـواك وأختاك فـاقسـموه على كتاب الله فقـالت : يا أبت والله لو كان كذاَ وكذا لتركته إنما هى أسـماء فمن الأخرى قال : ذو بطن ابنة خارجة أراها جارية .

وأخرجـه ابن سعد وقـال فى آخِرِهِ قـال : ذات بطن ابنة خارجة قـد ألقى فى روعى أنها جارية فاستوصى بها خيرا فولدتَ أم كلثوم.

وأخرج ابن سـعد عن عروة أن أبا بكر أوصى بخـمس ماله وقال :آخذ من مـالى ما آخذ الله من فىء المسلمين.

واخرج من وجه آخر عنـه قال: لئن أوصى بالخمس أحب إلى من أن أوصى بالربع وأن أوصى بالربع أحب إلىّ من أن أوصى بالثلث ومن أوصى بالثلث لم يترك شيئا .

وأخرج سعـيد بن منصور فى سننه عن الضـحاك أن أبا بكر وعليا أوصيـا بالخمس من أموالهما لمن لا يرث من ذوى قرابتهما.

وأخرج عـبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن عـائشة رضى الله عنها أنهـا قالت: والله ما ترك أبو بكر دينارا ولا درهما ضرب الله سكته.

وأخرج ابن سـعد وغـيره عن عائشـة رضى الله عنهاقـالت : لما ثقل أبو بكر تمثلت بهذا البيت.

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِى الثَراء عن الفَتَى   اذَا حَشْرجَتْ (٣) يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَدَرُ

---

(١) الجداد بالفـتح والكسر؛ صرام الـنخل وهو قطع ثمرتها، والوسق بفـتح الواو وسكون السين . سـتون صاعا وهو ثلاثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز وأربعمائة وثمانون رطلا عند اهل العراق .

(٢) الغابة هى موضع قريب من المدينة من عواليها.

(٣) الحشرجة الغرغرة عند الموت وتردد النفس.

فكشف عن وجهه وقال : ليس كـذلك ولكن قولى :﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت.

وأخرج أبو يـعلى عن عائشـة رضى الله عنها قـالت: دخلت على أبى بكر وهو فى الموت فقلت:

مَنْ لاَ يَزَالُ دَمْعُهُ مُقَنَّعَا فَإِنهُ فِى مَرة مَـــدْفُوقُ

فقال : لا تقولى هذا ولكن قولى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ ثم قال : فى أى يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: يوم الاثنين قال : أرجو فيما بينى وبين الليل .فتوفى ليلة الثلاثاء ودفن قبل أن يصبح .

وأخـرج عبـد الله بن أحـمد فى زوائد الزهـد عن بكر بن عبـد الله المزنى قـال: لما احتضر أبو بكر قعدت عائشة رضى الله عنها عند رأسه فقالت:

وَكُلُّ ذِى إبلٍ يوما مُوردهَا وَكُلُّ ذِى سَلَبَ لابد مَسْلُوبُ

ففـهمها أبو بكر فـقال: ليس كذلك يا ابنتـاه ولكنه كما قـال الله ﴿وَجَاءَت سَكْرَةُ المَوْت﴾

وأخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يَقْضِى:

وأَبيْض يُستْسقَى الغَمَامُ بوَجْهه ثمَالُ (١) اليَتَامَى عِصمَةٌ للأرَامِلِ

فقال أبو بكر: ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد الـله بن أحمد فى زوائد الزهد عن عُبادة بن قيس قـال: لما حضرت أبا بكر الوفاة قـال لعائشـة اغسلى ثوبى هذين وكـفنينى بهمـا فانما أبوك أحـد رجلين إما مكسو أحسن الكسوة واما مسلوب أسوأ السلب.

وأخرج ابن أبى الدنـيا عن ابن أبى مليكة أن أبا بكرأوصى أن تغـسله امرأته أسـماء بنت عميس ويعينها عبد الرحمن بن أبى بكر.

وأخرج ابن سعـد عن سعيد بن المسيب أن عـمر رضى الله عنه صلى على أبى بكر بين القبر والمنبر وكبر عليه أربعا.

وأخرج عن عـروة والقاسم بن محـمد أن أبا بكر أوصى عائـشة أن يدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توفى حفـر له وجعل رأسه عند كتف رسول الله

---

(١) الثمال بكسر الثاء المثلثة الملجأ والغياث، وقيل : هو المطعم فى الشدة ويروى هذا البيت لأبى طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم من قصيد مدح به الرسول .

صلى الله عليه وسلم وألصق اللحد بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عن ابن عمر قال : نزل فى حفرة أبى بكر عمر. وطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن أبى بكر.

وأخرج من طرق عدة أنه دفن ليلا(١) .

مشهد وفاة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

تكرربعض هذا المشهد فى وصاياه قصدا لا عن سهوأيضاً .

قال عمرو بن ميمون :

إنى لقائم ما بينى وبين عمر إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفين قال استووا حتى إذا لم ير فيهن خللا تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلنى أو أكلنى الكلب حين طعنه، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا ولا شمالا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا، مات منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف فقدمه (للصلاة بالناس) .

فمن (كان) يلى عمر فقد رأى الذى أرى، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون ، غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله.

فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال عمر : يا ابن عباس انظر من قتلنى؟ فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة.

قال عمر الصنع؟(يقال رجل صنع إذا كان يعمل بيديه ويكسب بهما)

قال ابن عباس : نعم

قال عمر : قاتله الله لقد أمرت به معروفا، الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام، فقد كنت انت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة - وكان العباس اكثرهم رقيقا.

فقال ابن عباس : ان شئت فعلت أى قتلناهم، قال عمر : كذبت بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم.

فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه ، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول لا بأس، وقائل يقول أخاف عليه، فأتى بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه ، ثم أتى

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى صفحات ٥٥ - ٥٨ .

بلبن فشربه ، فخرج من جرحه، فعرفوا أنه ميت فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شـاب فقال أبشـر يا أميـر المؤمنين ببشرى الله لـك من صحبـة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة.

فقال عمر : وددت أن ذلك كان كفافا لا عليّ ولا لى.

فلما أدبر اذا ازاره يمس الأرض قال عمر: ردوا على الغلام فردوه فقال يا ابن أخى ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.

ثم قال يا عبد الله بن عـمر انظر ما على من الدين فحسبوه فوجـدوه سبعة وثمانين ألفا ونحوه (وفى صـحيح البخارى سـتـة وثمانين) قال : إن وفاه مال آل عـمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل فـى بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهـم فسل فى قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم فأد عنى هذا المال.

ثم قال : انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فـإنى لست اليوم للمـؤمنين أميـرا، قل يستـأذن عمـر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فمضى فسلم، واستأذن ثم دخل عليها فوجـدها قاعدة تبكى، فقال يقرأ عليك عمر السلام، يقول لك يستأذن أ ن يدفن مع صاحبيه .

فقالت: كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى.

فلما اقـبل قيل: هذا عبـد الله بن عمـر قد جاء ، قـال ارفعونى فـأسنده رجل إليه ، فقال : ما لديك ؟ قال الذى تحب يا أمير المؤمنين .. أذنت.

قال الحمد لله، ما كان شىء أهم إلىّ من ذلك ، فـإذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم وقل: يستـأذن عمر بن الخطاب فـإن أذنت لى فادخلونى وإن ردتنى فردونى إلى مـقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفـصة والنساء يسرن مـعها، فلما رأيناها قمـنا فولجت عليه ، فبكت عنه ساعة فاستأذن الرجال فولجت داخلا لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فلما قبض خرجنا به فـانطلقنا به فسلم عبد الله بن عـمر، وقال يستأذن عـمر. قالت أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه .(١)

---

(١) رواه البخارى فى مناقـب عثمان كامـلا، وأخرج طرفا منه فى الجنائز (باب ما جاء فى قـبر النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهم)

قال عثمان بن عفان :

أنا آخركم عهدا بعمر، دخلت عليه و رأسه فى حجر ابنه عبد الله، فقال له : ضع خدى بالأرض.

قال عبد الله : فهل فخذى والأرض الا سواء؟

قال عمر ضع خدى بالأرض لا أمّ لك فى الثانية أو الثالثة.

قال عثمان:

وسمعته يقول : ويلى وويل أمى إن لم تغفر لى حتى فاضت نفسه.

قال سعد بن أبى وقاص.

طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم .

من (صفة الصفوة ج١ ص ٢٨٧ - ٢٩١)

مشهد وفاة سيدنا عثمان رضى الله عنه

تكرر بعض هذا المشهد فى وصاياه ، قصدا لا عن سهو .

روى ابن عساكر عن الزهرى أنه قال :

قلت لسعيد بن المسيب هل أنت مخبرى كيف كان قتل عثمان؟ وما كان شأن الناس وشأنه؟ ولم خذله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؟

فقال ابن المسيب : قتل عثمان مظلوما ومن قتله كان ظالما ومن خذله كان معذورا. فقلت : كيف كان ذلك؟ قال: إن عثمان لما ولى كره ولايته نفر من الصحابة لأن عثمان كان يحب قومه فولى الناس اثنتى عشرة سنة ، وكان كثيرا ما يولى بنى أمية ممن لم يكن له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة، فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وكان عثمان يستعتب فيهم فلا يعزلهم وذلك فى سنة خمس وثلاثين ، فلما كان فى الست الأواخر استأثر بنى عمه فولاهم وما أشرك معهم وأمرهم بتقوى الله ،فولى عبد الله بن أبى سرح مصر، فمكث عليها سنين فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه، وقد كان قبل ذلك من عثمان هناة إلى عبد الله، بن مسعود. وأبى ذر وعمار بن ياسر فكانت بنو هذيل وبنو زهرة فى قلوبهم ما فيها لحال ابن مسعود، وكانت بنو غفار واحلافها ومن غضب لأبى ذر فى قلوبهم ما فيها، وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان لحال عمار بن ياسر، وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبى سرح ،فكتب إليه كتابا يتهدده فيه فأبى ابن أبى سرح أن يقبل ما

نهاه عنه عثمان وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان من أهل مصر ممن كان أتى عثمان فقتله فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة فى مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبى سرح بهم، فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان بكلام شديد، وأرسلت عائشة رضى الله عنها إليه فقالت : تقدم إليك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت؟ فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك ، ودخل عليه على بن أبى طالب فقال: إنما يسألونك رجلا مكان رجل وقد ادعوا قبله دما فاعزله عنهم واقض بينهم فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه. فقال لهم : اختاروا رجلا أوليه عليكم مكانه فأشار الناس عليه بمحمد بن أبى بكر .فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبى بكر فكتب عهده وولاه وخرج معهم عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصو وابن أبى سرح ،فخرج محمد ومن معه فلما كان على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا هم بغلام اسود على بعير يخبط البعير خبطا كأنه رجل يطلب أو يُطلب . فقال له أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم :ما قصتك وما شأنك ؟ كأنك هارب أو طالب ، فقال لهم : أنا غلام أمير المؤمنين وجهنى الى عامل مصر. فقال له رجل : هذا عامل مصر. قال: ليس هذا أريد، وأُخبر بأمره محمد بن أبى بكر فبعث فى طلبه رجلا فأخذوه فجاء به إليه فقال:غلام من انت؟ فأقبل مرة يقول : أنا غلام أمير المؤمنين ومرة يقول: أنا غلام مروان حتى عرفه رجل أنه لعثمان فقال له محمد: إلى من أرسلت؟ قال: إلى عامل مصر. قال: بماذا؟ قال: برسالة . قال : معك كتاب؟ قال: لا ، ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباوكانت معه أدواة قد يبست فيها شيء يتقلقل فحركوه ليخرج فلم يخرج. فشقوا الأدواة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبى سرح فجمع محمد من كان عنده من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه، إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحْتَلْ فى قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيى واحبس من يجيء إلى يتظلم منك ليأتيك رأيى فى ذلك إن شاء الله تعالى، فلما قرءوا الكتاب فزعوا وأزمعوا فرجعوا إلى المدينة وختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ودفع الكتاب إلى رجل منهم وقدموا المدينة فجمعوا طلحة والزبير، وعليا وسعدا ومن كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثم فضوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام واقرءوهم الكتاب، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان وزاد ذلك من كان غضب لابن مسعود وأبى ذر وعمار بن ياسر حنقا وغيظا . وقام أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلحقوا

بمنازلهم مـا منهم أحد إلا وهـو مغـتم لما قرأوا الكتـاب . وحـاصر الناس عـثمـان سنة خمس وثلاثين وأجلب عليه محمد بن أبى بكر بنى تيم وغيرهم، فلما رأى ذلك على بعث إلى طلحـة والزبيروسـعد وعـمار ونفـر من الصحـابة كلهم بدرى ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير. فقال له على : هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم .قال : والبعيـر بعيرك؟ قال: نعم .قـال: فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قـال : لاوحلف بالله ما كتـبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا علم لى به. قـال له على : فالخاتم خـاتمك . قال : نعم . قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟ فحلف بالله ما كـتبت هذا الكتـاب ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغـلام إلى مصـر قط، وأما الخط فعرفـوا أنه خط مروان وشكوا فى أمر عثـمان وسألوه أن يدفع إليهم مـروان فأبى وكان مروان عنده فى الدار فـخرج أصحـاب محمـد صلى الله عليه وسلم من عنده غـضابا وشكوا فى أمره وعلموا أن عثـمان لا يحلف بباطل إلا أن قوما قالوا : لن يبـرأ عثمان من قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مـروان حتى نبحـثه ونعرف حـال الكتاب وكيف يأمـر بقتل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق؟ فان يكن عثمان كتبه عزلناه، وإن يكن مروان كتبه على لسان عثـمان نظرنا ما يكون منا فى أمر مروان ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم، مروان وخشى عليـه القتل وحاصر الناس عثمان، ومنعوه الماء فأشرف علـى الناس فقال: أفيكم على؟ فـقالوا: لا .قال : أفيكم سـعد؟ قالوا: لا. فسكت ثم قـال : ألا أحد يبلغ عليا به فيـسقينا ماءً؟ فـبلغ ذلك عليا فبعث إلـيه بثلاث قرب مملوء ةماءً فما كادت تصل إليه وجرح بسببها عدة من موالى بنى هاشم وبنى أمية حتى وصل الماء إليه فـبلغ عليا أن عثمان يـراد قتله. فقال: إنما أردنا منه مروان فـأما قتل عثمـان فلا، وقال للحسن والحسـين: اذهبا بسيفيكمـا حتى تقوما على باب عثـمان فلا تدعـا أحدا يصل إليـه وبعث الزبير ابنـه، وبعث طلحة ابنه، وبعث عـدة من أصحـاب رسـول الله صلى اللـه عليـه وسلم أبناءهم يمنعـون الـناس أن يدخلوا على عـثـمـان ويسألونه إخراج مروان ، فلما رأى ذلك الناس رموا باب عـثمان بالسهام حتى خضب الحسن بن على بالدماء على بابه وأصاب مروان سهم وهو فى الدار وخضب محمد بن طلحـة وشج قنبرمـولى على فـخشى مـحـمد بن أبى بكر أن يـغضب بنو هاشم لحـال الحسن والحسين فيثيرونها فتنة فـأخذ بيد الرجلين فقال لهما إن جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجـه الحسن كشف الناس عن عثـمان وبطل ما نريد ولكن اذهبـوا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقـتله من غير أن يعلم به أحد فتسور محـمد وصاحباه من دار رجل

من الأنصار حتى دخلوا على عثمان ولا يعلم أحـد ممن كان معه، لأن كل من كان معه كانوا فوق البيوت ولم يكن مـعه إلا امرأته فقال لهما محمد : مكانكمـا فإن معه امرأته حتى أبدأكما بالدخول فإذا أنا ضبطته فادخلا فَتَـوَجَّآهُ حتى تقتلاه، فدخل محمد فأخذ بلحيـته فـقال له عثـمان: والله لو رآك ابوك لسـاءه مكانك منى فتـراخت يده ، ودخل الرجلان عليه فَتَوَجَّآهُ حتى قتلاه وخرجوا هاربين من حيث دخلوا وصرخت امراته فلم يسمع صراخهـا لما كان فى الدار من الجلبة وصعدت امرأته إلى الناس فـقالت: إن أمير المؤمنين قد قتل فدخل الناس فـوجدوه مذبوحاً وبلغ الخبر علياً وطلحـة والزبير وسعدا ومن كـان بالمدينة فخـرجوا وقـد ذهبت عقـولهم للخـبر الذى أتاهم حـتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا، فاسترجعوا وقال على لابنيه كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ورفع يده فلطم الحسين وضرب صدر الحسن وشتم محمد بن طلحة وعبد الله ابن الزبيـر وخرج وهو غـضبان حـتى أتى منزله وجـاء الناس يهرعـون إليه فقـالوا له: نبايعك فـمد يدك فلا بد من أمـير فقـال على : ليس ذلك إليكم إنما ذلك إلى أهل بدر. فمن رضى به أهل بدر فهو خليفة فلم يـبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليا فقالوا له : ما نرى أحدا أحق بهـا منك ؟ مد يدك نبايعك فـبايعوه، وهرب مـروان وولده وجاء على إلى امرأة عـثمـان فقال لـها: من قتل عـثمـان ؟ قالت: لا أدرى دخل عليـه رجلان لا أعرفهمـا ومعهما محمـد بن أبى بكر وأخبرت عليا والناس بما صنع محـمد فدعا على محمد ا فسألـه عما ذكرت امرأة عثمان؟ فقال مـحمد: لم تكذب قد والله دخلت عليه وأنا أريد قـتله فـذكرنـى ابى فقـمت عنه وأنا تائب إلـى الله تعالـى والله ما قـتلتـه ولا أمسكـته فقالت امرأ ته : صدق . ولكنه أدخلهما .(١)

مشهد وفاة سيدنا على كرم الله وجهه ورضى عنه

تكرر بعض هذا المشهد فى وصاياه، قصدا لا عن سهواًيضاً .

نقل الطبرى فى (الرياض النضرة) عن الزبير بن بكار أنه قال :

كان من بـقى من الخوارج (الذين خـرجوا عن على) قد تـعاقدوا على قـتل على، ومعاوية، وعمرو بن العاص (رضى الله عنهم) فخرج لذلك ثلاثة.

فكان عبـد الرحمن بن ملجم هو الذى الـتزم لهم قتل على، فـدخل الكوفة عـازما على ذلك، واشترى سيفا لذلك بألف، وسقاه السم فيمازعموا.

وكان فى خلال ذلك يأتى عليـا يسأله ويستحمله فيحـمله، إلى أن وقعت عينه على (قطام) وهى امـرأة رائعة جـميلة، كـانت ترى رأى الخوارج وكـان على قد قـتل أباها

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى صفحات ١٠٦ - ١٠٩ .

وإخوتها بالنهـروان، فخطبها ابن ملجم، فقـالت له : أنا لا أتزوج إلا على مهر، لا أريد سواه، فقال : وما هو ؟ قالت : ثلاثة آلاف دينار، وقـتل على، قال : والله لقد قصدت قتل على والفتك به، وما أقـدمنى هذا المصر غير ذلك، ولكنى لما رأيتك آثرت تزوجك، فقالت : إلا الذى قلت لك، قال : وما يغنيك أو يغنينى منك قتل على وأنا أعلم أنى إن قتلت عليا لم أفـلت؟ فقالت : إن قتلته ونجـوت فهو الذى أردت ، فتبلغ شـفاء نفسى ويهنيك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها.

فقال لها : لك ما اشترطت.

فقالت له : سألتمس لك من يشد ظهرك.

فبعثت إلى ابن عم لها يدعى وردان بن مجـالد، فأجابها، ولقى ابن ملجم شبيب بن نجرة الأشجعى، فـقال له : يا شبيب هل لك فى شرف الدنيـا والآخرة؟ قال : وما هو ؟ قال : تسـاعدنى على قتل على بن أبى طالب، قـال : ثكلتك أمك، لقد جئت شيـئا إداً، كيف تقدر على ذلك؟ قال إنه رجل لا حرس لـه، ويخرج إلى المسجد منفرداً، دون من يحرسه، فنكمن له فى المسجد ، فإذا خرج الى الصلاة قتلناه، فإذا نجونا نجونا ،وأن قتلنا سعدنا بالذكر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

فقال : ويلك إن عليا ذو سابقة فى الإسلام مع النبى صلى الله عليه وسلم والله ما تنشرح نفـسى لقتله، قـال ابن ملجم : ويلك، إنه حكَّم الرجال فى ديـن الله عز وجل، وقتل إخـواننا الصالحين، فنقـتله ببعض من قـتل، ولا تشكن فى دينك. فأجابه، وأقـبلا حتى دخـلا على (قطام) وهى معـتكفة فى المسـجد الأعظم فى قبـة ضربتهـا لنفسـها فدعت لهم، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا قبالة السدة التى يخرج منها على .

فخرج على إلى صلاة الصبح فبدره شـبيب فضربه فأخطاه، وضربه ابن ملجم على رأسه وقال : الحكم لله يا على، لا لك، ولا لأصحابك.

فقـال على : لا يفوتكم الكلب، فشـد الناس عليه من كل جانب ليـأخذوه، وهرب شبيب خارجا من باب كندة فلما أخذ ا بن ملجم قال على:

احـبسـوه، فـإن مت فـاقتـلوه، ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فـالأمر إلى فى العـفـو والقصاص .(١)

وروى الطبرى عن هشيم مولى الفضل أنه قال :

لما قـتل ابن ملجم عليا قـال (وهو محـتضـر) للحسن والحـسين عـزمت عليكم لما حبستم الرجل، فإن مت فاقتلوه، ولا تمثلوا به.

فلما مات قام إليه حسين ومحمد وقطعاه وحرقاه .(٢)

(١) الرياض النضرة ج٣ ص٢٣٤- ٢٣٥ .

(٢) الرياض النضرة ج٣ ص٢٣٨ .

ونقل الطبرى عن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له :

(يَا عَلىُّ ، أَتَدرى مَنْ أَشْقَى الأولينَ؟)

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : (الذى عَقَرَ نَاقَةَ صَالِحٍ) .

ثم قال : (أتدرى من أشقى الآخرين ؟)

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : (الذى يضربك على هذه) وأشار إلى يافوخه (فَيَبُلَّ هذه) وأخذ بلحية على.[1]

كما روى عن عبد الله بن سبع أنه قال : خطبنا على فقال :

والذى خلق الحبة وبرأ النسمة، لتخضبن هذه من هذه، فقال الناس أعلمنا من هو لنبيره، أو لنبير عشيرته.

قال أنشدكم بالله ألا يقتل بى غير قاتلى.

قالوا : إن كنت علمت ذلك فاستخلف.

قال : لا ، ولكن أكلكم إلى من وكلكم رسول الله .[2]

كان مقتله رضى الله عنه صبيحة يوم سبع عشرة من رمضان سنة أربعين .

ولقد قيل فى هذه الفاجعة شعر كثير، ومنه:

فَلَمْ أرَ مَهْراً ساقه ذو سَمَاحَةٍ ... كَمَهْرِ (قَطَامِ) مِنْ فَصيحٍ وَأعْجَمِ

ثَلاثَةَ آلافٍ وَعَبْدٍ وَقَيْنَةٍ ... وَضَرْبِ عَلِى بِالحسَامِ المصَمّمِ

فَلا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِىِّ وإنْ غَلا ... ولا فَتْكَ إلا دونَ فتك ابن ملْجمِ

وهذه الأبيات نسبها السيوطى للفرزدق فى تاريخ الخلفاء، ونسبها الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك إلى أبى مياس المرادى، والأمر لله وحده.

وصلوات الله التامات المباركات على سيد محمد الذى ختم الله به النبين المرسلين، وعلى آله الطاهرين الطيبين، وعلى صحابته الكرام أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) الرياض النضرة ج٣ ص٢٣٨ .

(٢) الرياض النضرة ج٣ ص٢٣٣ .

حياة المؤلف فى سطور

- ولد بالقيروان فى ٥ شعبان ١٣٣٥ / ٢٧ مايو ١٩١٧ .
- وأكمل حفظ القرآن سنة ١٩٣١ .
- التحق بالزيتونة سنة ١٩٣٢ .
- أحرز من الزيتونة على الشهادات التالية :
- الأهلية سنة ١٩٣٦ .

التحصيل فى علم القراءات سنة ١٩٣٨ .

التحصيل فى العلوم سنة ١٩٤٠ .

العالمية فى القراءات سنة ١٩٤٢ .

العالمية فى الآداب العربية سنة ١٩٤٤ .

- نجح فى مناظرة الإجازة للتدريس بالزيتونة فى نفس السنة ١٩٤٤ .
- تحول للتدريس بالفرع الزيتونى فى القيروان سنة ١٩٥٢ .
- سمى خطيباً بجامع عقبة بن نافع بالقيروان سنة ١٩٥٥ .
- تولى إدارة الفرع الزيتونى بالقيروان سنة ١٩٥٦ .
- انتدب لخطة مفتش للتربية الإسلامية سنة ١٩٦٨ .
- انتدب لتدريس القراءات (دراية) بالكلية الزيتونية سنة ١٩٧٧ .
- حاضر فى الفقه وأصوله بالمركز الاسلامى فى بروكسل سنتى ١٩٨٢ و ١٩٨٣ .
- سمى عضوا بالمجلس الإسلامى الأعلى بتونس سنة ١٩٨٨ .
- انتخب عضوا بمجلس النواب بتونس سنة ١٩٨٩ .
- شارك فى عدة ملتقيات ودورات لتدريب الأئمة والدعاة - بإشراف رابطة العالم الإسلامى فى أندونيسيا وجزر القمر وجزر المالديف وكل من فرنسا، وبلجيكا، وهولندا ، وفى ندوات إسلامية بكل من مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب.

كتب للمؤلف

صدر للمؤلف

١ - (كيف تكون خطيبا؟) طبع بالسعودية للمرة الأولى ثم فى لبنان .

٢- (أين حظ الإسلام من لغة القرآن ؟) طبع بالكويت للمرة الأولى.

٣- (ترتيب مناسك الحج) طبع بتونس.

٤ - (آفاق الصيام فى الإسلام) طبع بتونس .

٥- (التربية من الكتاب والسنة) بمشاركة أستاذين، طبع بالعراق، وقرر للتدريس بتونس.

٦- (العقيدة والسلوك) بمشاركة أستاذين ، طبع بتونس، وقرر للتدريس بتونس.

٧- (مشاهد الناس عند الموت)

كتاب يجمع بين المئات من أقوال المحتضرين وأحوالهم، ويبين صلة تلك المشاهد المؤثرة بتعاليم الإسلام.

٨- مشاهد الناس بعد الموت (سيصدر بعد الذى قبله إن شاء الله)

الفهرس

هذا الكتاب

■ الحياة هبة من صنع الله (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون). السجدة. ٧. ٨. ٩.

وانقضاء الحياة الأولى بالموت لا يكون إلا بإذنه سبحانه، (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً). آل عمران. ١٤٥.

فإذا تعطلت . بإرادة الله . بنية الحياة الجسدية وانقطع ما كان بين الروح والجسد من صلات، فإن الوفاة تحدث وتنقل الروح بالموت إلى مقر الأرواح، ثم تتلاشى أجزاء الجسد فى الأرض إلى أن ينشئها الله النشأة الأخرى، فيخرجها من الأرض بالبعث للحساب تبعاً للمراحل المقررة فى سابق علمه، والمحددة فى قوله: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) طه. ٥٥.

ولما كان الموت قضاء حتمياً، ومرحلة من مراحل الوجود الإنسانى، حسن أن يهتم المرء بمعرفة هذه السبل التى لابد أن يعبرها، وحسن أن يطلع على ما لاقى بعض الناس من الموت ليعتبر بأحوالهم ويستعد لملاقاة ما لاقى كل البشر من قبله (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون). الجمعة.٨.

ولقيمة الموت عند الله ذكرت فى القرآن العظيم كلمة الموت وما اشتق منها أكثر من مائة وسبعين مرة.

أما الأحاديث النبوية فقد استوعبت بالبيان كل ما ينبغى أن يعلمه الإنسان عن الموت وعما بعد الموت، وسترى الكثير مفصلاً فى هذا الكتاب إن شاء الله.

DES. KAMEL GRAPHICS

طبع هذا الكتاب على نفقة أحد المحسنين